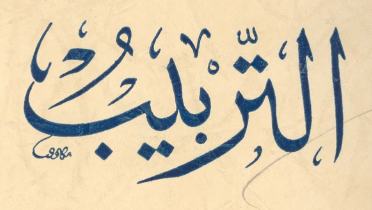


"ونفس وما سواها، فألهمها فجورها
وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد
خاب من دساها"

قرآن كريم

حسن نبيه المصري



"ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها
وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد
خاب من دساها "
قرآن كريم

حسن نجيب المصري

دار المطبوعات الراقية
١٩٣٦





إلى بنىّ

يابنىّ لقد بنيت كما بنى أبى من قبلى ، والناس من حولى ، وقدر الله ورزقنى بكم فجاهدت فى تربيتكم جهد المستطاع ولعلى بالغ بعض ما رجوت ، وأملى أن تحسنوا إلى أبنائكم أكثر مما أحسنت به إليكم إن كان فى عملى حسن ، حتى تقوموا بوفاء دين لزمكم ، من تأديبى ، فتبرأ ذمتكم أمام الله والوطن وأولادكم .

وها كم تجاريبى فى كتابى ، فأن راق لكم فاتبعوه ، وإلا فخذوا بأحسن منه .

هداكم الله إلى الطريق القويم .



فهرس

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإنَّكَ لعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (قرآن كريم)

أدَّبَنِي رَبِّي فَأحْسَنَ تَأدِيبِي (حديث شريف)

إنى لا أبرز للناس فى هذا الكتاب قواعد جديدة فى التربية فقد سبقنى من وضع لها دعائم قويمة ، ومناهج صحيحة ، ولكنى أعرض ملاحظات قد استنتجتها من التجارب الشخصية ، وخبرة من يعول على رأيهم ، وصحة حكمهم .

وهذه الملاحظات ، فيها عبر وعظات لمن سمع ووعى ، ولما كانت كلها خاصة بالأدب ، وجب أن نبدأ الكلام بالتربية .

إن الانسان مكون من جسد وروح . وكلاهما له حق يطلب أداءه . وهذا الحق لا يتوصل إليه إلا بالتربية ، فالتربية إذن تشمل قسمين .

أما التربية الجسدية فلا أطيل الكلام عليها ، لأنها ليست بموضوع هذا الكتاب ، ولا تدخل فيه إلا عرضاً ، لتحريره للأخلاق والعادات ، على أنى لا أترك طرق بابها . فأقول عنها شيئاً يسيراً ، لارتباط الجسد بالروح ارتباط تلازم فى حال الحياة . ولأن تهذيب أحدهما يؤثر فى تهذيب الآخر ؟

المؤلف



التربية الجسدية

الجسم مكون من عظام وعضلات ، وهذه مرتبطة بعضها ببعض بأوتار وغضاريف (١) يرئسها المخ ، فيرسل إليها أوامره بوساطة الأعصاب فتأتمر ، فتتحرك كيف شاء .

وهناك أعضاء أخرى كالقلب والرئة والمعدة والأمعاء والكبد والطحال والكُلية ، وكل منها له وظيفة يؤديها لحفظ الجسم .

وحفظ الجسم هو فى الحقيقة غاية مجهود جميع الناس ، والانسان بفطرته حريص عليه . ألا ترى الغلام وهو فى المهد يتنبه لكل حركة تحصل أمامه ، فيبدى إشارات تفيد أنه يخشى هذه الحركة ؟ وأنه إذا حبا وخطا خطواته الأولى يمشى باحتراس ، كأنه يتأكد من صلابة الأرض تحت قدميه ، ويعالج توازن جسمه حتى لا يسقط فيصيبه أذى أو يصطدم بشىء يؤلمه ، وإذا أقعدته فأنه يبحث عن الشىء الذى يتحمل جسمه فيطمئن على نفسه ، وإذا اقترب من حارٍّ خشى لمسه ، وهنالك حوادث أخرى كثيرة تثبت أن الفطرة فطرها الله بمعلومات ضرورية

فهمُ الغلام ينحصر فى معلومات تساعد الفطرة فى المحافظة على حياته ، لاتقاء الموت والحادثات والأخطار التى هى موضوع تعلّمه .

وهذه المحافظة تقضى بالعناية بالجسم ، وطرق هذه العناية هى ما يدعوها العلماء بتربية البدن .

---

(١) جمع غُضروف وهو الرخص من العظم

(*)

اللباس

خلق الله الأنسان فى أحسن تقويم ، وأودعه هذه الوديعة ، فأصبح مسئولا عنها . فوجب عليه أن يسهّل لها العمل ، وأن يتركها تنمو حرة ، وأن يعودها على كل شيء .

واعلم أن تركها لأفعالها الطبيعية ، أضمن ، وأرشد لها من كل فن ندّعى أنه أنفع لها ، ونكرهها على اتباعه .

لقد بدأ الناس يعرفون ضرر الحزام المعقود ، والقماط المشدود ، وما يعانيه المولود فى ذلك الأسْر ، وإجهاده نفسه للخلاص من رِبْقه (١) وأنه أتلف للجسم من أردأ وضع يتخذه الطفل لو كان حراً .

وأشد من هـذا ضرراً الحنايا المتخذة من عظام الحيتان ، والملابس الخشنة التى يضغط ويلف فيها الجسم بعلة تقويمه واعتداله ، فهى تعوق التنفس ، وتمنع جريان الدم فى الأوردة والشرايين ، وتحدث تشويهاً فى الطفل أشد شناعة مما كانوا يحذرون .

الطفـل كالعود الرطيب ، إذا شـدت ساقه وربط جـذعه ، توقف جريان الماء والنُّسْغ (٢) فيه ، فلا يمرؤه (٣) الغذاء ، فيسقم ولا يستفيد إلا قليلا . ولا تكسب عضـلاته تلك الخفة ولا تلك القوة ولا تلك الشدة التى تميز الذين لم تُزْهق فيهم روح الطبيعة .

---

(١) الرِّبق ، ويكسر : الشدُّ بحبل أو غيره

(٢) النسْغُ : هو الماء الذى يخرج من الشجرة عند قطعها ،

(٣) يمرؤ تحمد مغبتـه ويظهر نفعه.

(*) نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

ألبسوا أولادكم الثياب الواسعة اللينة الرحبة ، تروهم يمرحون فينمون فيزدادون بسطة فى الجسم . هيئوهم إلى الصحة التامة والعادات الطيبة ، والأخلاق الطاهرة .

احذروا أن تربوهم على الدلال والتنعم المفرط والمسامحة المضرة ، ولا تكونوا كالآباء الذين أعمتهم الشفقة ، وأضلهم الضعف ، وعاملوهم بالحب المدبّر بالعقل والشفقة البصيرة ، وتجنبوا الشدة والاسراف فى الجفاء .

خشّنوا أولادكم ولا تترفوا ولا تفرطوا فى نعيمهم لا فى لباسهم ولا نومهم ولا طعامهم ولا شرابهم . عوّدوهم على كل شيء .

فاذا ربّت أم ولدها واتبعت رضاها ، فقد أساءت إليه وهى لا تشعر ، ابتغاء مرضاة هواها ، إن فى إرضاء شهوة ولدها ارتداء ثوب السقام والضنى ماعاش . وربما كان فى ذلك الرضا الرّدَى ، فحنانها فى الحال ينقلب قسوة فى الاستقبال لأنها أصارته ضعيفاً واهناً غير قادر على تحمل متاعب العمل ووطأة المرض ، وتزيد حُسّه وضعفه برأفة طفلية لأحقر حادث يصيبه وتنسى أنه يجب أن يكون رجلا .

فاللين فى التربية ، والأفراط فى النعيم ، والعناية الزائدة تؤنث الصبي وتذره بليداً وكلاًّ غير همّام فيصبح مهاناً عالة على الناس .

الأنسان فى هذه الدنيا يعيش فى الهواء كما يعيش السمك فى الماء الهواء محيط به فلا يستطيع أن يخرج من تحت تأثيره ، وكما أنه عنصر أصلى فى التكوين والنمو فهو سبب التحليل والضمور ، فالرياح وتغيراتها والأنواء وتقلباتها والهواء على العموم هو سبب الفناء ، وليس فى

مقدور أحد أن يأبق (١) من سلطانه فحتم علينا إذا أن تتسلح لدرء غاراته .

انظر لأهل البادية وسكان الجبال والمتوحشين وما هم عليه من صلابة العود وجدل العضلات وصحة الأبدان . تأمل فى تيجان العافية التى تتلألأ فى رؤوسهم على شظف عيشهم وخصاصتهم ورداءة ثيابهم .

الحياء والاحتشام قضيا باللباس . ولكن للتستر لا أن يثقل الأنسان جسمه بحمولة من قماش .

يريد الآباء أن يقوا أبناءهم قرص البرد ، فيلبسوهم خصف (٢) الثياب الثخينة ، الكثيرة اللُّحمة (٣) ، الحافظة للحرارة . وينسون أن الأطفال فى حركة مستمرة ، وأن دم العنفوان يجرى فى عروقهم وهو الدرع الطبيعى والوقاية التى لا تبلى .

الأولاد لا يحسون بالبرد إلا فى أطرافهم ، فكل احتياط غير منظوم ولا ملائم للمعيشة الطبيعية ، لا ينتج إلا ضعف ما تقويه العادة وتجعله لا يتأثر غالباً . فالطفل الذى يعتاد أن يعرّض ذراعيه وساقيه للهواء صيفاً وشتاء ينتهى بأن لا يتأثر بالبرد والحر فى أطرافه إلا كما يحس بهما فى وجهه .

شهدت طبيباً يعود مريضاً ، فأراد أن يفحصه فبدأ المريض بخلع ثيابه ، فرفع الثوب الأول فكان تحته ثان فرفعه فكان ثالث فرفعه فكان رابع فشُدِه الطبيب وضحك ، وقال : أين أنت يا صاحبى ؟ إنى

---

(١) يهرب ويذهب من غير خوف .

(٢) أطبق الثياب بعضها فوق بعض .

(٣) ما نسج عرضا فى الثوب .

آت لأعود إنساناً لا لأتفرج على معرض ثياب . وبعد الفحص وصف له العلاج ، وكان الدواء رمى تلك الثياب .

ورأى بعضهم الحكيم « شيث » (١) وهو عريان يمشى فى الجليد ، فأشفق عليه وتعجب من أمره فأجابه . لاتعجب فان كلى وجه .

وقد رأى المؤرخ « هردوت (٢) » جماجم المصريين والفرس فى ميدان قتال من بقايا واقعة نشبت بينهم ، فلحظ أن جمجمة الفارسى يسيرٌ خرقها سهلٌ كسرها ، وجمجمة المصرى كالحجر صلابة ، والصلد صلصلة . فاستدل من هذا على تنعم الفرس وتقشف المصريين ، حالتان متناقضتان ، أكسبت إحداها . الأولين رخاوة والآخرين شدة وبأساً .

اللباس يختلف باختلاف الاقليم والفصول . والحسّ يشعرنا بالحر والبرد وكان يعتقد أن الحس لا يصلح أن يكون مرشداً بل إنه مضلل ، إن فى ذلك لخطأً كبيراً ويجب أن نرفض هذه النظرية ، وليست إطاعة الحس أصل بلاء الأجسام بل مخالفته ومعاندته ، وليس مضراً أن يأكل الانسان وهو جوعان ، بل كل الضرر أن يأكل وهو شبعان ، ولاحرج عليه أن يشرب وهو ظمآن ، ولكنه يؤذى نفسه بعد أن يطفىء أواره (٣) ، ولا يمسه سوء باستنشاق الهواء النقى . ولكن الشر فى تنفس الفسيد (٤) بعد تضايق الرئتين منه ، ولا يأثم إذا شغل عقله ، ولكنه يجرم إذا كان برأسه ألم ، ولا يظلم نفسه إذا أجهدها لاهياً فى رياضته ، ولكن الظلم فى الرياضة بعد إنهاكه قواه .

---

(١) علم . انظر الفهرس .
(٢) أقدم مؤرخ يونانى . انظر فهرس الأعلام .
(٣) شدة العطش .
(٤) الهواء غير النقى .

لقد يوجد الانسان فاقد الحس الطبيعى . فمن عاش زمناً رادخاً (١) أوامر الطبيعة فقد خسر ذلك الميزان الحسّاس .

أفلا تنظرون إلى من لزم السرير والدار ، ومن أجهد قوته العقلية وأهمل قوته البدنية ، ومن اتبع رقاص الساعة فى أكله وغفل عن قرص معدته . فأولئك الذين يخطىء حسهم ، فأذا تركوا وما خلق فيهم من الوجدان فما كان يضمحل ولا يفنى ، ويبقى المرشد الذى لاينسى .

إن من الحس الشعور بالبرد والحر ، فلباس الأطفال الذى لايلاحظ فيه هذا الحس يجب أن لا يستعمل ، فثياب الشتاء تكون مما يمتص الحرارة ويحفظها . وثياب الصيف مما يعكسها ويشعّها .

إنى لا أقصد من التقشف فى اللباس أن أجعل لأهل بلدى ثوباً واحداً ولا طريقة واحدة فى اتقاء حمارّة (٢) القيظ وصبارّة (٣) البرد ولكنى أقصد وجوب مراعاة دواعى معيشة كل منهم وإنى أثبت القاعدة الآتية أساساً للتفصيل .

لا يجب أن يلبس الأنسان لباساً واحداً فى جميع الظروف والفصول بل يلزم أن يكون اللباس مناسباً لتلك الظروف والفصول كافياً أن يحفظ الجسم من الحر والبرد .

مصر من شاطىء بحر الروم إلى آخر حدودها الجنوبية عبارة عن شريط وسطه النيل على ضفتيه أرضها الخصبة . هذا الشريط يخترق صحراء ليبية وصحراء العرب . يختلف عرضه بين ألفى متر إلى خمسة عشر

---

(١) كاسراً .

(٢) شدة القيظ .

(٣) شدة البرد .

ألف متر إذا استثنينا وادى الدلتا . فمركزها يجعل إقليمها جافاً حارا لوجودها فى قلب الصحراء ، وعدم وجود المرتفعات الشاهقة فيها جعل فصولها السنوية فصلين الشتاء والصيف ، يكاد المرء لا يحس بفصل الربيع والخريف .

فى الشتاء قد ينخفض مقياس الحرارة إلى الصفر . وفى الصيف قد يرتفع إلى درجة الخمسين بالدرجات المئوية ، وفصل الحرارة يبتدئ من شهر مايو إلى اكتوبر وفصل البرودة من شهر نوفمبر إلى ابريل . وبتطبيق القاعدة التى وضعناها ، يجب على المصرى أن يغير ملابسه مرتين فى السنة .

الملابس تختلف حسب الظروف أيضاً فكيفية معيشة كل فئة من المصريين تحكم على أنواعها وصفاتها ، ويمكننا أن نقول إن سكان مصر على الاطلاق ماعدا المتحضرين مزارعون .

فأولاد المزارعين الذين يعيشون فى العراء مع آبائهم تحت أشعة الشمس معرّضون للقيظ والسّهام (١) من الرياح ولفح الهواء فى الصيف . وللقر (٢) والخارم (٣) من الرياح ونفح (٤) الهواء فى الشتاء بثوب واحد ليس من الصواب جعل حالتهم المعيشية أساساً لأولاد المتحضرين ولو أنهم على صحَّة . لأن حياتهم فى حركة مستمرة فى جو نقى الهواء على أرض مفروشة بالخضر ولم يضن أجسامهم الشغل العقلى .

---

(١) حر السموم ووهج الصيف .
(٢) شدة البرد .
(٣) الريح الباردة .
(٤) تحرك أوائل الهواء .

وغير صحيح أن جودة صحتهم ترجع إلى عريهم تقريباً من الملابس ولكنها مسببة من الظروف الأخرى التى أبديناها ، ويمكن أن يقال إنه رغم عدم كفاية لباسهم وتكافئه لدفع ضرر الحرارة واتقاء شر البرد قد كسبوا صحتهم التى نراهم عليها .

ألا تدرى أن كل جسم يفقد فى سكونه وحركته كمية من الحرارة يجب أن تعوض من الغذاء والبيئة التى يعيش فيها الأنسان ، ويلزم أن تتعادل كمية المواد التى تتمثل فى الجسم مع الحرارة التى يفقدها ذلك الجسم .

فاللباس لا تنحصر فائدته فى درء البرد والحر بل فى منع تشعُّع الحرارة من الجسم فيغنى عن كمية من الغذاء وجودة الهواء الطلق وراحة الفكر .

القروىُّ يفقد كثيراً من حرارة جسمه لعدم كفاية لباسه . ولكنه يعوض ذلك بالهواء الجيد والحركة المستمرة وراحة العقل .

فأولاد الحضريين الذين لا يتسنى لهم الوجود فى الهواء الطلق دواماً هم بطبيعة معيشتهم محتاجون إلى حفظ حرارة أجسامهم أكثر من أولاد المزارعين . وذلك لا يكون إلاَّ باللباس وجودة الغذاء .

ينتج من هذا أن البيئة هى العامل فى تكوين الانسان ، ولذا ترى فى البلاد الباردة علماء التربية يجعلون أساس قواعدها على البرد وهم فى كل نصيحة يبدونها لأهل بلادهم يجعلون البرد أصلا فى قواعد التربية الجسدية . وهم يستدلون على أن البرد العامل الوحيد فى بنية الأنسان من قصر قامة سكان المنطقة المتجمدة وتشويه خَلْقهم وضعف مداركهم الناتج كل ذلك من فقد كمية عظيمة من حرارة الجسم وعدم وجود المعوّض لها من الغذاء وباقى شروط النمو ، فلاختلاف النسبة بين كمية الغذاء وما

يخسرونه من الحرارة، ولأن سكان تلك المناطق مضطرة أجسامهم أن تجهز الغذاء الكافى المعادل للحرارة المفقودة ولعدم توافره — فهم لا يجهزون إلا ما يحتاج له الجسد فى بنائه وتكوينه.

إن هذه النظرية ليست عامة، إنا نرى أقزام الشمال لهم نظراء من سكان البلاد التى تشتد فيها الحرارة كأهل قلب السودان فانهم يحاكونهم فى قصرهم وخلقهم واقتراب مداركهم ولا يختلفون عنهم إلا فى لونهم. فهل البرد هو السبب فى ذلك؟ لانتردد فى نفيه.

وكما أن البرد الشديد يسبب فقدان جزء عظيم من الحرارة يعجز الجسم عن تعويضها، فالحر الشديد يسبب تجفيف الرطوبة وفقدان جزء عظيم من الماء اللازم لحمل المواد وجريانها فى الأوعية لتوصيلها إلى أجزاء الجسم فيعجز الجسد عن تجهيز الغذاء الكافى للنمو التام فيقل الغذاء وينقص النمو. وتكون النتيجة واحدة فى الحالتين وإن اختلفت أسبابها.

فى مصر يجب أن يراعى فى قواعد التربية الجسدية البرد والحر وأن يجعلا أساسين فى اللباس والغذاء.

وإذا صح القول فى البلاد الباردة بعدم كشف الذراعين والساقين للأولاد فقد نسمح بتطبيق هذه القاعدة فى الشتاء. لكننا لانوافق على اتباعها فى الصيف.

إن من المحزن أن نرى الأمهات المصريات يُتلفن أجسام أولادهن ويُضعِفنَ فيهم القوة باتباع الكماليات قبل أداء الواجب بالحاجيات. فتراهن يلبسنهم الثياب حسب الطراز بقصد الزينة والتجمل ويقصدن من ذلك حب الظهور بالتمدن والترف والبذخ حتى يقال عليهن

إنهن من الطراز الأخير وينسين النافع المفيد لصحة أولادهن. فيصبحون ضعافا قصيرى الحياة .

فإذا خرج الطفل للتروض مع أمه أو مرشدته أو خادمه تشدد وتنبه عليه ألف مرة ومرة أن لا يوسخ ملابسه ويلعب وتحذره أنها إذا رأت فى كسوته اتساخا عاقبته فيمتنع الولد عن اللعب ولا يكسب من رياضته ويظل مكتوفا فى ردائه كأنه خارج من بيت المعتوهين وكأنها أخرجت للناس دمية فى ملابس من سندس وحرير .

الخلاصة ـ أن لا تثقل الولد بحمولة من الثياب الصفيقة حتى يدركه النصب من شدة الحرارة . وأن لا نخفف عنه حتى تؤذيه شدة البرد ويجب أن تتخذ بين ذلك سبيلا ، وأن لا يكون اللباس مما يخفق القلب خيفة عليه فنلبس لباس الصيف من التيل والقطن والكتان . وتتخذ لباس الشتاء من الصوف والوبر مع ملاحظة الألوان . لأن تأثير الحرارة يختلف زيادة وقلة باختلافها . فالأسود يمتصها ويحفظها والأبيض على عكسه وإنى أختم القول فى اللباس بهذه الكلمات الحكيمة .

« يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشا ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ وسرابيل تقيكم بأسكم » قرآن كريم

الرياضة «*»

إن صحة الأبناء وحياة الأولاد هما الواجب الأول على الآباء ، وقد يهم الوطن كما يهم الآباء أن يكون أولاده رجالا قادرين يقومون بحقوقه ويقضون واجباته فى سعادته وشقائه .

«*» نشر بجريدة الخال سنة ١٩١٧

عدلوا مزاج أولادكم بالرياضة وأطلقوا لأجسامهم الحرية ودعوها تعمل .

إن أحب شيء للأولاد الحركة ، وهى علامة الصحة ، فاتركوهم يرتعوا ويلعبوا ، إنكم تحاولون عبثاً أن يسكنوا ، لا يفلح تهديدكم إياهم من جرح يصيبهم فى ركضهم وقفزهم فهم لا يستقرون ، وإذا أكرهتموهم فأنهم يتألمون . هذا الأكراه أعظم من أى عقوبة ، فلأى ذنب تعاقبونهم وتسجنون نشاطهم بجلوسهم وثباتهم ، أتظنون أنهم فاعلون ؟ . لا . بل هم على الحركة دائمون ، فذروهم يمرحوا ويرتعوا ويلعبوا ويقفزوا على الرمال الجافة والصعيد الطيب ويتدحرجوا على الخضر ويزرعوا بساتينكم إن كنتم تملكون ، وكونوا حفظاء عليهم ، رقباء على حركتهم وسكونهم ، وشاطروهم إن استطعتم لهوهم ، ولا تضجروا من جلبهم ، ولا تجرموا كما أجرم غيركم فتقتلوا فى نفوسهم الحرية التى فطرهم عليها بارئهم ، ولا تطلبوا من صبى أن يكون شيخاً ، ولا تقولوا لهم اقتدوا بنا ، واهدأوا فى أماكنكم فهم لا يصغون ولا يستطيعون أن يطيعوكم ، فالطبيعة فيهم حارّة وهى التى تدفعهم ليكمل نماؤها .

أرانى غير محتاج لأطالة الكلام على الرياضة ، لأنها متوافرة فى المدارس العمومية والخصوصية . وكل منها بها رحبَة كافية للعب الأولاد

وقد فكر القائمون بتربية التلاميذ فى قطع العمل ، بفترات الراحة بتنشيط عقولهم بهذه الأوقات التى تتخلل العمل ، حتى لا يمل الذهن ، ولا تخمد العضلات .

إن السارى فى المدينة يصادف ميادين للألعاب ، يكونها التلاميذ بعد خروجهم من المدرسة ، لتلقيف كرة القدم وكرة اليد والعدو وغير

ذلك من الأندية الرياضية المنتشرة فى المدن . وعلى ذلك لا أجد ضرورة للحض على مزاولة الألعاب . ولكنى ألاحظ أن الرياضة التى أصبحت فرضاً على الذكور قد حرم منها الأناث . ويرى ذلك المار بجوار حائط مدرسة للبنات لا يسمع فيها جلباً ولا أصواتا تدل على الانشراح والسرور ، فيظن الأنسان أن وراء هذه الجدران تماثيل متحركة لا يبدو منها شىء يدل على الحياة وقوة النشاط ، لا ركضاً ولا ضحكا ولا صوتاً ، ولا يرمق فيها إلا أشباحا رائحة غادية فى أيديها كراريس أو كتب . فما سبب هذا الفارق بين الجنسين ؟ ألاختلاف تركيب أجسامهم اختلافا كلياً ؟ أم فى تكوين الذكور قابلية للنشاط الجسمانى ؟ إنى أشك كثيراً فى أن الأنثى لا يليق بها أن تكون قوية العضلات ، ولا ذات صحة ، وهى أول مربية للطفل وهو جنين ، وهى المكونة له فى أحشائها ، أيحسب البنات أن قوة العضلات والقدرة على القفز والعدو لايليق أن يتصف بها إلا الذكور ؟!

نحن لا نطلب منهن أن يكن مصارعات ولا مقاتلات ، ولكن يهمنا أن يأخذن قسطهن من المزايا الطبيعية ، حتى يجرى فى وجوههن دم الحياة ، وتظهر عليهن النضارة وأن يتحملن فى المستقبل ماخصتهن به الطبيعة : كالحيض والحمل والوضع والنفاس والرضاعة . وكل هذه أحوال مَرَضية يجب أن يجهز الجسم لدرء غاراتها .

فلماذا لا يسمح لهن بالعدو والصياح والضحك وباقى الألعاب الرياضية التى تناسبهن ؟

أتخشى البنت أن تصبح رَجُلَةً (١) فيمنعها ذلك أن تكون آنسة (٢) ،

---

(١) فيها صفات الرجل .
(٢) الفَتِيَّة من النساء .

فاذا كانت الألعاب المنشطة المسموحة للذكور لاتمنعهم أن يكونوا ظرفاء أنساء . فلماذا تمنع تلك الألعاب البنات أن يكن أوانس ظريفات ؟

ومهما كانت الألعاب خشنة وعنيفة فى أوقات اللهو ، فان الفتيان بعد خروجهم من المدرسة يستحون أن يتلقفوا الكرة فى الطرقات ويقفزوا قفز الخرفان فى قاعات الاستقبال . فاذا كان حب الاحترام فى الذكور يمنعهم من الألعاب الصبيانية . فهل شدة الحياء فى البنات لا تكون سبباً فى إحجامهن عنها وهن يهتممن بالظواهر أكثر من الرجال ؟ فلتطمئن البنت ، فانها مهما لعبت وقوت جسمها وأجادت الرياضة فمحال أن تصير رَجُلة لما خلقها الله عليه من الضعف الناتج مما يطرأ عليها من الأحوال الطبيعية التى خصها بها الخالق .

لا تغتر البنت ويخدعها من حولها بأن الرقة والنحول وإضعاف شهوة الأكل مع حيائها الذى يقارن غالباً الضعف — مميزات للأنثى وأن هذا هو منتهى أملها . فاننا لو سلمنا أن ذلك هو متمنى المرأة فأنَى لها أن تقضى بأنه مُتَمَنَّى الرجل ؟ نعم إنَّ الرجال لايميلون عادة إلى النساء المتذكرات . ولكننا نقرر أن ضعفهن النسبى الذى يتطلب قوة عظيمة لحمايته هو ميلٌ إليهن ، والرجال يعطفون عليهن أبداً لأنهم موكلون بحمايتهن ، والفرق المقابل لحنان وميل الرجال هو الفرق الطبيعى المحتم وجوده الذى يظهر بلا وسائط اصطناعية . فعند ما تزيد درجة هذا الفرق بوسائط اصطناعية يصبح أدعى للتنافر منه إلى التجاذب .

فلا تَزْهُ البنت بذلك الوهن الذى يدعونه رقة ولا ذلك التثاقل

الذى يسمونه تبختراً . ولا تقل انها غير لائقة للقوة وفتل العضلات وإلا فانها تمتاز ولكن بجمال سمج ورشاقة غليظة كاذبة .

ألاحظ أن الألعاب الرياضية إذا كانت منظومة بقواعد مخصوصة تعلم كالدروس وعلى نمط واحد — يكون من الممكن أن يمل منها الطفل لأنه يشغل فكره باتباع تلك القواعد، وتطبيق تلك الأساليب، ولا سيما إذا تكررت اللعبة الواحدة مراراً فيعملها بلا انشراح ، فهذه الألعاب وإن كان وجودها خيراً من عدمها إلا أنها أقل صلاحية من الألعاب التى يترك للطفل فيها حريته، ويتحرك حسب رغبته وبتنويعها يشتاق لها خصوصاً إذا تخللها الضحك والصياح والبسط .

لا ينكر أحد أن السرور مقوٍّ للأعصاب . وقد يكسب الطفل اللاعب بهذه الكيفية صحة أجود من الذى يكون تلميذاً فى درسه ، وتلميذاً فى لعبه . ويحس أنه سعيد . والسعادة منبهة للدورة الدموية .

فلنضرب مثلا للألعاب النظامية . فمنها حمل الأثقال . ومط الأوتار « ساندو » والتعليق على المتوازيين . وتطويح العصى والمخاريط وشد الحبل وغير ذلك . وأما الألعاب المطلقة فمنها تلقيف كرة اليد والقدم والظهور والاختفاء والقفز والعدو والسباحة والفروسة ونط الحبل وكر الكرات وغير ذلك من الألعاب التى لا يتقيد لاعبها باتباع نظام خاص إلا فى بعض ظروف مخصوصة حتى لا يحتاج إلى مجهود فكرى .

إنى أحض الفتيان على الفروسة والسباحة والرماية والرماحة والتسايف ، فالفروسة فضلا عما فيها من تقوية العضلات وتنقية الدم وغربلة الجسم من الرواسب . فانها تولد فى الانسان علو الهمة وعزة النفس والثقة بها .

إنى أتألم عند تصورى أن أغنياءنا المولعين بتربية الخيل والذين يعتزون بها ، ويسمونها بأسماء حسنى أسمى من ألقاب أولادهم ، كالبحر والفيض والسكب ويتغزلون فى عَفوِها(١) ويترنمون بِعَقَبِها(٢) وربما عُنوا بها عناية تفوق عنايتهم ببنيهم فيضمرونها ويعلفونها ليوم السباق فى الحفل، وغاية أملهم أن يكون جوادهم السابق فى الطلق أو الطلقين لكسب رهان أو شهرة . ولبئست الشهرة التى ينالها الأنسان من البهم .

على أنه لم يمتط واحد منهم صهوة جواده مرة فى العمر . ولا يجرؤ أن يدخل عليه فى معلفه ، وقد يفزع أولاده من صهيله ، ويرتعدون إذا رفع رأسه نافراً ، ألا يجدر بهذا السيد أن يكون فارس جواده وقائد لجامه ، ويعلم أولاده الفروسية فينزلون فى مضمار السباق بدل أن يتخذ هذا الرَّكَّاب «٣» ، وإذ ذاك يحق له أن يفخر ويفرح بشهرته التى يكسبها بجدارة ، لأنه الفارس المطهِّم لخيله المربى لأولاده ؟ !

والسباحة تعلم الأقدام والبسالة ، وهى رياضة بدنية ، ولسنا فى حاجة للاستدلال على ذلك . كما أنها رياضة عقلية أيضاً . فالأنسان بغمسه فى الماء يذهب عنه مشاغله، ولا يفكر إلا فى سبحه.

وما أحلى الفترات التى تمر على الأنسان وهو مرتاح الفكر بعيداً عن الشواغل . وهى على ما فيها من هذه المزية فانها سارّة فيرتاح المرء بغوصه وطَفوِه «٤» وغَطِّه «٥» . ويتساوى فى ذلك الكبير والصغير والأمير

(١) الجرىُ الأول : وهو ما يسمى عند الجند « بالمسار » .
(٢) الجرى الثانى : وهو ما يسمى عندهم « بالغار » .
(٣) كثير الركوب « جوكى » .
(٤) علا فوق الماء ولم يرسب .
(٥) الغوص تحت الماء .

والحقير والآباء والأبناء، لما فيها من رفع التكلف ، وما أسعد الناس إذا أحسوا بالمساواة وما أنعم بالهم !

أما الرماية والرماحة والتسايف ـ فهى تقوية للجسم ووسائط للذب عن النفس عند الشدائد والمكاره .

إنى كنت فى مدرسة يعلمون فيها الرماحة والتسايف لمن يريد ، فكنت ألاحظ أن إخوانى الذين مارسوا واحدة منها أثبت قدماً وأقوى جناناً عند حدوث أى أمر حازب(١) بالمدرسة .

وترى الذين لم يفكروا فى هذه الرياضة على ضخامة أجسامهم وظاهر قوتهم ـ يجبنون وينكمشون . وكفى المرء فخراً أن يحسد على ثباته ورباطة جاشه وإقدامه .

لاتهملوا حق أبدانكم ، وامنحوها قوة تمنحكم سعادة ولا تشقوها فان لبدنكم عليكم حقاً .

«*»

الغذاء

رشحوا بنيكم على الاعتدال من سن طفولتهم ، وأحسنوا قيامكم عليهم حتى يفارقوها ، واختاروا لهم من الغذاء مالذ ونجع (٢) .

الصغير ربما كان شرهاً عادة ، فلا تفرطوا فى شهوته بالألوان ولا

---

(١) شديد .
(٢) نفع وهنأ أكله .
«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

بالطعام المجهود . الصبى لا تمتلىء عينه ولا يشبع ، وعينه أوسع من بطنه ، فلا تجعلوا همه فى بطنه . ولا تطعموه إلا لضرورة التغذية ، وقسموا طعام اليوم على "وزمات"(١) ، عودوا الأطفال على القناعة فهى أساس الصحة .

انظروا لخفة ونشاط وانشراح وقوة ونوم الذين لا يملأون بطونهم ، وازنوا بين حالهم ووخومة وخمول وملل وضعف وأرق من أكثروا فى طعامهم . وأنتم تعرفون الضرر الذى يصيب هؤلاء إذا أصبح الإكثار عادة .

لا أنكر أن بلادنا قد انتقلت فى جميع أطوارها من حال إلى حال . وعصر التعديل والإصلاح يتناوب مع زمن المحافظة على العتيق ، ولكنى أراه قد أبطل استعمال فاسد ، ونقلنا إلى فاسد يناقضه .

إن الميل إلى الجديد قد أفسد علينا أغلب عاداتنا حتى طريقة غذاء الأطفال .

مضى زمن كان الناس فيه يكثرون من الأكل والشرب ، وأخشى أن يأتى عصر العفة ، فالزهد فيمنعون الأطفال من غذائهم ، وأن يتدهور البعض إلى أن يصيروهم نباتيين . لأنى رأيت هذه الفكرة شائعة بين طبقات الفئة المتعلمة فى مصر . ومن ثم يتغير تدبير صحة الأولاد .

كان الأقدمون يظنون أنه كلما شبع الطفل تحسن صحته . وللآن فى الطبقات الدنيا والقرويين الذين تأصلت فيهم الأفكار الوراثية التى لاتزول منهم إلا ببطء . تجد الآباء يطعمون أولادهم حتى يُسطِيقوا(٢)

---

(١) أكلات .
(٢) يتحملونه بمشقة .

الطعام ، ولكن الطبقات المتعلمة التى انتشر فيها حب التعفف والأمساك تميل إلى الأفراط فى إطعام الأطفال غذاء غير كاف .

إن اشمئزازهم من شهوة الأقدمين يظهر أثره فى معاملتهم للأطفال أكثر من معاملتهم لأنفسهم !! فهم متى قمعوا هذا النسك الصورى ، وأرضوا شهوتهم غالوا فى وضع القواعد لأبنائهم ! !

من الحقائق المتفق عليها أن الشر فى الأكثار والأقلال من الأكل ، وشر الاثنين هو الأقلال . فالنتائج التى تحصل من الأفراط أقل ضرراً ، وأسهل إصلاحا وعلاجا من التفريط ، ورب مخمصة شر من تخمة . ومع ذلك إذا تدخل الآباء فى طعام الأولاد بالحكمة ففى النادر أن يمتلىء الأبناء .

إن من الخطر على صحة الأولاد أن نضع قيوداً وطريقة واحدة للغذاء ، لِتبَايُنِهم فى الخلق . وكلما كثرت مواد هذا القانون ساء استعماله واختلط . وشر مواده هى الخاصة بتحديد كمية الغذاء .

وكأنى بآبائهم يتساءلون : هل نترك الأولاد يحشون بطونهم ونسكت عنهم حتى يمرضوا ؟ وهذا واقع لامحالة . فيقال لهم بسكون : إن الطبيعة تجيبكم على سؤالكم ، أليست الرغبة فى الغذاء مرشداً مضمونا للحيوان ؟ مرشداً صادقاً للرضيع ؟ مرشداً أميناً للمريض ؟ مرشداً ثقة للبشر ؟ وإن اختلفت ظروف حياتهم ، مرشداً للكبار الأصحاء ؟ فكيف لايقال : إنها مرشد طيب للصغار ؟ ! ومن العجيب أن المرشد لكل هؤلاء لا يكون محل ثقتنا فى الأولاد ! !

إن من الناس من يقول : إنْ هذه إلا فرية ، ولا يؤمن ، ولا يطمئن قلبه . ويظن أنه قادر على إيراد حوادث تناقض هذا المبدأ . ويضرب

من الأمثال ما يباينه ظاهراً . والحق الذى لامراء فيه أن نهم بعضهم الذى يظهر فى طعام لذيذ يقوى الشهوة ـ هو فى الغالب نتيجة التضييق على الأولاد ، ورد فعل الحواس لحرمانها وصدها عما كانت تشتهيه ، وإنه مظهر لقوة الرغبة التى لا تقاوم . وظلت الآباء مسيطرين عليها زمناً طويلا . وأحب شيء إلى الأنسان ما منع .

هذه القاعدة بينة حتى فى غير هذا . فالحرمان من الشيء يحرض على التولع به . انظر ماجرى على بعض البيوتات بعد أن قضى أربابها وهم يدخرون الأموال ، ويكدسونها صفاً صفاً ، ويرصونها رصاً رصاً ، وقد غلوا أيديهم عن أبنائهم ، وقتروا عليهم حتى فى حوائجهم ، ألم تنقض تلك المنازل بين يوم وغده ؟ وبعثر الأولاد باليمين وبالشمال ؟ وأتوا على البيوتات حتى رسومها ، كأن لم تغن بالأمس ؟ وكذا حال الأمم إذا حرمت واحدة منها شم نسيم الحرية بيد سالب — وإن طال أمده — لا بد أن تقطع السلاسل التى غلها بها ، وتنزع حريتها من يده ، وتخرج ظافرة ، وتعيش سعيدة .

فيجب إذا مراعاة رغبة الأولاد العادية ، وأذواقهم والأسلوب الذى يعاملون به ، ألا ترون حبهم الشديد للسكر ؟ ألا يكاد يكون عاماً بينهم ؟ إن الكثيرين يعتقدون أنه ليس إلا للذة المذاق ، وأنها لذة كباقى الملذات الواجب تركها ، على أن العالم بوظائف أعضاء الجسم الذى يرجع أبحاثه إلى احترام الترتيب الوجودى ، والنظام الطبيعى للأشياء — لابد أن يفرض فى عشق الأولاد الحلواء والدبس ، وأنواع المصطنع من السكر أمراً آخر غير المفروض عرفاً .

إن الأبحاث العلمية أيدت هذا الفرض . وقد ثبت أن السكر

عليه مدار عظيم فى الظواهر الحيوية ؛ فالسكر والمواد الدسمة عندما تتمثل فى الجسد تكسبه حرارة . السكر هو الصورة التى تتحول إليها مركبات أخرى مختلفة النوع قبل أن تكون غذاء مولداً للحرارة ، السكر يتكون ويجهز فى أجسامنا . وليس السكر نتيجة تحويل النشا فقط بعمل الجهاز الهضمى . بل إن الكبد معمل لتجهيز وتحويل المواد الغذائية إلى سكر ؛ إذا الحاجة إليه شديدة وضرورية حتى أن الكبد يصنعه ويورده للجسم بصفة دائمة .

وإذا وفقنا بين ميل الأولاد الشديد للسكر وبين نفورهم من المواد الدسمة الأكثر توليداً للحرارة ألا نجد السبب لهذا الشغف ؟ نعم . فالزيادة من أحد الغذاءين هى تعويض لما كان يكسبه البدن من الحرارة من تلك المواد الدسمة التى لا تقوى أعضاء الطفل على هضمها وامتصاصها . فالانتفاع منها ! !

الأولاد يحبون الأثمار ، لأنها سكرية ولذيذة الطعم . لوجود الحامض النباتى فيها ، وهذا الحامض مقوٍّ ، ومُصْلِحٌ إذا أخذ باعتدال . وله مزايا أخرى إذا استعمل على صورته الطبيعية ؛ وأشهى صورة له وجوده فى الثمر ، فالأثمار الناضجة نافعة ويظهر نفعها فى حال كسل الأمعاء وضعفها

فتأملوا تناقض احتياجات الأطفال الفطرية ، والمعاملة التى نكرههم عليها عادة ! هاتان شهوتان متسلطتان ربما دلتا على ضرورات لبدن الأولاد ، فاذا اتبعنا الطريقة التى تعافها النفس ، وقدمنا للأولاد اللبن والقهوة والشاى والخبز والخضر طعاما فى غذائهم يومياً — لابد أن تصدأ نفوسهم ؛ وإذا حكمنا أن كل لذيذ شهى - غير نافع ومضر ، وحرمنا الأولاد منه فما ينتظر حينئذ ؟ ينتظر أن الأولاد إذا أخذوا فى وليمة مع آبائهم

أو عرس ، أو أنهم اقتصدوا شيئاً من الدراهم ورأوا الفاكهة والحلواء انقضوا عليها انقضاض المشتاق المحروم ، وأكلوا منها أكلة للماضى وأكلة للغد الذى سيقضى عليهم فيه بقانون الحرمان للحرص والأمساك . فاذا تلبكت معدتهم ، وتعسر الهضم ادعى الأهل أن الأولاد لا يجب أن يتركوا وغرضهم للطعام ، وكانت النتيجة السيئة من التضييق عليهم فى الماضى سبباً لتضييق جديد . ولكن حجتهم واهية وتعليلهم معيب .

فأذا سرّ الآباء أولادهم ، وأعطوهم قسطهم يومياً من هذه الأغذية الشهية النافعة للجسم فما كانوا يأخذون منها غير اللازم إلا نادراً ، بعكس مايعملون إذا سنحت لهم الفرصة وهم محرومون .

فالأفضل أن تؤكل الأثمار مع الطعام ، وتكون جزءاً منه ، لأنه فى هذه الحالة يشركها الطفل بباقى طعامه . وإذا طلب منها زيادة يجب أن يركن إلى رغبته ، لأن الرغبة مرشد ، ولا سبيل إلى مرشد آخر يعتمد عليه .

أنا لا أستطيع تقدير قيمة أولئك الآباء الذين نصبوا أنفسهم حكما ومنظما ، ومتى طلب الولد مرة ثانية رفضت الأم أو المربية . لم ؟ وعلى أى الفروض تركن ؟ أتظن أنه استكفى ؟ أين القواعد التى تبنى عليها حكمها ؟ هل اطلعت على أسرار باطنه ؟ أو وصلت قوة كشفها لتمييز مايحتاج إليه جسم ولدها ؟ فان كان لا هذا ولا ذاك فكيف تحكم بهذا الشك حكما يقينياً ؟ !

ألا تدرى أن الحاجة للغذاء تتفاوت لأسباب شتّى رَبِكَةٍ (١) . فتتغير مع الحرارة والرطوبة وكهرباء الهواء والرياضة . والفرح والحزن

---

(١) متركبة من أمور كثيرة .

وكمية ونوع غذاء الأكلة السابقة . وسهولة وسرعة هضمه ، فأنّى تعمل لكل ذلك حساباً ؟

لو عرفَتْ لعدلتْ . ولكنها جهلت فظلمت . والإنسان كلما وقف على سنن الطبيعة، ونواميس الفطرة قلت ثقته بنفسه، وزادت ثقته فى الطبيعة . ألا إن أنفة العلم أخضع من غطرسة الجهل .

أصناف الطعام «*»

إذا انتقلنا إلى صنف الطعام، وصفته، ألفينا الميل بعينه إلى النسك والأمساك . يظن الآباء أنه لا يناسب الأطفال إلا القاصر من الغذاء بل الدانئ منه الغير الكافى للتغذية . والرأى الجارى أن لاتعطى الأطفال لحماً، وإذا بحثنا عن منبع الفكرة نجد بعض شيء قد يعتمد عليه أو لاشيء .

هو مذهب قِيلَ وقبلَ بلا برهان، وإلاّ فليقولوا لنا مامعنى قوله تعالى « وهو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً »

« يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيّباً »

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم، واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون »

« إنما حرّم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله »

وما حكمة تشريع الضحية والنحر وتحليل لحوم بعض الأنعام وتحريم بعضها وصيد البر والبحر ؟ !

والذى أعتقده فى سبب أخذ بعضهم بهذا المذهب هو ما حدث

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

من الضرر بسبب الجشع والشراهة والافراط من أكل اللحم فى بعض البلدان خصوصاً فى الأقليم الحار .

من المقبول أن معدة الرضيع التى لم تقو عضلاتها - لا يناسبها اللحم الذى يطلب طحناً طويلا قبل أن يصير كيموسا (١) . فلا تصلح غذاء له . ولكن هذا المنع يجب أن يزول مع زوال السبب . فاذا بلغ الطفل أربع السنوات وتقوت عضلات معدته فليس من الصواب أن لا يأكل اللحم بل يأخذه بمقدار يناسب سنه أو يحتسيه عصيراً أومرقاً . لا أن يمنع عنه منعاً باتا !!!

وإذا صح هذا المذهب لمن كان فى المهد فمن الخطأ تطبيقه على من قطع هذه السن ،ويكون المانع قد افتأت برأيه على سنة الله وناموس الوجود .

إن الآراء التى تنقض هذا المذهب كثيرة وقيمة . وحكم العلم يعارض هذه الفكرة الشائعة . وقد قرر نطس الأطباء أن الأطفال يجب أن يتبعوا تدبيراً غذائياً لا قاصر التغذية . بل أعظم تغذية من طعام الكبار ، وأدلة هذه القضية بديهية وعللها بيِّنة .

يكفى الموازنة بين سلسلة الظواهر الحيوية فى الرجل وفى الفتى لنرى أن حاجة اليافع للغذاء أعظم فيه منها فى الرجل .

لمَ يلزم الغذاء للرجل ؟ لأن جسمه يستهلك من مادته ، فيضمر بتبددها ضموراً ناتجاً من العمل العضلى . ضموراً فى المجموع العصبى ، مسبباً عن المجهود العقلى . ضموراً فى الأحشاء حاصلا من القيام بوظائفها الحيوية . فالأنسجة التى فنيت يجب أن تتجدد ، ومن جهة فانه يفقد

(١) الكتلة الغذائية التى تحضر فى المعدة .

يومياً جزءا كبيراً من حرارة جسمه ، ولأجل استمرار العمل الحيوى يتحتم حفظ حرارة الجسم ، فالخسارة يجب أن تعوض بتوليد دائم ، وتجديد متوال للعناصر المكونة للجسد . فالأسباب الداعية فى الرجل التام للغذاء هى تعويض الفقدان اليومى ، وضرورة وجود الوقود حتى يعادلا الخسارة اليومية من الحرارة والخليات (١) .

والغلام فى حاجة للغذاء للأسباب عينها ، ويزيد عليها النمو وهو سبب مفقود فى الرجال .

الحركة فى الفتيان أكثر منها فى الرجال . فالاستهلاك يكون أكثر فيهم . وأسطح أجسامهم بالنسبة لأحجامها كبيرة ، إذا وازناها بأسطح أجسام الرجال وأحجامها . فتشع الحرارة إذا أكبر . فتكون الحاجة للتعويض أعظم . فيجب أن تكون كمية الغذاء أوفر ، وكيف تسد حاجة الغلام الزائدة عن غذاء الرجل حتى ينمو إذا أطعمناه الكمية الكافية من مادة طعام الكبار ، بغض النظر عما تتحمله معدته من مشقة الأفراز فى تجهيز مثل هذه الكمية . وكيف يكون حاله إذا أثقلناه بغذاء دانئ بكمية عظيمة . ألا يضيع سدى كل شغل الجهاز الهضمى والدم المستعمل فى تحضير ذلك الغذاء ؟ وكل هذا الشغل الزائد مفقود . وهو خسارة عظيمة عليهم . لأنه نقص فى قوتهم ونموهم .

ألا ترون أن الصبى يرغب فى الطعام بشهوة أشد من شهوة الرجال ، والغرض للأكل يتجدد لديه فى زمن أقصر بعد إطفاء الشهوة وإطعام النفس . الصبى يطيق (٢) الجوع ، والرجل يحتمله ، وإذا اشتد فلا يستطيع

---

(١) الجزئيات الحية التى تتكون منها أعضاء الجسد .
(٢) يتحمله بمشقة .

الصبي عليه صبراً ، تلفيه قائماً قاعداً دائراً باحثاً عن ما يسد به رمقه صائحاً من ألمه إذا أخرت طعامه ، أو سوفت في إحضاره ، وقد يسغب (١) فيتخمّص (٢) فيموت إذا قضى جوعانا حينا من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً للرجل ولا معجِفا (٣) له . القحط يخطف الأولاد خطفا ، ولكنه يميت الرجال ضَعْفا وحتفا (٤) .

أطعموا الطفل طعاما مغذيا ، قلّلوا من كمه . وأعظموا في نجوعه وكيفه ، خففوا عليه الهضم بجودة نوعه ، ولا تثقلوا أحشاءه . فكلما صغرت كتلة الغذاء كبرت همة العمل ، وتوافرت قوة النمو ، ويظهر ذلك من خمول مَن أكل أكلة مشبعة ، البطنة تزيل الفطنة .

الهضم يستورد الدم للمعدة والأمعاء ، فلا تعطلوا قدراً منه وتحرموا الجسم من نمائه ، وتبيدوا من القوة العصبية ماكان يساعد في تكوين البدن ، فان لم تفعلوا فقد أضعفتم نموّه ويصيبه الخمول ويصبح بليداً .

قد نرى من عاش على غذاء نباتي من البنين والبنات في صحة ، ونسمع بعضنا يدلي بهذه الحجة على دحض ماشرعناه ، ولو دققنا ومحصنا لبطل استدلالهم .

فما كل ملفوف مجدولا ، وما كل سمينة لحما ، وما كل ساعد عضداً ، وما كل يد جارحة ، وما كل مزَخرَف صقيل جيداً أصيلا .

فامتلاء أولئك البنين إن هو إلا انتفاخ كالرغوة . وضخامة رخوة .

---

(١) الجوع مع التعب .
(٢) فراغ البطن وضموره من الجوع .
(٣) مُضعف ومُذهب للسمن .
(٤) مات على فراشه بغير قتل .

والغلظ فى الرجال سيمة الضعف لا علامة القوة ، وقليل من الاختبار يفرز النحاس بين النضار .

خذوا جواد المضمار أو الصيد ، وعادلوا بينه وبين حصان الحمل والجر وهما سواء فى الخلق وكفاء فى النوع .

انظروا لنشاط الأول وخمول الثانى ، وسرعته وبطء الآخر لاتجدوا سبباً إلا كيفية إعلافهما . فدرجة النشاط تتوقف على كيفية طرق التغذية بتقديم القضيم (١) للجواد وترك الحشيش والتبن للحصان .

وازنوا بين الحيوان تجدوا أن السبع أكثر نشاطاً من الأنعام ، وأكَّالة الأعشاب تتفاوت شدتها ونشاطها على درجة غذائها : كالبقر والخيل . وهذا التفاوت غير خاص بالنوع كما قدمنا .

الأنسان حيوان ، وهو خاضع لهذا القانون الخاص بهذه الضرورة البهيمية . فآكل اللحم ناشط قادر غالب قاهر على القاصر على أكل النبات .

ألا يقتنع بهذه الأدلة على كيفية غذاء الأطفال ؟ إنه إذا فرض وتوصلنا إلى تماثل الهيئة وجمال المنظر بالتدبير الضعيف التغذية كالتدبير العظيم التغذية ، ألا يوجد فارق كبير ؟ نعم فى أنسجة الجسد ، ألا يجب لحفظ النمو والقوة أن يكون الغذاء ناجعاً ؟ ألا يتأيد بناء على ذلك أن الغلام إذا طولب بالهيّن من العمل والشغل العقلى فانَّ المواد النشوية قد تكفيه غذاء ، ولكن إذا أردنا أن لا ينمو فحسب ، بل كلفناه بعمل جسمانى عظيم وعناء عقلى مُضنٍ . ألا يكون من المحتم أن يكون طعامه مغذيا ، غذاء عظيما ؟

---

(١) ما كُسِر بأطراف الأسنان وأُكِل

القطعة الصغيرة من اللحم تقوم مقام حُزمة من الخضر والبر والحبوب : أعنى من الأعشاب والنبات فى المادة الغذائية . فالانسان أو الحيوان الذى جهازه الهضمى لا يتحمل المقدار العظيم من الغذاء ، لقصره وعدم قدرته على الشغل الكبير لتحضيره ، فلا يستطيع أن يعيش إلا من أكل الحبوب واللحم ، وهذا وتلك مع النبات بقدر صغير ذى نفع كبير ، ولكن أكالة الأعشاب . وقد عرفنا عظم جهازها الهضمى ، وأغلبها لها معدات ـ تقوى على تحمل الكتلة الضخمة من الحشائش والأعشاب والشغل الطويل والعناء الكبير . فينتج من هذا أن اللحم أسرع هضما من النبات وأصلح للناس .

أنا لا أقصد أن يعيش الأولاد أو الناس على اللحم . ولكن أقول : إنه غذاء ضرورى ، وأبطل حجة القائلين بالاستغناء عنه وحرمان الناس منه ، وخصوصاً الأولاد .

اللحم أسرع هضما من النبات ، ودليله هَيِّنٌ . الحيوان آكل الأعشاب جهازه الهضمى أطول من جهاز الحيوان آكل اللحوم . فاذا كان هضم اللحم يطلب عملا طويلا كان يجب أن يكون جهازه أطول وأضخم منه ، فأمعاء الانسان وهو من الحيوان الآكل للصنفين تعادل ستة أمثال طوله تقريباً . ولكن أمعاء البقرة وما يماثلها من الأنعام تعادل ثلاثين مرة طول جسم الحيوان تقريباً . فيجب إذا إعطاء الطفل طعاما جامعا بين قوة التغذية وسهولة الهضم .

وعندى استدلال آخر ، هو أن تكوين الجسد من الأغذية . والأغذية إما حيوانية وإما نباتية ، فان كانت حيوانية كان الحال فى كيفية تكوين جسم الحيوان كالحال فى كيفية تكوين الانسان فبقى أن جسم الحيوان

مكون من الأغذية النباتية، وهذا الجسم هو الخلاصة الصالحة. وخلاصة كل شيء حاوية للعنصر النقى من هذا الشيء بعد ترك غير النافع منه فوجود الجزء الغير النافع يوجب زيادة فى الشغل ، وزيادة فى الزمن فيبطىء الهضم، فعدمه يسرع فى تحضير المادة للجسد.

الجوع حس الأنسان بفراغ المعدة . والشهوة هى الغرض وميل النفس إلى بعض الألوان ، وهذا الميل له معنى كبير يظهر فى الأصحاء، ومن فى النَقَه من المرضى. وهو دليل اعتدال المزاج والأبلال، فالجوع لايكفى وحده رمزا على سلامة المزاج ، وخلوص الطبيعة من الشوائب بل يجب أن يقترن بالشهوة؛ فلا ترهقوا الأولاد بطعام واحد . وإن صبروا عليه فتسأم نفوسهم ، وتضعف منهم الشهوة . ألا إن ما تشتهيه النفس أنفع لها مما تقسرها عليه.

فالتنويع فى الطعام أشهى للأولاد ، وأكبر جدوى لأجسادهم. ولا تقتصروا على التنويع فى الوزمة(١) عما سبقتها ، بل فى طعام كل وزمة عَدِّدوا فيها الألوان . واعلموا أن فى تعدد الألوان فائدة غير تقوية الشهوة . فالأجزاء المختلفة المركبة للجسم يأخذ كل منها عنصره من ينبوع معين ، ومادة خاصة . وإذا كنتم معذبين أولادكم. وتريدون بعد ذلك لهم يسراً. فانتقلوا إلى التنويع تدريجاً لا مرة واحدة ، لأنكم عودتم معدهم على الكسل ، فلا تسخروها بالكد والجهد دفعة.

قد تظهر قوة الغرض للطعام فى الوِحام(٢) فالمرأة الوَحمَى تشتهى أشياء لم تكن تقبلها قبل الوَحَم، وتأكل منها بشراهة . ولا يصيبها

---

(١) الأكلة.
(٢) اشتداد شهوة المرأة الحبلى للأكل.

منها ضرر ، أو أنها تشتهى الفاكهة الفجة التى تضر آكلها أحيانا ، فتمتلىء منها ولا تؤذيها ، فهذه الحال وإن كانت خاصة بالحمل إلا أنها لا تخرج عن كونها نتيجة الشهوة ، والميل للطعام بفعل الأعصاب .

قد رأيت أعجب من ذلك ، فبعض النسوة الوَحَامَى يشتهين ما ليس بغذاء للأنسان ! أبصرت مرة سيدة من أسرتى فى الطريق وقد استوقفت بائع برسيم ، وأخذت منه وأنقدته ثمناً قديراً وطفقت تستنشقه استنشاقا عميقاً ، وتقضم منه ولا قضم السائمة (١) العجفاء (٢) فاقتربت منها ، وسألتها عن أمرها فضحكت . ففهمت أنها حبلى ، وعرفتنى أن ريح البرسيم أزكى ما شمت فى حياتها ، وطعمه ألذ ما ذاقت.

فواعجبا من النفس إنها لسر غامض تحار فيه العقول ! والأنسان مشكلة المشاكل.

الغذاء الردىء يُسبب ضعف المعدة . فنقص عصارتها فعسر الهضم.

المائدة (*)

وعندى أن الضرر الذى يحيق بالأولاد من رداءة الغذاء أهون مما يحيق بهم من سوء نظام تعاطى الطعام فى بعض البيوت المصرية.

بقيت فينا نقيصة من نقائص الأقدمين تتمنى زوالها ، إنهم كانوا يحرمون أولادهم مشاركتهم ومجالستهم على موائدهم . وفى اعتقادى أن

---

(١) الخارجة إلى المرعى .
(٢) الهزيلة من الجوع .
(*) نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

الباعث على هذه القطيعة تعمدهم زرع الخوف فى قلوب أبنائهم بابعادهم عنهم . أو اضطرارهم لذلك ، حتى لا يجمعوا بين ضرات وبنى علات فيضطرب البيت بسبب تعدد الزوجات؛ ولبئس ما كانوا يفعلون .

أما وقد دار الزمان . وقد نبذ الشبان هذه الفكرة التى وإن أباحها الشرع لضرورة - فهى لا تلائم عصرنا ، وقد تعقدت فيه وسائل العيش وتَعَسَّرت طرق الحياة .

هذا الأبعاد يجعل الولد يهاب أباه ، ولكنه لا يحبه . ويسأل عنه ليطمئن قلبه ، لا ليطمئن عليه . يرى فى أبيه الشبَح المهيب لا الشخص المهَاب الحبيب . وقد ينتهى أن يكره لقاءه فى صغره ،ولكنه يحب بقاءه لمنفعته . فاذا بلغ أشده ، وقدر تلك الشدة . وأمات فى نفسه البِرَّ النبْذُ والقلىَ . استوت لديه حياته ومماته ، ولا سيما إذا كان ذا مال ، وكان المال هو عقدة ارتباط الولد بابيه . المائدة جامعةُ للأهل فى أخص الفترات . فيجب أن تكون المركز الذى يتلاقى فيه أعضاء الأسرة ، وقتُ الطعام هو الوقت الوحيد الذى تعوض فيه الخسارة الجسمانية . فوجب أن يكون أهنأ الأوقات المخفف لمتاعب الآباء بالحديث الطلى المسرِّى لهمومهم من كلمة يسمعونها من فم زوج صالحة أو كلِمٍ من ولد ، إن كان صغيراً أو عبارة يقولها ترويحاً إن كان كبيراً ، ويزيد الأنسان راحة مايسمع لاعتقاده فى إخلاص محادثيه . وناهيك بما يحس المرء من الانشراح فى مثل هذا المقام .

فالأكل مع الأبناء عادة حسنة ، وأهم مافيها حسن مراقبتهم فى أكلهم . ومحافظة الآباء على مواعيد الطعام ، وتفريج همهم بالنظر إلى فلذات أكبادهم وقرة عيونهم .

من فى الوجود يهمه صحة الأولاد كالآباء ؟ من أحرص منهم على نفعهم ؟ وأحرس عليهم فى منع الضرر عنهم ؟ الانسان لايحب أن يرى أحداً يتقدمه ويتفوق عليه ، ولكنه يتمنى هذا فى ابنه ، وكلما حسنت حاله وعلت درجاته ، ازداد افتخارا وزهواً من نتيجة عمله وثمرة غرسه .

فهل يليق بأولئك الآباء أن يتركوا أولادهم بين أيدى الخدم يطعمونهم ويؤاكلونهم ، وهم على مافيهم من الجهل وسوء الأخلاق ؟ أنا لاأسمح بذلك أبداً . ولو كانت مربية الولد من المتصفات بالعلم والحكمة ، لأن العشرة أصل الائتلاف ، والائتلاف أساس المحبة والرحمة ، والمحبة والرحمة عماد البيت ، فأهله أولى بهما .

كيفية التغذية «*»

إن غذاء الولد يبتدىء وهو جنين فى رحم أمه بالسُّخد(١) والُحوَلاء(٢) والغِرْس(٣) فى أول أيامه . ثم يتغذى بها وبطرق أخرى بعد تكوين أعضائه ، ولئن كانت الأم ليس لها عمل مباشر فى تغذيته إلا أنه يتكون مما تجهزه من دمها ، فواجب عليها أن تورد له غذاء طيباً لاستكمال نموه فى أحشائها .

(١) هنة كالطحال والكبد تكون فى المشيمة

(٢) جلدة فيها ماء وخطوط حمر وخضر

(٣) مادة كالمخاط

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

ولتعلم الأم أن جنينها يتأثر بحالها سواء أكان من الغـذاء أم من أحوالها النفسية ، فاستنشاقها الهواء الطلق ورياضتها وجودة غذائها ، كل هذا يقوى ما يُكنِّ رحمها ، والانشراح والسرور يهذبان تكوينه ، كما أن الجو الفاسد والقرار ورداءة الغذاء والهموم والأحزان والانفعالات ـ تضعفه وتعوق تكوينه ، وأقرب دليل على هذا الاتصال ماتحس به الحـامل من تحرك الجنين ونشاطه ، عند أكل التفاح أو البصل أو شرب كأس من البنفسج ، أو الماء المعطر بروح الزهر . إنى أضرب الأمثـال ولا أحصى الأحوال

بعد الوضع تتغير طريقة الغذاء ، فتكون بالرضاع . فلا ترضعوا أولادكم غير لبن أمهاتهم . اللبن يعدى ويروى . الرضاع يغير الطباع وثدى الأم على ولدهـا أحن من أيّ مرضعة شفيقة ، ولبنه أنفع له فلا تتركوا حشاشة قلوبكم أن يتسرب إليها أخلاق المرضعـات مهما كُنَّ طاهرات عاقلات ، فانكم إن فعلتم فقد نقلتم أولادكم إلى بيت المرضعة ، وأنتم لاتشعرون ، فمن اضطر . وكان بالأم أذى ، فليتخير المرضعة الصالحة .

أمر الله الوالدات بأرضاع البنين سنتين . وجاء أمره بالصيغة الخبرية وهى أبلغ وجوه الأمر حيث قال جل وعلا :

« والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين . لمن أراد أن يتم الرضاعة » ولما كان الرضيع لايمكنه التحول من الرضاع إلى الفطـام فى ساعة واحدة ـ وجب حصول الفطام شيئا فشيئا ، حتى ينسى الرضيع اللبن ، ويتعود غيره عند نهاية الحولين . فالحول إذاً حسن للتحول .

فالأم ترضع ولدها حولا كاملا ، ثم تجزىء لبنها بالغذاء ويكون أكثر

ما يتناوله هو لبنها فى النصف الأول من السنة الثانية ، ثم تتناقص النسبة حتى تمامها ، فانه بهذا التدبير يبتدىء الانتقال التدريجى ، لتعود الولد على غير لبن أمه فى فصول السنة المختلفة .

التغذية بعد الفطام يجب أن يشترك فيها الوالدان حتى يبلغ الطفل أربع عشرة سنة .

سنة الكون لا تكلف الانسان اختيار المأكولات ، فنظامها الدقيق المقدر بالحكمة ينتج الأشياء فى وقت حاجة الناس إليها . والأرض تخرج لنا حبًا ونباتا وفاكهة فى وقت معلوم ، وحصادها يختلف باختلاف إقليم البلاد ، فوجب أن نأكلها فى عصرها لأن الانسان ابن أرضه وإقليمه وبيئته .

لا أنكر أن بعض الأطباء والفلاسفة قد اختلفوا فى نوع غذاء الطفل فمنهم الطبيب الحكيم « لوك[1] » حرم على الأولاد الحلواء والفطير ومنهم « اسبنسر[2] » لم يحرم عليهم شيئاً ، تقريباً ، بل إنه حض على الحلواء والمصطنعات من السكر ، ومنهم من حرم الفاكهة ، وآخرون يوصون بأكلها ، وإنى لا أرى محلا لهذا الاختلاف . وقد ينحسم هذا النزاع بينهم باتباع الاعتدال والقسط ومراعاة الظروف والأحوال . وأما من أشار منهم باعطاء الأنبذة ، فأنى لا أرى رأيه ، ولاسيما أنه يشير بها باحتياط شديد حتى أنه يقول : إن الأوفق للصحة أن يكون الشرب منها قليلا . وتقدير القليل هو محل النزاع . وقد يخطىء الانسان فى تقدير هذا القليل ، فالقليل عند زيدٍ كثير عند عمرو . فعند هذه الحيرة يجب الترك ،

---

(١) أنظر فهرست الأعلام
(٢) « « «

خصوصاً فى بلاد مثل بلادنا التى لا يناسب إقليمها شرب تلك الأنبذة إلا للضرورة القصوى. فقد يصح تعاطيها كما تؤخذ العقاقير والأدواء باشارة الأطباء.

وأما المشروبات الروحية الحاصلة من تقطير السوائل المتخمرة فنتائج هذه أشد، واستعمالها يحدث التهاب المعدة، وضعف حساسيتها وغلظاً فى غشائها، وتقليل شهوة الأكل، ثم يمتد ذلك الضعف إلى بقية الأعضاء فيقل الحس فى عموم البدن، فالاعتياد عليها مفسدة فيتهدم المرء قبل أوانه. ويصير عرضة للفالج(١). والطامة الكبرى أنها سالبة لأعظم نعمة أنعم الله بها على عباده، وهى العقل.

من ذا الذى يرضى أن يعيش مسلوب النهى. ويروح حجاه فى رشفة راح. الخمر مفسدة للجسم. مفسدة للمال. مفسدة للعقل. ومن أخذل ممن يبارز الله بمعصيته، وأخسر ممن يشترى الضر بماله؟ وأظلم ممن يشقى نفسه بعمله؟ وأضل ممن يسعى لتلف عقله؟!

ولا أرى أبلغ عظة، وأشد زجراً من قوله تعالى:

«إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه»

حسنوا تقويم الولد جنيناً. وأنشزوا(٢) عظامه، وأنبتوا لحمه رضيعاً وعللوه بالغذاء ليجزأ به عن اللبن فطيما. وناولوه الأكل أدنى تناول فصيلا. وأحسنوا غذاءه اللذ صبيا. وأترفوه يافعا. وأعظموه مراهقا. ثم ألقوا حبله على غاربه.

وبعد أن فصلنا للناس نختم الكلام بهذه اللآلىء القرآنية:

---

(١) شلل يصيب الجسم

(٢) ركب العظام بعضها على بعض وقواها

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، وكلوا واشربوا ، ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق الخ »

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون »

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً » .

النظافة «*»

إن الأنسان فى هذه الدنيا يعيش فى ظرف بعيد ؛ هى داره التى تؤيه ، وفى غلاف قريب هو لباسه الذى يستره ، ومن الأنواء يقيه ، وفى مكان أدنى هى بشرته التى تحفظ جسمه وتحويه ، وقد جعل الله فيها اللمس بما نشره من دقيق الأعصاب حتى أنك لا تجد مغمز إبرة ، ولا حيز ذرة خالياً من تلك الأسلاك الموصلة الأخبار إلى المخ الذى ندرك به ، فالبشرة متممة للمجموع العصبى ، وجزء من جهاز الأدراك ، فكل مايصيب الجلد من الأذى يتأثر به ذلك المجموع ، وكل مايلذ به ينبهه ويريحه .

فانظر كيف أن المخ والأعصاب معرضة للحوادث التى تصيب الجلد ، فالتغير فى حاله يضعف الأدراك : بل يسبب اعتلاله ، أفلا تنظرون إلى الطفح الجلدى الملتهب ، وإلى الالتهاب فى الحرق كيف أنهما يحدثان التشنج والهجر (١) والشلل وغير ذلك ، وكيف أن الأستحمام بالماء البارد أو الفاتر يريح الأعصاب وينعشها حسب مزاج الأنسان ؟ فهو مهدئ للهياج مزيل للأرق . والحمام البخارى يشفى الصداع ، وكيف أن الدلك

---

(١) خلط وهذى .

«*» نشر بجريدة الخال سنة ١٩١٧

والتكبيس قد يوقظان قلب الغريق والمنخنق والمشنوق ، ويعود إلى دقات الحياة وتعمل الرئة شهيقها وزفيرها فترجع إلى الأنسان حياته ، ويخلص من هذا الموت الظاهرى .

إن اعتدال وسلامة ذلك المجموع العصبى . وهو مركز الحركة والحياة - يتبعان سلامة البشرة ، وهذا وحده يكفى لزيادة العناية بتدبير الجلد تدبيراً خاصاً يماثل الحركة للعضلات والرياضة للنفس .

إليك أسبابا أخرى : إن الأنسان يتنفس بالجلد كما يتنفس بالرئة ، نعم إن التنفس الجلدى أقل بكثير من الصدرى إلا أنه لاغنى عنه للحياة ، فاذا طليت جلد حيوان بمادة تسد المسام فانه يموت من البرد ومن الانخناق ، كما إذا عقت التنفس الصدرى . ألا ترى أن هذه البشرة التى يتركها بعضهم قذرة هى من الجهاز التنفسى أيضا ، والمساعدة على وجود مادة وقود الجسم فى الدم فيتلون باللون الاحمر الجميل ، فيجعله صالحاً لتغذية الجسد ويكسبه حرارة . والحرارة ميزان الصحة ومقياس الحياة . فالحياة والجلد مرتبطان ارتباطاً يخشى من انفكاكه على الحياة ، فوجب أن يكون عمل الجلد غير معوق إلى حد التعطيل ، ولا مطلق إلى الزيادة حتى لايختل توازن الحياة .

تنفس مااستطعت من رئتك فانه غير كاف ، أشفعه بجلدك وأعده لمساعدة الرئة فى توريد الوقود إلى الجسم فبدون ذلك يضؤل نور الحياة ، وربما انطفأ مصباحها .

أهذا كل منافع البشرة ؟ لا . بقيت وظيفة لاتقل شأنا عما فات ، ولأجل أن تؤدى هذه الوظيفة يجب أن تكون سليمة صحيحة ، وتلك الوظيفة هى تنظيم تولد الحرارة وحفظها فى الجسم بدرجة واحدة .

الجلد فيه غدد عدة منتشرة فى كل أجزائه تفرز بالاستمرار سائلا على سطح الجسم . هذا السائل هو العرق . وهذا العرق يثار فيتصعد باثارة بطيئة مستمرة ، وهذه الأثارة تبرد الأجسام فتحفظ اعتدال الحرارة العظيمة المتولدة من الاحتراق فى الجسد فتطفىء جمرتها فتكون برداً وسلاما .

أرأيت هذا العراك بين التبريد الجلدى وتولد الحرارة الباطنية ؟ وكيف أنه كان بقدَر معلوم ؟ حتى أن مقياس الحرارة لا يزيد ولا ينقص عن سبع وثلاثين درجة وبعض أعشار . وللوصول إلى هذه النتيجة يقوم الجلد بعمل دقيق متغير تحت ظروف متغيرة ، ومؤثرات متنوعة ، ألا ترى أن حرارة البلد الذى نعيش فيه تتغير من صعود إلى هبوط حسب الأقليم والأيام والفصول ، وتولد الحرارة الجسمانية كيف أنه يكون سريعاً ، وتارة يكون بطيئاً ، تبعاً للوقت ونوع الغذاء؟ ومع هذا فسواء فى القطب أو خط الاستواء ، وسيان لدى الأكالة سكان البلاد الشمالية أو القانعين سكان الجنوب ، وسواء فى السبات (١) والنوم أو بعد الحركة أو المجهود العظيم — فالبشرة موكول اليها حفظ درجة الحرارة فى الجسم بقدر معلوم وهو ٣٧ التى هى وحدها علامة الصحة . فاذا هبطت واحدة فالانخناق القريب ، وإذا صعدت واحدة فالحمى والمرض . وحد الصعود وحد الهبوط اللذان لا يسببان الموت متقاربان . فلا يتعديان ثمانى درجات ، فأرفع أو أدنى منها الموت المحتوم .

ولنعلمك جهاد الجلد العظيم فى الدفاع عن حياتك ، نذكر أن بعض الناس تحملوا الحرارة الخارجية إلى درجة « ١٣٠ » مدة عشر

---

(١) وقت الراحة أو أول النوم

دقائق . ولولا الأفراز الغزير وتدفق جداول العرق التى تسيل وتتفجر من البشرة ـ لاحترقت أجسامهم فى هـذا التنور المسجور . وكل هذا ليحفظ الجلد درجة حرارة الجسد فى «٣٧».

فاذا عرفتم منافع الجلد وأنه عامل هام ، وركن متين لقوام الحيـاة حق علينا أن نعنى بتربيته كالعضلات والمخ وباقى الأعضاء المتوقفة على صحتها الحياة . فلذلك لم نغفل عن ذكره فى ذلك الـكتاب ، وإنى أوصى بتدبير صحته .

إن المرء يعيش بين أعداء من بين يديه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وهم يدركونه ، ولا يدركهم بصره . ويتعذر عليه أن يدفع هجومهم ، ويتحصن من إغارتهم . أولئك الأعداء هى هذه الدويبات (١) وذلك العلق (٢) وتلك القصامل (٣) التى إذا هاجمت قلعة الجسد ، وتمكنت من فتح ثغرة فيه أنزلت به بلاء عظيما ، وأذى كبيراً ، وسببت أدواء يعز شفاؤها . فالقوة التى تدفع بها هذه الأغارة هى النظافة .

فصونوا أجسام أولادكم من هذا العدو اللد بتطهيرها وتنظيفها من الأوساخ التى تجتمع على البشرة من الغبار والعرق ، وأعـدوا لها الماء المخصـوص بالرقة واللطافة ، فهو الدرع الواقية ، والمزيل للدرن والقمل الذى يعيش فى الرأس ، فاستأصلوا شأفتها .

جملوا أولادكم ، وحسنوا صورهم فى الأعين ، حتى لا ينفر منهم النـاس وتزدريكم نفوسهم ، ونظفوا معاطف آذانهم ، وأزيلوا

---

(١) المخلوقات الدقيقات الجائّات

(٢) دويبة جائّة منها ما يوجد فى « ماء الرجل »

(٣) جمع : المفرد : قصملة : دويبة تفتك بالأسنان والأضراس

تُفٌ (١) صماخها . علموهم الاستنشاق والاستنثار لإزالة المنعقد من الرطوبة فى داخل الأنف . والمضمضة والسواك ولو بالأصبع ، لتطهير الفم والأسنان من القَلَح (٢) وغسل براجم (٣) أصابع اليد ، وَرواجبها (٤) لإزالة الأنف (٥) وكذلك أرجلهم ، ولا تتركوهم كالدُمى المصورة من الطين ، المسربلة بثوب من قز وحرير ، فاهتموا بالظاهر ، ولا تنسوا الباطن فان الله طيب يحب الطيب ، ونظيف يحب النظافة . وقد أمرنا بقوله تعالى :

« يآيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق . وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » .

فطهروا أطرافهم ووجوههم أكثر من مرة فى اليوم ، وليكن فى الصباح عند الاستيقاظ ، وفى المساء عند الاستعداد للنوم . واحفظوا أجسامهم بالغسل ولو مرة فى الأسبوع . فقد أكد صلى الله عليه وسلم وجوب سنة الغُسل يوم الجمعة . فعودوهم التطهير والغسل من سن التمييز تزيدوهم رواء وبهاء « إن الله يحب المطهرين »

---

(١) وسخ الأذن : « المادة الصفراء التى تخرج منها »

(٢) مادة صفراء تعلو الأسنان فتفسدها .

(٣) سلامَيات أصابع اليد . والمقصود هنا : (الثنايا) .

(٤) ظهر سُلامَيَات أصابع القدم واليد .

(٥) الوسخ الذى يوجد فى الأظافر .

الاجهاد العقلى (*)

إن من يتبع ما سطرناه فى التربية الجسدية فقد اهتدى وأكسب ولده بسطة فى الجسم وصحة فى البدن . وسلامة فى العقل ، وأحسن إلى بلده ، ومن رغب عنه فقد ضل وخسر ، وجنى على ولده ، وذريته ووطنه .

إنى كلما ضمنى ناد ، وجمعنى داع مع الناس ، وأخذنا بأطراف الأحاديث ، أسمع كثيراً منهم يؤكدون أن الفتيان والكهول ومن قارب سن النضوج من الطبقة المتعلمة — ليسوا فى نماء ولا قوة كآبائهم . فكنت كلما سمعت منهم مقالهم رأيتهم يميلون إلى اعتبار ذلك من عيوب زماننا تمسكا بالكلمة العتيقة الباطلة . وكانوا يتمدحون بالماضى ويذمون الحاضر . ولكنى كنت أمثل أمامى جثث الفراعنة وأسلحتهم وثيابهم المعروضة فى المتاحف فأحكم بأنهم يحاكوننا فى أجسادهم . وعندما أرجع إلى إحصاء الوفيات وعدد سكان مصر أجد زيادة فى النسمات لا تتفق مع الضعف وقصر العمر . فكنت أبحث كى أوفّق بين ذلك الاعتقاد الذى كان يظهر لى أنه على غير أساس ، وتلك الشواهد المحسوسة التى لاشك فيها ، ولكن وردتنى فكرة شغلتنى عن كل ذلك .

فمن لاحظ بعين الخبير تبين له فى غالب الأحوال ـ إذا استثنينا فئة العمال ـ أن قامة الأولاد أقصر من قامة آبائهم وبُدْنهم أضعف إذا لاحظنا فروق العمر بينهم ، والأطباء يقولون : إنهم يطيقون الصوم

(*) نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

غير قادرين كما كان يتحمل آباؤهم من قبل . وترى الصَلَع يكشف عن رؤوسهم قبل ميقاته . والحفَر (١) يفتك فى أفكاكهم فيقتلع أسنانهم فى شبابهم ، وإذا قِست مِرَّتهم (٢) وامتحنتَ شدتهم وجدت نقيض آبائهم . فآباؤنا على الرغم من حياتهم المهوشة كانوا يتكبدون المتاعب ، ويتجشمون المصاعب التى يعجز رجال الحاضر القانعون عن مقاومتها ، فمع إسرافهم فى الشرب وأكلهم فى مواقيت متباينة ، وعدم اهتمامهم باستنشاق الهواء النقى ، وقلة اكتراثهم للنظافة ، كانوا قادرين على العمل المضنى ، ولا يمسهم اللُّغوب (٣) على تقدم سنهم ولا يصيب صحتهم ضُرّ . ألا ترى لذلك شاهداً ؟!

تأمل فى رجال القضاء والمحاماة ، ولا أذهب بك بعيداً . خذ واحداً من شبان العصر الحاضر ، وآخر ممن سبقه بثلاثين عاما مثلا تجد الفرق ملموساً . بل انظر لقاض وابن جيله المهندس أو الجندى تر الكلال والملال لابسين الأول ، والآخر متسربلا النشاط والعافية . ولا يعزُب أن هذا القرين المهندس أو الجندى أقل صلابة وأضعف بنية من أبيه الجوَّالة على الجسور ، الطائر الطليق ، الزارع لفضاء الأرض ، كيف يكون هذا حالنا ؟ ونحن المُعْنَى بأجسامهم ، الآكلين اعتدالا ، الشاربين تقتيراً وتقطيراً ، المجددين هواء ، المطهّرين أجساداً ، السائحين تروضاً ، الجوّابين بلاداً معلومة تكاد تكون ضرورة ، العالمين بشىء من الطب ، قد جهله أولئك الآباء — ترانا نخفق فى جهادنا . ولا نظفر بالصحة

---

(١) داء يفتك بالأسنان .
(٢) قوتهم .
(٣) التعب .

لا كما يَعْلَق الغريق بحِطَمَةٍ (١) فُلك حتى لا يبتلعه الماء . وكلما تشبثنا بقانون الصحة — زاد ظهور ضعفنا عن أجدادنا الذين جهلوا الطب . ورضخوا (٢) أغلب قواعد الصحة . وهم لا يشعرون .

فان كان هذا حالنا فما يكون حال الأجيال المقبلة ؟!

فما تأويل هذا ؟ أكثرة الغذاء فى الماضى كانت أخف ضرراً من قلته التى شاعت بين الناس فى هذا الزمان ؟ ألعدم صلاحية لباسنا لأقليم بلادنا ؟ أللتشديد على الأولاد فى لعبهم وحرمانهم من حرية الرياضة بفكرة التنعم الفاسدة ؟ إنى أعتقد أن كل واحد من هذه الأسباب اشترك فى الأجرام على أبداننا . ولكن هناك مؤثر أكبر ضرراً ، وأعظم وبالا من أى سبب مما علمتم . ألا وهو الأجهاد العقلى .

هذا الزمان اشتدت فيه الحال بالكبير والصغير . والضيق مطرد تزداد حلقته اقتراباً من المركز تكاد تعصر الناس عصراً . ففى كل الحرف والصناعات والفنون وجميع طرق التعيش أصبحت المزاحمة بالمناكب ، والعراك بالرؤوس ، فصار المرء وقوته وكفايته تحت مطارق الاختبار . ولكى يفسح الفتيان لهم مكانا بين هذا الجلاد المحتدم ، والعراك المنتشب رأى الموكلون بأمرهم أن يثقلوا عليهم بدراسة أشد قسوة من الزمان الفائت فتضاعف بذلك العذاب . فالآباء الذين يتصارعون على الحياة . ولا يرضون أن يغلبوا على أمرهم . ويداسوا بأقدام نظرائهم ، والذين عليهم حاجة أبنائهم وقضاء حقوق تربيتهم وترشيحهم لميدان قتال الحياة العنيف ـ تراهم يكدون ويكدحون من مشرق الشمس إلى مغربها . ولا يروضون

---

(٢) ما بقى من أجزاء السفينة بعد تكسرها وغرقها .
(١) كسروا .

أنفسهم إلا قليلا . ولا يأخذون قسطهم من الراحة فيخلفون أبناء ضعافاً . وهؤلاء ينزلون إلى حومة العمل بلا درع ، وهم لا يقومون بأيسر الشغل . فيكرهون على دراسة أطول وأعسر مما كان يدرس آباؤنا الأقوياء فى الجيل السابق .

إن سوء العقبى لواقع . فأعِدُّوا له ما استطعتم . واحذروه أو أنكم تَعْتَقِبون منه ندامة . إن ذلك أحمد عقبى .

أفلا تنظرون إلى أيمانكم وشمائلكم ؟ ! أينما تكونوا تسمعوا شكوى الآباء من إرهاق أبنائهم من الجد فى الدرس . فمنهم من يتولاه الضعف فينقطع عن العلم عاما . لأصلاح ما فسد من بنيته . ومنهم من يعروه احتقان فى المخ ، قد لا يزول . وإن زال ترك مخاً يُطيق الدرس الطويل . ومنهم من تعكهُ (١) الحمى من ألم النصب فتُغمِطُ (٢) عليه أو تردُه غِبًّا (٣) . وهيهات إن أقلعت .

إنى أذكر وقائع يعرفها أهل الطلبة ، وأقرانهم . قد سنحت لى الفرصة بملاحظتها ـ لا أمثالا مخترعة ـ لأبرهن على قولى ، إن شئت عدها ، لا أحصيها . فكم من طالب قد أسقمه الدرس ، وجنى عليه اجتهاده . فأودى بحياته . إنى أعرف عدداً ليس بالقليل . قد قضوا شهداء نظام التعليم المضنى . والآن أرى شابا يسكن البلد الذى أحل به قد أتلف الدرس بنيته حتى بات لا يستطيع حراك الفتوة ، ولا مرح العنفوان

---

(١) أضعفته وأمرضته .

(٢) تدوم وتلازم .

(٣) حمّى متقطعة .

ولا نشاط المرير . واليوم وقد أكمل التعليم فهو حرَض (١) قد طال سقمه وهمه ، وأصبح مدنفاً (٢) قَهِماً (٣) يأجَم (٤) الطعام فترتد شهوته عنه . إذا جسست أطرافه ألفيتها كالبَرد فى جمرة الصيف . يضاعف مشيُه ضربات قلبه ، وإذا صعد فى سُلَّم كاد قلبه يطير من صدره لخفقانه . قد ذبل عوده . ووهن عظمه . وضعف بصره . فضاعت أيامه . وأضاع حياته ، فلا نفَع ولا انتفع .

إذا كانت هذه العلل المستفاضة . فكأى من عاهة خفية لم تفشأ ، وإذا عرف الطبيب أن المجهود العقلى هو سبب نهوك من براه الداء وثابتَه (٥) سقمه . فكم من آفة قد خامرت الجسم ولم تُدركه حتى يظهر عليه الوصب ، ولكنها تنخر فيه . وكم من حال نتج منها اضطراب وظائف أعضاء الجسم ، ونسبت إلى علة خاصة أو إلى ضعف البنية ، وكم حالات تأخر أو توقف فيها نمو الجسد ، وحالات سرى الجسد فيها إلى الضمور والانحلال . وأخريات أعدته أو أصارته هدفاً للآفات العصبية التى جنى بها الآباء على أبنائهم من عملهم الشاق وشغلهم بالدنيا . ومن عرف فشو الأمراض التى كان سببها المجهود العقلى بين الماهن والتاجر ألا يفكر فى إرهاق الأولاد وهم صغار ، أجسامهم لم يتم نماؤها فيفهم أنه يجنى على صحتهم ؟

المراهقة لاتحتمل الزهد . ولا الشغل العضلى الشاق والعقلى المنهك

---

(١) مشرف على الهلاك .
(٢) من أثقله المرض .
(٣) قليل الشهوة للطعام .
(٤) يكره .
(٥) لازَم

مثل مايحتمل الرجل الكهل . فاذا كان الرجل يتنأنأ (١) من هذا . فكيف تكون عاقبة الصغير ؟

فاذا نظرنا إلى نظام التعليم القاسى فى بلادنا لاتأخذنا دهشة من أضراره الجسام . ولكن الدهشة من أنه كيف يحتمل ؟ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها .

خذ مثالاً من التعليم الابتدائى . فالتلميذ يضيع من يومه ست ساعات فى الدرس ، وساعتين على الأقل فى بيته فى المذاكرة ، وساعة أخرى يقتلها التلميذ فى أوقات الفسحات بين أزمان العمل . مع أن بعض التلاميذ يبكرون مع فجر اليوم لتحضير دروسهم ، وأساتذتهم يشجعونهم على ذلك . لأن همهم نجاح أبنائهم فى الامتحان . فيستعجلونهم ويرهقونهم ، ولايبعد أن بعض التلاميذ يخصص من اثنتى عشرة إلى ثلاث عشرة ساعة فى اليوم للشغل العقلى : وبجانب هذا ، فالمخصص من الوقت للرياضة البدنية فترتان فى كل أسبوع لا تتجاوز كل منهما نصف ساعة ، متى وجدت العدة الكافية لذلك . فلو قسمنا تلك الساعة على أيام الأسبوع نجد عشر دقائق مخصصة فى كل يوم للرياضة البدنية ، فانظر إلى هذا الفارق العظيم بين ساعات الشغل ودقائق الرياضة . أظن أننى لست فى حاجة لأن أكون نبيا لأتبين الضرر من هذا النظام ، مع أن المدبرين تربية أبنائنا غافلون عنه ، أو أنهم يعرفون ويتغافلون ، أو متحققون ويتعمدون . وذلك هو نظام المدارس الأميرية التى تحت ملاحظة أناس مستنيرين من أبناء العصر الحاضر . إن ذلك لشىء عجاب ! ! فما بالك بالمدارس الحرة المفروض فيها عدم الترتيب والنظام ؟ ! .

---

(١) ضعف واسترخى .

أضيف إلى هذا صعوبة الامتحانات مع ضيق الوقت المخصص لتحضير المواد . حال توجب على التلميذ أن يجهد نفسه ويحمل مُخَّهُ ما لا طاقة له به ، فالضرر بلا شك واقع .

فماذا نقول فى هؤلاء الذين يسنون مناهج التعليم ؟ أفى قلوبهم قسوة ، أم أنهم يجهلون ؟

وقس على ذلك منهج التعليم الثانوى . وهاتان المدتان من التعليم هما زمن النمو والتكوين .

لئن أعجب الأساتذة أن ينمو عقل التلاميذ بتلك السرعة الفائقة ، فلا يُعجب آباءهم أن تنمو عقول أبنائهم ، وتضمحل أجسامهم فيدركهم الموت ، وهم فى شرخ شبابهم .

على أن سرعة إنماء العقل مع إهمال تربية الجسد وحرمان التلميذ من التوازن بين الشغل العقلى والرياضة البدنية المعوضة لما يفقده الانسان — قد يؤدى حتما إلى كلال المخ ، بل إلى جموده وتحجره بعد إتمام دورة التعليم ، فكأننا أتممنا فى الحياة وأعددنا لها — كما نتوهم — عدة ، فكانت سبباً فى الموت المبكر ، وثقفنا عقولا لنحصل على العلم ، فكانت مواد التثقيف مخربة ناسفة للمخ .



توازن المجهودين «*»

لا خلاف فى أن المواهب تتقوى بنظام وترتيب بنسب يجب أن تتفق مع تقوية وضعف الجسم . فان تعادلت النسبتان فقد أحسنَّا عملا ، وإلا خسرنا خسارتين . الجسم والعقل . وإن رجحت إحدى الكفتين وربحنا من جهة أصبحت الكفة الأخرى مرجوحة ، وخسرنا من الجهة الأخرى .

لاتنسوا أن قوة الجسد الحيوية تصل فى وقت ما إلى حد . ومحال بعد ذلك الحصول منها إلا على قدر معلوم . ولا يفوتكم أن هذه القوة عامل مطلوب بالحاح فى سن الفتوة والشباب ، من جهات كثيرة . إذ يلزم تعويض ما يفقده الجسد بسبب الحركة والرياضة البدنية والشغل العقلى فى الدراسة . ويلزم زيادة هذه القوة الحيوية لنمو الجسم ، وزيادة أخرى لتنمية المخ « العقل » ، وأكثر من هذا فان الأولاد فى حاجة إلى قدر من تلك القوة ، لهضم الكمية الغذائية الزائدة الضرورية ، لتعويض كل هذا . فاذا صرفنا جزءاً عظيما من هذه القوة فى مصرف من هذه المصارف أحوجتنا الضرورة إلى الاختلاس من الينابيع الأخرى .

ألا تعلمون أن أكلة مشبعة قد استفاه (١) فيها الأنسان تستنفد قوة كبيرة فى هضمها ، فيخمد العقل ، ويهمد الجسم ، فيثقله النعاس .

إن الطبيعة خير حاسب ، وأحفظ سجل . فاذا طلبت منها أن تنفق

---

(١) اشتد أكله وشربه بعد قلة .

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

أكثر مما يجب صرفه ، فلأجل أن تسوى ميزان الحياة وجب عليها أن تنقص من جهة أخرى ، فاذا تركتها حرة . ووفيتها حقها من المواد الغذائية المناسبة لكل سن . والتى يستق منها الجسد . نما الجسم وكبر العقل . وأنجبت لنا إنسانا مستكملا .

كلنا يعلم أن الأفراط فى الرياضة البدنية يضعف قوة التفكير ، وأن المجهود الجسمانى العظيم الوقتى فى عمل شاق - يضيع الميل للشغل العقلى . لأن الجسم بعد التعب يطلب الراحة ، ليعود إلى حالته الأولى . ألا ترون ذلك فى المزارعين الذين يقضون حياتهم فى الشغل العضلى ؟ إن نشاط عقولهم غير كبير .

إن التضاد فى استعمال القوى ملموس بيِّن . أفلا تنظرون إلى الحركة العنيفة بعد الأكل ، كيف أنها تُوقف (١) الهضم . وأن الأولاد الذين يجاهدون فى عمل شاق . وهم صغار ، يشحب لونهم وتخبث نفوسهم ، فيعيشون وَصابى (٢) ضئالا . فينتج من هذا أن زيادة المجهود من جهة نقصان من جهة أخرى . والنتائج التى تنجم عن رضخ (٣) هذا القانون العام لا تتغير سواء أكانت بعد مجهود عظيم وقتى أم مجهود بطىء متواصل . ويتبع ذلك بالطبع أنه إذا أسرفنا فى الشباب فى الشغل العقلى ، وزدنا على القدر المناسب حسب استعداد الطبيعة ، فالمعوض من الجهة الأخرى ينقص . ويختل التوازن ، فيصاب المرء بأضرار شتى .

تعالوا معى نبحث فيما يمس الأولاد من شر . ويصيبهم من خير . فاذا لم يزد الأجهاد العقلى عن قابلية المخ إلا يسيراً ، فلا يعتقب الجسم

(١) كما جاء فى القاموس المحيط للفيروازابادى
(٢) جمع : المفرد : وصب : وهو الذى به وجع .
(٣) كسر وخالف القانون

إلا تأثيراً ضعيفاً فى نموه ، فالقامة تظل أقل طولا مما كان يحق لها لولا تلك الزيادة ، أو أن البدن يقل امتلاء ، أو الأنسجة تنقص متانة . وإن لم تقع تلك العواقب مرة فلا بد أن يصيب الجسم إحداها ، وفى الواحدة منها الكفاية ، وما ذلك العيب إلا نتيجة توارد الكمية الزائدة من الدم إلى المخ ، للقيام بالمجهود ، ولتعويض ما يكون قد احترق من المادة المخية ، فتلك الكمية من الدم كان الأولى بها أطراف الجسد وأعضاؤه أو نماؤه . وإصلاح ما خسر منه ، ومن أجله تجهز الدم ، ولكن لم يتيسر ذلك الأصلاح .

فهل ما يربحه الأنسان من المعرفة يعادل ما خسره ؟ وهل نمو الجسم وسلامته وصلابته والمتاع بالعافية تساويها المعرفة التى كسبها الأنسان ؟ وقد قيل : « صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان » فما بالك بالقليل من العرفان !؟

وإذا زاد المجهود العقلى كانت النتائج أسوأ ، لأنه يضر سلامة الجسم وسلامة العقل . سنة الخلق التى تقضى بأن الزيادة فى طرف يقابلها نقصان فى طرف آخر ، والأفراط فى جهة عاقبته الخسارة من جهة أخرى .

الطبيعة أسها الائتلاف ، فاذا اختلف وئامها كان التضاد العامل فيها . لقد لوحظ فى الشاطّ (١) والقزم (٢) من الناس التضاد بين المـَدَادة (٣) والمرّة (٤) وقد تقدم أن الأفراط فى إحدى الحالتين يوجب

---

(١) الطويل القامة .
(٢) القصير القامة .
(٣) الزيادة فى الطول .
(٤) القوة فى البنية .

(تطلق المدادة : على الزيادة فى الطول ، والمرة : على الشدة فى البنية)

توقيف او إعاقة الأخرى . انظر إلى الدودة واليَسْروع (١) الذى يتسلّخ (٢) منها . فالدودة يزيد حجمها بسرعة ، ولكن بنيتها تكاد لا تختلف عند تمام حجمها عما كانت عليه وهى صغيرة . واليسروع بعد تسلخه لا يكبر حجمه ، بل ينقص فى الوزن . فى حين هذا الدور من حياته ، أما بنيته فسرعان ما تشتد .

ألا إن التضاد البين فى هذا المثل أقل ظهوراً فى الكائنات الراقية لأن نموها يحصل فى المدادة والمرة معاً ، على أن هنالك مثلا محسوساً على صدق هذه النظرية . فاذا وازنا بين الذكر والأنثى من الأناسى (٣) نرى البنت ينمو جسدها وعقلها سريعاً ، ولكن استكمالها يقف قبل أوانه ، إذا قسناه بنمو الغلام الذى يحصل بطيئاً ، إلا أنه يمكث طويلا ويذهب بعيداً .

ففى السن التى تبلغ البنت فيها نضوجها ، يكون الغلام غير تام البنية لأن قواه تعمل فى تلك السن ليطول . وما أظهر الأمر فى نزقه (٤)، وخرقه (٥) كما هو ظاهر فى تركيبه الطبيعى .

وبما أن هذا القانون صحيح حكمه على البدن ، وعلى كل عضو فيه ، فالزيادة الشاذة فى مرة عضو تنقص فى مدادته أو توقفها قبل الأوان . وإذن يسرى حكمه على عضو التفكير ، فالمخ الذى يكون حجمه فى

---

(١) حشرة تتشكل من الدود قبل أن تصير فراشة

(٢) تشكل وانفصل

(٣) جمع انسان

(٤) الطيش والخفة عند الغضب .

(٥) ضعف الرأى .

سن الشباب كبيراً بنسبة العمر يكون ناقص المتانة في تركيبه . فلذا أجهدناه يبلغ رقياً غير متناسب مع العمر ، ولكن النتيجة النهائية أنه يظل أقل حجما ، وأضعف شدة ، مما كان يصل إليه ، لو أننا لم نجهده وهذا أحد الأسباب ، بل السبب الأول فى كون الرابين (١) من الأولاد والفتيان ، الذين ثبتوا على رأس إخوانهم وفى صدر صفوفهم يسقطون ، وتنقلب حالهم . وتذهب آمال أهلهم ، بعد أن اعتمدوا على حذقهم الوقتى . وياليت مصيبتهم تقف عند هذا الحد . بل إن النتائج السيئة التى تنتاب الجسم أعظم من فقدان القوة الفكرية : صحة مضطربة ، جسم رخو ، هزال ، اضمحلال قوة وقد صار فى علم كل واحد تأثير المخ فى وظائف أعضاء الجسم . فالهضم والدورة الدموية وكل الظواهر فى الحياة العضوية تتأثر ، بل تصيبها الأعلال(٢) من تنبيه المخ الشديد .

من منا لم يخفق قلبه فى ساعة حزن ، أو فرح . أو لسماع خبر ينتظره ، أو لرؤية شخص محبوب ، أو مكروه يرتقبه . بل إن بعضنا يذهب قلبه شعاعا(٣) ، وتقف دقاته فرقا(٤) ، ويضيع رشده إغماءً . فمن هذا علمتم اتصال المخ بالأعضاء ، وهو يؤثر أيضا على الهضم عندما يزيد عمل المخ على حد مخصوص ، فيفقد الأنسان الشهوة للطعام من شدة الفرح ، أو الحزن . وإذا وقعت الحادثة بعد تناول الطعام بزمن ما طردت المعدة الغذاء أو هضمته بصعوبة .

---

(١) التامين قبل الأوان .

(٢) جمع : المفرد : علة .

(٣) حيران لايتجه لأمر جزم .

(٤) الفزع .

فالتنبيه الحاد الوقتى للمخ ينجم عنه اضطراب حاد وقتى فى الأعضاء ، والتنبيه غير الوقتى المستمر يعقب اضطرابا غير حاد ، ولكنه يزمن ويثابت الجسم . فكم رأينا عليلا احتاج إلى سنين للراحة ، حتى يبل(١) من علته الناتجة عن المجهود العقلى ، والشغل الفكرى المضنى ، فتارة يعلل قلبه لضعف دقاته ، ومرة يطبب معدته لنقص عصيرها ، وعسر هضمها : عسر الهضم الذى يجعل الحياة ثقيلة ! !

والزمن هو الكفيل بشفاء هذه الأدواء ، وتارة يمرِّض القلب والمعدة معاً . فينام الناس ملء عيونهم ، وأولئك المعلولون لاتأخذهم سنة ، مهجعهم الأرق ، وغطاؤهم السهد ، ووسادتهم الهواجس والظنون تراهم يغمضون أجفانهم فتحسبهم رقوداً وهم أيقاظ .

ألا تقدرون مايصيب الأولاد والفتيان من إجهاد عقولهم ؟ ألا يكون نصيبهم خسارة أنفسهم ؟ أو إصابتهم بداء ؟ وأهون تلك الشرور فتور القوى ، واضمحلال الجسم ، فيعيشون ولا غرض لهم للطعام بشهوة كشهوة الصحيح ، متقلبى الأميال بمعد مضطربة الهضم ، ودورة بطيئة فى عروقهم . فهل مع هذا تنضر صحتهم ؟ !

ولكى تقوم أعضاء الجسم بوظائفها ، يجب أن يرد لها دم غنى بمادته غزير بكميته ؛ فبدونه تعطل الأعضاء ، فلا عضلة ولا غدة (٢) ، ولا عصب من الجسد يتغذى ، فيقصر كل منها عن القيام بواجبه ؛ ويصبح الأنسان بلا صلابة فى لحمه ، ومتانة فى نسيج بدنه .

---

(١) يبرأ من مرضه .

(٢) عقدة فى الجسد تؤدى عملا خاصاً .

فهل من العقل أن تحمل عقول الأولاد فى نشأتها ما لا طاقة لها به . فان قال قائل : إنى أحرض على كراهة التعليم ، وأحبذ الجهل ، فانى أسأله مافائدة العلم إذا صح أن يكتسب على هذا النمط ؟ وما أملنا فى متعلم هو ميت بين الأحياء ، لا استفاد ولا أفاد بعلمه ؟ ومع ذلك ، ألا يعلم هذا المعترض أن العقل كالجسم ، ليس فى استطاعتـه أن يحفظ كلما يعرض عليه ، إذا استعجل وأكره على قبوله ، وهو غير مستعد له ؟ ألا يطرده ويمجه ؟ بل تتكون فيه كراهة الكسب .

إن الغرض من تثقيف العقول ليس تكديس المواد فى المخ ، بل تكوين القوة الفكرية ، وأصالة الرأى ، والأدراك . وأنا أرجو المعلمين أن يشـفقوا على جسوم أولادهم ، ويتقوا الله فى صحتهم ، لأن مدار الحياة الخارجيـة النشاط ، والأقدام ، والثبات فى العمـل ، لا المعرفة الواسـعة مع الضعف والوهن . والفقر خير من غنى قـد شابَهُ الألم المستمر ، والعنـاء الدائم . على أن الأوصاب تسـبل ستاراً مظلماً على أهنأ عيشة . والصحة والفرح يطليان الحياة بطلاء ذهبى حتى فى البؤس .

فينتج من هذا أن الأفراط فى التعليم معيب من جميع الوجوه ، لأنه يكسب علماً سريعاً ويذهب سريعاً ، معيب ، لأنه يولد كراهة العلم . معيب ، لأنه يهوش ترتيب العرفان الذى هو أهم من كسبه . معيب ، لأنه مضعف للقوى الفكرية ، التى بدونها يضيع نفع كل ذكاء . معيب ، لأنه مخرب للصحة التى بدونها يضيع العلم .

إن التحصيل بتلك الطريقة شر على الأناث منه على الذكور ، إن أمكن تعليمهن كما يتعـلم الرجال ، لأنهن محرومات من الرياضة البـدنية الكافية المفرحة التى تلطف أضرار التغالى فى الدراسة . فالبنات تصيبهن

تلك الأضرار موفى قسطها . ولذلك نجد نسبة النمو الكامل والصحة فيهن صغيرة . فاذا وقع نظرك على مأتم(١) منهن ترى الوجوه الشاحبة ، والترائب المقوسة ، والصدور المنبعجة ، والقدود المشوقة ، وهذه النعوت مكروهة فى خلق النساء ، وقد تحرمهن السعادة ، فلا تنفعهن معارفهن الواسعة .

فالأمهات الراغبات فى جعل بناتهن خالبات باتباع هذه الطريقة ، يسلكن سبيلا غير مأمون ، ولا محمود العاقبة ، لأنهن يقضين على أجسام بناتهن فى تربية عقولهن .

قد يخال لى أن تلك الأمهات ينفرن من ميول الرجال ، أو أنهن يتوهمن غير الحق فى تلك الميول .

الرجال لايبالون كثيرا بتبحر الأنثى ، ولكن يفتنون بجمال خلقها ، وحسن خلقها ، وسلامة ذوقها . أرونى كم مرة سلبت المرأة الأديبة فؤاداً ، بواسع علمها ، وشغفت الرجل حبا بتعمقها ؟

من ذلك الرجل الذى مات حبا فى فتاة لأنها تعرف لغة ؟

وما جنّ قيس بليلاه لعلمها بمواقع النجوم . وسُلِبَ جميل ببثينة لدرايتها بطبقات الأرض ، وفتن كثير بعزته لطبها ، وتعشق عنترة عبلة ، لمعرفتها بتخطيط البلدان وتاريخ الأمصار . ولكنه المحيا الجميل ، والخد الأسيل ، والطرف الكحيل ، والشعر الطويل ، والخصر

---

(١) اجتماع خطير للناس

النحيل . والهيف . والشكول (١) . والقـُطوف (٢) . والرشاقة . والنضارة والروح الخفيفة .

اضربوا لنا مثلا بأن العلم وحده العارى عن حسن الخلق والخلُق كان شباكا لطير قلوب الرجال . وفخّا لقنص الأفئدة . إنكم لا تجدون . وإن وجدتم فأقل من النادر .

والحقيقة أن الحب كثير أسبابه ، وأشدها لعبا بالروح هو جمال الخَلق . فحسن الخلُق ، وأضعفها التعليم . وإذا كانت هذه الحقيقة مؤلمة ، وظن بعضهم أنها مزرية بالرجال فهم لا يدرون ما يقولون . ويهرفون بما لا يعرفون ، ويجترئون بافترائهم على الله وسنته فى خلقه . فأذا غابت عنا حكمة الله سبحانه وتعالى ، فالمحقق أنه فطر الناس على ذلك ، لأمر نافع للعالم ، ولو تأملنا لوجدنا أن الله خلقنا لا نعلم شيئا . والانسان الأول كان جهولا . فلو كان العلم هو سبب ميل الذكر للأنثى لانقطع النسل ، ولم يوصل حبله إلينا . وإذا قيل إن الغاية تثقيف العقل فى خلق قبيح ، وإنسان ضعيف ، لانقرض ذلك الأنسان بعد جيل أو جيلين . ولكن الأنسان المرير ، والخِلقة القوية مهما وصلت درجتهما من الانحطاط فى العِلم فهما خير وأبقى لانتشار العالم من انتشار العلم . ولئن حرم جيل من العلم فسيكسبه الجيل المقبل ، فتتحقق من ذلك علة الفطرة التى فطر الله الناس عليها . فمن يخالف هذه الفطرة بتحسين القوة الأدبية فى الأنثى ، وبأتلاف بنيتها ، وتشويه خَلقها ، لتكون أدبية ـ فقد أجرم وهو يظن أنه يحسن صنعا .

---

(١) جمع : المفرد : شكل : دلال المرأة .

(٢) دقة المشي .

علموا البنت كما تشاءون . ولكن لا تؤذوها فى جسدها وخلقها بالأفراط فى تعليمها . وإذا غاليتم وبلغتم حد الغاية التى تفسد معها طبيعتها فقد فقدتم ثمرة تعبكم ، وذهب ما أسرفتم من ذهب ، وضاع مستقبلها بأضعاف قوتها . وربما قضى عليها بالعُنُوس(١) . كذلك قصرت التربية الجسدية فى بلادنا فكانت ضارة بالنَّشأ ، وبالتبع بالأمة سواء من نقص الغذاء ، أو مخالفة اللباس ، أو عدم الرياضة البدنية تقريبا ، ولا سيما فى البنات ، أو الأفراط فى المجهود العقلى . فمنهج التعليم فى مجموعه منهك يغرم الأنسان فيه كثيرا . ويغنم قليلا . جاعل حياة الصغار بما يفقدونه من القوة الحيوية شبيهة بحياة الكبار ، الأمر الذى لا يجب أن يكون ، لمخالفته لترتيب الوجود .

أتنسون أن الجنين فى بطن أمه تعمل كل القوة الحيوية فى تقويمه ، وبعد وضعه تعمل فى إنبات لحمه وإنشاز عظمه حتى يصير صبيا ، فيافعاً ففتى ، ومتى بلغ أشده ، وناهز سن تمام النمو ساغ أن يستنفد معظم القوة الحيوية فى العمل العقلى ، لأن المدَادة والمرّة هما أصل صلابة الجسد ، وهذه تقتضى غنما أكبر من الغرم . وإذن يتحتم إقلال الشغل العقلى قدر المستطاع حتى تأخذ المسَدَادَة حدها .

ألا إن هذا الغلو فى الأجهاد العقلى لهو سيئة من سيئات التمدن الذى نتزل فى ميدانه بلا ترو ولا بحث .

إن العصور الأولى كانت تقيس نشاط الهيئة الاجتماعية باغارة القبائل بعضها على بعض وكانت القوة الجسدية والجرأة عنوان الشرف والمجد . ولذلك كان الناس لا يرغبون إلا فيهما فظلت التربية جثمانية .

---

(١) اطالة المكث من غير زواج

وقل من يبالى بالعقل وتهذيبه . بل كانت القراءة والكتابة من المهن المزرية كما كان فى عهد المماليك مثلا ، والملتزمين فى مصر . وبقى أثرها للآن فيما ترى فى بعض دور الموثرين من الوكلاء والكتاب . وهم يأنفون من إدارة أعمالهم بأنفسهم . ولما كانت حالتنا الاجتماعية الآن هادئة ، والسلام منتشراً بالقياس إلى الزمن الخالى ، والقوة العضلية لاتستعمل إلا فى الأعمال اليدوية ، وأصبح الرقى تبعاً للقوة العقلية — انقلبت الحال وكادت التربية تكون عقلية صرفة .

فالعصر الخالى كان يحترم الجسم ، ويزدرى العقل . وعصرنا يحترم العقل ، ويزدرى الجسم . وكلا العصرين مخطىء ، فلا ترك العقل بلا تثقيف ، ولا ترك الجسد بلا تهذيب يكوّنان أمة . ويجب أن تتخذ بين ذلك سبيلا .

متى يعلم المصريون أن إتلاف صحة أبنائهم ذنب عظيم ، وجريمة لاتغتفر ، وأن على وطنهم إجرامهم . وهم لايشعرون ؟



التعليم «*»

العلم جميل ونافع . والصحة أجمل وخير منه . والجهل قبيح وضار ، والضعف أقبح وشر منه . فالعناية بالصحة يجب أن تكون مقدمة على العناية بالعلم . وكل طريقة فى التعليم تؤدى إلى إتلاف الصحة ينبغى تركها . فهل طريقة التعليم فى بلادنا خالية من هذا العيب ؟

إنى لاحظت منذ كنت طالباً فى أدوار التعليم الثلاثة ، وبعد أن تخرجت — أن القائمين بوضع المناهج وتحديد مدة كل دور كانوا يزيدون فى بعضها ، ثم ينقصونها . ويطيلون فى أخرى ، ثم يقصرونها . حيرة بلا داع ، وتردد بلا سبب ، إذا كان القصد تكوين الجسم مع تكوين العقل !

ولقد كانت أكبر الحيرة فى دور التعليم الثانوى . سواء من جهة المدة أو المواد . فمرة يجعلون مدة التعليم خمس سنوات . ومرة أربعاً وأخرى ثلاثاً . وتارة يعيدونها إلى إحدى تلك المدد . وكذلك الحال فى مقدار المواد . فطوراً يكون المنهج طويلا ، وآونة يكون قصيراً . إنى أقصر البحث فى مدة الدراسة ، وكمية المواد . بغض النظر عن نفعها !

التعليم فى بلادنا ينقسم ثلاثة أقسام : الدور الابتدائى ، والثانوى ، والعالى أو التخصص . والذى يهمنا فى الثلاثة الأقسام ، الدور الأول والثانى . لأنهما يستغرقان معظم سنى النمو التى يجب أن يربّى فيها الجسد التربية الصحيحة .

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

كل من لاقيت من أساتذة المدارس الابتدائيـة ، وسألته عن مقرر المواد التى تدرس ، وتناسبها مع الزمن — أجابنى : بأنها أطول من أن تسعها أربع السنوات المحدودة للتعليم . فكنت أذكر ماتلقيته أنا وأقرانى فى هذا الدور من ثلاثين سنة فتأخذنى الدهشة . وأقول فى نفسى . ألم يرزق الله هذه الأمة من ذلك العهد إلى الآن — من يهديها ؟ ويحسن حال التعليم فيها ؟ !

يجب أن لا يبتدئ الصبى فى التعليم إلا بعـد إتمام الثمانى السنوات من عمره . حتى يكون قد وصـل إلى سن التمييز ، وبدأ يشعر ببعض الواجبات التى منها أن يكون متعلماً .

يجب أن لايحس الصبى أن التعليم عقوبة . وأن المدرسة دار الأشغال الشاقة ، بتكليفه استيعاب كمية من الدرس فوق طاقته ، بالرعب والرهبة . فتكون سبباً فى تعب مخـه وكلله ، وهو مَرِن . وتكون النهاية أنه ابتـدأ سليما جاهلا ، وانتهى معلولا فى آخر الدور الابتـدائى . وكل ما كسب أنه ألم ببعض مبادىء العـلوم التى لا تنفعـه ، بل التى أضرته ماديا وأدبيا .

وعندى أن مدة التعليم الابتدائى ، يحسن أن تكون خمس سنين ، يتدرج فيها الطالب من الأسهل فالسهل وهكذا حتى لا يضجر ، وأن لايدخل التلميذ غرفة التدريس إلا ثلاث ساعات . وباقى المدة يقضيها فى الرياضة المحلاة بالملاحظات العلمية والأدبية . ويلاحظ فى الرياضة ما كتبته فى هذا الكتاب . وحينئذ نجد أنفسنا مضطرين إلى تلقين الطلبة القدر المناسب . وإن سمح لى بتقديره فأقول : إنه يجب أن يكون نصف المقرر فى المنهج الصادر فى سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩١٣ من « وزارة معارف مصر » .

إن الغاية من التعليم الابتدائى هو تأهيل الطالب إلى التعليم الثانوى لا كما يفهم البعض أن المدرسة الابتدائية معمل تصنع فيه دُمىً (١).. ولعب تستخدم فى أعمال الحكومة. وليس هذا هو الغرض من التعليم على الاطلاق. إنما المقصد محو الجهل من الأمة، ومعرفتها حقوقها، وواجبات كل فرد نحو مُوطنِه. وأهله وذويه. وهذا هو الحجر الأول الذى تبنى عليه كعبة التعليم. والغرض الأقصى الذى يجب أن نقصده ونرمى إليه.

إنى أخال كأن أصواتا تنتشر فى الفضاء من حولى عند تسطير هذا، أصوات الغاضبين الرُّعن: فلا أبخع (٢) نفسى بعد أن جاءتهم البينة، وعرفوا أن إطالة سنة فى التعليم الابتدائى ليست الطامة الكبرى إذا كسب أولادهم عوضا منها الصحة وسلامة البدن والعقل.

من ينكر أن معظم التلاميذ لا يتممون التعليم الابتدائى إلا بعد الثالثة عشرة من عمرهم. والأنفع ليس كسب سنة إنما كسب القوة التى تعين الطالب على العمل وخدمة البلاد.

وإذا أردنا مجاراة الأمم الراقية. والاقتداء بنظامها فى التعليم. فها هى ذى فرنسا تحدد خمس سنوات للتعليم الابتدائى. وهى بلد عانى كثيرا بحث طرق التعليم والتربية.

وكيف تُلاحظ فرنسا ذلك. وهى ذات المناخ البارد الذى يساعد على تحمل عناء الشغل فى أكثر فصول السنة. ونحن فى مصر

---

(١) تماثيل صغيرة من عاج أو غيره.
(٢) قتل نفسه من وجد أو غيظ

تحت هذه الشمس المحرقة فى الصيف . لا نكاد نحس بالفصول فيها إلا الصيف والشتاء.

واعلموا أن اتساع الوقت وتقدير المقرر المناسب كما فصلت نافعان من وجوه كثيرة : أهمها أن الصبى لا ينهك قواه فى الدرس . أنه يتمكن من تحضيره بلا عناء . أن نجاحه يكون فى الغالب مؤكدا . أنه يكسب صحة فيبسط الله له فى العلم والجسم .

وبعد أن يتم الطالب أول مرحلة فى التعليم يدخل فى الحلقة الثانية وهى دور التعليم الثانوى .

هذه الحلقة هى فى نظرى أهم الحلقات من حيث تربية الجسم . فهى وسط الزمن بين ابتداء النمو ونهايته . إذ أن الدخول فيها يكون فى الرابعة عشرة من العمر ، وهى السن التى يعمل الجسم فيها ليأخذ شدته ومَدَادَته . فيجب أن لا يعوقه عائق ، لا أدبى ولا مادىّ ، ومن حيث تربية العقل فهى زمن التأسيس الحقيقى ووضع القواعد الثابتة التى يُشاد عليها بناء التعليم . ويجب أن يتخرج الطالب من هذه الحلقة عويلما(١) ، يعرف من كل شىء ما يرشحه لتخصصه بفنٍ من الفنون . إذا أراد أن يكون طبيبا أو مهندسا أو فقيها أو زارعا ، وما إلى ذلك . ووجب أن تكون مدة التعليم فى الدور الثانوى مناسبة لغزارة المواد على القاعدة التى يلزم التمسك بها . وهى مراعاة تربية الجسد ومساعدته على النموّ والتكوين .

هذا الشوط الثانى من التعليم هو الذى كان وما زال مضطربا مهوّشا فى بلادنا ، سواء أكان من جهة المدة أم منهج التعليم .

---

(١) عالِمٌ صغير

والذى أرى أن يبتدىء التعليم الثانوى من حيث ينتهى الدور الابتدائى ، ويتمشى تدريجيا متصاعدا حتى يبلغ الغاية التى يحدد بها .

أما مدته فيلزم أن تكون سبع سنين ، فيتمها الطالب فى العشرين من عمره وتقسم المدة قسمين بالنسبة لساعات العمل فى المدرسة .

يلزم أن لا يشتغل الطالب فى ثلاث السنوات الأولى أكثر من أربع ساعات فى غرفة التدريس . وباقى المدة يقطعها فى الرياضة حتى وقت الانصراف . وأما فى أربع السنين الباقية فيصح أن يشتغل الطالب من خمس الى ست ساعات باعتبار الصيف والشتاء ، حتى لا يحرم من الرياضة الكافية لتعويض ما فقد من نشاطه . بسبب الشغل العقلى .

رب معترض يقول : إن المدة طويلة !! فأرد عليه بما كتبت من الأسباب فى الاعتراض على مدة التعليم الابتدائى .

هذه الأحصائيات بين أيديكم ترون فيها أن كثيرا من الطلبة يتم التعليم الثانوى فى سن العشرين .

ينبغى أن يكون الغرض من طلب العلم أن يصبح المرء سعيدا فى نفسه ، وهذه السعادة لا يحصل عليها إلا بجودة الصحة ، سعيدا فى فكره ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان جسمه سليما ، وبالتبع عقله سليما ، سعيدا فى رزقه ، ولا يتيسر ذلك إلا إذا كان قادرا على العمل . والقدرة على الشغل تستلزم القوة . سعيدا فى بيته ، ولا نرى هذا الأنسان إلا إذا كان من الذين يجدون الراحة فى مسكنهم ويرمون الهموم خارج دورهم . والعلة همٌ ملازم للأنسان أينما كان ، سعيدا فى أمته ، ولا يكون المرء سعيدا فى أمته إلا اذا قام بحقوق بلاده . وتلك الحقوق مشقة . والمشقة يتحملها القوي .

فانظر كيف أن السعادة مهما تنوعت فهى راجعة إلى الصحة التى لا تكتسب إلا بتربية الجسد .

على أن بعض الأمم الغربية التى أصبحت قدوة حسنة . وبلغت من العلم ما بلغت جعلت مدة التعليم الثانوى معادلة للزمن الذى حددته لبلادنا . وبلادنا فى حاجة تفوق حاجتها إلى تربية أجسادنا وعقولنا التى أهملناها دهرا طويلا .

فأذا ما أتم الطالب تعليمه وصار رجلا قوياً قادراً . أتى بذرية صالحة بما ينقل إليها من المتانة فى تركيب أجسادها ، والسلامة في عقولها .



الوراثة (*)

الولد يرث آباءه فينتقل إليه من مالهم وخَلْقهم وخُلقهم وغريزتهم . إن انتقال الأخلاق بالوراثة هو حجر الزاوية الذى يبنى عليه هيكل تربية الناس .

ليس من المحال أن تكون الوراثة المنبع والأصل فى جعل الأنسان فى أحسن تقويم فى بدنه ، وتسوية فى نفسه ، وتفقه فى عقله . ولا أغالى إذا آمنت بهذا القول الذى لا يأتيه الباطل ، وسكنت إلى أصالة هذا الرأى التى ترفعه إلى مرتبة لا يلحقه فيها ريب . وإذا اتخذنا من دون الوراثة سبباً أصبح كل جيل ، بل كل واحد محتوما عليه أن يستعيد تربية بدنه وتثقيف عقله وتزكية نفسه . وإذا اتبعنا هذا المثال استحال تصور الترقى الدائم والتدرج . أوقد لا يكون شيئاً مذكوراً .

إنْ من شيء فى هذه الدنيا إلا اكتسب وجوده من الزمهرير (١) الذى تحول إلى دخان لطيف ، فدهان كثيف ، فتفتقت منه السموات والأرض ، ثم صارت فى بديع صورها من شمس وقمر وجبال وأنهار وأزهار ونبات شتى .

ارجع البصر إلى الحياة تر كيف كانت نشأتها من خَلِيَّة واحدة خلقت منها أختها فأخواتها . فتدرجت حتى خرج منها كل شيء حى .

---

(١) حال الهيولىَ فى الدرجة البيضاء ، نهاية الدرجات من الالتهاب . وهو الذى أعده الله عذابا للكافرين فى الدار الآخرة .

* نشرت بجريدة الخال سنة ١٩١٧

ألا ترى أن ما يكون قانونا فى ارتقاء العالم وصوره يجب أن ينطبق حكمه على العقل ؟

فالعقل التام إنما هو نتيجة الحركة الفكرية . وهذه الحركة نمت بمرور الحوادث . وتلك الحوادث لم تقع للأنسان مرة . بل وقعت واحدة فواحدة. حتى يرجع الأمر إلى واقعة أولى . هى أولى درجات الحس ، إن هذا الحس الأول هو ما يسمونه بالطبع أو الفطرة . وكم أجهد الحكماء بحثها . وما هى إلا عامل الوراثة . والمحصول الضرورى من تجاريب البشر . أو نتيجة الارتقاء الدائم .

لقد ضل الذين فكروا فى العقل وهو تام واصل إلى كماله . ولم ينظروا إليه ريث ارتقائه . ويرجعوا البصر إلى أوله . وهم يعجبون من ترتيب الفكر . ويقولون : إنه مطبوع فى البشر ، ويحكمون على الظاهر ولا يتبصرون ، ويرجعون إلى نشأته الأولى . وينسون دس الوراثة فى تولد الفكر .

وقد قال الذين حسبوا أن العقل مطبوع بوجوده : إنه مستقل فى ذاته ، ولكن يبطل هذا المذهب بما تقرر من سنة الارتقاء . ويكون العقل مسموعا أو اختباريا ، وقد بلغ مداه بالتدرج حتى صار غريزة بالوراثة. متى علمنا ذلك أمكن الحكم على أن سبب ارتقاء الكائنات هو سبب ارتقاء الفكر . وسهل علينا إدراك أن العلة نفسها هى القاعدة فى نشأة صور الفكر . بل الفكر ذاته . وعليه . فالوراثة تنمى الذكاء فى كل جيل وتؤهله إلى ارتقاء جديد ، إذا اتبع الطريق الموصلة إلى معلومات لم يكن يعلمها من قبل تحتاج إلى تمرين الفكر ، فيصبح العقل كالمخزن يتراكم فيه الحديث على القديم . فيكبر حجم جوهر التفكير ويتسع تهذيبه .

وكلما زاد تهذيب تلك الجوهرة زاد نموها فيكبر المخ فيكمل العقل .

إنما مثل العقل كمثل رأس مال يضاف إليه الأرباح . وتضاف الأرباح بعضها إلى بعض فيتضاعف كمه وكيفه .

فويل للقوم الذين منعوا الخير عن أبنائهم . واضطهد المفكرون من رجالهم . فتهدّم كيان البلاد . فسقطت من أوجها إلى الدرك الأسفل ، وضرب عليها الذل والفقر ، واستحال عليها أن تخرج رجالا عظاما على قدمها ، وسبقها فى الوجود أمما أخرى . ورضيت أن تكون الأذناب ، وقد تركتها تلك الأمم وراءها تستنشق الغبار المثار من جيادها .

يرجع إلى الوراثة نمو الجسم والعقل . وينبع منها تطهير الأعراق والنفوس . فالقرون الأولى يكاد أهلها يكونون محرومين من الحس الأدبى الذى وصل فى الأمم المتحضرة إلى درجة عظيمة . ولم تظهر لتلك الصفات الحسنى : كالرحمة والشفقة وحب الجمال — آثار إلا فى العهد الأخير ، وكذا الشغف بالموسيقى ووصوله إلى كماله ، لم يكن إلا أثر مجهود الآباء ، الذى انتقل إلى الأبناء بالوراثة فأكملوا ضروبها . وربطوا أصواتها . ورتبوا ألحانها باقتفائهم ذلك الأثر .

وهل لشجاعة المتوحشين وبعض الأمم سبب إلا ماورثوه عن آبائهم . انظر إلى خوف الصيد من الأنسان وذعره وفراره من شبحه ، ولو صادفه فى أرض مجزورة (١) ما وطئها إنس من يوم أن دحاها الله .

وإنى مع هذا لا أنكر تأثير التربية العظيم ولا أقلل من أهميته .

إن التربية تعمل كثيراً ، ولكنها ليست كل شىء ، فالوراثة لها على أجسامنا ومعقولنا سلطان أكبر من جميع المؤثرات الأخرى . إن تأثير

---

(١) منقطعة .

التربيـة سريع التغير . فكم من متوحش تربى فى مهد المدنية ، وشرب لبان الحضارة ، وعاش تحت قانونها ، وانتهز أول فرصة إلى الرجوع لفطرته ، وعاد إلى حياته التى ورثها عن آبائه ! وكم من الناس والأمم قريبى العهد بالوحشية ظهرت عليهم شيمتهم من تحت طلاء المدنية . والمتخلق يرجع إلى شيمته . ومهما تثقف الطبع المتكلَّف تعقَّف (١) !

ألا إن توارث العـادات الصالحات فى الأجيال هو السبب الوحيد فى تأصـل الخليقة فى الأنسان التى يرجع إليها قانون الاجتماع الحـالى . لأن ترك العادة صعب . والرجوع عنها شاق . فتصبح تلك العادة بمضى الزمن سنة الأدب ، وتصـير قانونا طبيعيا . لأنه النتيجة الضرورية لملازمة العادة . وبدونه لا يبقى الاجتماع بصـفة دائمة . إن هذا القانون يتغير تبعا للظروف والأزمنة وطبائع الأمم ، كما أن أخلاق البشر تختلف فى الأرض ، ولو أنهم تابعون لشرع واحد وعقيدة واحدة .

واعلموا أن الخطيئة مرادف للجهـل . وما مَـثَـلُ الفنون والشعر والعلم والأدب والفضائل كلها إلا مثل شجرة طيبة بُذرت حبتها ، ثم نمت ، فأورقت بعد علاج طويل ومجهود مستديم من الأمم الخالية ، ثم أينعت وأزهرت ونضجت ثمارها فى آخر الزمن . فالكمال إذا ليس بالشيء الموجود التام فى ذاته المحدود فى صفاته ، المطبوع فى الأنسان من نشأته كما هو عليه . ولـكنه نتيجة سلسلة ترقٍّ فى الأخلاق والعادات توارثها الأنسان من القرون الأولى ، فوصل الى ما بلغ تدريجيا .

إننى لا أجد صعوبة فى الاسـتدلال على أنه ليست قوة الادراك ، والذكاء ، والبراعة هى التى تنتقل بالوراثة دون غيرها ، بل إن الأحساس

---

(١) تعوَّج .

والأميال ، والعيوب ، والأهواء ، وقوة الأرادة ، والتزعزع ، واضطراب النفس . بل الميل إلى الانتحار ـ نجده فى بعض الأسرات وكذا الجنون الوراثى .

وهنالك بعض خواص فى أمم أظهر فيهم من غيرهم ككراهية السكنى بين الجدران فى البدو والرحّالة . وكحب جمع المال فى بنى إسرائيل .

لقد يمكن القول بأن الوراثة هى القاعدة . وعدمها هو الاستثناء ، ويكون التقدم والارتقاء نتيجة عاملين قويين ، أو قانونين عظيمين : الوراثة والتهذيب .

وهما اللذان يعملان فى الفرد لأنه ثمرة الاستعداد الجسمانى والنفسى المنتقل من الأبوين . وعامل المؤثرات المختلفة التى تصادف الأنسان فى حياته . وتلك المؤثرات جميعها أهمها تربية الجسم والعقل التى لها المقام الأعلى .

لاجدال فى أن الوراثة تتبع مؤثرات شتى ، غير التى ذكرت كاختلاف جنس الزوجين . وسلطان الأب والأم ، وتفاوت الأنساب والحوادث الطارئة ، وحالة الرجل أو المرأة النفسية عند المس (١) ، والعوامل الظاهرة والباطنة بعد الحمل وغيرها ، ولذا كان غير نادر أن الاجتماع فى حالة السكر يورث البله فى الأولاد . وإذا بحثنا فى الأحداث المجرمين — وجدنا كثيراً منهم من كان من نسل مدمن على الخمر ، أو مصروع ، أو معتوه ، أو عات (٢) فى الكبر ، وعلى هذا يمكننا تقرير

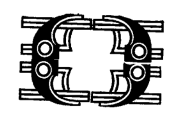
---

(١) اجتماع الرجل بالأنثى .

(٢) جاوز الحد .

إن كل انتقال وراثى نفسى ـ مقرون بانتقال وراثى جسمانى ، أو مسبب عنه ، فلهذا الارتباط تكون الوراثة الجسمانية سبباً فى تسوية النفس أو خبثها ، وتقواها أو فجورها .

فالوراثة إذاً هى أساس النمو والارتقاء . ولكن لاننسى أنها وحدها بلا تنمية توصل إلى قليل من التقدم . كما أن التنمية وحدها تؤدى إلى هذا القدر من التقدم ، ولكن باجتماع الاثنين يرفع الأنسان إلى الحياة التى نراها فى الأمم الحية الراقية .



الاختيار والجبر «*»

إن أهم مايعرض على العقل فى الكلام فى تأثير الوراثة ـ البحث فى تأثيرها على الأرادة .

إن البحث فى إرادة الأنسان طالما كان محل نزاع بين الحكماء وعلماء الكلام . وقد ورد فى بحثها رأيان متناقضان :

الرأى الأول يقول بحرية الأرادة ، واختيار الأنسان لأفعاله بمحض مشيئته .

والرأى الثانى يقرر سلب الأرادة ، وأن الأنسان لا يملك التصرف بمشيئته فى أفعاله .

فأصحاب الرأى الأول يستدلون على صحته بأن السكون والحركة بيد الأنسان . متى أراد فعل . وهذا فى نظرهم دليل محسوس لاتقوم ضده حجة . أما أصحاب رأى الجبر فيقولون : إن إرادة الأنسان تتبع مؤثرات باطنة وظاهرة ، فلا يستطيع أن يختار بين أمرين ، ولا يفضل عمل أحد ممكنين ، بدون أن يكون لتلك المؤثرات عمل فى إرادته . وهم يُدلون بأن الأنسان عندما يعتقد أن فى مقدوره فعل هذا الأمر ، أو ذاك باختياره ، لايكون اعتقاده هذا ثابتاً إلا على ظاهر باطل ، أو خيال لاحقيقة له . والأنسان فى الواقع خاضع للدافع القوى النفسى ، أو الأمر الأكثر ملاءمة للشهوة . وإذاً فمن المحال أن يكون أويحدث مايخالف هذا الباعث .

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

ويدلون أيضاً بأن ارتباط الأشياء بمسبباتها ، أو ما يسمونه بالعلاقة السببية تمنع بتاتا تصور الأرادة المطلقة ، لأن كل عمل نتيجة ضرورية لهذا القانون . ولا يستطيع الفاعل المنفذ له أن يحذره أو يتعداه .

ليس من الفخر لقوة الأدراك البشرى أن تبقى مسألة الاختيار والجبر ، سواء أكانت من الوجهة النظرية أم العملية ـ محلا للتنازع والتناقض قرونا ، ولما يوفق بينهما . ويلبثان متنافرين ، وربما يمكثان كذلك دهراً طويلا .

لا أنكر أنه لتفسير بعض الخلاف القائم يلزم مراعاة ظرف مبنى على عيب فى الشعور أكثر من قصر فى العقول ، أى أنه عند البحث فى حلول المسألة ، يخلط الباحثون فيها أسبابا ينسبونها إلى ما يسمونه نظام الأمة الأدبى ، الذى بدونه يخشى على الهيئة الاجتماعية أن تنهار . ولكن من يبحث المسألة علمياً لا يأبه لاعتبار من هذا القبيل . ولا يكون له فى نفسه قيمة .

فاذا بحث العلم وبلغ الحجة ، وقام الدليل على أن إرادة الأنسان ليست بحرة ، قال أصحاب رأى الاختيار : إنكم تعرضون المجموع الأنسانى للانحلال والانعدام . ألا إن الخوف من هذا الخطر وهمى ، ويجب أن نعمل لترقية الأخلاق وتهذيب النفوس . وكلما وقفنا على المؤثرات الباطنة والظاهرة التى تحدد سلوك الناس . واستطعنا أن نغير فى تلك المؤثرات ـ وصلنا إلى الغاية المنشودة .

لا أنسى أن البرهنة على تقييد الأرادة تجشم الأنسان الالتجاء إلى القضايا المنطقية ، وبهر العقول بقوة الاستدلال ، إذ أن كل ما أحصى من الحوادث ، وضربت به الأمثال على تقييد الأرادة ـ لا يثبت شيئاً

خاصاً بالأرادة الذاتية . ولكنه يبرهن على أن أعمال الناس الأرادية يحملون عليها بوجه عام ، بعوامل تحدث فى ظروف لا تتغير ، قد يمكن أن تكون على شكل واحد ، ووتيرة واحدة ، ومتفقة فى النتائج . فحال الأمة الاجتماعية فى وقت ما قد يكون سبب التأثير فى الأعمال الشخصية أو الأرادة الذاتية . وهذا التأثير يزول عند تغير روح الحال الاجتماعية فالتجربة دلت على أن القحط والأزمات التجارية ، والبطالة ، والحرب ، تؤدى إلى زيادة الجرائم زيادة عظيمة ، وعلى الأخص جرائم القتل والسلب والانتحار .

وترى الزواج يقل وتراه يزيد مع ارتفاع ثمن القطن وينقص مع انخفاضه ، بل ربما أدى إلى التفريق بين الزوجين .

فاذا كانت هذه العوامل ، وكثير غيرها من نوعها تكوّن بعض الأسباب التى تشترك فى تحديد وحمل إرادة الشخص منفرداً عن الجماعة ، فهى ليست الواحدة . وهنالك أهم وأظهر منها يعمل فى ذلك التحديد والحمل ، هو التأثير الكامن فى النفس . ولذلك فالأحصاء لايذكر لنا فى الغالب إلا بيانا مبنياً على الأسباب الظاهرة ، لاعلى الأسباب الباطنة لفعل فردى . وهذا العامل الشخصى لا يذكر فى كل إحصاء .

إن الأرادة الشخصية هى وحدها توطد العزيمة على الخضوع للمؤثرات العاملة فى الأرادة العمومية أو عصيانها . وتلك المؤثرات هى محل الملاحظات الأحصائية .

إن فى الأرادة الشخصية لأسبابا ظاهرة وباطنة . فالأسباب الظاهرة هى الظروف الخصوصية الشخصية التى يحدث فيها الفعل . وأما الأسباب الباطنة فهى التى تنبعث من طبيعة واستعداد الأنسان . أو هى ماتدعى بالشخصية أو بعبارة أخرى بالشيم (١)

---

(١) الخلال والعادات

إن الشيم هى مجموع أشواق وأميال النفس التى بعضها فطرى ، وبعضها مكتسب . وهى السبب المباشر الحقيقى للأعمال الاختيارية .

وأما الأسباب الحاملة (١) فهى العوامل الثانوية « إنما يوزن الرجال بثباتهم وعزيمتهم وقوة إرادتهم أمام المؤثرات التى تفاجئهم بها الظروف » وللوصول إلى معرفة هذه الحقيقة يجب النظر فى الكائنات ونشوئها وتدرجها ، فيسطع نور الحق الذى ظل مخفياً ، وينبلج سبب الاختيار الذى ملك مجهولا ، وكانوا فيه مختلفين ، ولبثت الآراء فيه شتى أكثرها ظنى .

لقد ظهر من أسرار طبائع البشر ، والحيوان ، وتأثير الوراثة ، سواء أكان من جهة الهيولى (٢) والصورة أم العقل - أنه لامحل للقول بأن أنواع الأنسان والحيوان غرائزهم وطباعهم وشيمهم - هكذا خلقت ، وهكذا وجدت فيهم صفاتهم . فأذا عرفنا أن كل كائن هو الحلقة الأخيرة لسلسلة سلالة نشأت ورقت فى أحقاب وآزال قديمة ، فلا يصح لمعرفة الطباع والأخلاق والأدارك والعقل - البحث فى شىء غير الذى كان أصلا فى الرقى الجسدى . وهذا الأصل هو التناسل ، والتعاقب ، والارتقاء النوعى ، ولا شك بعد هذا أن معقول الأنسان وطباعه هما الخلاصة الناتجة ، والثمرة الأخيرة من سلالته ، والظروف التى حصل فيها اجتماع كل حلقة من سلسلة أسلافه . إن من يرث من آبائه التفكير والشعور يفكر مثلهم ، ويريد مثلهم . وإذن يعمل مثل ما كانوا يعملون . فوراثة الأميال والأشواق هى أس أخلاق المرء ، ولكنه

---

(١) المغرية والدافعة .

(٢) مادة العالم بلا كمية مقدورة ، ولا كيفية محدودة .

ذو قلب يفقهُ به ، وعقل يقيس ، وقوة شخصية يميز بها ويتغلب بها عند الحاجة ، ولذا كان العراك الدائم بين النفس والطبع الذاتى : أى بين الشخصية والوراثة ، وبعبارة أفصح بين الأرادة الحرة والقدر .

لقد ينتهى هذا العراك غالبا بانكسار الأرادة الحرة وتقهقرها . ويمكن إيجاز القول أن الطبع الموروث يغلب كل المؤثرات الخارجة مادية كانت أو جسدية .

ألاحظ أن الطباع لاتنبع من الوراثة وحدها . فظروف الحياة الخارجية كالتجاريب والتربية والأسوة والعظة تعمل فى الانسان، فتؤثر فى نفسه ، فيهذب ويتغير . ولكن لاأخشى القول أن الأشواق والأميال الوراثية ذات قوة عظيمة وتأثير لايكافح فى الأنسان والحيوان . وبموازنتهما بأى مؤثر أو سبب آخر ظاهر يكون لهما المقام الأول ، وما دونهما المقام الثانى .

من المستحيل على المرء منفردا أن يغالب هذا الدافع الباطنى إلا فى أحوال استثنائية . فمن يأتى إلى هذه الدنيا وفى دمه الميل إلى فعل الخير والشفقة والأمانة وحب العدل يصير رجلا ذا شمائل رغم الظروف ، وتقلب الأحوال ، إلا فى النادر الذى لاحكم له ، وإن لم يتلق درسا فى الأخلاق ولم يسمع مرشدا ولا معلما .

وأما الذى ورث من آبائه الدعارة(١) والشر والغش والرعونة والمكر والعجب والبخل وحب الشهوات وشرب الخمر والميسر وانتهاك الحرمات والسيئات الأخرى - فلا يرعوى ، ولا يجاهد فى سبيل الخلاص من أمارته بالسوء لمرض قلبه ، وخبث طبعه .

---

(١) سوء الخلق والفساد .

« قل كل يعمل على شاكلته » : أى فطرته ، فكم أخفق الفكر ، وضاع القياس ، وما خِيفَ القصاص أمام الطبع .

فأن رجحت تلك المؤثرات فى النادر فيكون تأثيرها ثانوياً . وهى على كل حال دون الطبع وتأثيره .

انظر إلى محب الشهوات ، ألا تراه يضحى بكل مرتخص وغال ليتناهى فى لهوه . ويُغرق فى زهوه . ولو عدّ من إخوان الشياطين المغضوب عليهم الضالين .

وكم جامع مال أضاع الشرف . وقبر الأمانة بيد الطمع والشراهة .

ألا ترى الكسالى القَعَدَة لا هم لهم إلا التربع والتوسد . ويكرهون السعى والعمل ؟

ألم تر كيف كان حال الطامحين(١) ذوى النفوس الكبار لا يهدأ لهم بال ، ولا يغمض لهم جفن ، لا ينفكون ينشدون المعالى . وربما يمرضون بالكآبة لو فاتهم الحظ وأخطأهم الجدّ .

أرأيت البخيل الذى جمع مالا وعدّده ، من ذهب وفضة . وقد يكون عقيما لم يترك ذا رحم يرثه من بعد موته . وأوشك أن يكون هامَة(٢) الغسق أو الشفق ، ويعلم أن مخالب الغرباء ستنشب فى تلاله وتبعثر فى أمواله . وهو لا يفتأ يكدس باليمين واليسار لا لأمر إلا حب جمع الحطام ، لبئس ما كان يعمل ، إنه لمن المسرفين .

إن فى الحياء المفطور والخجل المطبوع فى نساء الامم المتمدنة اللذَين

---

(١) الذين يبعدون فى آمالهم .

(٢) صدى الطائر الذى يخرج من رأس الميت . والمراد هنا ، أنه يموت فى المساء أو فى الصباح .

تمكنا وتأصلا فى نفوسهن جيلا بعد جيل ـ لسلاحا ماضيا قد جعل من المهذبات أبطالا عند الدفاع عن شرفهن، وإنك لا ترى من هذا شيئاً فى بعض الأمم التى تظهر عراة. فلا تجد للحياء أثراً فى المرأة وهى تبدو مكشوفة الستر من موضع السر.

إنّ الشهوانى لا يرجع. فلا العقل ولا الزجر ولا هيبة الله ولا خَشاء الناس برادعة لهُ، فلا يتقى.

أنىّ يستحى وحياؤه ناضب؟ ومهما نازعه عقله فهو لا يطيعه ـ كالذى يطيع حياءه ـ فلا يترك غيّه، ويعود إلى رشده ولا يصدع بأمر نُهاه. وإن أقلع فأقل من النادر

هل رأيت الغضوب وهو فى ثائرته إذ يرتكب أفعالا يعتقد أنها مستحيلة عليه لو كان فى حال هادئة.

ولو أبصرت ابن المروءة والكرم إذ يضحى بمنفعته. ولعله يغلو فيضر نفسه ابتغاء مرضاة نفسه. ولا يريد ممن واساه جزاء ولا شكورا، ويجد فى هدوئه وراحة قلبه أجره. وأما الذين لؤمت نفوسهم، وغلظت قلوبهم. فلا يستطيع الخير إليهم سبيلا. فهم لا يلينون. ولا تزيدهم خليقتهم إلا قسوة، فينفض الناس من حولهم.

والأنعام إذا اشتد بها شَبَقُها(١) وقت سِفادها(٢). أو ذعرها لخوفها على صغارها ـ ولو كانت من المستأنسة والأسهل مطاوعة والأكثر رعباً ـ توحشت ونسيت كل خطر محيط بها.

قد يرى فى الحيوان رغم هذا قوة التفكير والأدراك تتغلب على

---

(١) شدة الميل إلى اجتماع الجنسين.

(٢) مس الحيوان أنثاه

الميل والشهوة ؛ فاذا ألفيت صغار حيوان تنقضّ على طُعمة (١) فتقع في فخ تصب لها ، فكباره التي زادت تبصراً ودراية تترك الطعمة وتعالج الحصول عليها بحيلة حتى لا تقتنص .

إن قوة التفكير ، وخاصة الأدراك في الأنسان أرقى منهما في الحيوان ، ويسوغ القول باختياره أو بأرادته الحرة كلما تغلب الفكر والرأى على شوق الحس والمشاعر .

على أن هذا التغلب وقتى ، لسبب وجود فكرة أنسب وأكثر موافقة من أخرى ، تطبيقاً لقاعدة اتباع الأنسان ما يراه ملائماً لغايته وموافقاً لمقصده . فكم سمعنا أن رجالا بذلوا مهجهم في سبيل الله ، وباعوا هذه الحياة الدنيا بنعيم مقيم ، لأن الآخرة خير لهم من الأولى . وعلى هذا تكون مظاهر الأرادة في الأنسان والحيوان ملتمساً بعضها من الوراثة ، والبعض من الأدراك . وهذان العاملان يؤثران بالاشتراك في العمل الفردى . وتكون الأرادة إذاً بنت الشوق والرأى اللذين يتحركان بالمشاعر والحس .

إننا كلما نزلنا في السلسلة الحيوانية وجدنا أشواق الحس والمشاعر حاكمة : أى الغريزة والألهام الطبيعى . وإذا صعدنا رأينا الفكر أو الروية والأعمال الأرادية الناتجة من الأدراك تزيد كلما صعدنا في أفق البهيمية ، واقتربنا من أفق الأنسانية ، حتى تكمل دارة الوجود من الحيوان الخسيس إلى الأنسان الكامل .

ولا يكون هناك حد بيِّن بين الألهام والأرادة . .

ويصبح الأنسان مسوقا في أعماله بالألهام والأرادة مثل الحيوان مع

---

(١) مأكلة تهيأ للحيوان لاستدراجه

الفرق أنه مريد أكثر منه ملهم على عكس الحيوان. ولذلك كان الشباب أقرب للبهيمية لما فيه من النزق والخرق، وتغلب الحس والمشاعر على الرأى، أكثر مما فى الكهولة والشيخوخة، لما اكتسبتاه من التجاريب والرقى الفكرى، وأكثر مما فى الأنسان الذى ورث التعقل والرزانة عن آبائه. وبناء عليه لا تكون الأرادة حرة تماما.

ومن هذا ينتج أن التوارث العقلى كالتوارث الجسدى هو الفعال، وسلطانه هو القاهر، وهو بلا ريب أشد منه تأثيراً، وأن الأهلية المكتسبة من اختبار الحياة لها نفس خواص الوراثة، كالأهلية الفطرية.

وعلى هذه المقدمات يكون الانتقال الوراثى عاملا أبداً لرقى ومستقبل البشر، حتى بلا قصد أو سعى وراء غاية. وأن الأنسان سائر بفطرته إلى الرقى ومدفوع إلى الكمال.

إن كل جيل يعمل على تحسين حاله وتربيته ورقيه، فانه يحسن للأجيال المقبلة، إذ ينقل إلى أعقابه نفوساً زاكية، وعقولا راجحة، وملكة عظيمة الاستعداد لاتباع ما ترك أسلافهم. وإتمام ما بدأوه، وإكمال ما خلفوه ناقصاً من نعمة وفضل.

الوراثة ترفع الأمم ببطء، أو تكون رفعتها متقطعة بسبب اضطراب يطرأ عليها، فيعوقها عن الانتقال من مرتبة لأخرى أسمى أدبياً ومادياً. وتبلغ الغاية بسهولة إذا جدت الأجيال وعملت صالحا، وأحسنت فلها الحسنى وزيادة، وتركت للأبناء أثراً طيباً وخلقاً ليس بذى عوج.

إنى أوجز ما فصلت حتى يوعى، ولا يجد القارىء فى صدره حرجا:

«١» الأرادة ليست بحرة مطلقاً، ولا بمقيدة مطلقا، فلا اختيار حر ولا جبْر قاسر.

«٢» الأرادة مقيدة بمؤثرات شتى ظاهرة وباطنة . أفعــلها بها الانتقال الوراثى : أى العقل المطبوع . والخلق الموروث .

«٣» هى حرة نسبيا فى حالة ما إذا تغلب الرأى الفردى على أمر الهوى والميول واللذات الفطرية التى أصبحت عادة .

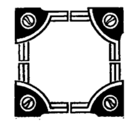
«٤» الميل والألهام قويان فى السلسلة الحيوانية ، ويضعفان كلما اقترب الحيوان من أفق الأنسان .

«٥» هما قويان فى الأنسان الفطرى ، ويضعفان كلما اقترب من الكمال ،

«٦» الأرادة تقوى تدريجياً ، وتبلغ حريتها فى الرجل التام المربّى .

«٧» الأرادة ليست ثابتة ولا مستحيلة التغير . فالأنســان مالك نفسه ، بيده الخروج من الألهام ، والأميال الحيوانية ، بتزكيتها وترويضها على الخير ، والعمل الصالح ، والدأب على إشراب قلبه الفضيلة ، وغرس الطيبات فيه ، حتى يرضى عن نفسه ، ويرضى الناس عنه ، فيصبح سعيداً فى الدنيا مطمئناً على حياته .

فانظر رحمك الله أين تضع نفسك ، وأين تحب أن تنزل من المنازل التى رتّبها الوجود ؟



«*»

العقل

العقل هو الاستعداد المحض لأدراك الأشياء، والذى أصبح قوة تميز الحق من الباطل، والرأى الصواب من الخطأ. وسميت هذه القوة عقلا لأنها تمنع المتصف بها العدولَ عن سواء السبيل؛ ومن خصائص هذه القوة إدراك الغائب بالوسائط والمحسوسات. وقد قسم الحكماء العقل إلى عقل هيولانى، وعقل بالملكة، وعقل بالفعل. وعقل مستفاد. وهذه الأقسام كلها لاتخرج عن الاستعداد للأدراك بحسب درجاته من الانتقال من العلم الضرورى إلى المكتسب إلى كشف الحقائق المجهولة.

يوجد فى الأنسان قوة مشابهة للعقل، وهى الوجدان أو الحس.

فالقوة العاقلة تستنبط النتائج من القياس واضحة. والمشابهة للقوة العاقلة تستنبط الأمور بالحواس الباطنة غامضة: كالميل والنفور والجوع والشبع والغضب والحلم والحلاوة والمرارة. فحلاوة العسل أو مرارة الحنظل مثلا لا نستطيع شرحها بوجه من الوجوه لمن لا يكون ذاقها.

إن هذا الاستعداد للأدراك هو فى الطفل كالزهرة الرطبة؛ فيجب العناية بتربيتها وتنميتها؛ فتتفتح يوما بعد يوم فتنضر وتينع.

لقد يخطىء الآباء إذا اعتقدوا أن صغارهم عقلاء، وخاطبوهم كما يخاطبون الرجال، قبل أن ينطقوا قادرين على التعبير. ويعظم خطؤهم إذا تركوهم حتى يصيروا فى سن العقل بلا ترشيح وتهيئة ويبدأون بتربيتهم وتهيئتهم للرشد.

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

ولئن أعجبك من ولدك الصغير جواب بديع ، أو ملاحظة صادقة على ما سمع ورأى ، فهذه علامة تفتح زهرة العقل وتهيئتها للتهذيب والتثقيف .

فربِّ عقل الولد من سنيه الأولى . واسق هذه الزهرة ماء طهوراً واحفظها من الحشرات المتلفة . ولا تدخل ما استطعت فى مخه فكرة خاطئة ، أو رأيا مغمَّضاً ، أو ملاحظة كاذبة . بل غذه أبداً بتعريفات صحيحة عن الأشياء التى فى وسعه أن يتفهمها ، وعدل له أحكامه إن أخطأ . وأصلح تصوره الفاسد . ولا تقل له أمراً أنت لست به عليما وإذا سألك فاجعل جوابك الصواب . ولا تخبره بغير الصدق .

لا تكن كالذين جهلوا . فأن أرادوا مداعبته غشوه فيخلط فى كلامه فيضحكوا منه ويصبح الولد ضحكة (١) المجالس ، بدل أن يكون على أبويه الرقيب العتيد فى الأقوال والأفعال . فيحذران الهفوات حتى لا يتعودها . أو كالذين يملأون رأسه بالخيال والباطل وما وراء المشاهد ، ويلقون فى قلبه الرعب بما ليس لهم به علم ، فيطفئون فيه بصيص العقل . ويبيدون قوة إدراكه .

أليس هذا هو ما عليه أولاد السواد من الناس ، الذين إذا ساءت تربيتهم فهى أقل خطرا عليهم وعلى الاجتماع . بَلْهَ أولاد ذوى اليسار والكبار الذين هم آمال البلاد ، وأمانى الأمة ، لأنهم بثروتهم ومكانتهم يؤثرون فى المستقبل فى عادات بنى وطنهم ، وربما على حظ الوطن ونصيبه فى الوجود .

---

(١) الذى يضحك منه .

إن التربية العقلية سارية كتفا بكتف مع انحطاط ورقى حال الأمم الاجتماعية . فالتعليم فى كل زمان يناسب دَارِكة (١) الأمة فى ذلك الزمان ونظامه يكون توأمالها .

فلما كان الناس يتلقون عقائدهم وشرحها من رجال لهم سلطة روحية عليهم كان التعليم كله دينيا ، وكانت المدارس تابعة لهذا التعليم ، ولو أنها منفصلة عن نظام المعاهد الدينية . بل كان نظام الحكومة متأثرا بالمعقول العام ، فترى العقوبات التى تقع على الطالب فى المعاهد ـ لمخالفته أمر شيخه ـ تشابه فى نوعها ما يقع على التلميذ فى المدرسة لمخالفته أستاذه ، وعلى ما يقع على الأفراد لمخالفة أمر الحاكم . وترى التقليد الأعمى فى المعاهد الدينية فيستعصى على كل حكيم أن يقتلع من دماغ الطالب عقيدة فاسدة ، أو فكرة سقيمة ، وما أنت بمزحزحه ولو أقمت ألف دليل ، وجئت بألف برهان ويكون جوابه ,, هكذا قال الشيخ ، وهكذا كان استدلاله ، وما لنا أن نقول إلا ما علَّمنا ،، .

والتدريس فى المدارس كان يحكى ذلك . ولم يك هم التلاميذ إلا حفظ المتون ، والمواد على ظهر قلوبهم . حتى العلوم الرياضية التى قوامها المنطق ، وعلامة صحتها الدليل والبرهان .

وكان المعلم يصب فى رؤوس تلاميذه المعلومات كما يصورها وهمه . ولكن فى عصرنا هذا عصر إباحة التبادل وحرية العمل ورفع الحظر عن الفكر ، وإطلاق العقائد . وانتشار التجارة ، العصر الذى تلقَّينا فيه أن كل شىء سائر إلى الارتقاء بقليل من الترتيب بلا مرجع إلى سيطرة وعرفنا أن خير الحكومات هى التى تخرج من الشعب إلى الشعب ، لا التى تفرض عليه بلا إرادته . ـ قد علَّمنا أن التدرج العقلى له سير

(١) الدرجة التى وصلت إليها أمة فى معقولها .

طبيعى ، لا يمكن إعاقته . وإذا عقناه أصابنا الضر . فمن الواجب علينا إذا أن لانكره العقل أثناء تنميته على قبول صورنا المصطنعة ، فكما كانت التربية فى العصر الغابر توأما للحالة الاجتماعية ـ فى شدة نظامها . وقسوة عقابها ، وتضييقها على الفكر ـ وجب أن تكون فى عصرنا على نقيض ما كانت عليه ، لرفع الحَظر والقسوة والتضييق ، وما صارت عليه حالنا السياسية من الحرية . وقد طلعت شمسها وأحس كل منا بحرارتها وإنعاشها للأرواح .

لقد كنت ترى من عهد غير بعيد المشابهة فى المعتقد سواء أكان فى الدين أم فى السياسة أم فى التربية . فالسيطرة فى الدين ، والسيطرة فى السياسة ، والسيطرة فى التربية . وما كان يخطر على بال أحد فى مصر أن يناقش هذا ، لأن الناس تخرجوا عليه . فلما تغير مافى النفوس بعد أن بلغت الناس الدعوة إلى الارتقاء رغبوا عن هذه التربية ، وضعفت السلطة المطلقة ، ومالت الأمة إلى الاشتراك فى الحكم ، فأثر هذا الميل فى التربية فأنشئت المدارس . وتحول جزء من تيار التعليم عن المعاهد الدينية فاختلط التعليم الدينى بالتعليم الحر . ومن هذا السبيل سارت التربية فى طريق التعليم العصرى . وكان من الطبيعى أن النظام الجديد يتنقل من درجة إلى أعلى منها ، حتى يتبين الناس أنه أقوم منهجاً وأحسن تقويماً للعقول .

تمشت التربية العقلية زمناً ، وهى مشدودة بين التعليم العتيق والتعليم العصرى . وفى النهاية تغلب النظام الحديث ، فأخرج للأمة بعض رجيلات كانوا أول غرس حبة التعليم العصرى . فأنبتت شجيرات كان يؤمل أن تنمو فتصير دوحات تتأصل فى أرض النيل . وتمتد فروعها

ولـكن عاقها بستانى أجنبى غاصب ، لبث نيفاً وثلاثين عاما ، وهو يقلم الفروع ويستأصل الجـذور . وأخذ يغير ويبـدل ، ويمحو ويثبت من نظام التعليم . فى معمل التجاريب ، لا كما يقتضيه الرقى العام ، ولـكن كما يفرض الهوى ، ويلائم الاستعباد ، لوضع العصائب على العيون ، فكان الطلبة الذين يتخرجون فى فن واحد ، من مدرسة واحدة ، إذا اختلفت مدة تخرجهم ينكر بعضهم بعضاً . لا ترى بينهم مشابهة ، لا فى معقولهم ولا مفهومهم ولا منقولهم ، لاختـلاف المواد التى تلقوها ، وتغيـير أساتذتهم ، وعدم اتحاد مبادئهم . والشطط فى اختيار الـكتب وتبديلها .

فنتج من ذلك عدم الوحدة فى تربية عقول أبناء الأمـة فتشعبت الآراء ، واختلفت صورة الأمر الواحد ، والمبادىء فى الحـكم ؛ ويعتقد كل واحد منهم أنه على هدى ، وأن أخاه على ضلال . فيتنا كرون وهم إخوة ، أولاد أم واحدة . فـكما أنهم يتغذون من ترابها ومائها وهوائها وهى واحدة وجب أن يكون غذاؤهم العقلى واحدا ، فتأتلف عناصر مصر المعنوية ، كما توحدت عناصرها المادية فى جسومهم .

ولقد كان من أمر هذا النظام المهوش أن أخرج للأمة أبناء حائرين بين العلم والجهل . فلاهم بالعلماء فينفعونها ، فتستغنى بهم عن جيش الأجانب . ولا هم بالجهلاء فيـكونون حجة على مديرى شئون التعليم فى مصر ، ولبثوا فى البرزخ فما انتفعت بهم مصر . بل كانوا عونا عليها ، آلة فى يد الغاصب . يضرب بها أنوف رجالهـا ، الذين فطرهم الله على الأباء وعلو الهمة .

هل لنا بعد ذلك الزمن الطويل والتجاريب المضرة أن نضع أساساً

للتعليم لاتلعب به أيدى الهوى ، وينهض بنا إلى المستوى الذى لايطعن فيه من الداخل ، ولايحتقره من الخارج الأمم التى تسير معها مصر . وتريد أن تحيا حرة فى صفها . ؟

ولا تنس أن جميع الأمم لها رقباء علينا ، وعيون تترقبنا قد يكون فى صالحهم إغماض عيون المصريين وسباتهم ، وعدم معرفة حقوقهم ، وما من شأنه حفظ ثروتهم فى ديارهم . وانصباب ما يكسبونه ، من كدهم ، وعرق جبينهم فى جيوبهم ، وهم يجدون الآن حجة متينة بعدم كفايتنا ، ولكنهم فى الغد لا يستطيعون أن يجادلونا متى ارتفعنا إلى الدرجة التى لا تصل إلينا فيها سهامهم ، إذا رموا الأمة بالجهل مهما كانت قوة ساعدهم ، ومهارتهم فى إصابة المرمى .

إنى لست من القانطين ، وليس من الضرورى أن يعمِّر الانسان ألف سنة ليعرف بعد التجاريب المقنعة حقيقة الدرس العتيق الذى يلقيه التاريخ إذ يقرر أن حياة الأمم الأدبية ، والسياسية ، والاجتماعية ، تتحرك كالمد والجزر . ففى زمن ترى تيار القوة الفكرية والأدبية يشتد ، فتتماوج فيه العقول كالبحر الزاخر . وفى آخر تراه يضعف وينضب ، بل يغيض كأن لم يكن بالأمس ، ويخال للانسان أنه لن يعود . انظر إلى مصر فكم رقت وكم انحطت !

إن من يرى تولع المصريين فى حب العلم . وحركتهم الفكرية فى هذا العصر ، وعدم اكتراثهم من ثلاثين سنة . وغرام الشبيبة باللحاق بالمدنية الحاضرة لدى الأمم الكبرى ، وضربهم فى بقاع الأرض ، لارتشاف العلم . وقنوعهم من نصف قرن مضى ، بما كسبوا ـ يحكم بمستقبل حسن ، ويعتقد أنه مهما حيل بين أبناء النيل وبين المورد

الطاهر لكوثر العلم لا بد أنهم بالغوه .

ولا يمكن تعليل هذا التيقظ بعد السبات العميق إلا بالقاعدة الطبيعية التى لا تكذب . وهى أن محاربة الفكر ، وإعاقة تقدم الأمة فى وقت انتقالها ، وعلى الأخص إذا اشترك معهما ضغط عظيم بقوة أجنبية ، لتقطع عليها الطريق لتصدها. فالأمة تتمشى فى سيرها مرة طوعا ، ومرة كرهاً وأخرى مسترسلة بلا خوف ، وتارة بحذر واحتراس ، حتى ينتهى الأمر بها أن تسير فى تيارها . ولا يستطاع كبح جماحها ، وردها إلى الوراء . والبواعث على ذلك جمة . منها المنع الموجب للحب . والحرمان الموجب للشراهة . والتقييد الموجب للأطلاق . والضيق فى العيش ، الموجب لأيجاد طرق الفرج . والضرورة التى تفتق الحيلة ، والمصارعة فى الحياة الموجبة للتقوية. للقيام بالمقاومة ، حتى لاتصرع الأمة فى هذا المعترك المهول .

إن مثل هذا كمثل إعصار أثار الغبار ، وقصف الأشجار ، وكاد يذهب بالأنفاس . فهو — لا شك — هادىء . وتذهب الريح العاتية وتترك وراءها هواء نقياً ، ونسيما عليلا .

ألا ترى أنه إذا اشتد الفعل اشتد الانفعال ؟

وكلما قوى الأول كان الآخر متينا ، ولذلك كان التاريخ كموج البحر . فتارة كالجبال ، وتارة كنقش النسيم على الماء . وترى الأوداء(١) التى تتخلف بينه طوراً عميقة . وطوراً دقيقة .

فمن الخرق وضع العوائق أمام تلك الزوابع . فالمقاومة تزيد عتوها ومتى هدأت ثورتها بزغت شمس الحقيقة بضوئها . وبددت العناصر التى غبرت وجه الهيئة الاجتماعية ، والحكومة والآداب . حتى ما كان يدّعون

---

(١) جمع : المفرد : واد .

أنه العلم ، وألقتها فى واد سحيق .

وماذا ينتظر من أمة إذا كان قادتها وأوصياؤها فى التربية والتعليم ، يدورون مع الزمان فيخضعون تواضعاً ، أو نفاقا ، وينحنون أمام الضغط ، فن المحقق أن الأمة تسير مع القاعدة التى نسيها أولئك الناس ، قاعدة المد والجزر ، ذلك القانون الطبيعى . وعليه فالحركة الفكرية لا يمكن توقيفها بأرادة مسيطر ، وسلطان مستبد ، متى أخذنا أن نعمل على أن الجزر لايصل بالأمة إلى النضوب . ولا نترك التيار ينحدر بعد الصعود إلى الهبوط . فأذا وصلنا إلى بسط العلم . ونقلناه إلى الشعب على قدر عقول الكافة ، بنشر الكتب والرسائل والمحاضرات العمومية التى يجب أن تتخذ طريقة ضرورية لاستنارة الأمة ، تعذر على أى قوة أن تردها عن سبيلها . وكلما اشتدت تلك القوة وفعلت ، اشتدت الأمة وانفعلت .

لقد يعترض على هذه الطريقة . ويخال لى أن أكبر انتقاد يوجه إليها هو أنها لاتؤدى إلى نشر التعليم الحق ، وتكون وسيلة إلى نصف تعليم ، قد يكون ضرره أكبر من نفعه . نعم . إن هذه الملاحظة فيها شىء من الصدق . وليس من شك فى أن كثيراً من الفكر الناقصة ، والتى لم تنضج ، بل الفاسدة قد تتسرب بهذه الطريقة بين المتعلمين والجاهلين بلا حسيب ، ولا سيما فى عهدنا هذا الذى فيه تخطو الحياة سريعة ، وكثير منا يخطفون معلوماتهم . ويظنون أنهم أوتوا فضل الله بما كشطوا (١) من الرغوة الطافية على وعاء ما يدرسون ، ولكن هذا الاعتراض اعتراض جائر . وإنا نجرم إجراما ، ونسىء

---

(١) رفعوا عنه الغشاء .

إلى تقدمنا وارتقائنا الفكرى ، إذا أخذنا به ، وتركنا هذا الجهود النافع . وليس فى مقدور أحد أن يجادل فى أن نصف التعليم أو ربعه أولى من عدم التعليم . وأن كل مجهود يعمل فى سبيل محاربة الجهل يجب احترامه وتقويته ، ولو لم نبلغ الغاية ، أو لم نصل به إلا إلى مدى قصير .

ولا نخشى أن يتسرب من آن لآخر رأى غير صائب ، وفكرة غير ناضجة ، أو ناقصة ، حتى الفكرة الخاطئة . والتعريف الغامض عما يلقى على الشعب إذ أن هذا غير مستطاع الاحتراس منه ، لأنه نتيجة عدم الكمال فى هذه الدنيا . ولا يوجد فيها شىء ـ مهما كان حسناً ـ إلا وفيه عيوبه . ولكن لا يسمح بأى حال أن نترك الحسن لِعَيْب فيه ، وإلا نصبح أكبر ضلالا من الذى يريدون أن يُعَطلوا السفر والنقل بالسكة الحديدية ، لأن بعض الناس لقى حتفه ، ودهمه القطار .

إن فساد رأى الذين لا يريدون إلا تعليما تاماً يتضح كالصبح عندما يتأملون رأيهم ونتائجه المحتمة ، إذ أنه يقضى على جميع دور التعليم فى البلاد : ابتدائية كانت أو ثانوية ، حيث إنها لا تخرج إلا أنصاف متعلمين ، أو بالحرى ليس فيها إلا تعليم ناقص ، ولا يبقى بعدُ إلا المدارس العالية ، فتصبح النتيجة أن ينقسم العالم قسمين ، قسم متعلم أو مدع أن تعليمه كامل ، أو مفروض أن معارفه تامة أمام جيش من الجاهلين ، أو الأميين .

ألا إن هذه الحالة مناقضة لأول المبادىء فى فن التعليم الحديث .

كلمة الى المتعلمين (*)

إن الناس فى كل زمان ومكان تختلف درجاتهم فى التعليم وجودة محصول عقولهم ، وقوة تفكيرهم ، ولا بد أن تترتب منهم طبقات بعضها فوق بعض ، من التعليم الأولى ، إلى أعلى فروع العلم ، مع الفروق الطفيفة بين الطبقات

إن العلم البشرى - مهما بلغ - لايصل إلى نصف تعليم ، بل ربعه . والأنسان فى كل أوان لم يؤت من العلم إلا قليلا .

إن أوسع الناس علماً ، وأغزرهم مادة — لايعلم إلا يسيراً مما كان يجب أن يتعلم ، ولا يستحق كغيره من الذين لم يبلغوا شأوه إلا لقب نصف عالم ، والعلماء الذين يأتون من بعده يفوقونه ، كما أنه فاق الذين درجوا من قبله تعمقاً .

إن الفلاسفة الكبار ذوى الاسم الخالد ، والذين وصل إلينا ذكرهم وإذا ذكروا طأطأت الرؤوس ، وانحنت القامات - قد لا يجوزون فى هذا العصر امتحان النضوج . إذا نشروا من قبورهم ، ورجعوا إلى هذه الدنيا . ولا يلقبون إلا بأنصاف العلماء إن لم يسموا القارئين الجهلاء ، وفى المستقبل غير البعيد يصيب علماءنا ما أصاب السابقين على مكانتهم وعلو كعبهم .

أنا لا أريد أن أقول : إن هنالك مبلغاً من العلم وقدراً من العرفان ،

(*) نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

بحد الكمال ، لن يستطيع أحد أن يبلغه فى أجل مسمى . ولكنى أريد أن يكون مطمح المتعلم ، أو من يدعى أنه متعلم إدراك قسط وافر من العلم ، فيصبح حاذقاً باذقاً (١) فى الفن الذى خصص نفسه فيه .

اسألوا أنفسكم كم رجلا من هؤلاء المتعلمين يوجد بيننا ؟ هم أقل من النادر . ويجمل الاعتراف بأنهم إن وجدوا فلا تراهم إلا بين المخصصين فى فن : أى فى دائرة ضيقة بالنسبة إلى المعلومات البشرية ، والفكر الأنسانى .

لقد أصبحت العلوم متشعبة . ومترامية الأطراف ، وأصبح العلامة كالى العرفان مستحيلا ، وليس فى مقدور أحد أن يكون حجة من هذا الصنف من العلماء ، ولكن يسهل على من خصص نفسه فى فرع أن يحذقه ، ويستطيع أن يمتلكه امتلاكا .

ولا تنس أن المخصص الذى استنفد قوته . وأضاع وقته . وقتل عمره فى فرع يبقى نصف متعلم فى الفروع الأخرى . حتى فى التى لها كبير علاقة بفنه ، أو تكون شديدة الارتباط به .

والتجاريب علمتنا أن ليس بعزيز أن نرى مشاهير العلماء يفتضح أمرهم ، ويسقطون من منصاتهم ، متى خرجوا قليلا عن ميدانهم . فينزلون تحت درجة المتعلم الصغير . الذى جنى محصولا عمومياً من المعارف . ولا أكون لذاعا فى تعبيرى إذا قلت : إن من كبار العلماء من يمكث عظيما ، وهو فى حقله ، ولا يفوقه أحد فى فنه . ولكن إذا حاد قيد شعرة حق عليه القول بأنه نصف أمى .

تلك هى الأحلام الصغيرة التى تنتج بعض الشىء فى دوائرها ، وتعقم فى النظرات الواسعة العمومية .

---

(١) ماهر . وأغلب استعمالها أن تجىء مصاحبة مؤكدة « لحاذق »

ينتج من هذا كله أن الاعتراض على بسط العلم ، بنشر الكتب ، والرسائل ، والمحاضرات العمومية بأنها غير مؤدية إلا إلى نصف تعليم ، اعتراض أحق به من يطعنون به . وأكثر انطباقا على الذين يطلبون الكمال فى العلم .

نحن لسنا فى حاجة إلى هذه البرهنة . والواقع أن أكبر العلماء لايربأ من وصمة نصف التعليم ، والحصول البشرى العالمى لا يكون إلا نصف محصول . فاذا كنا لانستطيع الخلاص والهروب من هذا الوصف فلا يصح الاعتراض على من يهدى إلى سبيل : ويبين للناس طريقاً لا يخرج إلا أنصاف متعلمين . ولا لوم كذلك على من يسعى أن يصير نصف متعلم

ألا إن نصف المعرفة خير من الجهل . والرسوخ فى العلم ممتنع على الأطلاق . فلا يصدنا مايقع من السهو ، والخطأ ، والتضليل عن الخطة التى بينتها . ولا يعوق الشغف عن العلم ، وحب العرفان ، بعد أن مالت إليه قلوب الأمة . وكفى بهذا الميل شارحا للصدور ، وآية مفرحة من عصرنا هذا . سواء أوصلت تلك الطريقة بالأمة إلى نصف الطريق من غايتها أم لم تصل بها أبداً ؟

وإذا قيل : إن المحاضرات العمومية سخافة حديثة ، ورياضة للعقل وبيئة وبئة تنشر المرض للعقول ، وبدعة لاتلبث أن تزول ، ويعود التعليم كما كان مخنوقاً بين جدران المكاتب ، والمدارس — فقل : إنها طراز ينشىء فى الأمة حياة . والحياة الجديدة تأخذ أدوارها . فهى باقية ثابتة وأكبر حجة على حاجة الأمة إلى هذه المحاضرات العمومية على عيوبها ونقصها — أنها آخذة فى الانتشار . والأقبال عليها يزداد يوماً بعد يوم . من ذا الذى ينكر صعوبة استمالة الجمهور ، وخلب العقول بسماع

حديثه ، فى زمن قد يكون طويلا ، ومملا ؛ ولا سيما فى المسائل العلمية التى فى الغالب لا تكون خفيفة على النفس .

فأن قال قائل : كم من مستمع غادر المحاضرة ، وهو مكرَهٌ على الهدى وإزالة وهمه . فهو يقرّ فى آن أن استمرار الجمهور على استماع المحاضرات بالرغم من هذا ـ دليل على أنه يجد فيها مطلبه .

نعم . إنه يجب الاعتراف بأن الساعة التى تحتم للمحاضر عادة لا تسع استيفاء مسألة ، حتى إذا أوجز إيجازا مخلا ، فكأنه راكض ، ليتم شوطا يكبو فيه كثيرا جواد المحاضر ، لتوسعه فى مسألة غير حيوية ، وفى المقدمات غير الشهية ويهمل المقصود من الموضوع . فأذا وفق متكلم إلى توقيت زمنه استطاع فى الساعة أن يمُد حلقته بمعلومات نافعة .

إن فائدة المحاضرات الحاقة ـ هى فعلها المنبه للعقول المنير للأذهان لا التعليم . ولك أن تقول : إن الذين وصلوا إلى الغاية من المحاضرين ـ هم الذين إذا خرج السامعون من حضرتهم غادروها بعقول متشبعة بمواد كانوا يجهلونها ، ونفوس غير التى دخلوا بها مغروسة فيها رغبة التفكير فى مسائل وأشياء كانت بعيدة عن أفكارهم ، ومجهولة لديهم . وقلوب مفعمة بالميل إلى النظر فى الحياة العمومية والعالم . أو ما يسمونه بالثقافات العامة ، ميالين إلى الاستقصاء والاطلاع فيما يلقى عليهم للاستزادة منه .

إن المحاضرات الوافية الشافية لغليل السامع ـ قليلة . ولا تشبه بغيرها من المحاضرات . خذوا مثلا مسائل الطب ، وتدبير الصحة ترون الأقبال عليها ليس بعظيم ، على أن القصد منها نفع الناس فى حياتهم

وصحتهم . وهى إذا تفهمها السامعون عادت بالخير على البلاد ، وأثرت تأثيراً حسناً فى معلومات الشعب .

ولكن إذا لم تكن المحاضرة إلا منبهة ومذكرة كانت فائدتها أعظم تأثيراً فى تنمية القوة الفكرية إذ تكون نتيجة ذلك التنبيه ، وهاته الذكرى - الدرس والاطلاع والتفكير الشخصى .

ليس الغرض من المحاضرات تكوين العلماء ، ولا معادلة المدارس أو أى تعليم آخر مستمر . هذا أمر لاجدال فيه .

إنك لواجد التعليم المستمر فى إلقاء سلسلة محاضرات فى موضوع من محاضر واحد . وقد دلت التجربة أن شوق الناس إلى المحاضرات مختلفة الموضوعات المنعزل بعضها عن بعض - أكثر من شوقهم إلى تلك السلسلة فى موضوع خاص . لأن قابلية الجمهور للتنبيه والذكرى أعظم منها إلى التعليم والتلقين . ولا سيما إذا كانت مسامرة تهذيبية كالبحث فى الفنون ، والشعر . فأن السامع يجد لذة فنية ، وانشراحا فى نفسه .

إن المحاضرة مشقة كبرى على الفحول ، فكيف بها على المدعين ؟ وأرى أن أصعب شىء فيها ترتيبها بالقدر اللازم الذى ليس فيه نقص ، بشرط إيرادها على قدر عقول السامعين ، ولا سيما إذا كانت من النوع المسمى بمحاضرات الكافة . يجب أن لا يهمل فيها المحاضر أى شىء يستوجبه العلم مع تقريبه لأفهامهم . هذا الذى يُعيي بعض العلماء ، ولا يلتفتون إليه ، ولذا فكفاية المحاضر كفاية خاصة ، ولا يستلزم التبحر فى العلم أن يكون الأنسان محاضراً . وعلى الأخص للكافة . وإذاً فلا علاقة بين كفاية المحاضر ورزانة الأستاذية ، ولا الشهرة العلميـة . إذ أن هذا الصنف قد يكون من المخصصين فى فن ، فيبرزون للكافة

بمسائل قد تتراءى لهم أنها ذات شأن خطير . ولكن لايأبه لها عند الكافة أو أنها تعنيهم قليلا .

هؤلاء الكافة لا يحبون أن يقلقهم التفصيل الطويل ، ولا أن يثقل عليهم بأنقاض بحث على عميق دقيق ، ويعجبهم ، بل يأخذ بألبابهم عرض المسائل فى صورة مكبرة إجمالية ، يكون لها الصبغة العامة ، ولها قدرها العظيم فى المعلومات العمومية . ومن المحتم أن تعرض هذه الصورة بشكل مرغب . ولا يتحقق هذا الشرط إلا إذا كان المتكلم ذا ذوق سليم ، وإحساس صحيح ، يدرك معنى الحسن ، صبغة ليس أحسن منها صبغة . ولكنها نادرة فى كثير من الناس . وشتان بين جودة البحث ، وبين عرضه بصورة خلابة تستهوى عقول السامعين ، من سواد العامة ، وكتلة الكافة . وأن يكون كذلك من ذوى الأدراك الواسع ، والثقافة الممتازة ، والمحصول الوافى . ألمعياً (١) فيه الروح الفلسفية .

لقد ينبيك هذا بمقدار مشقة المحاضرات ، على أنها لاتنتج غير نصف تعليم . إن التعليم التام لم يوجد ، ولا تجده . ولن يوجد . وكلنا يصح أن يدعى نصف التعليم ، ويصبح الجدال بيننا على قله (٢) وكثره . لا يزعجنا ما وصفت . ولا يصدنا . فليعمل كل فى دائرته مايستطيع . حتى نقوم بواجب البلاد ، وليتعاون العلماء فى ردم حافرة الجهل ، وتمزيق كفن الموت الملفوفة فيه الأمة .

لا تصل أمة إلى درجة تغبط عليها فى العلم إلا إذا اتبعت السبيل

---

(١) الذكى المتوقد .

(٢) قليله وكثيره .

المؤدى إلى نشر التعليم بالمحاضرات العامة التى تلقى فى حلقات كليات حرة

إنى أخشى على الكليات إذا تبعت الحكومة من ضغطها على الرجال القائمين بمهمة التعليم ، فتحرجهم . ويصبح من المحال أن يعلموا الناس ما يناقض حاجتها وأميالها المحصورة فى المحافظة على القديم إن لم تكن رجعية . فتشل الحركة الفكرية . وتمنع المباحث الحديثة الهادية إلى طريق التقدم . ورفع العقل عن المستوى العادى . المهدد جميعها بهدم هيكل القديم ، وتغيير معتقد الحكومة العتيق . وليس ببعيد عليها أن تشرد من الكليات أعاظم الرجال العلماء ، وترسل عليهم سحائب الاضطهاد . ليخفى نورهم عن العباد فتسقط من المرتبة التى يجب أن يكون فيها مكانها ، وتتبدل من منابت للتعليم الحر والعمل المطلق ، إلى معمل لتخريج صناع يديرون دولاب الحكومة الميخانيق .

قد تعمل الحكومة على معاكسة تلك الكليات ، لأنها تقلل من شأن مدارسها ، التى كانت تعتبرها الأمة مركز التثقيف والتبحر فى العلم .

ويجب أن توجد المطابع ، وخزائن الكتب فى بلاد مصر ، لنشر الأفكار الحديثة وتسهيل موارد العلم والفلسفة على الناس ، بثمن قليل . وفى زمن غير طويل ، ذلك الأمر الذى يصعب على الحكومة أن تعمله . ولا ترضى بعمله لتلبث المركز الشمسى الوحيد للتعليم من أفواه أساتذة مدارسها . إنه من المستطاع أن يتعلم الانسان كل العلوم تقريباً من الكتاب . ويحذقها أحسن من تلقيها من محادثة معلم . خلا بعض المواد التى يحتاج تدريسها إلى تجاريب وتمارين عملية ، قد يستثنى من ذلك الحكم .

ومع ذلك فهذا الاستثناء صحيح إلى حد معلوم . فاذا استبعدنا هذه

المواد العملية التى لا بد فيها من التلقين الشفهى . فما الذى يتبقى بعد ذلك ؟ مطالعة مذكرات وأساطير فى كراسات أمليت مرة واحدة وتناقلها بعد ذلك الطلبة .

قد يتأتى أن الأستاذ يعرض المسألة عرضاً لايخرج قيد شعرة عن ألفاظ الكراسات والمذكرات . فكأنه يقرأ على الطلبة مافيها ، أو أنه يعيدها بدورات فى أسلوب موجز ، أو ملخص كتبه ، أو حضره غيره من قبل . أضف إلى ذلك أن جل المعلمين لا يهتمون بأبناء البلاد . وسواء عليهم أفهموا الدرس أم لم يفهموا ؟ فهم قابضون أجرهم فى آخر الشهر ، وإن اهتموا فقليل ما هم فاعلون .

أما الطلبة أمام مثل هذا الدرس فهم على ثلاث صور باتباعهم ثلاث طرائق موصلة إلى نتيجة واحدة . فالقسم الأول هو الذى يقنع بالاستماع . والقاعدة المطردة أنه لايلبث أن ينعس .

وفريق الصورة الثانية هم الذين يقاتلون النعاس على الكراس بنقش مايمليه عليهم أستاذهم جملا تنسجها يد الوسن(١) ، مضطربة غامضة لاتفيد فى المذاكرة ، ويجب أن تستعاض بكتب قيمة .

والصورة الآخرة فئة غير مواظبة على الدرس ، تقتل وقتها فى اللهو واللعب ، حتى إذا حان وقت الامتحان كروا على المواد خفافا ، وهمهم أن يمروا فى الاختبار مر الكسيح ، ويحوزوا اللقب . ولو يتخرجون بلا علم ولا محصول . ذلكم حال التعليم الثانوى والعالى فى بلادنا ، أهو كل التهذيب والتأديب ؟ وإنا لمعذورون فى إرسال أبنائنا إلى هذه الأبنية والمكاتب ، إذا لم يوجد غيرها ، وأشنع ما فيها سرطان النسب

---

(١) أول النوم الذى تظهر علامته على الوجه.

وسل الحسب ، وحمى التمليق . أمراض تميت عزم المجد وتكسر قلب المجتهد . يرى الدرجات تكال لأبناء ذوى النفوذ والسلطان ، فيسبقون وهم اللاحقون . ويتقدمون وهم المتأخرون . مفسـدة للدرس ، مفسدة للأخلاق ، مفسدة للعلم .

نرى المعلم القادر محاطاً بحلقة من الطلبة يتملقونه بأحط أنواع التمليق ، كما نرى الطالب ابن العصر والترف يحوم حوله المعلمون الضعاف . أو الذين صغرت نفوسهم . يظهرون عطفهم وإكرامهم عسى أن ينفعهم ولا تنسيه عزته ذكرهم .

وهنالك محاباة أشـد وأنكى من القرابة والمحسوبيـة . . . التعصب للمدرسة وللشخص . فكم من طالب يحرق من الزيت فى الدرس مقدار ما يشرب قرينه من الماء فى اليوم . ويتقدم للامتحان فيخفق . لا لشىء إلا عدم انتسابه للمدرسـة ، وأنه لم يتلق مادته على مدرس معـلوم . حتى لا يتفوق ابن الكتاب ، أو إن شئت ابن الطريق على ابن ذلك المدرس أو ابن تلك المدرسة .

والأدهى والأمر أن حضرة أستاذ المدرسة الذى يدرس المادة هو الممتحن للطلبة ، وإذا أراد المسيطر على التعليم إخفاء هذا العيب ، وذر الرماد فى العيون ، والتظاهر بعدم التحيز . ندب موظفين لاختبار الطلبة فى مدرسة تابعة للحكومة . والأشارة تكفى عن طول العبارة .

على أن العلم يغضب . وخير البـلاد ينفر من تفضيل الجاهل على العالم ، بغض النظر عن زمنية وأينيـةٍ وكيفية تحصيل المعارف وتهذيب العقول . ولا فضل لابن المدرسة على ابن الطريق إلا بالحصول وجودة الفكر وغزارة المادة .

انظر للطالب وهو داخل للاختبار ، والممتحن لم يره فى حياته ويعلم أنه نزل فى مضمار المسابقة مع من تلقى عليه العلم ، كيف يكون حاله واضطرابه ؟ وأظن أن الأستاذ يدفعه حب الاستطلاع أن يرميه بأسئلة صعبة الحلّ قليلة الوضوح . والأنسان ضعيف ميال إلى أن يكون لعمله نتيجة ولتعبه ثمرة .

إن الذى يلزمنا تأسيس كليات للتعليم العالى العام لتنمية العقل فى الفروع العظيمة النفع من المعارف ، بلا تخصص فى مهنة . ويجب أن تكون هذه الكليات حرة بعيدة عن أى تأثير حكومى أو غيره ينتفع ، فيها أصحاب الحرفة غير الكتابية والكتابية الذين يجدون فيها التجهيز العظيم للتعليم الفنىّ . وإنى إذا طلبت من الأمة تحقيق ذلك فأنها تقول معى آمين .

لقد امتلأ العالم من هذه الكليات فلِمَ تحرم مصر ؟!

أطلقوا العلم من الأسر والاحتكار ، وقولوا للحكومة : إن الأمة تخرج منها علماءها وحكامها .



التربية والتعليم [*]

إنك إذا وجدت كثيراً من سيئى التربية فلأنه فى هـذا الزمان ، وأكثر من أى وقت مضى ، يدّعون إحلال التعليم محل التربية . خلط مشئوم وإخطاء كبير يدعو إلى بيان يسير .

يقولون إن سبب مساوئنا الاجتماعية هو الجهل . سلمنا . ولكن أى جهل تريدون ؟ أيستطاع القول إن التعليم يكفى لتكوين الولد وتهذيبه وتربيبه حق التربيب (١) ؟ هذه هى المسألة .

هل معرفة أن الكلام هو اللفظ المركب المفيد . أو أن همزة ابن همزة وصل وألف أعطى للقطع . وعِلم قِطَـع الأرض ، والفارق بين الجزيرة والبحيرة ، والرأس والخليج ، والبرهان على أن الدرهم وزن ثلاثة أجزاء وثمن جزء من ألف جزء من الماء المقطر الذى درجة حرارته أربع فوق الصفر - تجعل الولد مؤدباً مخلصا قنوعاً محسناً ورجلا كريماً ؟ فاذا كان التعليم لا يشرب النفوس هذا فهو بالبداهة غير مهذّب بذاته .

ولقد يُحاجّ معترض بقوله إن الحكم غير عادل ، والخلاصة كاذبة . فلئن كان النحو لا يثبت الفؤاد ، وخصائص الأشياء لا تنمى الشعور ، والحساب لا يسرى فى الروح . إلا أن التعليم شامل لسير

---

(١) مصدر رَبّبَ ، ومعناه ربّى

« * » نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

الرجال العظام والفلاسفة . وقد يكون مدهشا أن ذكرى هؤلاء وأعمالهم لا تؤثر ، وتعجز عن التربية والتهذيب .

يريد هـذا المعترض أمراً آخر . هو اليوم الذى نستطيع فيه أن نقرىء ابن السابعة أو الثامنة الحـكمة . وإذا أرجأنا بدء التربية بعد تفتح العقل وإتمام الأدراك . فالأميال الفاسدة تكون قد تأصلت وتغلبت فيفوت الأوان . ويصير الولد فتى معيوباً وشاباً فاسداً . لا يعزب على بعض الممتازين أن ينالوا بعض التهذيب من معاشرة الأفذاذ فى الأدب معاشرة تلازم . ومن مداومة الدرس الطويل والاستماع لهم ! ! هذا من قبيل الاستثناء إذ أنه عمل قاصر . ويكاد يكون فردياً يجهله الكافة .

والواجب أن يكون الأرشاد والتعليم عاماً . ولا سيما التعليم الشعبى ، الذى يكوّن روح الولد من سن الطفولة . فكيف ؟ وبلا شىء غير العلم نصل إلى هذه النتيجة . إذاً هنالك شىء آخر وضرورى ، وظاهر جداً أنه رغم المعقول يصرّ المكابر على نسبة الأعمال الصالحة بنات التربية وحـدها إلى التعليم . أينما كنت تسمع هذا الأبهام العجيب ، واللبس الغريب . يراد به إقناع الآباء بقبول هذه الطريقة التى تدس على ضمائرهم ، بأن ليس عليهم حساب أبنائهم ، وملاحظة أعمالهم وإرشادهم . وأنهم غير مقصرين فى واجباتهم . وإنْ ينقص أولادهم أمر يدعوه للأيام والليالى وحلقات الاجتماع ! .

ولما لم يكن للاجتماع جوهر . موجود ، وكيان محدود ، كان الترك للمصادفات ، واختلاف الرياح . فانظر كيف تكون عاقبة الأمر؟ الواجب إيقاظ العقول من هذا السبات العميق . نحن لانجهل واجباتنا

ولكن الشجاعة تعوزنا ـ لقد ينقصنا تعليم مشدد للعزائم ، لايخاطب الأفهام وحسب ، بل يخاطب العواطف والأرادة ، والقلوب . تعليم مجدد رافع ، كاشف دون مواربة وكتمان عن الفضيلة ، والنفس الطيبة ، والعمل الصالح ، التى هى غاية التربية والأدب .

هل لنا أن نقول : إن التعليم مؤدب ، لأنه يقوى الملكات ؟ ولكن يكفى لدحض هذا أن تنمية القوة العقلية وترك الأنسان بلا هدى نفسى يضاعفان الشر بذات الشر ، إن الولد سيء الطبع إذا أهمل تعليمه كانت سيئاته قاصرة لاتمتد ، ولا تعدو محيطه الضيق ، واستعداده الضعيف . وأما إذا رفعت إدراكه ، وحططت تأديبه ، فقد يخرج عن قواعد المعقول العام ، لأنه ينفر أن يشبهه أحد فيحدث بكل غريب ، ويأتى بكل بدعة ، ويبحث عن غاية الغايات ، وماوراء العقل ونهاية النهايات ! ! والجدال مضيع للصواب وحاجب للهدى . فأذا استعان هذا الأنسان بحيله وأساليبه ، واتخذ من العلم نصيراً شريراً بلغ الكمال فى السيئات ، والوحشية المتمدنة ، وهى شر ماوجد فى الدنيا . وإذن نكون اعتضنا بخاطىء ساذج أثيماً عليماً ، يتحدى كل برّ وصلاح . ويظل كارثة على الاجتماع .

يحدثنا التاريخ أن ترشيح الناشئين كان موضع اهتمام الفلاسفة والمشترعين وأخذت التربية صوراً فى كل أمة تتغير ، تابعة للحال ، والظروف والقوة والضعف ، والعلم ، والجهل .

والتعليم فى عصرنا يكاد ينحصر فى تعريف الأولاد حقوقهم أى كل ما تتطلبه منافعهم من الغير . ولا يعير توأم كل حق ـ وهو الواجب ـ كثير عناية . فأذا ذكرت الحقوق ذكرت بالشدة واليقين . وأشير إلى الواجبات

بالضعف واللين . فتخرج الشبيبة من هذا ولا شغل لها إلا الحصول على حقها ، فتصير فى جماعة مختلة النظام . لاترى فيها غير جلاد بلا رحمة وتعارض حقوق ، وتصادم أغراض ، وتخاصم منافع ، وتلاطم أفكار وشهوات تتنازع على مائدة ، كل يسعى إلى خطف نصيب منها ولا يدفع حصته .

ألا يقال إن الأبناء لمناسبة تعليمهم حقوقهم ـ قد يعرفون واجباتهم ؟ لا . لأن جزاء الأحسان غير مؤكد . وميل الأنسان إلى الأثرة ، وإلى حب الأمر لا الطاعة ، والأذلال لا التذلل . يجب أن لا نتردد ، ونقر بأن التعليم بدون تربية هو أصل البلاء ، وعقوق الأبناء ، وغى الأولاد .

لقد استفاض خلط التعليم والتربية . وشاعت هذه الدعوى المزورة حتى بين الذين يباهون أنهم رحلوا إلى أوربة ، ليتموا تعليمهم بعد أن جمد عودهم ، وصاروا خشباً لايقوم . وكلما أخذتهم نُعَرَة (١) الزهو تعالوا بأنهم تربوا فيها فأنستهم الفرق بين التربية والتعليم ، على أن بعض هؤلاء لم يعش فى تلك البلاد إلا أياما معدودات ومتفرقات لتمضية الامتحان . أعرف من هؤلاء كثيرين لا يستحيون أن يدعوا تلك الدعوى وهم بعيدون عنها بعد السماء عن الأرض . فأنت ترى أنا فى مصر فى فوضى أخلاق ، وترى الناس حيارى فى فتنة مستديمة ، المرؤوس يعصى الرئيس ، والابن يعق أباه . والمحكوم يستخف بالحاكم . والحاكم يعادى الحرية .

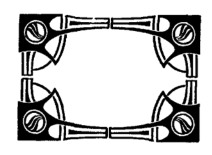
ولعل الحرب كان لها تأثيرها فى حياتنا ومرافقنا وعاداتنا وأخلاقنا فقد تغير وجه الأرض بعدها . فكم أهلكت عبادا ، وأكلت بلادا ، وشوهت وأعجزت . فيتمت ، ورملت ، وأتربت ، ولقد دخلها رجالها كرها ، وخرجوا

---

(١) الكبر والخيلاء .

منها كارهين مَنْ تسبَّب فى إضرامها ، وساقهم إلى جحيمها ، فأحست الحكومات بغضب الشعوب ، وبغض القلوب ، فظلت تغضى عن المراقبة لتخفف من حساب نفوس غاضبة . وتتهاون فى تطبيق القانون الخاص بجرائم الآداب والحياء . فنأى الأدب عن حظيرته ، ونضب الحياء من أوانيه ، فتكسرت القيود وانفصمت العرى ، وطفق كل يعمل بهواه من كبير وصغير ، فاختلط الأمر ، وسرت العدوى من ميادين القتال إلى التخوم (١) فالمتجاورين ، فالأمم المتصلة بهم ، فأصابنا من بلائها شىء كثير ! ؟

(١) الحدود .



هل الآباء مسئولون حقاً وحدهم ؟ (*)

إن الذين يقولون : إن الآباء هم المسئولون وحدهم ، وتلزمهم العناية بتربية الأبناء تربية منفصلة عن التعليم - يقرون على أنفسهم بأنهم لم يروا عن كثب الأسر التى يتكوّن منها سواد الأمة ، أو أنهم لم يدققوا النظر فى أمورهم وحياتهم . فالأب الذى يقتل النهار فى عمله فينهكه ، هل لديه من الزمن ما يتعهد فيه ابنه ؟ وهل هو على شىء من العلم والسلطة الكافيين لذلك ؟ يا ليت شعرى ! قد يكون منتهى الأرب ، والمثل الأعلى ، ولكن من سوء الحظ أنه محال على رجل من عامة الشعب أن يكون مؤدباً ومعلماً فى بيته ، لأن التهذيب عملٌ متوالٍ ، يقتضى فعلا يومياً ، وملاحظة مستمرة .

فنحن إذاً فى حاجة - فى أحوال كثيرة - للاستعانة بمؤدبين غير الآباء . وإذا بحثنا عن هذا الأب الذى يجد من وقته ما يسمح له بالمراقبة فقد يكون وجوده ممكناً فى الأسرات العليا ، ولكنه غير مستطاع فى الوسطى ، ومستحيل فى الدنيا .

فأنى لنا بهؤلاء الأساتذة ؟ وأى المناهج يتبعون ؟ أتعليم بلا تهذيب وعندنا خليط من التعليم ؟ متعلمون متنافر معقولهم ، متناقض مفهومهم ، ذوو شعور مختلف . هل نفرض عليهم تدريس منهج واحد مع تباين مشارب وأهواء ؟ والمعلم إن لم يذق طعم ما يدرسه تنقصه الروح ، ولذة العرفان ، وهما شىء كثير .

(*) نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

والحق أنه يجب توحيد التعليم والتهذيب رغم ما يعترضه من الصعوبات وعراقيل . فأنك واجد إذا فعلت ، الوحدة فى التفكير والشعور ، والتقدير والمعقول ، وتصير البلاد كتلة أدبية واحدة يسرى فيها روح واحد ، وإن اختلفت درجات التعليم .

يجب أن تمصَّر العلوم ، وتدرس بلغة البلاد ، وأنا إن لم أخش امتيازات الأجانب لفرضت عليهم ، وقلت لهم : كونوا معنا مادمتم قائمين فينا . واتخذتم مصر موطنا ، فيها منافعكم وأرزاقكم ، رُبيتم فيها ، وولدتم تحت سمائها أبناءكم ، وضمت أرضها عظام آبائكم . فلم لاتكونون شركاءنا فى كل شيء ؟ ! .

تأثير التعليم «*»

يقول ثقات علم الاجتماع والتربية : إن التعليم يثقف الأذهان، ولكنه لايهدى النفوس . فلنبحث هذه النظرية بهدوء . . . يؤكد رجال الأحصاء فى بعض البلاد المتمدنة أن معظم المجرمين من القسم المتعلم . وأن التعليم المدرسى بدون تهذيب يسهل فعل الشر ، وليس ثم ارتباط حتمى بين الأجرام وعدم التعليم .

لاريب أن التعليم لايشمل بذاته التهذيب ، وماهو إلا تقوية ، وأداة للشر ، كما يكون للخير . التعليم ليس بمهذب ، ولكنه التربية . ولقد يكون فى التعليم أخطاره .

ألا ترى أنه بجانب جرائم التعدى التى تقع من العامة ، جرائم أخرى أشد خطراً ، وأعظم فظاعة على الاجتماع . خذ الاتجار بالمخدرات الهادمة ، والمواد السامة المهلكة ، وإسقاط الحوامل ، وقتل الأجنة . والعقاقير المعيدة للشباب ، والمرجعة الصبا ، والتزوير والغش ، والرشوة والاختلاس ، والتدليس ، وأكل أموال الناس بالباطل . آثام يأتيها أرباب الأقلام .

التعليم أداة نافعة ومضرة . وآلة لفعل الخير وعمل الشر .

إن السكين التى تشطر بها الخبز ، أو تقشر بها الأثمار تنقلب بسلاحا فى يد فتاك .

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

والنبات السام لايأتيك فاكهة بعد إدراكه! والحيوان وحشى الفطرة - إذا لم يتطبع - لن يكون إلا ضاريا، إذا قويته.

أرأيت كيف أن التربية هى الوسيلة ؟ وتلك الوسيلة لاتتحقق إلا بالتهذيب. لايجبر الناس على أن يكونوا علماء. ولكن يجب أن يكونوا رجالا شرفاء. لاترمونى بجريرة التحريض على الجهل، ولا تحرفوا كلمى إنى لست بعدو العلم. إنى لأغتبط بنشر التعليم، إنى أحبه، وبجانبه خيراته، ولكننى أثبت أنه بلا تربية يخبث ويأسن (١) بدل أن يرقىَّ ويحسن الشباب يهددنا بالرجوع إلى الوراء، ويصبح سبباً جديداً للتدهور، إن لم نفتح عيوننا ونوجه إليه بصائرنا، وننبه له عقولنا.

* * *

إليك صورة مما فعل بأولادنا التعليم بلا تهذيب. ألا ترى ابن الزارع والصانع، والتاجر. والماهن، إذا ما ألم بقواعد الكتابة، وعرف اسم الفاعل واسم المفعول، والفعل المعلوم والمجهول، يريد أن يكون موظفاً ويغالى فيطالب مركزاً بديوان الوزارة، والذى بيده الحل والعقد ويملك التعيين قد يؤخره إلى حين، لكثرة مالديه من الطلبات الموصى بها، فيطول أمد الانتظار، فيبقى الشاب المسكين عطلا معلقا بخيط أمله. فيمكث فى المدينة، وشغله الغدو والرواح والعف على الأبواب كالذبابة على صحن العسل والترامىْ على العتب. كما تعمل الصائبة عند دخول المعبد.

أليس كل منهم حراً فى العودة إلى عمل أبيه ؟ فيرجع ابن الزارع إلى حقله. والصانع إلى مصنعه. والتاجر إلى دكانه، مزوداً بمعارفه التى اكتسبها، والتى تؤدى إلى نتائج حسنة إذا شارك أباه فى عمله. فهو

---

(١) يركد ويتغير

لايرضى ، وقد يحضه أبوه على التمسك برأيه . فيستنكف أن يعانى الزراعة والتجارة مثلا ، ويعدها سقوطاً . قد يستسهل الأنسان التنازل ولكنه لايريد ، فيدور الشاب فى المدينة وتحت إبطه شهادته فارغا من شغل فيتطبع بطباع أهلها ، ويتهذب فى المسارح ، ويتعلم فى المقاهى ، ويشغف بقراءة الصحف فيتأثر بها على اختلاف مشاربها . وربما مال إلى العبث .

إنه ينتظر تحقيق مأربه ، فينتظر ، ثم ينتظر . وإذا ما خاب أمله تملكه اليأس ، وهو يعتقد أنه حقيق بمركز فى الحكومة فيحنق على أولى الأمر . ويا شَرّ ما يفعل اليائس الغاضب ! ! .

ما الذى كسبته البلاد من مثله ؟ إنْ هو إلا خطر . وهل يكون يكون غير ذلك ؟ وأمثال هذا كثيرون ، يزدادون يوما بعد يوم . والحكومة توفر من وظائفها (١) . وتقتصد من أموالها . فكيف يكون الحال . وإلى أين المآل ؟ لا يجرؤ أحد حتى على وضع هذا السؤال ! .

اليأس والهم هادمان للقوة والصحة مضعفان للأرادة . فانظر كم خسرنا . العمل ، والقوة ، والنفع ؟ .

---

(١) جمع : المفرد : وظيفة : وهى ما يُعَيَّنُ من عمل ورزق وغير ذلك



التعليم والأجرام «*»

إن كان يلزم صحيحاً ما يقولون بأن عدم التعليم سبب الأضرار والشرور - التى يلزم أن يرجع حصولها إلى عدم التربية - نصل حتما إلى هاتين النتيجتين الاجتماعيتين :

١ - لا بد أن يكون التهذيب ضعيفاً فى الأرياف ، حيث إن التعليم غير معتنى به كالمدن وعواصم البلاد.

٢ - إن الشعور بالواجب عند المرأة أقل منه عند الرجل ، إذ أنه يدرس بتوسيع أكثر من المرأة.

والواقع يخالف هذا ، إذ أن سكان المدن هم ثلاثة أعشار سكان مصر ، منهم ثلث المجرمين تقريباً فى جميع البلاد ، وأن عدد الجرمات بالنسبة لتعدادهن لا يكاد يكون شيئاً مذكوراً . ويلاحظ أن حوادث الأنتحار تربو فى الرجال ، وتكاد تكون معدومة فى النساء ، وإذاً فنى المرأة شىء لا يضره نقص التعليم ، وفى الرجل شىء لا تنفعه وفرته . لا أتردد فى تقرير أن الأنثى يُرَشِّحُ فيها تلطيف الشعور ، بغرس الحياء ، وتحذيرها من العيوب ، ويهمل كل ذلك فى الذكور . فلئن كان هذا تهذيباً قاصراً غير كاف وأوليًا ، إلا أن نفسها تتأثر به ويمكث فيها طويلا وعميقاً ، فتكبر عليه ، وتعيش بعيدة بريئة من السفسطة والجدل الكلامى ومتناقضاته ، طاهرة من كبرياء وجرأة نصف التعليم.

فاذاً لا يمكن القول بأن الجهل يفسد قلب المرأة كما يدعى به !!

«*» نشر بجريدة الحال سنة ١٩١٧

لقد خلقها الله لدارها، وتدبيرها. وسياسة أولادها، ولإدارة مملكتها الصغيرة، التي تقتضى أن تنظر لها نظرات صريحة مجردة عن كل تشكيك وتأويل.

ومن كل البراهين التى يدلون بها لتأييد أن نظرية عدم التعليم سبب الشر لا أجد أقوى من قولهم ... الدليل على أن التعليم مهذب أن بين ألف مجرم لا تجد واحداً من الذين درسوا القسم العالى من التعليم. وهذا الدليل منقوض، إذ أن العلماء والراسخين قبصة (١)، وهم كسر من تعداد الأمة. فلما كان عددهم محدوداً كانت الجرائم التى تنسب إليهم نادرة جداً، بالنسبة لجرائم عامة الشعب. وإليك البيان:

خذ ألفاً من المصريين، فلا تجد - على ما أظن - نصف رجل بلغ محصولا علمياً راقياً. وعلى هذا إذا أجرم ألفان من الجهلاء، يجرم واحد من المتعلمين، وإذن تكون النسبة محفوظة، وخطأ الاستدلال حاصلا من فرض أن عدد المتعلمين والجهلاء ثابت النسبة على أنه بالطبع، متغير، والمتعلمون يزيدون، والجهلاء ينقصون.

ما لنا والكلام فى التعليم العالى؟ وهو لا يبلغه إلا القادر، والقادر قليل، فالواجب إذاً الكلام على المتعلمين التعليم العام أو الشعبى، أو بعبارة أخرى غير العالى.

ارجع إلى عشرات من السنين. هل عددُ المتعلمين بلغ عددهم اليوم؟ لا. وهل يجرؤ أحد أن يقول: إن تهذيب الشباب ترقى؟ وهل ينكر أن كبائر من الجرائم ارتكبها شبان من المتعلمين تعليما راقياً

---

(١) ما تناولته بأطراف أصابعك. والمراد هنا: أنهم نادرون.

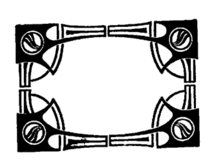
« كما يسمونه »؟ المسألة لا تقبل جدالا . ألا إن الرادع عن الشر ليس هو العلم ، وإنما هو الشعور الذى فى القلوب .

لا تُفرِطوا فى تعليم الأنثى . ولا تُفَرِّطوا فى تهذيبها ، واجعلوا نصيبها من التهذيب عظيما ما استطعتم . ولا يغرنكم رُقِيُّها فى العلم ، يقولون : إنها المدرسة الأولى . وأنا أقول : إنها مهد التهذيب والتربية ، ما النفع الذى يعود على البلاد من معرفة البنات الفرق بين المدنية المصرية والكلدانية ؟ وفن العمارة اليونانى والرومانى ؟ واشتقاق اللغات ؟ والفارق بين العربية والحميرية والحبشية ؟ وفلسفة إرسطو وإبيقور والمشائين والرواقيين ؟ زمن ضائع بلا طائل . فما ضرها لو أمضته وكان الشعور يقوم فى نفسها - وهى الام والزوجة - مقام علم غير مجد ، لا لها ولا لبيتها وأهلها وولدها . ومجدب لا يعود عليها منه عائدة . وبدل أن تكون للرجل كما شاءت لها العناية الألهية العامل الصادق للسعادة والتهذيب ، تصير لولدها مدرسة ، ولزوجها قرينا ورفيقا مدرسيا . ولا أغالى إذا قلت بضياع البيوت والأسرات إذا وصلنا يوما ما إلى تلك الحالة .

فالمودة والرحمة هما دعامة البيت . فأذا وصلت المرأة إلى درجة فى العلم مساوية للرجل أخذها الزهو ، وتغالت فى مساواته فى كل شىء .

والمساواة بين الزوج والزوجة فى كل شىء ، تولد الخلاف على الحقوق ، والخلاف منفر . فترفع المودة ، وهى أحد أركان البيت . ولا يبعد أنها تنازل الرجل فى ميدان العمل وتسابقه ، والمسابقة تقتضى

التزاحم ، والتزاحم عراك . والعراك يفقد الشفقة والحنـو ، فتزول الرحمة من القلوب ، ولا يبقى بين الرجل والمرأة إلا الميل الطبيعى ، ولا فرق فيه بين الحيوان والأنسان . فهل يكفى أن تقوم البيوت على شهوة ومجرد شهوة ؟ والبيوت أراد الله أن تصان ، لا أن تهدم وتدمر ! .



السلطة والإصلاح

هل الرفق يفضل السلطة فى التربية ؟ هذه مسألة أساسية ، قام فيها خلاف كبير بين علماء التربية ، ولكنهم مجمعون على وجوب إرشاد الولد ، فمتى وكيف ؟ هذا هو الأمر الدقيق .

وللوصول إلى بيان الخلاف نعرض كلا الرأيين وحجة أصحابه :

١ — التربية بالرفق أفضل :

يقول أهل هذا الرأى : .. أتجبرون الولد على الطاعة ، لأنكم أقوى منه ؟ وتكرهونه على الامتثال بالتهديد ؟ إنكم تنالون نتيجة مادية ولا شك ، لكنها بغير جدوى ، لمن يرى ببصيرته من قريب ، لقد أكره الجسم ، وهذا ماحصل ، وخاب القصد . الولد غلب على أمره ، ولم يقتنع . ولأنه ضعيف عن المقاومة يخضع ، طالما يكره ويقسر . نعم . ويصدع بالأمر ، لأنه لا يطيق مخالفة . يلوح عليه الامتثال ، وصدره يغلى . وينتظر الوقت الذى يستطيع المقاومة فيه جهراً . لقد سيرتم جسده ، وروحه ثابتة تقاوم ، وانحنى ظهره ، وإرادته تتصلب . يضيق صدره ، ويسخط قلبه ، فيجمع كل واحدة على أخرى ، حتى يأتى يوم كسر القيود ويكون يوم الانفجار .

لا شيء أخسر من هذا الأرشاد الشديد القاهر بلا تفاهم ، الذى لا يوضح طريقاً ولا يرسل نوراً .

وعلى نقيض ذلك إذا خاطبت القلب ، واقتنع أن أمرك الحق ،

وقد أردته لحكمة . فانك لا ترى آلة يحركها الضغط ولكن ترى إدراكا يقدر أمرك بعد تفهمه ، وعقلا يزن سداده ، وإرادة طليقة تنفذه حباً وكرامة ، وتصبح الطاعة بنت التأديب - غير الامتثال ، أو الاجتناب الموحَى بالرعب بلا حجة واختيار .

٢ - إن التّربية بالسلطة أفضل :-

يؤكد أصحاب رأى الرفق انتظار الولد حتى يميز سداد أمرك ونافع نصحك .عجباً ! أتريدون بدء تأديبه من حيث يجب أن ينتهى ، ويتم ، ويجنى ثمره ؟ هذا تنازل عن حق استعمال السلطة . فبأى خطة حكيمة مؤدية للغاية يطيعك ولدك فى سن الثالثة والرابعة ؟ وإلا فأنك تاركه لهواه فى سنِّ الخاطر الحاسمة ، ومسلم الأمر إليه فى الوقت الحرج الذى يجب أن يتحقق فيه التأديب بالمنزل .

وليكون أصحاب رأى الرفق على حق ، ونظريتهم صحيحة ، يلزم إلقاء حبله على غاربه ، يفعل ما يريد . ولأن الولد - بداهة - طفل ، فكيف يناقش من كان فى المهد صبياً ؟ ما أضل هذا الرأى ! أبعْدَ أن تعود الاستقلال . وتطبع الاستبداد بالرأى ، ينتظر إذا بلغ سن التمييز : السابعة أو العاشرة ، أن يقهر نفسه ، ويكسر من طبعه الحاد ، ويصلح من شأنه ويكبح شهواته بالطريق المنطقية الفلسفية ، أو لحبِّ الفضيلة ؟ إن صح هذا حق على الآباء أن يسترشدوا بذلك الولد وافر الحلم ، وآية العقول .

متى يأتى حين بدء التّربية فى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ؟ ! وإذا غُمَّ الأمر على الابن ، وحاور ، وأصبح النصح جدالا ، فأى تفسير يلجأ إليه الأب فى هذه المرة ؟ ولا يجد إلا عناداً . إذاً لا بُدَّ من التحكم ، والسلطان لا مفر منه .

فالأولى أن يكون فى الطفولة . وإلا فالتأديب محال . وتأثير الحجة يأتى آخراً ، لتطهير العقل ، ولا سيما فى تقويم السلوك .

لقد عرضنا الرأيين . وإليك تفصيلهما . وأيهما يتبع ؟ ألين مقنع . أم قسوة آمرة ؟ أى : الرفق والسلطة .

وعندى أن مذهب السلطة راجح . وإن أثمر الرفق حيناً يثمر السلطان أحياناً . وربما أصار اللين الولد مدللا ولطيفاً أكثر منه مخلصاً على شرط أن لاتطالبه بغير مايلائمه .

إن السلطان يُنجبُ أبناءً مُوَقَّرين ، ورجالا يعرفون الواجب . وهذا الاعتقاد مبنى على دعائم وأسباب حاسمة : الأهتمام بالطاعة ، وتقضى أن يعتادها الولد قبل أن يميز ، ويقدر مايؤمر به . وهذا هو عيب مذهب الرفق ، الأخذ فى إقناعه بوضعه فى مرتبة أبيه ، الأمر الذى لايخلو من خطر ، ويسمح له بمناقشته ، ومناقضته ، ومعارضته ، والأب يرفض ، فيؤدب ، فيُوبِّخ إذا كانت المجاوبة مُلَجْلَجة ، أو ناقصة البديهة .

هذا العراك فى ذاته هزؤ واستخفاف ، ولا مناص منه ، وصعب اتقاؤه .

فالولد ـ وقد مال أبوه عليه إلى آخر متراس ـ يستمر فى المنافرة ، ويورد أسباباً سخيفة لتأييد رأيه .

والأب يغضب لولايته وتجاريبه . وينتهى الأمر به أن يتحكم ، ولكن بعد فوات الأوان . وقد يفقد هدوءه فيضيع احترامه ، ويندر فى مثل هذه المبارزة أن الأب الضائق الصدر لاينعت ابنه بصفات

لاتليق بأب وقور أن يلفظها . ولا بابن مؤدب أن يسمعها . وهكذا تكون الخاتمة ، وهى خاتمة سيئة .

ثم إذا بلغ الشاب السادسه عشرة أو الثامنة عشرة ثملا(١) من الاستقلال بالرأى مملوءاً بالأهواء ، أتظن أن الحنو الرِّخو المبهم ، أو الملاحظات العقلية التى جعلتها أساساً تتغلب على الشهوات الهائجة ؟

أيكفى الأم حينئذ صياحها الحزن : أيها العاق أنت لاتحبنى ؟ ليتجرد الولد من أسلحته ، ويعود إلى رشده ، وينقلب سلساً ، ويستحيل ليناً هيناً .

لم يستح « ليكورج »(٢) أن يضرب لأمته مثلا فأخذ دِرْصين(٣) أصيلين من أم واحدة . أحدهما تربى على الرفاهة والآخر على الخشونة وتوسط ميدان « إسبارتا »(٤) بعد أن وضع فى فوهته جَفْنَة ذات زَوَر وأطلق أرنباً ثم أرسل الكلبين. فقصد المترفه بارحا(٥) الجفنة المغريةوعدا الآخر سارحاً(٦) منقضاً على الأرنب . لقد فقد سليقته السلوقى ، واحتفظ بها الثانى بل نمت .

هكذا الحَلْواء ، وناعم الفراش يناسب السلوقى « لؤلؤ » اللعبة الفتانة والتروض الخشن يناسب « فَهْدا » الكلب القنّاص الحرّاس .

يحزننى أن أرى رجلا له ولد وكلب . فيوجه كل عنايته لكلبه ، ويهمل

---

(١) مأخوذ نشوان من فرح .

(٢) انظر فهرس الأعلام .

(٣) كلبين صغيرين .

(٤) انظر فهرس الأعلام .

(٥) الواقع عن غير قصد وصواب .

(٦) نشيطاً موفقاً سهلا .

حبة قلبه ، يدأب على تعليقه به فيشلِيه (١) ويُرَوِّدهُ (٢) الدار . ولا يدعه يشذ عن مراده ، ويعمل على استطاعته مرة بالتهديد ، وآونة بالتدليل . وثالثة بالعصى . وأخرى بالحلواء . باحتياط وروية ، ويدفعه لاقتحام الخطر . وأن لايخاف الشوك ، ويهاب خرير السيل . ويفزع من الضوضاء ويجعل من طبعه احتمال الأذى دون أن ينتقم بعضّ . ولا يثور مثل الوحش . ولا يقطعه عن الاختلاط بمثله ، ليقتدى بأصله .

ألا كان ذلك أحرى بولده ، وفلذة كبده ، فأن لم يفعل فيصير غلاما لا رجلا ، كما يقتضى أن تكون الرجال .

ولقد يقول معترض : حقاً إن السلطة مؤدب ، ولكنها تمحو الطبع الرقيق ، والظرف ، والأيلاف ، والطرائف البديعة الجذابة . السلطة مجردة عن الرفق ، ألا تقتل رقة وحنو النفس ، وتُقسى القلب ، هل فوائد هذا المذهب تكافىء مزايا الخلال الموءودة فى بذورها لتَشَدُّد لا حكمة فيه ؟

قل من استطاع الرفق على أن يعمل دائباً بعامل التأديب ، ثم الأقناع فقد فاز . إن هذا لا يضعف مذهب السلطة ، بل يزيد له حجة وقوة إذ يثبت أن التربية المبدوءة بالتأديب ، يسهل إكمالها بتربية القلب ؛ ومحال أن تستتم تربية الرفق إذا نقصت بالاستعانة بالشدة .

والواقع أن الولد فى السنين الأولى من عمره ترك يتطبع الاستبداد ، ويتبع هواه . ويؤكدون أن أغراض الصبى أشياء تافهة ، أو قليلة الأهمية ، فلا خطر فى الغض عنها . أنشن الغارة من أجلها ، ونثور ونجعل البيت

---

(١) يدعوه .

(٢) يدور ، ويذهب ، ويجىء لأمر ما .

يموج هرجا ومرجا باتخاذ الشدة فى التأديب ، بدل التنازل عن أمر ليس فيه شر كبير ؟ ماذا يضر لو أخذ قطعة ورق ، أو قلما . أو حجر النرد ؟

هنا يجب التفرقة : إعطاء الشيء فليكن ، ولكن لا ترجعوا إذا رفضتم . ليست المسألة هى الشيء . واللعبة ليست المقصودة . والمهمة الكبرى هى الخوف إذا تمسكتم . وهو نازعكم فعدلتم . فسلمتم بأن « لا » تصبح مرادف « نعم » والرفض مرادف القبول ، ويحس بأنكم غير جادين ولا قادرين ، فيتخذكم سخرية .

إنكم لا ترضون أن يمس سنداً ، ولا مخالصة ، ولا وثيقة ، مع أنها ورقات ، ولا جنيهاً ، وهو يشبه حجر النرد ، وكذلك تمنعونه مبراة أو بندقية ، أو سهماً ، وتقاومونه بعنف ، لا أدرى ماذا أقول فى تصرفكم هذا ؟ أنتم لكم أسبابكم ، ولكن الطفل له أفكاره وإرادته . وهل يقدر الخطر ؟ وبما أنه أخذ مرة عصا بفضل إلحاحه فسيملأ البيت صراخا بلا شك بأمل أن يأخذ البندقية التى تسلمون فيها بعد امتناع شديد . يقولون : إنه لم يزل صغيراً . وسيعقل فيما بعد فنرشده . هل تستطيعون ذلك فيما بعد ؟ .

أمر بعيد التصديق . وقد دلت المشاهدات على أن الولد إذا لم يُقمع (١) فى السنة الرابعة أو الخامسة فالمحقق تقريباً أنه لن يقمع أبداً . . .

إن الطاعة من الطباع ، كالعصيان سواء .

بعد قليل صار الصبى فتى ، وصار عصيانه عيباً وفضيحة ، وجبروته

---

(١) يقهر

لايطاق . فيخجل الآباء ، الآن وجب العمل بعد الخزى ، وأخذه بالتضييق .

ينتقل الآباء دفعة وبلا جسر . يريدون الغلبة عليه . فيتكلمون فى السلطة ، ولكن بعد الأوان . وقد سبق السيف العزل . تعب ضائع !

يفكرون مع هذا فى العنف ، ويلجئون إلى القصاص . فيتصادم الأب بأى مقاومة بدنية وأى عناد . ومن خشية العار من الجأر (١) والصخب قد يُترَكُ الصراع . وإذا وفق الأب عفوا ، وأطاع الفتى أخذ العجب الابن من هذا التغير الفجائى . ومن سلوك أبيه الجديد ، فيَسْخط عليه . فيحفظ فى نفسه ، ويحقد ، ويعقد . ويجمع الأضغان ثم يقرض العقال . ويلعن الدار التى يتنزل فيها عليه العقاب . لأنه صار فتى . والفتى يحس بجرح الذل . أرأيت كيف أن السلطان لاينفع بعد مذهب الرفق الذى اتخذ أصلا فى التأديب ؟ .

إن المنطق يعرفنا أن الأصح : البداية باستعمال السلطة طالما أن الولد لم يبلغ سن التمييز ، ليفهم ، ولا الحلم والقوة ليتغلب على نفسه . ثم يُناجىَ القلب بالرفق إذا اشتد ورشد . وفرّق بين الصواب والخطأ . وصار معلم نفسه . هكذا يثمر مذهبا التربية كما بينا إذا وضعنا كليهما فى موضعه ، الشدة ثم اللين . . . .

إنك إذا أردت تقويم غصن عداته بالقوة ، وربما استعنت بالحديد ، ثم يكتفى بالخيط ، أو بالقصب لتثبيته فى الاتجاه المرغوب . هذا قياس منطبق على قانون التربية .

أعرف جيداً أن أمهات شفيقات يزعمن أن الشدة تنقص عطف

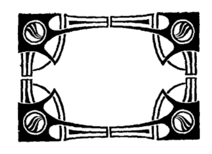
---

(١) الصياح.

الأولاد . أظن أن الفكرة خاطئة . إنما الجزع والخشونة فى الردع يقصيان الأولاد .

ليس المقصود من القسوة أن لايسمح للولد بشىء ، وأن لايتجاوز له . أو التأنيب الدائم ، وإلا انعكس الأمر وصار متلفاً . إنما القصد هو الأمر — فى النادر — بصراحة وحزم حتى يعطى الولد منتهى الحرية الممكنة بلا مخاطرة . ولا خطر على الولاية الأبوية . قد يرخى العنان للجواد إذا وثقنا من قدرتنا على كبحه . خوف السقوط فى الهاوية ، ولا نلزمه القيد دواما ، ولا نؤذيه بالسياط أبداً .

إن الأفراط فى الحرية مجلبة للعبودية ، والقسر الحق يوشك أن يكون تسامحا .



هل يوجد أولاد مستعصون ؟

يجب تحرير المسألة ، وإلا أصبحت معقدة إذا طرحت بهذا الشكل المبهم !.

١ — أيراد أن هنـاك أولادا محال تأديبهم بعد إهمالهم وتركهم واتباعهم سوء السبيـل ؟ نعم . ولنا الحق ألف مرة فى الحكم عليهم بالاستعصاء . ولا نشك فى عضالة دائهم . ويصبح الولد غير صالح : كيف نبدأ من حيث يجب أن ننتهى ؟ بالرفق ضيّعنا ....

٢ — أم يراد أن الوسائل تنفد لأرشـاد ابن الثالثة . أو الرابعة ، مهما كان طفلا مهولا ، وأن الأب أو المعلم يلقى سلاحه أمامه ؟ لا نسلّم ولا نجيز .

يؤكدون بوجود طبـائع متمردة فطريا ، ومخلوقات خبيثة ، لا يجدى معها شيء . وقصارى الحديث : أولاد عصاة يحق فيهم القول : إنهم مستعصون بور .

خذوا حذركم من مثل هذه النظرية . وإلا فلا تهذيب ولا إنسانية مسئولة ؛ ويصير الناس آلات عمياء ، لخليقة فاسدة . وضحية المقدور الباهظ . وبناء على هـذه القاعدة ، نصـل إلى إقامة المصحات مقام السجون ، والأطباء بدل المربين . ولن تكون خطايا وإجرام . وإنما أمراض وأدواء (١) .

وانظروا إلى أى حد وصلنا بهـذه التعاليم التى تقال فى المجالس

---

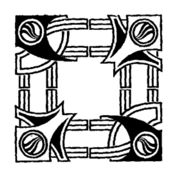
(١) جمع داء

« المُرَبّيّ من عند ربى » والتي يراها الحكيم ضلالة ، وسفسطة ضارة مقلقة ؟ .

تبصروا معنا فى هذا الاعتراض : فبم تجيبون على الكلمة الآتية ، كيف تحنون غُصن بلّوطة ، وتدورُونه حلقة مستوية ؟ لا تستطيعون ولن تستطيعوا - إذا لم تبذلوا المجهود الضرورى - ثنيه دون تهيئته ، وقد تفرع معوجا ، ولم تعدلوه بسنادة إن أردتم إتمام التجربة فى ساعة . نعم . قد يسهل إذا باشرتم ذلك رويدا رويدا ، وكان الغصن نضراً طرياً ، ووضع فى قالب يلينه ، نعم . وبهذا الاعتناء وهذه الحيطة تحصلون على دائرة منتظمة .

التربية عمل عظيم ، ومشقة كبرى ، وعناء مستمر ، أفى هذا شك ؟ لا ينكره أحد فى ظنى . .

التربية وكل الأعمال الصالحات قيمتها فيما أخذت من المجهود . ما أعمقها وما أصوبها . !



الأساءة بالخطأ

إن من ينظر بلا تحيز يجد صنفين من سيئى الأدب ، الذين أهملت حراستهم ، والذين جهلنا هديهم إلى صراط مستقيم.

إنى أصور هذا البحث ليسهل فى الصورة الآتية :

تسوء تربية الولد أحيانا كثيرة بخطأ الآباء . ودائماً على الأقل بفلعهم.

١ ـ الأساءة بالخطأ : تسوء التربية إذا لم نرد أن نشغل بأمر الولد ، وقد يظهر الأمر مضجراً ومملا إذا ضحيناه لسرور لهو الدنيا . أو إذا أذهلناه بحظوظه . . . وإذا قربناه من الغواية المتوقعة ، وإذا ألقيناه بين جماعات قليلة الوقار ، أو كثيرة الأخطار . .

أليس هذا بحاصل ؟ إنى لا أقصد الرعاع ، وبؤرهم ، ومجتمعاتهم التى فيها الرذيلة عادة ، والفساد علم ثان . فكم من آباء كرام ، وهم بيت القصيد ، قد غشُوا ، وضلوا الطريق . هم يعلمون ، ولكنهم عن طيب خاطر يقللون فضيلة أولادهم ، وهم المسئولون شرعا وأدبا عن سلوكهم ، وأول مجنى عليهم من سوء أعمالهم . هذا مالا يقبل ، ولكنه واقع ـ وا أسفاه ـ فى تلك البيئات ، والبؤرات ، والمخزيات ، والموبقات والحانات التى تكشف المحاكم سيرتها المبكية ، المؤسفة والمثيرة المزعجة ، دعنا من هذا . ألم يكن بين الذين يعدون ممن يسمونهم الجماعات الراقية آباء من قدماء الـملاَحة ، ومتقاعدى اللهو ، وعتقاء الظرف ، يذيبون جليد العمر ، ويسخنون الهرم بشمس الملاهى الدافئة ، وتراهم يتشبثون

بالتلذذ المنقضى زمانه ، ويصحبون لحد ما ابناً شابا . فيفتتن الولد ، ويجذل من رؤية أصل وجوده رفيقاً مسلياً ، لا رقيباً عتيداً .

والأب من ناحيته لايغضب من حماية ولده الذى ترك أباه يستعيد الشباب قليلا بلا مخاطرة كبيرة . وماذا تقول الأم ؟ . . . إنه ليس بأب خفيف حتى يلهو !! هو أب طيب ! يسلى ابنه ، ويعلمه الحياة . واللبيب من دار .

ياولدى ، لاتقل لأمك ، ولا تحدث بما رأيت ، ولا تقصص عليها ما شهدت ، فأنها تؤنبنا . لعل هذا الأمر نادر ، وهذا المثل قليل . ولكنه غير معدوم . وإنك واجده .

وهاك صنفاً من الآباء . أشراف محترمون . بالمعنى السائر يسيئون التربية بخطأهم ، يبيح الأب لولده جشعاً وطمعاً ، مزاملة جماعة مريبة ، ومصاحبة غير أمينة . ثم يحدث نفسه : سرعان ما تغير الفتى ، آه ، لو أصبح شغل آنسة وارثة ! فما يكون مدى الشر ؟

ألم نسمع من هؤلاء الآباء الطيبين الملاح ـ على كل حال ـ من يقول لابنه ماشأنك اليوم ؟ أيها العمل الردىء ! وما أجمل أخبارك ! إنك فاتح كبير ! وعلٌ (١) رذيل ! فما باطن هذا ؟ ولم هذا الأرعاد . والكلام الرنان ؟ .

ألأنه الشاب الرشأ العل لاطفَ الآنسات ، وحمل الأعطفة (٢) . وأخلى مكانه لهن فى الملعب ؟ وانحنى وقام ؟ وابتسم ابتساماً ؟ هذه كياسة عادية . أو لأنه قبل الأوان رفع عصابة عينيه على لعبات المناظر والقاعات ! المهم أن الولد جرىء تملق كبرياء أبيه المغالى المجسم للحقيرة والصغيرة ، والحوادث السائرة المتعارف عليها .

---

(١) من يزور النساء كثيراً .

(٢) جمع : المفرد : عطاف : وهو الرداء .

ألا يقال : إن حديث الأب ماكان إلا مزاحا ؟ قد يكون ! أما الشاب الغَمر(١) فيرى فيه تشجيعاً صريحاً على النشاط من عقال الاحتراز ، الذى يظن أنه للساعة مقيد به . وإذا انطلق ، وتناهى ، وذهب إلى مدى أبعد من المهازلة والمضاحكة فعلى من ذنبه ؟ .

***

اصعد معى فوق هذا ، تَرَ أمًّا شريفة عظيمة ، لها بنت رزينة محتشمة ، فتانة بخَـفَرها ، صافية كطفل ، نقية كملك ، قد غم صفاؤها أمها . كلما رأت بين الناس بنات شابات ، رافعات الأصوات ، جريئات النظرات ، يلفتن الأبصار . خاطرات بمشيات غير متكلفات ـ يكاد يضنيها الحزن عند ماتتمثلها وأترابها ، وهى تكمد وجدها : وا أسفى ، على بنتى ! تجهل قيمتها ، ولا تعرف قدرها وما خلق فيها ، حقا ليس لها بين أترابها عديل ، وإنهن يحزن قبولا ، ويأخذن بالأبصار والقلوب .

لا . لا يليق الاندفاع إلى الناس . ومن الغفلة ترك كل الأمكنة لهم ! نعم . إن مسلكهن ذو جلبة ، وحفظهن المتوالى متعب ولا شك ولكنهن يعجبن ، وهذا بين جلىّ .

وأمست هذه الأم وأمنيتها أن ترى بنتها مقتفية لذاتها . وإن عابت فيهن نقصاً من قبل . والفوز لايكون إلا بدفع هذا الثمن ، وان تنال الظفر حتى تنفق ما ادخر .

لايجب الأفراط فى الأشياء الجميلة . ولا يلزم إلا مايلزم . ولا يتطلب إلا مالا يمكن الاستغناء عنه ، لكل شىء حد . هذه نصائح الأم الشفيقة

---

(١) الجاهل الذى لم يجرب الأمور .

نصائح ذهبية كلها إنسانية . وعلى البنت اتباعها ، ولكن ياضيعتها ، كيف استحال الأمر ؟ .

على نصيحة أمها أصبح التنشيط أقل هدوءاً . واللباس أنصع بهاء . والطراز أكثر سباءً(١)

وفى النهار يذهب بها إلى المعارض ، والسباق ، ومجلس الغناء والموسيقى ، وفى الليل فى السهرات والمسامرات .

أنت لاتقدر فرح الأم فى الليلة التى مافاتت بنتها دورة فى الرقص، ولكن كان يجدر أن تُفَهَّمَ أن الفتيان ـ حتى الطائش منهم ـ كانوا أقل بلاهة عما كان يظن فيهم ، وينتظر منهم .

إن جميع القاعات تزدان بفتيات من طبقتين مختلفتين : فتيات تعرض عليهن المعاصم والسواعد . وأخريات يسألنَ اليد ، وعقد الخناصر .

إن كل الأشياء التى من نوع — مرتبطة ، والصغيرة تجرُّ الكبيرة .

فيسهل أن ترفع الطبقة ، ولأول مرة تسمع البنت أغنية فيها مجازفة « والله يعلم ما يكون تحت هذه » ثم تزور متحفاً ذا حجاب شفاف ، ثم تقرأ كتباً ، وإن لم تكن غير أدبية . فقد كانت ممنوعة عنها بالأمس . والفارق ملموس بين اليوم والأمس . ولكثرة إخلاص الأم وغمّها ، تنتهى أن تدِّبل قليلا قليلا بخطأها ، هذه الزهرة اليانعة النضرة الشذيّة (٢) نفساً رائعة الشباب . نفساً عزيزة . نفس بنتها .

---

(١) خلباً وسلباً للعقول

(٢) ذات رائحة ذكية . والمقصود هنا : البريئة الطاهرة



الأساءة بعمل الآباء

٢ ـ الأساءة بعمل الآباء : لاتهربوا من الأقرار أن أبوين يعلمان أن فى ذمتهما وفى عنقهما تربية ولدهما ، ويعرفان واجبهما العظيم ، ولا يصلان لبغيتهما وعمل الضرورى ، رغم الرغبة الشديدة فى تضحيتهما نفسيهما لذلك الولد ، والنية بلا عمل كالنصيحة بلا مثل .

***

أب يرى فى مدرسة أن ابنه خَلِطٌ (١) بتحوت (٢) التلاميذ ، وعلى بعد شاق معهد مهد للتربية . ولكن فى أيام الانصراف يلزم الذهاب لتسلم الولد . ألا يكون ذلك مضايقاً جداً ؟ والأب لايريد أن يتعب . وأب يبعد ابنه عنه ، ويرسله إلى قريب فى بلد آخر فيصبح الولد بعيداً عن مراقبة أبيه ، وآمناً من قريبه لخوفه من التشديد عليه . ذلك إن كان قريبه غير منحرف ، أما إن كان يسلك سبيلا آخر فقد ضاع الابن بين الأهمال وسوء المثال .

***

قد نسيء التربية بعملنا : متى كنا ـ رغم حسن النية ، والأرادة فى إثمار التربية ـ نخطل ونعكس الآية . وفى هذه الأحوال ، يكون الولد ضحية إخطائنا (٣) وخطلنا .

---

(١) كثير الاختلاط بالناس .

(٢) جمع : المفرد : تحت : وهو الوضيع أو الرذيل .

(٣) بكسر الهمزة : البعد عن طريق الصواب .

خذ مثلا : ولد لدن . أنيس ، ودود . أخذ بالشدة المفرطة وأسرف في الجفاء في تربيته ، وولد مضطرم . فطير الرأى نشيط . ترك حبله على غاربه ، يجب قمعه مبادرة . والآباء لم يعتدُّوا بتلك الأميال ولم يعرفوا كيف يغالبونها . نعم . ليس هذا ذنبهم ، ولكن الخيبة آتية بعملهم ، وهذا هو الذى أعتقده وأقول به .

بنت صغيرة لها آباء متكبرون ، معجبون بأنفسهم . إذا رأوا بنتاً ذات لباس محتشم لا يبهر الأبصار ازدروها ، ولأنهم بمعزل عن غرس الشفقة يلقون فى روع ابنتهم الكبرياء والنفخة الحمقاء ، فترفض اللعب مع ذات اللباس الساذج ، ولكن عوضاً من أن تصرفها عنها بلطف تصعر (١) خدها ، وتردها بصوت خشن . أشكر لك أيتها الآنسة · إنك لست جيدة اللبسة ، وهذا القول الآثم لا تعنف عليه ، والآباء يضعون أناملهم فى آذانهم . ألا يعلمون أن هذه الكلمة الغليظة شر على من لفظتها أكثر من أن تكون مهينة لمن سمعتها ؟ !

وهؤلاء الآباء المساكين مع أنهم يريدون العمل الطيب يكتفون بنظر الأشياء من عل ، ومن بعيد ، وينتهى الأمر بأن لا يروا شيئاً أبداً . وينسون أن التربية الحاقة تتركب من دقائق ظاهرة ، وحوادث جارية ، وتفاصيل كثيرة باتصال بعضها ببعض تكون أساس العقل والطباع . بل ينسون أنها عمل كل لحظة . شغل (٢) مثل هذه تظهر لهم صغيرة دنيئة ، ومبالغ فيها ..... ويظنون أنهم أحسنوا مع أن واجبهم المقدس هو أن يعملوا كل شيء حتى يساعدوا على تلك النتيجة إذ ليس المقصود أن نؤدى حسابا تلقاء هذا العالم ، بل أمام القاضى

---

(١) تميل خدها تهاوناً وكبراً .

(٢) جمع : المفرد : شغلة .

القاسى العادل : الضمير ، بغرس الشعور فى الأولاد ، ثم يأخذون بنتهم إلى مراقص الأطفال فتبادل بحيائها الصافى ، التقاليد والاتفاقات المتواطأ عليها فى الحياة الدنيا . فتختار أصحابها بطريقة مانعة(١) نقادة فَيُسَرُّ الآباء ، فتدلل قبل الأوان مادام الفوز تاما . وهم يخفون فرحهم بلا حذق .

ولِمَ يستعجلون إنضاج هذه النفس ، ولما يستتم تفتحها . ويغربلون تصوراتها الصبيانية ، ويغرسون فيها العجب والحسد . كأن الأشجان والأكدار لاتأتى سراعاً فى الحياة ؟ ولِمَ ينغصون عهد شبابها . وهو مول . ومنقض هارب ؟

يقولون : إن مثل هذا اللعب لاعاقبة له ، لأنها طفلة ، ولكنها شبت ، والشباب شعلة . . . . فتسمع وتعى . وتقول وتعيد ما لا يسمح بقوله فى الحالة العادية . ولكنه من برنامج الحفل . نعم . وإنما اللعب ليس ما يعلنون . . . .

ولأجل تكوين المبتدئة ، أو لكى لايحرموا هم من سلوة ، يأخذونها إلى أكثر المزارح ، فتذهب . فتضحك كثيراً ، وتفهم قليلا ، ثم بعد قليل تفهم كثيراً ، وتضحك قليلا . بل يهجرها الابتسام .

وهم مع ذلك لاينسون الدرس ، كما أنهم لايهملون الحياة البديعة الزاهية .

إنا لفى زمن فيه التعليم امتد حتى جب (٢) التربية . والعقل الفج (٣)

---

(١) ضنينة .

(٢) غلب ـ المقصود قضى على ذكرها .

(٣) غير الناضج .

يخلطهما غالباً . إنه لهو الحق الذى فيه يختلفون ، فاذا أريد وصف بنت بأنها حصلت على قسط وافر من العلم ، قالوا : إنها تربت تربية كاملة ! وإذا سمعتَ ، ثم سمعتَ أمًّا تكبر وتهلل بأنها بالأمس اصطحبت بنتها خارجة من المدرسة العالية . وغداً تصحبها إليها .

نحن لانعرف قدر الهبات العقلية فى الفتاة . والمشاهد أن إدراكها يسبق إدراك الفتى ، وتتفتح أفكارها ، وهو مغلق . فان كان التعليم الرشيد نافعاً ومهيئاً لها ، فالخلط والتكديس بلا استيعاب ولا غيض ، ثم فيض ، يزيد سماجتها وادعاءها . ولا تنس فعل الذوق والبهاء الساحر . وما قيمة تلك الفتاة المجردة منهما ؟ . . . . هى تدهيك(١) بالعنصر المائى والنارى والحرارة . والصوت والروافع ، والضوء ، والثقل والانعكاس والانكسار . فيحمر خد الأم فرحا ، ولو أخفته . وصورت لك عدم الاكتراث . والناس فى انصرافهم يقولون : ماكان أحسنها لو أنها علمت أقل مما تعلم ، فما كسبته من المعرفة الباطلة لايعادل - إذا دققنا - فضل عقلها الطبيعى الذى أتعبت نفسها فى تشويهه ، تحت حمل علم مرصوف غير متين . ولكنها لاتميز بين اللافتة الدعية ، والممتازة الناظورة (٢) وشتان بين الادعاء وإظهار الفضل .

---

(١) تعمل عمل الماكرين الحاذقين

(٢) السيدة التى تتجه اليها الأنظار



أمثال

يوجد سبيل سهل لأقامة الحجة على ماقدمنا . وهو عرض الصور المشهورة والعادية لسيئى الأدب ، والتثبت من أنهم كذلك على الأقل بفعل المكلفين بأرشادهم . وعليه فلا نذكر شيئا عن الآباء الآثمين ، بل عن الذين بعدم تفكيرهم وتجاريبهم سَهَوْا مع خلوص نيتهم .

يحدثونك عن « على » صبى فى الرابعة أو الخامسة أنه هيوج نهم يضرب خادمه ويقرص أخواته ويهدد أمه . إنه لسيء التربية . نعم . ولكن ما لا يجرءون على قوله : أنهم كانوا يضحكون من هياجه فى الماضى ، ويخيفونه بما لايستطيعون عمله : سمل(١) العين وصلم(٢) الأذن وجدع(٣) الأنف ، وسل اللسان ، وكانوا يخضعون لما يسمونه « أهواءه » . فلا يقاومونه ، ولا يتساءلون أبداً : أفى استطاعتهم الاستمساك بالسلطة التى تركوا التسلح بها فى أوانها ؟ فأصبح الولد بعملهم لايطاق .

مثل آخر . . « حسن » فى السادسة أو السابعة . سفيه . شتام ، غضوب لحوح ، يبيع طاعته بلعبة أو قرش أو أنه يقاوم جهارا ، وفى ساعة غضبه ينعت أباه « بالأب الخسيس » . . الخ

ذلك الولد غير مهذب . أفى ذلك شك ؟

ولكن الذى يغمضون عليه جفونهم ، أنه إن أراد الأب أن

---

(١) فقء العين.

(٢) القطع.

(٣) فصل الأنف.

يعاقب ، فالأم تدلل المذنب ، وفى عمايتها تنسى نفسها ، حتى تقول له لتسليه : ادن منى أيها الملك المحبوب ، إن أباك لايحب غلامه الصغير . إنه لرجل شديد . أو أنه إذا رأت الأم أمرا ، وعاقبت عليه ، فالأب الغشمشم (١) يقف بينهما ، ويمنع العقاب ، وربما وبخ الأم على قسوتها بغير حساب لعمل الولد ، وفى بعض الأحيان بدون أن يعرف الأسباب . وياللسعادة إذا وصل الأمر إلى حد ، ولم يقاوم الأب الأم إذا أرادت تنفيذ كلمتها . أليس هذا الغلام غير مؤدب ، وآباؤه الجانين عليه ؟

خليل . ابن العاشرة : ذو هندام وخلاتٍ (٢) ، ولسان ، تمجها النفس . يحمر أهله لها خجلا . لاعاطفة عنده . فلا يخفى ملله من أهله وبيت أبيه الذى لايجد فيه مايهمه ، ولا يجذبه ، أو يعلق به ، إنه لسيء التربية .

فأذا عرفنا أنه من طفولته كان بين الخدم ، وأنه إذا اتصل بآبائه فلتوبيخه ، وتعنيفه ، وإذا أبعده أهله بعد ذلك ، وحبسوه فى القسم الداخلى فى مدرسته وقد عنى فيها بادراكه ، وقليلا بجسمه ، ولا قليلا ولا كثيرا بقلبه - بطل العجب ، أهو الكد فى العمل ألهاهم ؟ أم شغل الدنيا ، أم الملاهى ؟ سيان عند الولد . والنتيجة واحدة . إنه لم يهذب .

سمير . فى الخامسة عشرة ، أيأس أبويه ، لقد طرد من مدارس كثيرة

---

(١) من يعمل بلا نظر ولا فكر .

(٢) جمع : المفرد : خلة : وهى الخصلة .

كسل ، رخو ، عات (١)، وقح ، ذكى فى الأساءة والأضرار ، يسخر من أبيه ، ويضحك من سذاجة أمه ، ويقرأ القصص الحديثة ، ويطلب نقوداً دوماً يفتح له حسابا لدى الحلوانى ، يشتم الخدم ، ويهزأ بجميع الناس .

يقول فيه أبوه : إنه ليس ولداً سيء الأدب ، بل بهيم صغير خبيث . فأذا ما طفح الكيل ، وأراد الأب أن يردعه فلا يستطيع ولن يستطيع .

فسمير هنا هو خليل وحسن وعلى . وقد شب من ردىء إلى أردأ . لقد نمت الجرثومة ، وليس فى الأمكان ألا يكون إلا ما كان وكما جنينا عليه فهو يجنى علينا . وإذن يسوء أدب الأبناء بعمل الآباء .

نعم . قد يفسد الولد الظروف . ويكون ضحيتها ، ولا يكون مذنباً .

ابن وحيد . عاش من بين إخوة خطفتهم المنون . فبولغ فى رعايته . وغولى فى عنايته . يحاط بالحافظين فى حلقة ضيقة ، يكاد يكون مسجونا . ينتهى أن يكره أهله وداره . فيأبق (٢) من ذلك الأسر والضغط فيفزع إلى الأطلاق والحرية الشخصية .

وهذا الحفظ الشديد . والمراقبة المتعاقبة والعناية الدقيقة . والمغالاة فيها تسبب الخبل (٣) .

رجل عليم . وحكيم منهمك فى المسائل العلمية والفلسفية والموضوعات الكبرى ، يتكلم فى كل شيء أمام ولده ، ولمّا يخرجْ من الطفولة .

---

(١) مستكبر جاوز الحد .

(٢) ذهب بلا خوف .

(٣) إفساد العقل .

قد قرأ كتاب الحياة . ولم يبلغ السادسة عشرة أو الثامنة عشرة . لقد أصبح فتى عجوزاً ، هل لنا أن نشكو من إدراكه المبكر المبلبل (١) ؟

أم مات زوجها ، وترك لها ولداً وتريد امتلاك قلب ابنها الذى يذكرها بالشخص المحبوب الذى فارقها ، والحزن والأسى يمنعان القسوة والشدة ، فتترك ولدها كما يشاء . ويشاء له الهوى ، فاذا بلغ أشده صرف . وأنفق ، وصاحب ، وأسرف . والأم العاجزة عن تعقبه ومعرفة مخبره (٢) تخضع وتسكت ، وتنفذ ، وتساعده على أهوائه ، وهى تنكر حاله ، وحقيقة أمره ، فتكون شريكته فى ضره ، وتلف أمره . هذه الأم المسكينة الكليمة لاتنفك عن ابنها ، ولا تستطيع عنه بعداً . تحبه حباً جماً . ولكن الأم التى أحبت مثلها ، ودبرت حبها بعقلها ، وعلمت ابنها وربته ، وسلمت زمامه لمرشدين — برهنت على حب معقول ، وعطف كريم ، وميل مضيء ، مشرف ، مشرق . ذلك هو الحب .

---

(١) المهيج والمحرك .

(٢) العلم بالاختبار أو بالخبر .



الآباء المؤنبون والأبناء الحاردون[1]

عاقبوا قليلا - عقابا شديدا

التهديد الدائم

يابنى لاتقرب النار . فيها خطر . وبعد هنيهة : ألم أقل لك لاتقرب النار ؟ فاذا فعلت جزيت . ثم بعد برهة : ألم تفهم ؟ لقد حذرتك مرتين ، وفى الثالثة طردتك . والولد المعتاد على سماع ذلك التهديد بلا انقطاع ، وبلا توقيع عقاب ، لا يحفل به ، ولا يصغى اليه . وبعد قليل ينفد الصبر : استمع ! إن لم تنته وتطع حرمتك الحلواء ! ومتى سكنت ثائرة الغضب ، يأخذ الولد فى العصيان بهدوء تام . تمر ساعة . والعراك قائم بما لايحمل : ماأثقل هذا الغلام ! ألا تكف ؟ لقد أنذرتك مراراً ! وكأنى أخاطب حجراً . فاذا لمست الملقط فانك لاتخرج هذا اليوم للرياضة ، وآصرك (٢)

فالطفل الذى يعرف جيداً أن المتكلم لايريد جد القول ، ربما لاينبش النار . ولكن عادة العصيان تغلبه ، فبغير حساب يلتقط الملقط الممنوع ويجرجره على الرخام فيصر(٣) . ثم يرنه على الكانون ، فيتجدد النزاع بسبب جديد ، ويستعاد مامضى . فيزاد فى إنذاره ، بكف على

---

(١) المعتزلون المتنحون عن آبائهم · المتحرشون بهم

(٢) أقيدك : أو أحجزك .

(٣) يصوت .

كَده ، لشديد عناده . لم يبق فى القوس منزع : عراك مستمر ، وصبر يعز فيفر بغير عائدة ولا فائدة . إذ لاجزاء ولا حرمان ولا أصر . فالعادة أقلت من خشائه ، والقول لم يتبع بجزائه ، فيضطر الوالد لعقد مجالس للوعظ ، وينهاه عن عصيانه وعناده . فالزجر ، والتعذير ، والعزل ، تثير الطنل ، ويهيجه التوبيخ الدائم . ويفنى الآباء بقية سلطانهم ، ويصيرون مهاترين ثرثارين ، فتزداد مجالسهم ، ولا ينفع النصح ولا الوعظ . وقد يلهو الولد عنهم ، فهؤلاء يتميزون من الغيظ ، وهذا يلهو ويستهتر ، فيكره البيت ذا الذكر المسخط ، ووقع العذاب الأليم . لا أغالى إذا قلت : إن هنالك آباء يتوعدون أولادهم بضع سنين بالعقاب ... جعجعة ولا طحن . وصرخة فى الهواء ! !

كان الأولى من الوعيد ، والتهديد العديد ، والأرعاد المعتاد ، والازدياد فى الأزباد . ومن لوام ووعاظ ثرثار — أن تكون شدة نادرة صارمة . حازمة . حاسمة .

إن معاقبة عيوبه(١) فى بدء مخالفته ، تلقى فى قلبه الخوف الشافى والرعب الناجع . ولأنها على حق فتعلمه الخضوع ، وتغنى عن الالتجاء إلى رادع حينا من الدهر ، فيعيش الولد ، ويعتاد المسالمة والرضى أكثر مما تظن .

إن الحب البنوى كالبشنين(٢) . لا يتفتح فى الماء المضطرب .

وعلى نقيض ذلك ، فتكاثر العقاب معيب . إذ لابد أن يكون خفيفاً ، والعقاب الشديد لايوقع إلا لباعث عظيم مكرر ، والتكرار يفيد أنه غير

---

(١) نقائصه والمراد هنا الذنوب .

(٢) نبات يظهر عند زيادة النيل فى المياه الخالية من التيارات وهى الزهرة المصرية المعروفة بلوتس

رادع . ولذلك فأنا إذا وبخنا الولد فى كل لحظة يهزأ بالعقاب المهين
ويقول فى نفسه حيث لا موت فالفوت ، ولا يحرك ساكنا

إذاً ما العمل ؟ آلقرع بالعصا ، والسلق بالسوط ؟ ونحن فى صدد أطفال . لا . ولا نجرة (١) . ولا لطمة تزيل الغبار أو تطرد الذباب فمثل هذا الأخطاء كارثة ، لأننا نثبت نهائياً للولد أن لا يتوقع شيئاً وسيصير ظالم أهله ويستعذب عذابهم

وأما إذا عاقبنا بحق وقدرنا العقاب تقديراً ، وتركنا الولد بعده هادئاً . فقد أثبتت التجارب أنه إن كان مذنبا حقا فنفسه تعنقه . وضميره يقر ، ولا يحفظ ضغينة ، على شرط أن لا نكون عاقبناه بطيش وخفة .

وإليك ما يجب عمله :

١ — على أقل مقاومة مقصودة يجب العقاب بشدة ، وهذا سر السلطة العظيم .

٢ — ولأظهار القليل من حسن الأرادة . يجب مكافأته ، والغلو فى الحدب (٢) والعطف عليه فالولد يفرح ، ويهتم كما أننا نفرح به ونهتم وإذا أفهمناه أنه مستعد للفضائل ، والصفات الطيبة ولدنا فيه الاعتقاد والرغبة فى امتلاكها .

المساومة

إياكم والطاعة المتساوم عليها : فأذا قلتم لأولادكم اعملوا كذا لا تترددوا فى حملهم على فعله ، مهما قالوا وألحوا ، فأنها العيب الأساسى

(١) ضرب الأذن بالأصبع
(٢) الحنو والأشفاق

فى التربية بالشعور : أى بالرفق. وإلا اضطررنا إلى نظريات الأقناع. وتركنا الأمر والنهى.

واحذروا التنازل ، فأذا قلتم « لا » يجب أن تبقى « لا » بمعناها وأثرها . وأما إذا لفظتم وكانت معناها بعد دقيقة « نعم ! » فكيف لا يتشبث بطلبته ويصرخ وينتحب حتى يستعجل خضوع أبويه .

لا ترفضوا إلا بعد الفكر الطويل ، حتى لا تضعوا الرفض موضع القبول ، ولا القبول موضع الرفض ، فأذا خلطنا فى الأمر ، فلا تعجبوا من معصية أولادكم . فأنكم تستحقونها .

الحيف

لا تحيفوا فى عقوبة ، ولا تجعلوها بقدر غضبكم ، إنكم تظلمون ، وقدروا العمل بنية فاعلة ، فالساهى ليس مثل الناوى ، وليس المخطىء كالقاصد المتعمد . ولا يكال لمن يكسر كوباً لعدم تحرزه ، بالمعيار الذى يكال به للشتام البذىء .

التسرع

ولا تعجلوا إذا سمعتم صياحا أو ندبا من ولد فتجازونه قبل أن تعرفوا السبب ، فأذا فعلتم ربما كنتم أحق بالعقاب منه . ماذا تقولون إذا اقتحمتم عليه الغرفة ، ولطمتموه ثم تبينتم أن إبرة تركتموها فى وسادة شاكته فى إصبعه ؟ أراكم تخجلون . « ولكن لا تتركوه من

غير لوم ، وعنفوه على عدم إخباره ، . وهو يقول فى نفسه : كان الأحرى بكم أن تتبينوا قبل أن تجازوا .

التحذير

لا تكثروا من النصائح والتحاذير ، فلا تقولوا له : حذار أن تزل قدمك . تنبه وإلاَّ تصطدم . انظر أمامك . تقدم . لاتسرع فى مشيتك عدل قوامك . انظر قبل أن تضع قدمك . اتبعنى . . . . . . الخ .

أكل شىء مخيف ، أكل خطوة خطرة ، أكل حركة متلفة ؟ فيحذر الولد ، ويرتاب مما يحيط به ، ومن عمله . والتحاذير المتواترة تجعل الخرق فى مستوى الأخطار المتحققة ، فيضل الغلام ، ولا يلتفت ، ولا يحترس إذا حق احتراس .

ومن يطلب إليه كل شىء ، يهمل كل شىء .

لا يستطاع الكفاح دواما

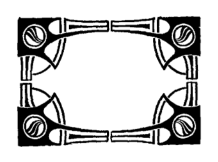
كلمة قد تكون أقل صواباً مما تظهر بادى الرأى . . . . تشكك ما استطعت فى تلك الأمثال السائرة . والمواعظ الشائعة ، التى تخيل إلى الأنسان أنها برهان قاطع ، وتفنيد حاسم ، لا رد عليه عند من تقبلها بلا تمحيص منهم .

فاذا عنفت مذنباً على سلوك شائن ، وجشع شنيع ، وفيه بقية من

الحياء ، فقال لك : إنه كافح طويلا ، ولكنها الفاقة ، وقد طوحت به والجوع نصوح أثيم ، وقد لا يستطاع الكفاح دواماً !! ألا يستحق التأنيب ؟

عجباً . أليس بواجب محاربة الشراهة ، والجشع ، والانتقام ، والحسد والأثرة ، وكل غواية وضلالة ؟

أرأيتم أن الاعتراض كيف ينقصه السداد بوجه عام ؟ وأنه على الوجه الخاص بموضوعنا يلاحظ أن كفاح الآباء دليل على فقدان سلطانهم . وفكرة الكفاح ترفع الطاعة .



كيف نستولى على السلطان ؟

أمامك نجدان (١) : أتختار شقاقا دائماً . ونزاعا طويلا ، لا تكسب منهما شيئاً ، أم بعض المعارك الحامية النادرة الحاسمة التى يخرج منها الآباء مسلحين بكامل سلطانهم ، مالكين ظاهرين لأبنائهم ؟ هذه المسألة لها أهميتها الكبرى .

حرب المناوشات ، والرمى من بعيد ، لا يكره العدو على إلقاء السلاح . هذه المعارك المتقطعة تفُت (٢) ولا تلجىء للتسليم ، فيها نصر ولكن لا مغلوب ، والميلة العظيمة . والواقعة الكبيرة فاصلة ، وتوطد السلام .

فالآباء المستضعفون أمام أولادهم من سن الطفولة يهزمون ، ولسلطانهم يخسرون ، وفى الآخرة يعجزون . والولد يجرءون ويتمادون ما فتئوا يتغلبون ، ولمرادهم ينتزعون . كذلك يدوم الخصام ويدمن . فاذا ألجمت ابنك وقمعته بروية مرتَّبة . فرحت بألقاء عقاله (٣) على هدى لأنه علم أنك قادر على كبحه فيرتاب . ويخشى تمرداً غير مجد . وقد علمته التجاريب أنك أنت الأعلى ، فالسلام يظل ناشراً علمه فى ساحة الدار ، ويكون الخصام الاستثناء ، أو على الأقل ، فالتهديد يفيد ، ولا

---

(١) مثنى : المفرد : نجد الطريق المرتفع الظاهر

(٢) تضعف ، وتفرق الأعوان .

(٣) حبل يشد به البعير فى وسط ذراعه . والمقصود هنا فك قيوده .

أصدق أبداً أن العقاب باللين يدوم سنين . ويلزم أن تتحين الظرف الذى تكون فيه حكمة الاشتباك فى الواقعة الحاسمة — بَيِّنة لا شبهة فيها وأن تكون الأطاعة كاملة ، حتى لا نستعيد الماضى . إذا فرطنا وتنازلنا ومتى كفر الولد عن ذنبه ، واستغفرك فاغفر وانس ، ولا تعد إليه فتذكره . وليكن بعد الأعصار الصحو . واجعل العقاب قصيراً قاسياً والعفو من فورك ، فتوجد جواً يعود الولد فيه لسروره وجذله بضحكه ولُعَبه .



العصا

هل إذا رأينا تمرداً من ولد فى الثالثة من عمره ؟ أنطبق عليه المثل السائر . العصا لمن عصى ؟ إن عرفنا كيف نخضعه ونكسر ثائرته دون أن تمتد إليه اليد فى الوقائع الكبرى : التى ذكرناها فلنا الحق أن نسألك الكتاب الشريف الذى أنزل بالنصوص البيِّنات .

إنما المسألة مسألة ولد لايريد الامتثال ، ويقاوم عناداً ومطاوعته أمر لزام ، ألا يعترض . إنه عنيد . ولكن لم العقاب . إن استطعنا رده إلى مانريد بلا جزاء . إذا أثبتنا له أنا محقون ؟ أو أننا لخيره ناصحون .

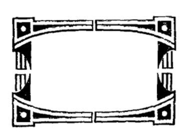
الجواب سهل . إنك مقنع لاغالب ، وذلك نصر الأعزل ، وقوة الضعفاء . نعم . الولد يقتنع ولا يطيع ، يحول إرادته كما شئت ، لأنه رأى ما رأيته ، ولكنه لم يخضع ، لقد صببنا فيه قصداً ، ولم نأمره أمراً . أفاذا كان مجادلا عنيداً أنلقى السلاح ؟ .

فالأصلاح باليد لايمكن أن تتقيه أبداً . ولا سيما إذا أصبح الأمر جدالا ، وكان الولد لا يستطيع أن يقدر أسباب الأب المعقولة .

لاتلجئوا إلى هذا إلا فى السن الصغيرة ، وفى الظروف النادرة ، والحق أن يعلم الولد فى صغره أنه قابل للعقاب الصارم إذا قاوم وعاند . والأكراه لايؤذن به إذا اشتد وبلغ الفتوة . وما لنا إلا الملاحظات

والنصائح المتكررة ، والتى لا تنفع إذا لم نبتدِ بالقمع فيتولانا اليأس .

هل العقاب يتفق مع الحب الأبوى ؟ فاذا صدقنا الأمثال : اضرب ابنك يحسن أدبه . فلا يموت إلا إذا انتهى أجله . من ترك عصاه فولده عصاه . من أحب كثيراً قاص كثيراً . هذه الكلمة عظيمة . فأحب كثيراً .... بمعنى .... أحب كما يلائم ويلزم . لا كما يلائمه ويلزم له . بل الأفيد للولد بدون أن يخرج التأديب عن حده .



المجلدة قديماً

لم تكن واحدة من العقوبات العامة أو الخاصة أكثر شيوعا من الجلد . ولدى الفراعنة والعبرانيين كانت عقابا فى القانون العام . وكان القضاة يحكمون بها . وكانت مقيدة بحدود وعدد لا تتعداها . وعند أمة فارس كان النبيل يسلق بالدِّرة . وأمم من بعدهم قد استحلوا المقارع والسياط حسب الظروف والأحوال . فالرومان استعملتها . وفى آخر حكم الجمهورية منع قرع ابن البلد بالعصا . وقد وبّخ شيشرون (١) فيرس (٢) على جلد أحد أبناء البلد .

وكانت العصى متنوعة فى خشبها وأطوالها وأغلاظها . وفى القرون الوسطى حفظت المجلدة مقامها فى قانون العقوبات والتأديب . وفى سنة ١٢٦٨ م . أمر لويس التاسع أن يقتص من النساء بضربهن من يد أنثى مخصصة لهن فى جرائم اللغو فى الأيمان والخالق سبحانه وتعالى ، وكل ما يمس الدين . ولكن الأب القس « كليمان الرابع » (٣) توسل بالتخفيف لديه . فأنت ترى خطر ذكر هذا العقاب وأسبابه ، وترى أيضاً أن الجلد كان مقرراً فى جزاءات الجيش فى عهد فرنسيس الأول (٤) . ثم أتى أمر شهر يوليو سنة ١٧٨٠ م . وجعل للهاربين من الجندية جلداً بعصيّة ، أو نجاد السيف ، أو سير البندقية ، أو الخيل حسب سلاح فرقة المذنب . وفى سنة ١٧٩١ م . أبطلت بوجه عام . ولكن استمر العمل بها إلى سنة

(١ و ٢ و ٣ و ٤) أنظر فهرس الاعلام

١٧٤٨ بين البحارة فى السفن الحربية . أو التجارية . وقد كان الجلد
إنجلترا عقاباً مدرسياً وعسكرياً . وكذلك فى روسيا نص عليه قانون
العقوبات ، ولا يتعدى مائة الجلدة .

وكم من بنود فى الشريعة المسيحية تقضى بالجلد على الخطأ الكنسى
على شريطة أن لا يُدمى ، ولا ينضج الجلود ، ولا يكون جهرة . وقد
جاء الأسلام وجعله حدّا فى كبائر .

ولقد كان أبناء الملوك فى فرنسا لايعفون من المجلدة ، وهم والشعب
سواء وواجب عليهم الانحناء لهذا الهوان .

يروى أن لويس الثالث عشر (١) كان يمل القراءة من سن طفولته .
فرأت أمه الملكة أن تتغلب على هذه الكراهية فأمرت مؤدبه « سوفريه » (٢)
بجلده بلا تردد ولا توقف بغير حساب لتلميذه الملكى . فحاول مرة
عناده .... فعاد ، وأناب . وتوسل لمؤدبه ، وسأله الرفق به . وكان
السير والجريدة والمقرعة والدّرة أدوات للجزاء والتأديب فى المدارس
والمعاهد إلى عهد قريب فى بلادنا.

ولقد سمعت بعض الأطباء يقول : إن الجلد فى بعض الأحوال قد
يكون محولا نافعاً ، ولاسيما إذا كان الولد فى شدة من الغضب وحدة ،
وإنه وإن كان جزاء استثنائياً ، ولكنه فى محله وإبانه . فيجذب الجلد
الدمَ من الدماغ المحتقن .

إنى لا أشاطرهم الرأى ، ولكنها ملاحظة لاحت فدونت .

(١ و ٢) انظر فهرس الاعلام



العصا في المدارس الألمانية

الألمان يقولون : إن الطريقة المثلى لترشيح الجند لتحمل العصا « العلقة » هى بدء استعمالها مع التلاميذ الصغار فى المدارس .

فكان من النظام المدرسى استعمال عصيّة من الخيزران بعد تحديد الأحوال التى يكون للأستاذ الحق فيها فى الالتجاء إلى هذا الجزاء الجثمانى : كالكذب ، والاصرار على التمرد . والكسل . والفاحشة . والهرب . ومتى تقرر العقاب يُتَسَلح بالعصا . ولكن توجد عصا وعصا . وخيزرانة وخيزرانة . كما يوجد بليد وبليد . ومذنب ومذنب والمدرسة هى التى تحضرها خيفة أن المعلم ينقص أو يزيد فى سماكتها . كما أنها تحرم على المعلم أن يؤشر بعصا أو مسطرة فى دروس الجغرافية خشية أن يَجبَهَ (١) أو يخدَّ (٢) أو يَعيَنَ (٣) طالبا فى حال غضبه . وكان النظام يقضى بحفظ العصا تحت قفل ، ومفتاحه لدى المدير ، ولا يسمح بها إلا فى ظروف مخصوصة ، وبطلب مسبب . ولا يضرب بها إلا على الظهر أو ما تحته ، وبضربات معدودات : ثلاث فى الأمر الصغير وست فى الأمر الكبير . ولا يوقع العقاب أمام الطلبة ، وينفذ فى السر حتى تحفظ كرامة الطالب . ويغلق الباب عليه وعلى أستاذه وأستاذ آخر مكلف بالحضور ، وباشراف المدير .

---

(١) أصاب جبهته .

(٢) ضربه فى خده .

(٣) ضرب عينه .

المجلدة عقوبة سؤددية فى انجلترا

الجلد حق من حقوق رؤساء ومديرى المعاهد فى انجلترا ، لايشاركهم فيه أحد . ألا يأخذنك العجب ؟ ألا تعتبرون المجلدة وسيلة دنيئة فى التربية فى مدارس السراة ! إليكم كتابا أنقله حرفا بحرف أرسله أستاذ عظيم إلى كاتب قدير فى فرنسا .

لاتوجد مراسيم مكتوبة خاصة بالجزاءات فى المدارس الانجليزية . الرئيس هو الذى يبت فى أمرها إن حق العقاب . ففى المدارس الابتدائية شيخ المعلمين له حق الضرب . وفى مدارس المديريات زال الأصلاح برفع العقاب ، وهم يعاقبون كما تعاقبون فى بلادكم . أو يطرد الطالب من المدرسة ، والجلد باق وثابت وبنوع خاص فى المدارس الكبرى السؤددية . ففيها يفضل الطالب العصا على القصاص المكتبى والدِّرة على الطرد المهدد لمستقبله . وذلك التأديب غير فاضح كما ترونه فى فرنسا . والتلاميذ يرون فيه القصاص الحق على مافعلوا . ومتى تم وتوقع الجزاء انتهى كل أمر ، وتصافح التلميذ والمؤدب . وقد يظل الطالب هزؤة وسخرية مرميًا بالجبن وقلة الحياء إن هو حفظ على مؤدبه تأديبه ، ووجد وحقد عليه ، ويصبح جميع أقرانه نافرين منه إن أبى التأديب ، أو تحمله صبرا . ولكن فى فرنسا قد يخاطر المعلم . . . وترى النقد من السامعين ينهال عليه .

إن صاحب كتاب « أعراف باريس (١) » رأى ضرورة الجلد

---

(١) انظر الفهرس

وأقوى حجة أدلى بها على رأيه قوله : الشباب الأنجليزى مشتل (١) الرجال الأحرار الأقوياء يجلدون ويقرعون بالعصا . ولعل كل نائب وقرين للملوك ، وحبر (٢) ذاق حلاوة الجلد . فبت (٣) فكس (٤) اكنيل (٥) جلادستون (٦) ، لقد عرفوا طعمه ولا ينكر أن انجلترا كانت بعيدة عن فكرة الاستعباد ، كما أنها أنجبت (٧) ، وأكيست (٨) قضاة وساسة .

وعندى أن العصا ندب (٩) فى الثالثة والرابعة . وكره (١٠) فى العاشرة ، وفضح (١١) بعد ذلك ، لقد نصحتك علما . وابناك لك ومنك . فاختر لنفسك . .

---

(١) مغرس فسائل النبات والشجر

(٢) بكسر الحاء وفتحها . العالم الصالح

(٣ و ٤ و ٥ و ٦) انظر فهرس الاعلام

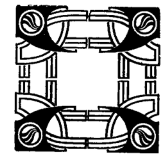
(٧) أتت بأولاد نجباء

(٨) ظهر من أبنائها أولاد أذكياء وأدباء ظرفاء

(٩) مستحب

(١٠) غير مرغوب فيه

(١١) كشف المساوىء



السلطان المفوض

سؤالك غيرَك الحزمَ ، والحلمَ ، والمروءةَ ، والاعتدالَ ، فالحكمة والقياس آخر الأمر - فيما تجد من العناء والمشقة من توخيها فى التأديب - خطأ كبير ، فلا يقبل إذاً عهدها إلى الخدم وإنابتهم عنا فى كل شيء . . . !

ولكن الضرورة تحوج . والمشاغل تحرج . والأمر يصعب إذا كانت الأسرة كبيرة ، فلا مناص من الاستعانة بالغير ، فأى سلطان نوليه . . ؟

وإذا ظننت أن خادما ، وحاضنة ، ومرشدة ، يستطعن القيام بفروضهن - ولم تسلحهن بحق - فقد وَهِمتَ .

الولد مستعد من قبل لمقاومتهن ، لعلمه بدرجتهن ، وأنهن مساعدات تابعات . وقد يتكل على حنو الأمومة والعطف والميل إليه ، ويعلم أن الصرامة لا تتوقع من الخدم اللائى يهمهن أن يكسبن ويجذبن الولد ، فيوفقن بين سلطتهن وبين الحرمة الواجبة له عليهن ، فيصبحن وأمامهن عقبتان ، والطاعة وفيها صعوبتان .

وقد يوفق الأمر بتسليح التابعات بسلطان محدود نافذ . بهذه الكلمة الأخيرة يقصد التصديق على القصاص الصادر بالشكل المتفق عليه مع الآباء فى أى ظرف كان .

إن من الحكمة أن يحتفظ الآباء بحق الجزاء فى الأحوال الاستثنائية ولكنهم يتركون للمرشدات والتابعات معاقبة الأولاد ، فى المخالفات

العادية فى نطاق مقدور يقينى . وبهذا يستريح الآباء ، ويؤدى الواجب المرشدات ، ويحترم سلطان الأبوين ، ولا يلجأ إليهما فى كل صغيرة . ولا تحتقر الخادمات ، فيصح أن يعطينَ سلطان الحرمان من الحلواء والفاكهة مع مراقبة حكمهن .

وإنى أترك الكلام على الآباء الذين يقلون (١) أولادهم ، ويستودعونهم أجراء حتى لا يحملوا مشقة تربيتهم . فهؤلاء شرار الناس لهم حساب عظيم . إذ أن موضوع هذا الكتاب غير محرر لذلك .

---

(١) يهجرون ويتركون



السلطة الأبوية فى نظر القانون

لا أرمى القارىء بمسبَّة فرضية . إن الأجراءات التى تودى لأرسال الولد إلى مدرسة الأصلاح ، أو محل آخر شبيه بها معين من قبل الحكومة تودى إلى فائدة عملية . ولكن بين الآباء الذين أرخوا العنان لأولادهم . فساءت حالهم . وشبوا على المروق والعقوق — من يحسن تذكيرهم أن الشارع أقر ولايتهم ، وحق تأديبهم ، وحدد القضاء المنزلى

١ — على الولد ، وفى كل سنٍّ تبجيل واحترام والديه .

٢ — تستمر ولاية الأب حتى يؤذن أو يرشد الولد .

٣ — لا يأبق من منزل أبيه .

٤ — للأب أن يرسل ابنه طالما لم يبلغ سناً محددة : أى لم يؤذن له أو يبلغ الرشد — إلى إصلاحية يأمر بها القاضى ، وقد أجاز للأم هذا الحق .

وللأبوين حق طلب إخلاء سبيل الولد فى أى وقت . ولو لم يبلغ سن الرشد .

وإنى أنصح لكل غلام فتح هذا الكتاب — من باب الفضول . وحب الاستطلاع — أن يقرأ هذا الفصل ، وأن لا ينساه أبداً .

وإليك مما شمله قانون رقم « ٢ » الصادر فى ٩ مايو سنة ١٩٠٨ :

يعتبر متشرداً الصبى الذى لم يبلغ الخمس عشرة سنة وكان سيىء السلوك ومارقا (١) من سلطة أبيه أو وصيه أو أمه إذا كان الأب

---

(١) الخارج عن حكم أبيه

متوفى أو غائباً ، أو كان عديم الأهلية ، أو كان الصبى مارقا من ولى أمره

كل متشرد يجوز إرساله إلى مدرسة إصلاحية ، أو محل آخر يشبهها معين من قبل الحكومة . ويبقى المارق فيه حتى يبلغ الثمانى عشرة سنة .

ذلك هو الاعتبار القانونى . وانظر إلى سلطان الأب . إنه ليعدو هذا الاعتبار . سلطان كبير يجهله الأولاد الأغرار .

أتعلم أن لاتقام دعوى عمومية على ولد متشرد إلا بتصريح من أبيه أو وصيه ، أو أمه ، أو من ولى أمره ؟ . أتدرى أنه يجوز إخلاء سبيله ولو لم يبلغ الثمانى عشرة سنة متى طلب ذلك من صرح بأقامة الدعوى ، أو من يقوم مقامه ؟

لقد جعل القانون للأب ، أو من يقوم مقامه سلطانا مبينا ، حتى على صاحب الدعوى العمومية . وعلى حق الاجتماع العام ، بل على القضاء . فله أن يعفو عن ولده ، ويتنازل عن شكواه حفظاً وكرامة ، فيمتنع القاضى عن محاكمته وإرساله للأصلاحية .

آه لو عرف الشباب ، ووقف على حد باب هذا الكتاب ! !



هل الفطرة تغلب التربية ؟

يخال لى أنكم تقولون : لقد نسبت إلى التربية الفيصل الحاسم فى جميع الأحوال الخارجة عن الحد . وتنكر الأميال الفطرية التى تكوّن الشخصية . إنك لمغال فى أثر التربية . وإليك البرهان .

ألا ترى أن ولدين من أبوين وضعا فى مهد واحد ، وتربيا فى بيئة واحدة . وشبّا على قواعد متشابهة ، وظواهر متماثلة — قد يختلفان فى الصورة . ويتناقضان فى الأخلاق . ويتفارقان فى الطباع ، وإذن تكون الفطرة أقوى من التربية . أظن أن هذا كل مايعترض به على مابينا لك ؟ إننى لاأنقص منها ولا أبخسها . رغبة فى نقضها بتلفيق الحجة . الاحتجاج متين فى الظاهر وله بَهرُه ، ويتوهم أنه بالغ ، شديد المِحال(1) لايدفع . ولكن بقليل الاختبار والتمعن تتبين عيب هذا الاستدلال الخدّاع .

لايمكن التسليم بأن الوالدين تربيا على نمط واحد ، لأنهما من صلب واحد ورحم واحد ، وعاشا فى بيئة واحدة ، لأن هناك فوارق أسبابا شتى تغيّر من حاليهما .

ولد جاء ربعيا(2) ، والآخر صيفيا(3) : وأحدهما وضعته أمه فى مهد

---

(1) قوى الجدال واسع التدبير فى الحيل .

(2) ولد الشباب .

(3) ولد الكبر .

العز ، وعصر الرخاء واليسر . والثانى على فروة الذل والشدة والعسر . ومنهما من أتى على أثر شجار وشقاق . ومن ولد فى رفأ واتفاق .

هما أخوان : ولكن . كلاهما من أسرة وبيت . هذا وسيم وديع ناضر ، وذاك دميم متعجرف ذابل . البكرُ نبيه ذكى الفؤاد ، والثانى غبى بليد .

وماذا يفعل الأب بكليهما .... ؟ يعنى عناية عظيمة بالأول . ويهمل الثانى ، وقد ينبذه كالنواة بدل أن يعالجه ، ويقومه ما استطاع ، ليتوازن الأخوان . فهو يعمل على زيادة طبيعتيهما . فينمو البكر . ويشب على حميد الخصال ، وتتم نعمة عقله . ويمكث الثانى وينقص بل ينكمش ويضمحل . وشتان بين التربيتين . وإذا قلنا بوجوب الاعتناء بالشق كان هذا هو الواجب والحقيقة .

لا أنكر الخواص ، ولا منبع الخصال . ولكن أود أن أقول : إن التربية تعدل منه ماتيسر . ولا يحرمه أبواه منها ، على شريطة أن يبادر بها فى سنيه الأولى . وهذا هو جوهر بحثنا . وقد سبق الحديث عنه فى الولد المستعصى .

أضف إلى هذا أن ظروفا لا دخل لخطأ الآباء فيها تخلق بيئتين للتربية ، ونمطين مختلفين . قد يتأتى ذلك عندما يتعلق الجد بولد من أولاد ابنه تعلقاً شديداً ، مانعاً لأخوته ، أو أن الخدم يضطهدون ولداً من الذين وكل إليهم أمرهم .

فالعزيز والمتأذى منه هما فى الواقع خارجان على القاعدة المشتركة العامة . وفروق الحنو شائعة وكثيرة بين الأبناء والبنات .

فأب يرى فى الأبن استمرار ذكره وبقاء اسمه . وإن ما صرف عليه من فضة وذهب سيضاعفه له ، ويرى أن البنات لطيفات . ولكن يجب تجهيز شوارهن (١) . وأنهن سالبات وناقلات لماله لبيت آخر . وأنه يجب المحافظة عليهن والتيقظ لهن .

والأم ترى أنهن أسهل مطاوعة ، وأقرب تأدبا ، والبنت معاشرة لها كل يوم ، وستكون حبيبة أمينة فى المستقبل ، وأنيستها فى غيبة رب المنزل .

وإذا نظرنا إلى التربية العقلية حسب النوعين وجدنا الفرق بيِّناً ، ولأن الأب يفكر قليلا فى سلوك أبنائه ، فالأم تنظر إلى مستقبلهم بحزن وأسف وخوف شديد يغمض تفسيره فتفتر همتها مقدما ، ولها العذر . لأنه إذا كانت المرأه تكفى ، وتستكفى لتربية بناتها - فان اشتراك الأب محتم لتأديب الذكور .

وكم من آباء لايتمنون لوارثى أسمائهم إلا الحصول على شهادة عند بلوغهم السن وتمضية الامتحان ولا يبالى بعد ذلك بشىء .

إن التربية عندهم هى الشهادة . ويظنون أنهم ابتدعوا إخلاصاً ذا دفعوا مبلغاً زائداً عما يدفع جارهم أو صاحبهم لابنه ، ويدعون ذلك تضحية .

فأذا ما دخل المدرسة إنسانا لطيفاً فتاناً ذا قلب سليم أرجعته لك تلميذاً شاحباً مرتاباً حائرا ، ولكنه خريج بشهادة ، وهى أمل كثيرين من الآباء .

***

(١) متاع البيت المستحسن

ولم يتفكرون فى قلب ونفس الأبناء ؟ وهل هذا له حساب ؟ ألم يكن أدبهم نسبيًا ؟

والواقع أن ما يقال من الأسر الراقية ، ومن علية القوم - يمكن إيجازه فى هذه الكلمة . لا بد أن يلحقه الفساد . هذا مقدور . وعلى الجبين مكتوب . وفى ضميرهم وكامن قلوبهم يشايعونه حباً ورضاء وتسليما يدهش له الناس .

نعم . إن بين الناس كلمات تتردد . . آه من الأولاد . كل شيء معهم باطل سيسوءون . هذا معلوم . ولا ننتظر منهم خيراً ، ولكن أليس هم الذين أتوا بالأبناء والأزواج والآباء ؟ وهؤلاء لهم مقامهم فى الأسرات . والحق أنهم يريدون الهروب من مشقة ، فيصيرون العمل صعباً ، بل محالا . وهذا أمر سهل يسير . .

الغلام والبنت

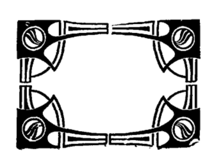
لقد كان من عهد قريب إذا وضعت امرأة غلاما « الممثل للبيت والحافظ للذكر » - يمتلىء البيت فرحا وسعادة ، وكأن السماء تبشر به وترسله رحمة لأهله ، فيعلنون وضعه بدعوة الأحباب والجيران والأصحاب ويوقدون النيران . ويشعلون الشموع ، ويدقون البشائر ، ويرشون الملح والحبوب فى كل أركان الدار ، ويدعون له كأنه « أوزوريس » (١) بالحفظ والصون من العيون ، وكل حسود حقود ، ويطلقون البخور ، ثم ينصبون مجلس الغذاء ، ويفرقون الحلواء والنقل ، حتى على أهل

(١) انظر فهرس الأعلام

الحى جميعاً ، يوزعون الصدقات ، ولا يتركون كبيراً ولا صغيراً حتى يعلموا أن أبا التمائم قد جاء فى الدنيا ، فيقضون سابع أيامه فى حبور وانشراح . وغناء وفرح وصفاء وشراب . كل هذا لأن رجلا وامرأة خلفا غلاما . وهل أنجبا ؟ وهل أكاسا ؟

وفى هذا العصر ، وهذه الأيام يتساءل البعض عما إذا كان الغلام مصيبة ؟ أمر غريب . ومنطق عجيب ، وعن قريب يتطلب الآباء أصهاراً تربوا على غير تربية وارثهم « ابنهم » . وكأى من أب ساخط على رؤية بنته التعسة ، تدير المنزل ، ويردد المذهب القائل إنه ضيّع أيامه فى تقويم أبنائه . فالذين يرضون بتلك الأباحة التى توشك أن تكون اشتراكا فى الجريمة ـ لايسمع لهم شكوى عندما ينحرف الشاب عن جادة الصواب والصراط المستقيم .

إذا جر مركبك فرسان : حرون وسلس . ألم يكن الأليق بك أن تسوس الحارن ؟ أضف إلى ذلك أن عصرنا تنبهَ إلى فصل التعليم عن التربية . وقد برهنت لك فى ما تقدم أن الأبناء فى بلادنا ينقصهم التقويم الأدبى . وهم يعلمونهم . وكفى !



العقوبات والجزاءات المكتبية

لا سلطان إذا لم يكن عقاب. أمر لا يقبل الجدل. فواجب إذا معرفة كيف تعاقب إن أردت أن تطاع ؟ فالعقاب الجثمانى للصبية ليس فيه هوان وازدراء ، لأنه منتج ومؤثر للغاية ، بشرط أن يكون - كما قلنا - شديدا ونادرا ، وتانك الكلمتان هما موجز ما أسلفنا من طريقة.

ويمكنك القول أن أكلة خبز بلا أدم تفضل الحرمان من الفاكهة عشرين مرة . والعصو (١) فى موضعه يصون الولد من تكرار لطمات هينات ، وتعاذير ، وألف تهديد . وعليه نفهم أن التوتيد (٢) والحجز والجزاء المكتبى يؤسف لها حتى لطول مكثها ، فهذه الجزاءات أكثر من أنها تحرم الولد الحركة . لتسهيل الهضم والنشاط ، لا تخلو من عيوب بالنسبة للصحة ، فالحجز والتوتيد لا يظهر نفعهما إلا إذا طال أمدهما ، وربما احتيج إلى ساعات حتى يحس الولد بالجزاء . فقدر ما يتقلب فى قلبه فى تلك المدة . وهذا هو ما يحزن له ومنه بلا شك !

ولا ريب أن الولد إما أن يسخط ويحتد طبعه ريث حرده وغضبه

---

(١) الضرب بالعصا .

(٢) نصبه ثابتا على قدميه ، أو ركبتيه . وهو نوع من العقوبات المدرسية

وإما أن يمكث عبوسا كئيبا ، فيشمز (١) منك . وقد لبث بضع ساعات فى وعظ ثقيل . وكان يؤثر العقاب السريع .

***

وأما الجزاءات المكتبية فلها ضررها . . إذا ألزمت الولد بأن ينسخ خمسمائة سطر فانك تسيء إلى يده وإتقانه الخط ، ولا يحفظ شيئا ؛ وينهدن (٢) .

وكما أنه مفيد أن تستكتب الولد عشر مرات أو عشرين مرة ، الكلمات التى يجهل وضعها حتى ترسخ فى ذهنه ، فأنه مضر ومكروه أن يسود كراسته فى ثلاث ساعات عقابا . ألا كان الأصلح أن يستكتب صحيفة بحسن الخط . ولا بأس من استعادتها إذا أهمل فيها بلا سبب !

وعلى كل حال فالشغل فيه بعض النفع . والأنفع من التحاذير والأشد أثرا أن تغرمه على الهفوة والخطأ الطفيف . وكلما كبر الولد وزاد مصروفه فقد يفيد بعض الآباء تطبيق هذه العقوبة !

---

(١) ينفر

(٢) يفتر



(١)

سحناء الطفل

نريد أن نتكلم عن مبحث العقل بدلالة السّحنة . لقد بحث كثير من الأطباء المخصصين فى هذه المسألة . ولما يقطع فيها برأى من الوجهة العلمية الصرفة . ولذا فنحن نعرض عليك بعض الآراء حتى نجعلها أساسا . ونتوصل بها إلى بحثنا .

الفرض أن أميال وشهوات النفس تنمى بعض أجزاء المخ ويدل عليها نتوءات (٢) فى الجمجمة من السن الأولى . فكرة تستحق البحث . ذات شأن خطير . ولكن التجربة لم تؤيد هذه النظرية . ولا رأى موجدها ، ولا من أخذ بمذهبه !

إنهم يقولون : إن مثل رأس الانسان كمثل مخطط مجزأ ومقسم إلى مناطق محددة . واحدة للحب ، وأخرى للبغض وللقتال . ورابعة للأمانى . وإلى غير ذلك . وأن أطناف (٣) ونواتب (٤) الرأس تعرف بأمعان قليل حسب رأيهم . فيستطاع الوقوف على حقيقة أميال الأطفال ! قد يكون هذا آية الآيات . ومعجزة المعجزات !

لكنهم لم يفصّلوا ويفسّروا ، لماذا كانت أميال النفس تخزن وتجمع

---

(١) هيئته ولونه

(٢) ارتفاعات فيها من غير أن تنفصل عنها

(٣) جمع : المفرد : طنف : وهو ماأشرف خارجا عن البناء : والمراد هنا : الأجزاء البارزة فى الرأس .

(٤) الارتفاعات التى تشبه النتوءات .

فى الأجزاء البرانية للمخ ، وباقى الأجزاء الجوانية تبقى خالية منها؟ هذا اعتراض خصوم هذا المذهب . وقد كان هذا الاعتراض مزحزحا لقواعدهم ، وموجباً للتأمل فى تصديقها .

فاذا كان مبحث العقل المبنى على الحدبات(١) ليس علمياً ، فلا يقال كذلك على مبحث السحنة ، إذ أنها تنم عن الأميال بتقاطع الوجه فتكشف سرها ، فتعرف إذاً أميال الأطفال الاعتيادية . واتصال الروح بالجسد اتصالا مشتركا — كما قال بعض العلماء — يجعل المؤثر على أحدهما يؤثر فى الآخر ، وتظهر علامته على الوجه فتعرف الأفكار بالسيما(٢) وبالفعل . . . . فعلى الوجه — وهو أشرف أجزاء الانسان — يبدو الانبساط والانقباض بتلونه وتشكيله ، بتأثير البصر والسمع والشم والذوق . والأعصاب الكثيرة الدقيقة المنتشرة تجعل حسه شديداً ، وقوته الحيوية عظيمة . فالوجه هو الجزء من الانسان الذى يسيرُ فيه الفكرُ المعنى الروحى فينم عما فى النفس .

أصحيح ما يقولون : بأن دقة الحواجب وحركتها تدل على نشاط الولد ومزاجه العصبى ؟ وإذا كان الولد هادئا فاتراً كانت على صورة أخرى تخالف الصورة الأولى ؛ وأن الشعر الأشقر يدل على الحس الرقيق ؛ والأسود على الاستقلال والحرية ؛ وأن الأنف الأقنى(٣) على قوة الارادة ، والأفطس على الكسل . والأشم على الاستهزاء والاستسخار ، وأن الفم يدل على الذكاء إذا غلظت شفته السفلى .

---

(١) الأجزاء المرتفعة المقوسة فى الرأس .

(٢) العلامة .

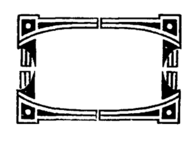
(٣) الأشم المقوس .

والغباء إذا غلظت العليا ؛ وأن الذقن البارز المدبب ينم عن الخبث. ونقيضه على الطيبة ؛ وأن العنق السميك علامة الغضوب، وأن الدقيق على الحيّ، مايدرينا؟ ومن التهور أن نضع قواعد على مثل هذه الأقوال.

ولكن هناك كوًى(١) واسعة تطل منها نفس الولد، ومرآة صافية مصقولة يرى الآباء فيها ما ينطوى عليه صدره ويكنه ضميره. ألا وهى العيون.

فلنقف قليلا أمامها، ولنتفرس فى نظراتها.

(١) جمع: المفرد: كوة: وهى الفتحة التى تكون فى الحائط. والمراد هنا العيون.



الغض والخشوع

اللحظ الهارب ــ الطرف المتهم

أكان الصوت والأشارة أعطيا للأنسان ليستخفى، أم ليستعملها غالباً لهذا الغرض ؟ فكم سمعت آذاننا قولا خداعا . وشهادة زور، ومن كل كذب مصقول ملق يخرج من أفواه أناس فى هذا العالم بانفعال وتمثيل مطابق، كأنه بيان عالم بألف أمر، وهم لا يعتقدون فى كلمة واحدة مما يقولون .

ألا تعرف الأشارة الكاذبة . . قبلة المحتاج. مصافحة الخلى . معانقة الخائن . تصفيق المتملق . تهليل المصطنع .

هكذا الفم واليد يكذبان، ولكن العيون وعلى الأخص عيون الأطفال لا تخدع أباً يريد أن يعرف . فاللعوب على يقين من أن عينه تنم عليه، وتفضح أمره رغم حيله، ولا يستطيع تحديقها فى مخاطبه . نعم . لا يستطيع، فالمذنب الخائن ، والمجرم الكبير . لا يخشى الله ولا عقاب القاضى، ولا ينتهى مع أن هذا المجترىء وذلك الفرفار (١) لا يقوى على تأثير نظرة ثاقبة تخرقه . لتعلم ما يخفى .

فى نظراته المتكسرة الحائرة شبهة مفسرة كالأقرار بالتهمة، وهو يشعر بها فيحتذرها . وكم صادفنا رجالا أفاضل لهم عيون ماكرة . ولكن أظن من المحال أن ترى مداجياً محتالا يقبل أن يقع نظره على نظرك

---

(١) العجول الطياش .

قل للكذاب والنقاد والسباب : أتستطيع أن تواجهنى بما افتريت وقذفت ؟ إنك تدعوه للنزال وهو يفر منه . وكم من قالة (١) ترمى فى ظهرك وتنقلب مدحا فى وجهك . فاذا كان هذا حال الرجال فكيف يكون حال الأطفال ؟ فهم طوعا أو كرهاً مبدون حقيقة انفعالهم إذا حددت نظرك لاحاً باصراً (٢) .

ولئن زاغ الطفل فى بادىء الأمر ، ليقول كلمة غير كريمة ، فأنك إن فاجأته بنظرة حازمة فى اللحظة التى يتلقى فيها أمرا فقد ألقيت فى روعه اليقين . وصار نصف مصدق ، لأنه إذا تكلم فمُنَا كثيرا فهو يتكلم بأقل فصاحة من عيوننا فى الغالب . وفى النادر أن الولد يبالى بخطاب يصدر من ركن غرفة ، فالخطاب لا يهز إلا طبلة الأذن . ولكنه يهز الفؤاد إذا قرأ ولدنا فى ملامح وجهنا صيغة الأمر التى يفهمها من قبل أن يميز بين الحروف والمقاطع .

نعم . إنه باللحظ الهارب يفر الولد من إرشاد أهله . ويخفى ما فى نفسه . فانظر ما الذى يحصل إذا أغضى إنسان ؟ يُحْجَبُ ، بل يُمحى ما تخطه ملامحه على صفحة وجهه ، وتعسر معرفة ما فى القلوب . ولم ذلك ؟ لأن العقل الباطنى والنية يلتقيان ويتصلان بالنور المتجلى من النظرات فالأعمى مهما كان نجيباً ، فكأنه دار مغلقة من نواحيها مقفرة لا حى فيها .

فكم شكل ولون فى نظارة الطفل ، وكم من الأحاديث تقول ، ومن

---

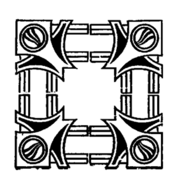
(١) مقال .

(٢) أى أمراً واضحا . وهو من باب المجاز . كما قال يعقوب والليث . نقلا عن التاج

الأخبار تقص . وقد يكون الكلام فيها صريحاً لا يترك أى شك . فالتأثير الصحيح ، والأخلاص والرياء ، والوعد الحق ، والبغضاء والغل كل هذه تنطق مسطورة على بياض وريقتين بَلورتين صافيتين شفافتين هما العينان .

فطوراً تراهما براقتين مهددتين : وآونة ملتهبتين بالشرر رامتين ومزدريتين واصمتين بالتهكم . وتارة ساهيتين ومرة يقظتين ، وأخرى غادرتين وتارة خائنتين مريبتين فاتنتين . فهما تصوران النفس ثم تعكسانها أفكارا لامعة ناصعة صريحة صحيحة .

أجل . انظر للولد ، أو اجعله ينظر إليك : العين فى العين ، فأنك ترى دقيق ثنايا ضميره الصغير ؛ فهذه من أولى الطرق الجديرة بالتقديم والاستعمال حتى نصل إلى وضع نتيجة لبحثنا ، لتكون أول خطوة فى علم الصحة الكبري ... التربية ...



تأثير الفرح فى التربية

الضحك

الضحك فى علم وظائف الأعضاء : هو سلسلة زفرات صغيرات متقطعات مختلفات الرنين ، متعلق معظمها باختلاج الحجاب الحاجز . ومصحوبات بانقباض عضلات الوجه غير الارادية .

الضحك خاصة بالأنسان . والأنسان حيوان ضاحك . يتمتع ببعض انفعالات يمتاز بها . والحيوان يتكرش(١) وجهه ولا يضحك .

يلزم أن نحس بالتأثير الأدبى إحساساً شديداً حتى نتفهم ضروب هذه الآلة الفتانة الغريدة : الضحك الذى نغمته ينطوى تحتها أمور وأمزجة وأحكام . الحيوان ليس بأهل لأدراكها ليصوغها . فالأنسان مجمل إذاً بخلق خاص لأظهار سرور نفسه .

وهنالك العضلة الوَجْنية التى تقوم بهذه الوظيفة . والطب قد أثبت كيف أنه بمسها بسنّ متكهربة فى وجه جثة تتقلص ؟ فتصور لك الضحك .

* * *

الضحك رد فعل الأحساس الروحانى المخدوش بمنظر الأشياء . هذا صحيح أكثر من أنه مصدق ! تلك حدود للضحك كثيرة .

ولكن أفضل التعاريف الآتى : الضحك تعبير الفرح . هذا تعريف

---

(١) يقبض جلده .

أقل علماً . ولكنه جلي وظاهر . وقد قيل : إن كثيراً من الأشياء ماهو واضح ، فاذا فسرته عميّته . والضحك من هذا القبيل .

الضحك ضحكان : صبَوى . وهو نتيجة ميل طبيعي واستعداد للسرور ، ورضى كبير ، يحركه لاشيء ، وضحك الكبار فرقعة عرضية تتولد ليس من البال الخالى . بال الأولاد ، وإنما من أمر مُسَلٍّ . إشارة مضحكة . فكرة هازلة . ذكرى عجيبة . نادرة غريبة . وهو استثناء من سُنة الوقار الذى يعرونا ـ وا أسفاه ـ فى السن التى تساورنا فيها هموم أمس ، وأحزان وضيق اليوم ، والخوف من الغد . تلك ثمرات التجاريب المرة . فبئست . إن كل شيء يغيره الزمن ، فاذا كان الضحك هبة اليوم ، فقد يدفع لها فى الغد ثمن . ولِمَ يضحك الأحمق كثيراً ؟ لأنه يفكر قليلا ، وينسى سريعاً .

المزاج والجنس والأقليم لاينكر تأثيرها فى الضحك .

فالمرأة العصبية الرعناء يمتلكها الضحك . انظر الفرق بين برودة أهل الشمال وخفة أهل الجنوب . الخبيث لايعرف كيف يضحك ! وقد قيل : إن ضحك الخبيث لايعدو عقدة زوره . والحق أن الخبيث لايضحك . وإنما يستضحك نفسه فيكرش وجهه . ويحرك شفته !

***

إن بعض الخادمات تسوقهن العادة السيئة المحزنة فيحركن ضحك الأطفال إلى الأفراط ، بدغدغتهم(١) ، ـ من باب ـ اللهو فى أعناقهم وآباطهم وأخامصهم ونعامة(٢) أقدامهم .

---

(١) وهى كلمة عربية بمعنى الزغزغه

(٢) بطن القدم .

ليس عندى ما أقوله أحسن من هذه الواقعة : طفل بكر أبوين عروسين . أصاب الأم أذى . فأتت له بظئر . فنما وربا على ثديها ، وكان يضحك طبعاً ضحكا يبهج كل من رآه . وكأن السماء والأرض تضحك لابتسامته . فأخذته مرضعه إلى دكان لتقضى حاجة ، فاكتظت عليه الخادمات والمرشدات . إن صحت التسمية . وقد سباهن بابتسامته ، وخفة روحه ، فتخاطفنه من بين أيديهن ، وأسرفن فى إضحاكه ، وزدن فى تحريكه ، بدغدغته ، فأهجن أعصابه . فتشنج وسقط فى أيديهن خشبة لاحراك به . فأخذته مرضعه فى ذيل قميصها راكضة عائدة إلى أمه ، ورمتها به جثة هامدة .

فهل كان الولد فى أيدى هؤلاء إلا لعبة لا إنسانا ؟ وذلك نتيجة تلك العادة المبكية فاحذروها .

وأين هذا الضحك الصناعى من الضحك الذى يصدر عن القلب ؟ لقد كانت « الدغدغة » نوعا من التعذيب فى القرون الوسطى . وكم مرة انتهت بالموت !

يقال إن فى الأنسان اختلاجين معديين : التهلل . والبكاء .

فالضحك فى التهلل ، كالعويل فى الألم وهما التعبير البارز للشعور فى الفرح أو الترح . ومن فرط ما ملأ النفس من هم أو سرور . فالانبساط الباطنى يزيد على التجلد . فتفيض النفس بالضحك . أو العويل ، لتوازن الأعضاء المحملة بتلك الهزات . ما أضعف الأنسان ! له طاقة . فاذا تحمل ما لا طاقة له به انفجر . وإذا زاد أمر عن حده انقلب إلى ضده .

فاذا أسرفنا فى الضحك انقلب إلى بكاء . أو أفرطنا فى البكاء مسّنا

الدخل باستحالته ضحك خبل . إن قصف (١) الرعد الشديد قد يحدث الصمم ، فلا يسمع . والسكوت العميق الدائم يهيء طنيناً فى الآذان ، والسنا (٢) يذهب بالأبصار . لقد خلق الأنسان ضعيفاً !

إن الرجل الذى لا يشبع من العلم ، ويكثر من استيعابه ، ويطمع فى العرفان يعتريه سوء الهضم والفساد ، فالخلط ، فالجرد . والغلو يفصم (٣) الاتساق (٤) وينتهى بالعته .

إن صالح الولد هو ما يجب أن ينبه ، أو يستيقظ فرحه . فانظر كم يجشمنا هذا الشرح . وأى ثمن ندفع له فى الدار ، أو فى المعاشرة والاجتماع ؟

انظر إذا دخل من وهبته الطبيعة نعمة البهجة على جماعة فى قاعة ، كيف يستقبلونه بالهتاف والتهليل والابتسام المنتشر على الوجوه ، ويسيل فيهم تيار إخلاص فيربطهم ، فيجعل الاهتزاز فيهم عامًّا ؟

فاذا كان مثل هذا التأثير يحصل من أجنبى . فكيف تكون قوة الانشراح والسرور . لو سرت فى أجسامنا من أعز الناس علينا ، والذين يجلبون علينا الفرح بقدر ما يحشون به ! وتحت هذا الجذل يأتمر الولد بالأمر طوعا ، والآباء يشعرون بانعطاف . فيأمرونه لطفاً ، لا ليناً ولا رخوًا .

فالدار تفرح ، ويشم فيها أرج الرعاية ، والبهاء ، والسلام . ولا شيء

---

(١) اشتداد الصوت .
(٢) ضوء البرق .
(٣) يقطع .
(٤) الانتظام .

يريح العقل والقلب كاجتماع المياسير (١) المساعيد . إن فى ذلك لخيراً كثيراً .

* * *

إن إفراط التهليل شر لكم . وإفراط الأضحاك مهلكة .

والضحك الذى ينبثق من النفس خير ، فيه منافع للجسد والروح ، ولا سيما لدى الأطفال الذين يستطيعون الأغراق فيه ، بلا خوف عليهم . فهو عندهم تفتح لزهرتهم ، لامجهود مُنهك . ولا رجة مُهلكة .

أهمية الضحك فى التربية

إن الشاب إذا لم يشد عليه الألم وجب أن يحب الضحك . إن الطفل المحزون يحق أن نسميه المحزون الطفل . .

إن الطبع المظلم المنقبض مذهل مشتت . الكآبة رسيس (٢) مغلق . فعليكم مراقبتها من قريب . الغم تشويه كاشف عن مرض جسدى أو عقلى .

إن الطفل الذى لايضحك . لا هو مفتوح القلب ، ولا هو بمؤمن لك . مقتنع كامن . كاظم (٣) شرس . إن صادرته حرد . وإن عذّرته عبس وهرج . ولأن التعذير أو التوبيخ لا يحصى ، والولد لابد يحزنه أبوه أو أستاذه على فائدة خاصة به . فان لم يكن مدّخراً من الفرح . قضى شباباً عبوساً كئيباً . وهذا شر عليه عظيم . وبلاء كبير .

أيحسب الولد أنه يكون ظريفاً محبوباً إن عبس . وجبينه يبس .

---

(١) جمع : المفرد : ميسور . وهو خلاف المعسور

(٢) أول كل شىء

(٣) حابس ممسك على نفسه من غيظ

إننا لاندرك مافى صورة مالَـك تنبثّ منها لطافة الروح ، وطهر النفس بلا ابتسامة حلوة ، تدل على السرور .

يقول بعضهم : إن الضحك خير الدواء . ولأنه عامل فى حسن التربية فهو ضرورى حقاً . لا يعوض بشىء آخر . يبسط القلب ، ويمد الفكر ، وينمى البدن ، ويهيء لين العريكة ، ونظام الأعضاء الجسدية .

إن الجمود الجثمانى يؤدى إلى الجمود الأدبى . قل الروحى ولا تخش . انظر إنه صُمْدة (١) جامد كالحائط ، وقاعد كجذع النخلة الخاوى ، لايحركه حزن ولا جذل . أرأيت كيف أن جمود الحارد يغيظ محادثه أكثر وأشد من لغوه ؟

فاذا أنبّت ولدك فاعتزل ، وأغلق على نفسه بنفسه — فانه يخلو مع رفيق سوء . يتمرض اللجام ويرسم خطط الانتقام ، ويكيد لأخذ الثأر . إن ساعة فى حرد ضررها أكثر من نفع أيام فى نصح ورشد

تنبيه الفرح فى الاولاد

يقولون : إنكم لن تستطيعوا تعديل مزاج الأولاد ، وبعضهم فرح ، وبعضهم ترح من خليقته . كلمة حق إذا حدثنا عن الذين تكونوا واشتدوا ، ويكون الأصلاح عقيما ، ولكن ألا نيسّر إذا بكرنا ؟ هذا هو سر التربية الحقيقى ، وتأثيرها العمل فى إبانه . وما العادة إلا طبع ثان . أئذا كان استمرار التأثير يغير الرجل ويبدله ؟ أفلا يكون عمله سريعاً وعميقا فى الأولاد .

---

(١) صخرة

لأجل بث الفرح يلاحظ أفضل الأمور التى تبعثه فى الأطفال ، والاء أننا نفرحهم بما يدخل علينا السرور ـ خطأ فاحش ، وكل له إحساس ، وله حكم . فواحد يغشى عليه من زلة قدم . وآخر يُسر منها . والعلة الفكرة المعترضة . ابحثوا عما يحرك الضحك . ثم استعيدوا الفكرة من الطفل والمازحة ولعبه البرىء المولد لتهليله ، وبألف طريقة كيسة ماهرة ، استعينوا بها على تدريبه . وبدل أن ندعى تفريحه بأعاجيب مداعبتنا المخترعة ، اضحكوا أنتم مما يختاره ويعجبه . حرضوه عليه : وأظهروا اهتمامكم به وقولوا : بأنها لطيفة اللطائف ، وظريفة الظرائف . فالولد يكرر مهزلته الساذجة ، ليضحككم حتى يتوصل أن يضحك وحده . وبقليل من رضانا الظاهر بالفرح العرضى يصير فرحا مكتسباً . إن من الطباع ماهو أسود مظلم فى الباطن ، وصلب فى الظاهر . فيحسن أن نروضه بالتنشيط العضلى : بالركض والنط والقفز ، فهى خير وسيلة لأن الأنسان ثنائى العنصر : جسد وروح .

وأنجع وسيلة لهذا التنشيط أن نستعين بالولد فى عمل نافع ، أو تفهيمه أنه نافع . ولا شىء يزدهيه أكثر من مشاركته لكم ، مشاركة تجعله رزيناً وسعيداً معا ، ومن المفيد أيضا إذا كان الطفل ساهياً واجما حارداً ـ مباغتته بسؤال فى أمر يشوقه . وكلما كانت المحادثة بغتة وافية أيقظت فيه الفرح الناعس .



أسباب ضحك الأطفال

سبب الضحك عند الأطفال فى الغالب مادى : التمثيل . تحريك الصور يَسُرُّهم ويفضلونه . إن الفرح يدخل من عيونهم .

وأما عند الرجال فعلى العكس : التباين . المفارقات ، الفكرة الهزلية ، التناقض فى الشعور ، أو فى الظروف المجلبة للضحك .

إنك لاتجد الطفل فى الغالب وحده ضاحكا بتأثير الفكر . فتصور الأشياء بهذه الطريقة ينقصه قوة وثبات . وإدراكه الصغير طفيف جداً . فلا يقوى عليه .

ولكن لدى الرجال الفرح الحقيقى هو ذكرى غريبة ، أو لمح صورة فى الخاطر ، مرت بغتة فى سمائه ، فهذه الصورة المجملة بزخرف الخيال البهيج تعجب الرجل وتلذه . فتظهر له الحقيقة أقل تفكها من الخيال ، ويلمح تصويراً ليس أبدع منه . فيبسم له وينسى الحقيقة .

لقد قلنا : إن المفارقات منبع الضحك ، فاذا اجتمع مفارقان ، واتصل بعضهما ببعض حملانا على الاسترسال فى الضحك حملا لانستطيع مقاومته .

يحكى . أن مغروراً مر بأناس منفوخ الصدر وهو يمشى مشية المختال الفخور فزلت قدمه ، فكرَّ على الأرض ، ولم تسل دمه . لقد كان فى اللحظة صاحب العظمة . فانقلب كأنه فى المراغة ، يدور حول نفسه . سخرة(١) وضحكة . هذه المفارقة بين عجب الأبطال ورميته . . . . وسابق اختياله وهيبته . ولاحق حاله وهيئته . مضحكة مضحكة . ولو كان الواقع حيوانا لما تأخر

---

(١) بضم السين : من يسخر به .

المشاهد أن يقول : مسكين هذا الحيوان ، ويظهر عطفه رفقاً به . فكل من يرى هذا ، راهبا كان أو قاضياً ، صبياً أو شيخاً ، مهزاراً أو وقوراً ، تملكه الضحك .

وقد يصطدم هـذا الضحك بشعور آخر ، فنقول : أنتم تضحكون ، ولكن الرجل سقط فاصطدم بالأرض . ورُضّ جسمه ، وقد تكون سقطته قاتلة ، ومن الحمق أن يضحك من رجل طيب كادت تجبر ساقه ، أو يشج رأسه من سقطته . ولو كنت فى موضعه لغضبت على الناس وقلت : إنهم خبثاء . . . نعم يقال كل ذلك ، ولكن كلما سمعوا مثل هذا الكلام ازدادوا قهقهة ، وكادوا ينخلعون من الضحك .

وإذا تصادف وجود شخص أكثر استهزاء بسقطة المارين وإظهار السخرية بهم فزلت قدمه هو أيضا أثناء هزئه وسخره - زاد ضحك الناس من المفارقة بين تهكمه ووقعته . ولا سيما إن حصـل الحادث فى مواطن تقتضى الوقار والاحتشام . وإنك ترى فى هـذه الأمثال أن التباين أب الضحك والابتسام .

***

إن هذه الظاهرة توجد عند الطفل فى ظروف يخـال أنها مغايرة ، ولكنها واحـدة فى الحقيقة ، فالولد يرى فى آبائه الوقار والجـلال والحشمة والكمال . فلا يأتون أمراً يرى فيه عدم اللياقة ، فنبوة أو كبوة مناقضة لاعتقاده تهيج ضحكه وفرحه وسروره الذى لا يقدر !!

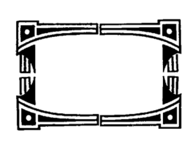
فأذا كسر الأب صحنا ، أو قلبت الأم كوبا على المائدة هدر آل البيت (١) فصفقوا وهللوا . فأن تظاهر الأب فى ذلك الوقت أنه

(١) الأسرة

معصوم ، وتململ ، يخسر كثيرا ، ويخاطر كثيرا ، بتفنيده وتخجيله .

يقول بعض الفلاسفة : إن الدمامة هى المضحكة ، وهذا بعيد عن الصواب والواقع ، إذ لا دمامة فى مزاح وسيم ، ونكتة خليع .

وإذا أردت تعريفا ، فقل : إن المضحك هو التفاوت وعدم التناسب ، وعليه ينبغى أن نقف على المفارقات المفرحة الشارحة لصدور الأولاد ونولد منها فرحهم على مرادنا .



الامزجة والفرح

المزاج مؤثر على السرور . فالطفل الدموى المزاج من منّت عليه الطبيعة بسرعة الخاطر وخفة الحركة ، يتملكه الفرح بسهولة ميلا له ، ورغبة فيه ، ولكن لا تظهر عليه شدة الفرح . لأن كل شيء غير عميق لديه . والصفراوى المتأنى الناقد ، يختار فلا يأخذه السرور كما يأخذ الدموى . ويدخل عليه رويدا بأسباب قوية ، كما أنه يكون قويا ، وأطول بقاء . والعصبي فياض فى مسرته كما هو فى حزنه ، فالأسباب الواهية الطفيفة تحرك جزله الهوائى . والمائى « لنفاوى » لا يحس كثيرا بهذا الشعور ، ومن الصعب أن تقرأ وراء غلاف قلبه السميك ، وإن كان راضيا فى النادر ، أن هناء قلبه ينير أديم وجهه ، وسيماه الثابتة ، فهو راض غير فرح . والسوداوى يحس بهذا الشعور ، وكأنه مُكْرَهٌ عليه فيلزم أن تستولى على قلبه هاجما ، ويخال كأنه خلق ليعيش فى الكآبة كالبُوم فى الظلام ، وإذا أسعده الدهر ، فهو دائما غير راض عن نفسه ، والفرح لديه ظاهرة خارقة للعادة ، لا تظهر عليه إلا بعيدة الغِبِّ !

* * *

الفرح يحفظ صحة الطفل ، يسهل الهضم ، يبسط الجسم . يخفف النصب ويمنع التعب ، ينشط الدورة الدموية ، يريح التنفس ، فيمرأ الغذاء . يزيل ركود الدم فى الأوردة والسدود من الشرايين ، يخفف كل احتقان . أو يقلل إصابة الأعضاء به ، فالانشراح هو قبل كل شيء

سلامة روح الأطفال ؛ فهو يقيها، ويحفظها فى صفاء حلو ، وفراغ بال نافع .

وكلما انبسط القلب بالفرح ، أفسح أمكنة للطيبة وجميل العوطف !

ملاحظة حكيم : لقد وضع بعض النقاد قواعد يعرف بها طبع الطفل ، حسب رأيه ، بنوع ضحكه : أى بالحركة .

فالضحكة المفتوحة دلالة الصراحة والجلبة ، والتى بين المفتوحة والمكسورة علامة السوداء . والضحكة المكسورة سيما السذاجة والعرف والحياء ، والتردد . والمرفوعة إشارة الكرم ، والأقدام . والضحكة المرفوعة الممالة . البخل . واللؤم ، والتمليق .

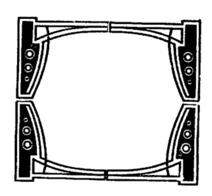
إنى أرى بعض الحقيقة فى تلك الملاحظة ، ولو ظهرت غريبة بادىء الامر .



صور الاولاد السيئى التربية

سيء الأدب صبيا

فى الثالثة من عمره يصح أن يعد الطفل بحق من سيئى التربية . ويتكشف عن مخلوق صغير منفِّر مكروه . والغصن ينمو معوجا ، كالشجرة اليابسة . إنه طفل صغير ! فليكن . ولكنه يفهم ويدرك ، ويريد ويقاوم ، قوى يحدث جلبة ولغطاً ، وفيه بذرة الأميال المعيبة للسن الكامل ؛ لأنه إذا كان الرجال أطفالا كبارا ، فالأطفال رجالا صغارا .



لهجة الاطفال

إن قاموس الصبي وإن كان واسعا فى الحقيقة ، إلا أنه يظهر كأنه مكوّن ومحصور فيما يأتى :

أنا أريد . دعنى هادئًا وحالى . أنت تضايقنى . سأخبر أمى . . . وما بقى بعد هذا حواش . إن فى ذلك لأذى دائما . وعصيانا مستمراً . وسوء طوية لا يتجرد من سلاحها .

فأول حركاته فى الأصباح : الجزع . وآخر صيحاته الأنين والنواح والعتو والسباب ، من الأبكار إلى العشى ، غاضبا زمراً . لا يعجبه شيء ولا يرضى . ورغم مجهود الآباء والأماء ، والأصدقاء فى استرضائه وتسليته ، طلباته لا تنقضى . أتظن أنك أرضيته إذا سليته ؟ لا !

فأذا تحرك عضّ حاضنته . نشب أظفاره فى رفقته . هدد أمه وربما لطمها فتكتفى بقولها : أتضربنى ؟ ما أقبحك ! إنك لذميم . لست بابنى ولا أنا أمك . فأذا هم قريب أو صاحب ليقبله ، دفعه بمرفقه ، أو خدّه بمشط يده . فأذا التفت إليه الناس فى الطريق عاكسهم . وكرش لهم وجهاً مكفهراً ، وإذا أجاد فى لىّ وجهه ، وأحسن فى تقبيحه ، فقد يكون الآباء أول الضاحكين . ويرون عمله مسلياًومسرّيا ، ومتى أريد الخروج أو التروض فالصغير يقترح . بل يأمر ، ولكن أمه تريد قضاء أمر ذى بال ، سواء لديه . أليس هو الحاكم ؟

وإذا ذهبت لجارتها تزورها ، فما يستقر بها المكان حتى يرتمى على ركبتيها ، أو يتكىء على كرسى بيلادة ، وبشكل يَغم ، وصوت يخن

يدعوها للانصراف : هلم بنا يا أماه . فتجيب الأم بصوت ظاهر : تمهل يا ولدى وحيلتى الغالية إنا قائمون . كن لطيفا !

وأما على المائدة فله أطيبها وأشهاها . وما تقع عليه عينه من بارد وحار . ورطب ويابس ، وما بقى لأهله .

إن الولد فى هذه السن ضعيف ، تابع غير متبوع ، ولكنه بعيد عن أن يعرف الجميل .

وليس لديه أى فكرة عن الواجب ، ولا يتصور أن عليه أى واجب لأى أحد ، وهو يجهله ، لأنه لم يعلمه إياه أحد .

إنه لا يستطيع عملا بذاته ، مع أنه يعتبر نفسه سيداً مطلقاً ، إذ لا يرى إلا خنوعا من آبائه ، وخضوعا من آله ، لجميع أهوائه ، الأب فى شغله ، والأم فى حبها ، والطفل هو الكل فى الكل ، ولا يصدر منه ما يدل على الأحساس الطفيف بالجميل ولا على الأخلاص الطاهر وإنكار الذات .

فأذا شاء كان ما أراد . وهو يعتقد جازما أنه لامتلاك أى شىء فى هذه الدنيا فما علينا إلا أن نسرع الخطى . أو نمد يداً . ولا يريبه أمر يعترضه ، أو يسد عليه فأن قيل له : بالدرهم نبلغ ما نريد ويدنا صفر . قال : إن أبانا على كل شىء قدير ولديه من الدراهم الكثير .



الخدم فى نظره

وأما الخدم فهم مخلوقون لخدمته ، قد ولدتهم أمهاتهم لأمرته . وحيث إن لهم أجراً فعليهم الطاعة والصبر ، فيسىء إليهم ويسيطر عليهم

فينبغى لنا عطفا على الخدم ، ونفعاً للولد ، أن نهمس فى أذنه لنصل إلى قلبه ، ونعرفه أن الخدم أحرار شرعا . وعليهم واجبات يؤدونها . ولهم حقوق يطلبونها أدبا ورفقا . فاذا شروا حريتهم بثمن بخس ، فالضرورة تحكم . . يجب العطف عليهم . لأنهم أقل سعادة منا . وهم فقراء يزينون البؤس بشريط الافتخار بالعمل . وهم فى كساء خوف الخرقة والأعراء .

علموهم أن الحاضن أو المرضع عنيت به . فقلتْ ولدها ، ووصلَتْه وفضلت من هو أحق بعنايتها ، وأن الفاقة قهرتها فأكرهتها على فطام حشاشتها عن حبها ، فهجرت بيتها ، لتعيش تحت سقف الغرباء تابعة ناعية .

هى تعيش فى بيوتنا . وولدها يتيم سخيم (١) قولوا له ذلك . بلين بين قبلتين ، حتى يفرق بين المرارة والحلاوة . قولوا له بلا وجل : إن قلبه المملوء عطفاً يحذر مالا يدرك عقله تفاصيله .

لا أظن أن هذا الطفل يقوى بعد ذلك أن يبصق فى وجه أم لأنها فقيرة ، ويلطخ وجنة محرومة من القبل البنوية فأراه يفكر أن يضع فوقها طابع المودة ، كما كان يفعل ابنها الغائب . ويضع فى أذنها : إنى أحبك أيضا . فيحترم أم المهجور ، ساعة أن كان مستعداً لهمشها ، أو لطمها

---

(١) من فقد أباه .

فأذا عرف الطفل نفسه وجد مهداً سوياً . أهلا رضياً . عيشاً هنياً . والحياة نعيما .

ولا تنسوا أن تذكروه أن ذلك النعيم ، ليس نصيب كل الناس في هذه الدنيا . وأن كل ما يَمتّع به نعمة حرم منها كثير وزالت عن كثير . الطفل يتمتع بالنافع ، والفضْل . وبجانبه من ينقصه الضرورى ! لِمَ نتركه يظن أن كل شيء حق له ؟ فتتولد الأنانية المشئومة فيه ، فتشب معه . وهى ميله الأول الذى تجب محاربته ، لأنه يفرِّع في الشباب العتْوَ . الحَرَدَ والحدة والسخط والكنود(١) .

لقد يدهش الطفل إذا قيل له : كم مسكين صغير فى سنك يرتعد فى البرد ، ويشوى فى الحر ، ويتوسّد الحجر ، ويفترش المدر : يأكل الفتات . ومن الحثالة يقتات . يأكل اللحم بعينه . ولا يذوقه بفمه ، إلا من يد متصدق رحيم . لعله يذّكر ، وإنه بلا شك يؤخذ فيُفتن ، فيتخيّل ، فيرصُن فتستيقظ فى تلك الروح الصغيرة الجديدة أفكار وعواطف كثيرة ، وينصت لحديثك واعياً عاجباً عالقاً مايهيج عواطفه . فيتوق لمعرفة كل ذلك ، وقد كان به جهولا . نعم . لقد رأى فقيراً يمر بباب بيته وفى أعاريض (٢) المدينة . هذا صغير فقير ، وهو غنى . وليس سواء يسر وعسرٌ . فيتوهم بالطبع أنه ولد فى السرير الوثير . والاستبرق (٣) والحرير ، لا الخرق البالية . والأحضان العارية .

---

(١) العصيان والكفران بالنعمة .

(٢) ملحقات المدينة .

(٣) ثياب مطرزة بالذهب .

قولوا لولدكم : إن هذا الفقير غلام مثلك ، يحب مخدة الريش ، والطعام اللذيذ . والحلواء والسرور .

أفهموه أن ذلك المضنى من الفقر المدقع(١) ، والمتقع من الحرمان والأحزان ، لم يمسس لعبة فى حياته . وكفى المرء من السعادة أن يكون مصونا من غائلة الحاجة .

أعلموه أن كل ما يصرفه ثمرة مجهود أبيه . وعرق جبينه . أو كدّ أجداده ، وقد كان من المحتمل أن ما يراه من نعمة ورغد ، لا يصل إليه ، ولا يدر عليه . فأذا اقتنع الطفل قلت مطالبه ساعتئذ ، ويحس بلذة عيشه ، وقد كان يغتنمه دون أن يشعر به .

وازنوا بين ما ينعم به وما يحرم منه الكثير ؛ وجددوا وكرروا كلما زاد غرضه وغلا مراده ، ولا سيما الكلام على حظه الموفور ، فتنبت فى قلبه زهرة ذات ساقين : الفرح بالخير العميم ، والاقرار بالعرف والجميل ، وينبغى أولا وآخراً أن يعلم أن فى الدنيا مناكيد ، ومناحيس ، حتى إذا قدر ماهو مالكه لايتطلع إلى ما فى يد الغير ، ولايهيج إذا تصادمت رغباته بسد المستحيل . إن رغبات الطفل تتعدى دائما حدود الممكن ، إذ الأنسان غير قنوع بفطرته . لايشبع حتى إذا غمرته النعماء(٢) فى هذه الدنيا الزائلة . فبالرغم من سعة عيشه يرى نفسه أكثر الناس تعاسة إذا لم يحظ بسهولة على هواه ، فهو يعتقد أنه المحروم الوحيد ، إذا نقصته لعبة ، أو فاته شيء من الحلوى ، وكل ما دون ذلك لاقيمة له ، ولا يحسب له حساب . فيجب أن يتعلم احتمال الحرمان ، وأن يجعل أساساً للتربية الأولى الجدّية القوية .

---

(١) الملصق اليد بالتراب فقراً وذلا .

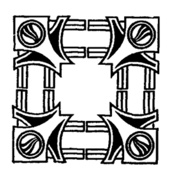
(٢) خفض العيش ورغده .

سيء الأدب يافعاً

هو ابن العشر · أشد تغطرساً (١) عما كان في الثالثة . لأنه صار أجرأ . يصيح بصوت أعلى ، لأنه أصبح أقوى . لقد أضحى شريراً كبيراً ، لأنه نما . وما كراً خداعاً ، لأنه تدرب . الشجرة بسقت (٢) وكفى . والجوهر لم يتغير : والآباء يبدأون أن يشعروا بأنه قد يكون سيء التربية . واأسفاه · لقد حصل . وسيكرهونه على الاعتراف بذلك ويسرعون . ليعيشوا في هدوء وسلام أن يكلوا أمره لغيرهم . حتى يعالجه ، ويصيِّر منه إنسانا نافعاً .

---

(١) تغضب في كبر .
(٢) ارتفعت وطالت .



بيانه أول

يلزم أن يجتهد هـذا الولد ويكدّ ويكدح . يقول هـذا الآباء وهم يشكرون للضرورة التي قضت بأبعاد عزيزهم ، الذي قد عيل صبرهم معه ، لقد جاء الفرج ، وتخلصنا من هذا الغلام ! ثم يبعثون إلى مدير المدرسة ويقولون له : إنه ليس متغطرساً . هو سليم القلب ، نبيه ، نشيط ، ولكنه عفريت ، نفريت ، ويحتاج لحسن القيادة . إنى لا أقول ذلك . لأنه ولدى ! إنى لم أر أسهل قياداً ، وألين عريكة . ولكنه يصرف قليلا من ذكائه الواجب أن يحتفظ به .

مفهوم أنهم لايعترفون أنه غير محتمل ، كثير العصيان ، شارخ(١) طلْبُ (٢) . لايجرؤ أحد أن يستعين بالقوة عليه ، والأم لاتنبث بكلمة لأنه لايمتثل ! ولأنها ضعيفة لاتقوى على إكراهه . فتترك الأمر لأبيه خيفة أن يلحقها منه أذى وكزة (٣) ، أو وخزة (٤) ! من ذلك اللفظ الغليظ الذى يذهل فى غضبه . ولها الحق أن تخاف .

ذلك هو السيد الصغير .

أما هو فيرى أن وقت إطلاقه قد حان ، ويصح أن يكون له معاملة . ولا يفكر فى أنه يخاطر بأسرته ويعرضها للعـار . وهو يعتقد أنهم

---

(١) صار شابا فى فتوة .
(٢) بكسر الطاء وسكون اللام : الساعى وراء الحاجة .
(٣) ضربة بجمع الكف .
(٤) طعنة غير نافذة بأبرة ، أو رمح ، أو نحوهما .

سيخضعون أكثر مما يقاسون ! وكيف يظهر شروعه هذا فى تلك الحرية : يبدأ فى شراء أشياء صغيرة ، بلا إذن . ويهرب من مراقبة ذويه ! ويبحث عن كل فرصة تمكنه من الاختفاء عن عيونهم . ويظل البعد عنهم كل مأربه ، وسبب هنائه . ورحب حبهم فيه ضيقُه . وهؤلاء يقهرون أنفسهم ويخدعونها ، ولاحق لهم فى استنكارهم ، وتعجبهم . لأنهم ظنوا أنهم يحسنون صنعاً ، بتحاشيهم عن مصادرته وحرمانه ، وقد وقف عند هذا سعيهم ! فهل كان الطفل سعيداً ؟ لا . فلئن خضعوا له ، وقد لانوا بعد أن قسوا عليه ، ثم نهروه ، فهو لاينساها ، وحفظها لهم ! فأذا خشوا أن يقولوا له : لانريد . فتشوا على أن يتواروا وراء أسباب لاتلبث أن يظهر خطلها . وكيف لايضعف احتجاجهم وهم إذا أرادوا رفض طلبه لفقوا أسبابا شتى مخترعة ، بدل أن يقولوا الحق الخالص : لا نسمح لك .

ادرسوا الطفل : أعماله وكلامه . للوصول إلى الغرض الوحيد ، تهيئته بتؤدة . ولكن بيقين وأمان إلى إطلاقه .

هو لا يفتأ يعمل على حريته . فلا يذكر كيف يمضى وقته . ولا أصحابه الذين يودهم . والكتب التى يقرؤها ؟ « هذه ملاحظه عظيمة » ويكف عن أن يسارّ أحدا فكأنه يبحث عن حجاب يلتف فيه . ولماذا ؟ لأنه يشعر أنه سيضطر إلى الاختفاء . وعما قليل يرتطم (١) فى حساب سلوكه .

إنّ فضوله يقظان . فيفتح كتاب الحياة ، ويلصق فيه الصفحات التى انتزعت منه لحكمة ! نعم . هذا كله لم يكن مرتباً فى فكره . وإنما تفرُّسه فى الشر وطبعه . لا يخدعانه ، ولا يتركانه .

---

(١) يسقط فى الأمر الذى لا يعرف كيف يتدبر فيه .

بيانه ثانه

أما البيان الثانى الخاص بهذه السن فهو ثبات الجأش غير المضطرب . يظن أنه رجل ! يتحدث فى كل شىء . ويبدى رأياً فى كل أمر ، ويناقش آراء شيوخ الرجال ، ويجادل المخصصين ، ويكذِّب أباه ، ويفند قوله أكبر تفنيد ! وأما أمه فيعرض عنها ، ولا يخفض من غلوائه . ولا يتنازل أن يرد عليها : ويقول : إنها امرأة مسكينة . فأذا خاطبته هز كتفيه شفقة بها ورحمة . ويقول لها : إنك لا تعلمين . جواب معتاد ، فيه ازدراء وهوان . لقد كان فى الثالثة من عمره يُلزم أبويه إرادته فيخضعان . وفى العاشرة يعمل على أن يكونا من رأيه على كل حال !

لا يخشى الغلط ، يؤكد بلا علم ، يتعهد بلا تبصر ، يسبب بغطرسته شجارا ، متباهيا ، ويجهله المطبق مشاكل ، متعاليا ! إنه مشجع فى الغالب على جبَرَوته وميله لتحريره ، باصحاب كالحى يجب إبعادهم واستئصال شأفتهم ، وإلاّ يُسيطرون على الأولاد بسلطان خطر ومستديم ، ويخال كأن لهم أسنادا من أهل البيت !

أئذا اتفق أن غريبا أو عابر سبيل ، أو صاحبا من أصحاب المصادقة ، من الذين ألسنتهم لا تسكن بين فكيهم ، لهج بما لايليق ، أو حرض الولد على سيئة ، فتدخل الأب حينئذ ؟ أتظن أنه يجسر على إرجاع هذا الفضولى عن إغوائه أو وقفه عند حده ؟ فهو يخشى إن فعل يجرحه . أو يقطع علاقته ! وافرض عكس ذلك : أن رجلا متردداً على المنزل معتادا على زيارته فى كل آن ، وعلى الجهر بالقول غير الجميل بلا تكلف ، قد

يمكن أن يسيطر على الولد بدون علم آبائه بتسليته باللعب معه ، أو إعطائه هدية ثمينة . هب أن هذا الرجل عاتب الأب ، أوحال بينه وبين ابنه ، مخيفة أن يقهره أو يمس كرامته لا يلاحظ عليه ، أو يلفته ، وهو ذو قدم ثابتة فى الدار ، والتخلص منه ، أو صرفه يحدث رجة ، وقد تكون حادثة .

فى الواقع أن الآباء فى غم وكيد وغيظ ، ولقد أهانهم . ومع هذا فهم يطأطئون رءوسهم ويتعامون ويتصامون ، وهذا الصاحب غير الرزين ينتهى أن يحل مقام الأب إلى حد أن يصير هذا الأب المفرِّط مأموراً . أو يصبح كالعدم .

فأذا أمر الوالد ابنه . وكان الأمر جديا ـ كما يجب أن يكون دائما ـ فهذا الفضولى الذى لم يأت ليشهد صراعا بين الأسرة ، والذى يهمه ويتمنى أن يكون مقبولا لدى الولد ، ويحب ان يرى الولد على هواه ـ ينزع الأب من سلطانه ويمنعه ، ويقول : لقد انتهى الأمر ويجب أن ينقطع الحديث فى هذه المسألة ! ، وسيكون ابنك إن شاء الله ظريفاً فى المستقبل ، ويحكم قائد المصادقة هذا ، كأنه رب البيت ! .

وعلى الرغم من الأب يخرج الولد للتنزه ، ففى المساء قد تشعل الحرب حامية على ما يُظن ! وماذا يهم الصاحب ؟ هل سيوجد هنا لك ؟ .

رجل كريم ، لا أشك ، لا يعلمِّ المروق ، وإنما يرتكب أخطاء تعادل الخروج على الآباء . ففى غفلة الأب يعطِى الحلواء المحرمة . يجرُ خفية إلى الأمكنة أو الألعاب الممنوعة . يسهل سراً اللهو الممقوت لا لسبب آخر على ما يظن ؟ يُطلع على ما يجب أن يخفى ! ويرى الأب حسن السكوت عنه . وإلى غير ذلك من هذا ...

وبعد أن يقضى رغبة الولد ! ! لا يحجم أن يضيف الكلمة

المتلفة : أتدرى ؟ لا تخبر أبويك . فيكتم السر ، وذلك بلا شك يزرى بالآباء ، ويحط من شأنهم . والحقيقة أن الأب يصير كأنه دخيل فى داره ، والصاحب الصنم المعبود ، المرتجى ، المكرم . وإذا دققت علمت أن أهل البطالة والمتعطلين هم الذين يضيعون أوقاتهم كيفما كانت . وأينما ذهبوا ، ولا يفكرون أنّ تفاوت الأسنان لا يجعل الحديث مع الولد شهياً ولكن ماذا ننتظر ؟ إنهم مستهترون ! الولد مضحك . هازل ! يعتبر تسلية وتلهية لمن صحبه ! نعم . إنهم يفسدونه وهم يلهون وأحيانا يلهونه وله يفسدون ! .

وإذا عرف الولد واشتهر أنه أنيس لسنٍ (١) فهذا الصاحب الأمين لا يستحى أن يذهب إليه ، ويمضى دقائق فى سرور . فيسائله ، أو يشبكه مع أبيه ، أو خادم فى الدار بقصد سماع مجونه (٢) وسفهه (٣) مع أنه يتظاهر بتعنيفه بصوت عال ، ولكن بنغمة وأسلوب يشبه التشجيع أكثر من التقريع (٤) ، فيتوهم الولد أنه ظريف ، ويعتقد أنه ذكى الفؤاد ! ومتى عرفنا كيف نضحك الناس سواء كنا رجالا أو أطفالا فقد نجحنا فى هذا العالم ! !

إنه لضحكة المجالس . هذه كلمة الثناء التى تسمع كمدح عظيم ، لأنه يراد أن يذهل قليلا عن الوجود ، وينسى الهموم بأى ثمن !

وقد تأكد صاحبنا أن الولد تجاسر على المهازلة والمماجنة . والأخاش

---

(١) فصيح .
(٢) مزح ، مع قلة حياء
(٣) خفته ، ورداءة خلقه .
(٤) التعنيف .

فى القول والاشارة ، وتعييب هذا بصفة مزرية . أو تسمية مَسخرة أو لقب هزوة ، يقلد فأفأة (١) هذا ، وثأثأة (٢) ذاك ، ومأمأة (٣) ذلك ومشية المتكبر ، وخطوة الأعرج ، وإيماء الأكتع ، ونظرة الأحول ، وزمزمة (٤) الأخن ... فيجعل يحرك الغلام ، ويحرضه كلما جمعه وإياه مجلس ، وأراد أن يسلى زائريه ، ويفتخر بهذه المنقصة أمام مدعويه ، والولد يكون الممثل فى هذه المجالس المؤنسة المشرحة ، وله يصفقون ، ثم فى هذه الرذيلة يقذفون . وفى سلوكه المعيب وعمله السيء يطوحون . وكل مرادهم ومقصدهم أن يغشى عليهم من السرور ! أليس الاستهزاء بعجوز ، وانتقاد الجار ، وتقليد المئوف (٥) . مدعاة للضحك ؟ أوليست أيضاً هذه طريق الهدى ، وتكوين العقل ، وتزكية الفؤاد ، وتعليم الذوق السليم ؟!

لله دره ! ما أظرفه ! وما أشد إحكامه ! كأنه جميع من يقلدهم : صوتا وشبها . وحركة . وماذا تقول يا أبت فى ابنك هذا ؟ إنه سيصير ممثلا ماهراً . متقناً !.

وفى الغالب الأب المتأثر بالاعجاب أكثر من عامل الواجب يحدث نفسه ويقول : حقا إن فى ذلك الرأس لأسرارا . والأم الرقيقة القلب

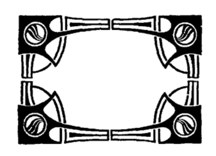
---

(١)،(٢)،(٣)، تردد الفاء : والثاء : والميم فى الكلام.

(٤) صوت من الأنف فيه غنة يصعب معها فهم الكلمات .

(٥) المصاب بعلة

لا تلبث أن تصرخ وتقول : إخسأ أيها الولد القبيح الذميم ، أتعرف أنك ترتكب سيئات ؟ إنك لعمل غير صالح . ولكن ينبغى أن تسمع بأى صوت تقول ذلك ، حتى تعرف مقدار هذا اللوم . ؟ وما تكاد تنتهى من لومها حتى تعقبه بملاطفة أو نظرة يفهم منها الولد سر قلب أمه الذى يناجيه : يا ولدى لا تعتقد فى كلمة مما سمعت من اللوم !!



صديق البيت اللاغى فى كلام

هل يقف الأمر عند هـذا الحد ؟ البيت أصحابه كثير من الشاب الصغير الدائر الخليع إلى الشيخ القديم الذى فقد الأطيبين (١) الذين يسمحون لأنفسهم بهُجر الحـديث ولغو الكلام المشمز : كلمة مواربة ، لفظ توجيه . كناية لازمها يكاد يلمس . وتورية بعيدها يوشـك أن يكشف . كل شىء جائز . وفائت .

يسعدك الله ،إذا وصلت المائدة إلى دور الفاكهة ! ولم يصل الحديث إلى ذكر البغى والفحش .

نعم . قد يكون الكلام همسا ، ولـكن هذا يلفت أنظار الصغار الحاضرين .

الحديث لا يتغير سواء أكان لشيخ قـُفة (٢) ، أم لصبى خفة ! والمجموعة متشابهة : قصص قديمـة . خرافات عتيقة . بعد أن ماتت أحياها الناس . فيتعجلون بها كأنها باكورة . معايب الجرائد . حوادث العرُر : (٣) التى يتحدث بها تفصيلا !

وليشتاق الناس إلى السماع . يؤكدونها . وربما سمّوا بطل القصة . وغالوا أنهم شهدوها . فالأب يخشى أن يعـدوه مستظرفا (٤) ، ويريد

---

(١) الشباب . والميل الجنسى
(٢) المسن الضعيف المنضم
(٣) جمع : المفرد : عرة وهى العيب
(٤) يعمل عمل الظرفاء

أن يحسب حرا قديما ، ورجلا حيا عصريا ، معا ، فيتصام أو يبسم بَسْمَ المتسامح المتغاضى !

وإذا رأت الأم أن الحديث أمسى لا يساغ ، ووعث (١) السبيل اعترضت بلطف مع الاحترام . ولكن بعد الفوات . وبعذوبة وغموض قالت : أنسيتم — ياسيدى — أن معنا آذانا حديثة صغيرة ؟ والطفل الذى من أجله كان يجب أن يمر الحديث ولا يستشعر به — تفتح آذانه الحديثة ليعيها ويتأملها ، غير أن هذه الأم الغِرّة (٢) تعتقد أنها حريصة حاذقة فى تنبيهها . نعم . إنها مخلصة . ولكن غشمها وعدم دربتها لم يكونا أقل ضرراً ولا شؤماً من تسامح الوالد .

* * *

وماذا يصيب الصبى بعد هذا ؟ يزلق لسانه بالألفاظ المنحطة ، والعبارات السَّخيفة ، والأمثال البذيئة . وتراكيب العوام ، وجمل الأوشاب . فأذا تكلم يشمز منه السامع النابه الأديب . ويمجه الأريب !

إلى هنا قد خبل الطفل قليلا وفسد طبعه كثيرا . وإنما لم يخبث قلبه ، ولم يفقد سلامة السريرة . لقد خشنت الساق . بل تشوكت ، ولكن الزهرة حافظة نضارتها !

فأذا كنا لا نتطلب من أولادنا إلا مبلغ الكرامة الذى يقدره العامة . فأذن نخطىء ، إن شغلنا أنفسنا أو جشمناها بغير مقتض . ولا تثريب على الولد من بعد أن يغشى المسارح والحانات بل

---

(١) وعر أو فسد
(٢) التى لاخبرة لها

المواخير (١) . ومتى تعب من الحياة الصبوية فقد يكون فى وقته موظفاً مواظبا . صانعا . ماهرا . تاجرا مشهورا . معلما مرغوبا . مدرها فصيحا . رجلا مريئا (٢) . كريما فى أعين الناس .

هل لنا ـ على عكس ذلك ـ آمال وأطماع أخرى ؟ هل اعتزمنا أن نجعل ولدنا رجل أخلاق كيّسا ذا فضل ؟ هل قدرنا أن من واجبنا حماية الفضيلة فيه وإنماءها جهدنا ؟ هل فرقنا بين الاستقامة العادية والشرف الحقيق ؟

ينبغى أن نتنبه ونلاحظ . نعم . كل ما فات لم يتأصل فيه . ولكن البذرة نبتت . وقد تؤتى ثمرها المرّ ، والآباء سيذوقون حلاوتها . وإن كانوا لا يودون أن يتوهموها ، فسيعترفون بها غدا ، فأذا رهق (٣) الولد . وغوى واستمرأ ولها ، فلا شىء بعدها .

فالملاهى كالفلفل الحار إذا زدته فى لون أصبح باقى الألوان تافها وبلا طعم !

---

(١) جمع : المفرد :ماخور :بيت الريبة والدعارة

(٢) ذومروءة: أوكثيرها .

(٣) فعل القبائح وظلم .



سيء الأدب مراهقاً

هذه السِّنُّ هي سِنُّ الكنود ، هو فيها مشوه حتى الشناعة . أخرق حتى السخافة ، مرح حتى يسخر به . ذلكم الولد فى المراهقة . فيه نزق الصبى . وغشم الرجل التام ، وبله المغرور ، بدل سلامة السريرة .

ومن فتوته المستقبلة الجرأة بلا قدرة . ذات فى برزخ الانتقال ، وجسر العبور . فهو طفل مشوه ، ورجل ناقص ، خليط منكود من العمرين : أحدهما امحى لن يعود ، والثانى مجهول الحدود . يذكرنا بالطيور الصغيرة ذات المنقار الطويل ، والأرجل الغليظة ، والأعضاء غير المتناسبة ، ومشية البهيمة . وصوت البومة !

إن هذا لا يرجعه عن إعجابه وكبريائه . إن ابن العشرين أكثر تواضعا ، لذوقه بعض التجاريب التى ربما غلب فيها ، وهو على كل حال سيقاس بأقران منازعين مقلقين ، وفى هذا ما يفيقه قليلا من سكره .

وأما فى الخمس عشرة فيجهل كثيرا منها ، فلا يدرى مدى جهله !

١ ـ ومن رغباته الكبيرة إذهال آبائه بعلمه ، ففى حديثه تهدر شقاشقه (١) ، فتبهرهم وتسحرهم ، إن فى كل مدرسة الأحاديث المعروفة : عدد من الألغاز والمعميات العلمية . والموضوعات النادرة الملخصة فى كلمتين ، والمسائل الغريبة الشائعة فى المكاتب . يجمعها التلاميذ بعناية

---

(١) جمع المفرد : شقشقة : وهى جلدة فى حلق الجمل ينفخ فيها فيهدر . والمقصود هنا : اللفظ بالباطل والكذب

فتبهت الآباء ، ويسر صاحبنا من ذهولهم . فيغره نصره ، ويوجه أسئلة إليهم .
وكم تبدو نواجذه ، ويتهكم عندما يتولى هذا الامتحان المعجز ! ! وإذا كان
الولد أريبا يقف عند سؤالهم باحترام متظاهراً باستفتائهم . ونيته إفهامهم أنهم
متأخرون ، وأن علم زمانهم قد أسن . وأن لديه لحيلا لطيفة ، كثيراً يصل
بها إلى غرضه . والأم طالما هي بجانبه تسمع العجائب والغرائب !

أمس قد حللت مسألة جبريه استغرقت ضحى اليوم . لقد كانت أعقد من
ذنب الضب ! ومعها مبحث لغارتمى والطريقة التى اتخذتها معادلة الدرجة
الثانية .

ويتمادى فى مزاحه ، وفى الأسبوع الفائت يقول فيخلط : إننى
اختبرت فى كسوف القمر ! وخسوف الشمس ! وسأمتحن غداً فى علم
الحيوان . لو يسألنى الممتحن فى الآزوت ! ونظرية السقوط لأخذت
أعلى درجة فى علم الحيوان : إن الأمر سهل . أو أسأل فى الاثنى
عشرى وأزواج الأزهار . كنت ألخص كل ما فيها فى عشرة أسطر !
فيسر أستاذى العظيم منى ، لأنه يحب الأيجاز !

فكم من الأمهات تعجب من أمر ولدها ، فتنسى أمومتها ، فتعظم
ابنها وتملقه ! وإذا زارتها صاحبة لاتدع الفرصة تمر دون أن تشير إلى
ولدها من بعيد . فتقول : حقا إن الدراسة اليوم ليست كأمس . فالتلاميذ
يتعلمون أشياء لم نسمع بها كأنها السحر . ولكنها تعجب الولد . لقد
من الله عليه وتفضل .

ملاحظة : كل ما تحته خطوط مخالف لقواعد العلم ، ولكنا ذكرناها
بلسان ذلك التلميذ المخلط الجاهل

لو لم يكن فى المدارس محاباة ! ولكن ابنى ليس من هؤلاء الذين يملّقون أساتذتهم. وبالعكس إنه لايحب الظلم ، وأعرف أنه يُسبّ القمرين ويحرق الأخضرين (١) ساعة غضبه ، وفى لحظة لا يفكر فيما جرى وينسى! وترجمة هذا إنه عتل (٢) وزنيم ! (٣) وأمام أبيه تتغير النغمة ، فيذكر خواص علمية جديدة ، ونظريات ومخترعات حديثة ، ليخزى أباه .

فالأب فى هذا المقام يرده عن غيه ، ويكتفى بقوله : إن هذا قد يكون إذا ولدت الأبناء قبل آبائهم .

نعم . إن هذا الابن يعرف . . . . . . أسماء يذكرها ! كالأثير ، والشعاع المجهول ، والبنفسجى ، وتناسخ الأرواح ، وانتقال الأفكار ، والنفس النباتية ، والحيوانية . وسبع (٤) النبات ، وهو لايدرى كتابة سطر بلا خطأ والبرهان قريب ، وامتحان هذا الصغير الفخور ميسور !.

ومع هذا فلا يتردد الأب ، ويقول فى حضرة ابنه ، وأمام صاحب قديم : إنا لسنا من هذا العصر ! ولم نبلغ مع عمرنا ما بلغه هذا الولد ! يجب الاعتراف . إنى أرانا فى جهل مطبق . ويخفض صوته ويقول : ـ فيما بيننا ـ إنا عيال على هؤلاء الأولاد !.

قد يقال : إن الأب كان يمزح . أريد أن أصدقه فى ذلك . ولكن ألم يزد الولد غروراً ؟.

أيها الآباء الكرام أتصغرون أنفسكم ضعة ودعة فى أعين أبنائكم ؟ إنكم

---

(١) العشب والشجر . وهو مثل يضرب للتهويل

(٢) الجافى الشديد

(٣) دعى لئيم

(٤) النبات الذى يمتص الدماء ويفترس الطيور

تكونون أول من يوحى إليهم الاحتقار الذى تشربونه قريباً . ولم ذلك ؟ وعلى فرض رقى أولادكم العلمى ، هل الذوق السليم ورجاحة العقل والعمر والتجربة لا تعد ، ولا قيمة لها فى الحياة ؟ .

* * *

فأذا نظرنا إلى تاريخ الأفكار والعقائد فى كل الأعمار ضحكنا من أولئك الساذجين الصدّيقين ، الذين كانوا يعتقدون فى العرّافين والسحرة ومع ذلك فى أيامنا هذه ، ألا يوجد من جماجم(١) أمراء العلم من أقر مذهب سلب الأرادة والتصرف فيها بالألهام والتلقين حتى فى الشر . هل وصلنا إلى نوع جديد من السحر والتمائم ؟ .

فاذا كان بعض كبار العلماء يؤمنون بذلك ، فالجهلاء الذين كانوا يخافون الشعوذة والتنجيم وإحضار الشياطين لم يكونوا حمقى كما كان يتوهم .

إن الفكرة شاطة (٢) . ولكن التقريب بينها وبين تلك عجيب ذكره على الأقل . وفى الحق ما الذى يوجد ـ ولا شك فيه ـ من المذاهب الجديدة ؟ ليس هذا مقام مناقشته ! .

هلا نقول لأبنائنا : إنه إذا افتخر عصرنا بعظيم الاستكشاف وتفصيل الآيات فلا يستلزم أن يكون متجبّراً مزدريا ؟ أليس الحاضر ابن تجارب الماضى ؟ يجب أن يكون العلم متواضعا حتى فى أصدق نظرياته . وعلى كل حال فالرقى قام فى الغالب على بيان خطأ أمس . وقد يأتى الغد بما يفنّد خطأ اليوم . وهكذا سواء أكان بحسن النية أم بعزم وتأكيد ؟

---

(١) سادات

(٢) بعيدة

هل نصل إلى حقيقة الأشياء الآخرة ؟ ألا يسمح بالشك ؟ . .

فالأب العاقل يعمل خيرا بكسر جرأة هذه الكبرياء العلمية التى تسكر شباب مدارسنا سكراً مزريا ، كما أنه يقلل ما أمكن من الملاحظات غير الصادقة . . .

* * *

٢ ـ ما أقل الحقائق المعلومة والقواعد الثابتة ، إذا قيست بما لايحصى من المبادىء التى تخرق الجو ، لتدخل بعد ذلك فى العدم ! سلوا العلماء الأعلام ، سلوهم عن حزنهم من غارة القصص العلمية المتغطرسة على الحقائق المجربة الناصعة . وقد امتلأت الأرض منها ، ويظن الذين يقرءون أنهم سيعلمون . وأنهم سوف لايعلمون ، إنما هم يفكرون ويشكون .

إنا لانبالغ فى هذا . طالب شاب يريد أن يدعم رأيه مثلا فى أن الكائنات العضوية ـ ومنها الأنسان ـ خلقت من المادة الأولية ، كما فطرت . قد يناقش الفكرة ، أو أنه يستطيع بحثها ، وإنما إذا قرأ فى مسطور أو مجلة أنه بفضل العالم الفلانى تفصل هذه الظاهرة ، ويكشف سرّ التكوين . بوحدة الحياة ، التى أخرج منها كل شىء حىّ . فأنه يفحَمُ ويبكمه السكوت ، وبأى شىء يخرج هو من هذا ؟ . . .

فحق علينا أن نبين لأولادنا ونصارحهم القول بهجر تلك القصص وإتيان البيوت من أبوابها . وارتشاف العلم من معينه ، والتنقيب عن ذات الشىء . فلا يعتبرون أن الاسم هو عين المسمى ، ولا يأخذون الكلمة بدل موضوعها .

إنى أقول ذلك ، لأنى أجل ، وأحب العلم الحق ، الذى أخاف أن يقرر بتهجم وغشم ، وقبل ساعة نضوجه ، وأن يفقد احترامه وسلطانه

الشرعى ، إذا لم يكن مؤكداً وثابتاً بالمعنى الصحيح ! وقد يحدث أنه تحت ستار نشر التعليم بين الكافة يحط من مكانته . أى : أنه لفكرة الانتفاع والاتجار يهيأ لذوق الكافة فيُنزل إليهم بدل أن يرفعهم إليه !

ولأن العقول الراجحة ، والأفكار الناضجة ، والدراسة المتينة ، والتعمق والتفكير ، تتقاسمها صفوة الرءوس . فلأجل أن يسمع ويقرأ الكاتب يعلق بذكر العجائب العلمية الصغيرة والاستثناءات والغرائب التى تسلى أكثر الناس ، وتعجب جماعة أواسط العقول . وفى تلك الكتب تشرح الحقيقة كما تقص الأحاديث ، ويضحى كل شىء بجانب أنها مستميلة دائماً ، وإن كانت . . . ولو ! فأنه يسمع عنه أنه يسهل تناول العلوم ويبسّط ، كأن التبسيط والعلم لا يتفاندان ، وكلمتان لا تتنافران . ولكن الوقت يأزف والحياة قصيرة . . . وغالية . فينبغى حينئذ العمل السريع . وبخس الثمن ، غير أن النشء باعتقادهم فى هذا الحكيم الكلامى يحدثونك بزهو ، فى الخلية الأولى والنفس الأولة ، فكأنه قد وجد لها غير اسمها الذى سموه . ما أنزل العلم به من سلطان .

***

٣ ـ فالولد سىء التربية الذى نتحدث عنه ، إذا لم يكن عاتياً مع أمه أظهر رفع التكلف المستنكف ، فاذا ترك السلطان والقيام عليها ، عاملها كقرين وناداها وأسماها بلا إكرام ، وبشىء من صغير التهكم والهزؤ الذى ترى الأم من خلاله بمنظار أمومتها لطفاً فريداً ، أو ظرفاً معدوماً ، وإعجاباً به وبتفكيره فيها ، وأنه يداعبها ليرضيها ، تقول لكل زائر : إن ابنى يحبنى يكاد يتعبدنى ! ! قد يتعبدك . ولكن هل يحترمك ؟ فهى كمرشد لا وجود لها ، وقد عزلت نفسها . والسلطان أخلى مكانه لمصاحبة فاسدة الذوق .

٤ ـ وإذا خرج من تحت سقف البيت كان فرفاراً ومتشاجعاً وقحاً ينازل العامل الفقير بلواحظه إذا اصطدم به . والسائق إن حفه(١) من قريب ! وإذا وقف يتأمل شيئاً فنياً وقف وقفة المفنّ (٢) الصنع . يقيس المار بشعاع عينه من رأسه لأخمص قدمه مختالا فخوراً كأنه أكمل عصره ، ولم تخلق الأرض إلا لمثله .

يبدأ أن يعتاد التدخين : ولقد مضى زمن الضيق ، وذهب اليوم الذى كان يجربه فيه فى أركان الزوايا . لا شك أن المدخن الصغير يشعر بقليل من الارتباك : إنما لابد أن يترجل ، فبأى تلطف ولفتات يتتبع سحيّبات الدخان السابحات بنظراته ، والتى يزفرها من بين شفتيه ، ومن ركنهما زفرات مقطعات ، أو ينشرها من منخريه تدللا وعجباً ، فيتوهم أنه رجل وفريد . ويظن أنه ذو رأى وعقل يفزع إليه فى الجلائل .

وإذا جلس فى ملهى ضرب المنضدة بعصاه لينادى الغلام . أو أرنّ الصينية برنات متتابعات لافتات للأنظار . وبصوت مختلج من بقية حياء يستسقى كوباً أو كأساً بعجرفة ، قد يأنف منها الغلام ، وإنما هو يعرف أن الخمّار حذّر الخدم وأمرهم الصبر . فلِمَ إذن يكون صاحبنا مؤدبا ؟ ومع ذلك فلا تنس الراشن(٣) والحلوان حتى يقال : إنه مترف دوار وإن تمهل الغلام فى قضاء الحاجة تظاهر المهلس(٤) الهلوف(٥) . إذ

(١) اقترب منه.

(٢) الذى يأتى بالعجيب.

(٣) مايعطى لتلميذ الصانع (بقشيش)

(٤) الهازل .

(٥) الكذاب الجافى

أنه لا يدع فرصة لا يثبت وجوده فيها ، و لا يستحي ، فيعلن خبرته لأى إنسان . لقد ساوى الرجال!

***

٥ - يخال لى بلا عناء أن آباءه أذنوه ، ليختار ما يقرأه من الكتب ، وقد كثرت فى هذا الزمن . وأنهم من أنصار رأى الأحاطة بكل شيء ، ومعرفة الظاهر والباطن حتى يعرف الخبر . وما يجب اجتنابه . كأن الرأى فى هذه السن حصيف راجح . أو كأن الشر ليس له جاذبية ، وحسن أقوى من مشقة وزهد الفضيلة ! خطل عظيم ! ولكنهم يؤكدون أنه خير له أن يعجم (١) الأمور بنفسه ، حتى يصير خبيراً عليما . وكأنهم يريدن أن يقولوا : بوجوب الأصابة بجميع الأمراض حتى نعرف علاجها .

***

هم يسمحون بمطالعة القصص الوعثاء (٢) . ولكن يسعده الحظ إذا لم يعثر على قصص طحوم (٣) مادى ، أو ماجن مستهتر (٤) . إنما القطعة الذهبية الموظفة لمصروفه قد تعينه على اختطاف تلك القصص المفسدة الساحرة بأسلوبها الخلابة بجمال وصفها . وبفضل هذه الأتاوة المبذولة بلا رقيب يستطيع أن يرضى شهوته المتهيجة التى لا تشبع .

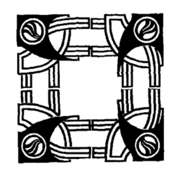
---

(١) يختبر ويمتحن .
(٢) المكروهة المفسدة .
(٣) كثير الاندفاع .
(٤) المتبع هواه فلا يبالى بما يفعل .

وأظن أنه من حضور تمثيل الخرافات ينتقل إلى مسارح الروايات الغرامية المكشوفة التمثيل، والخالية من الوعظ والتأديب . والآباء يقرون أن السبيل وعر . وإنما التمثيل متقن يحجب لخش التأليف . حجة واهية، وعذر ضعيف .

لقد بدأ يتسال، ليجتمع بأصحابه شركاء المستقبل فى هفوات الشباب، وإن بقى لدى الأم شيء من التيقظ والانتباه وسألته عن أسماء أصحابه أجابها متململا : إنك لا تعرفينهم وما شأنك بهم ؟ وينتهى الحديث. وقد فقدنا دربانا(١) وعندئذ، فلا أب ولا أم فى الدار ! بل صاحب فندق وامرأة غسالة.

(١) بوابا .



سىء التربية فتى

سن العشرين ، الفتوة والرجولة . وصاحبنا تحت سقف بيت أبيه !
فهو إذا لم يزل محلا لبحثنا ! على أن القانون يحدد الرشد الكامل فى
الأحدى والعشرين ! . .

لقد بلغ العشرين ! فما قدر آبائه فى نظره ؟ لا أكثر ولا أقل
من خادمين . حشم . فالبيت يرتب حسب هوى السيد الفتى . ينمحى
كل شىء أمام مرامه ، وتفنى كل إرادة فى رغباته . يشكل . وينظم ،
ويفرش بذوقه . مواقيت الطعام . اختيار الضيفان . الألوان . وما
يشرب على المائدة . الملهيات . مقابلات الزائرين . السياحات والأسفار تحكم
بأمر باغى نسين (١) . وبالأمس الغلام السبْرُوت (٢) . من لم يشوك شاربه .

الآباء كفوا عن تدبير سياسة البيت ، رفع الحكم من يدهم . حتى أبوه
لا حق له فى إبقاء محبه ، وصديقه القديم . من كان كظله وشغله فى كل حين ،
وكرهاً عليه . ليقوم السلام ، ولا يكون خصام أن يبُتدّل حمل فظاظة ابنه
مكان سنه وضجيج صياحه موضع نصحه. فيعروه الوجوم ثم الصمات . وكفى .

أرأيت كيف أن أمرد ، وربما سخيفا أحمق ، صرف عليه من
الذهب فى دراسته ماصرف ، ولا يستطيع أن يملك نفسه ؟ إنه
ناقص فى كل شىء إلا عيشه من مال أبيه ؛ فهو معلّق فى كلاّب (٣)

---

(١) أظلم من ينسى الفضل : مثل تقوله العرب ، لمن فى سن العشرين
(٢) الشاب الأمرد .
(٣) حديدة القصاب يعلق بها اللحم .

البيت . ومع هذا فذلك السيد الصغير المتجبر ، من سينتظر طويلا قبل أن يقتدر على شراء قفاز من ثمرة عمله ، أصبح يرى نظام أبويه المحتشم الكافى لحياتهما مدة ربع قرن . غير محتمل ولا مقبول ، ومخجلا ، والراحة والهناء لديهما التعب والعناء ، وربما الفاقة عنده . وفى نظره الفائض الغالى . لدى أبيه يقابل الكفاف الضرورى عنده .

***

لقد حرم آباؤه أنفسهم كثيراً ، واقتصدوا كثيراً ، واحتملوا ، وصددوا معاشهم حتى يضمنوا « لحيلتهم » مركزاً مستقلا ، وتعليما أرقى من تعليمهم . أتظن أنه شكور . إنه لكنود . وإذا اطلعت على قلبه لوجدته يراهم سذجا بلهاً . لِمَ يحرمون أنفسهم ، ويقترون فى رغدهم ورفههم ؟ والذى يحس به – لا شكرهم على عرفهم – هو الشفقة على هؤلاء الطيبين الذين لا يعرفون كيف يعيشون ، إنهم لمتأخرون ، أقران طراز القديم . بهذا يحدث ، وبهذا يعرض حالهم .

وأما هو فهو المالك لما يطلب ، الفعال لما يريد ، القابض على كل شىء بيده ، لا الحاسب لليوم ولا العامل للغد . أيخشى أن ينقص مالهم ؟ أيضيق عيشهم فتنتزع شهواته وتتصعب رغباته ، سواء بعمل أبيه ، أو قضاء الظروف ؟ أيفهم أن النعمة لا تدوم ؟ كل هذا لا مفهوم ولا معقول ولا مقبول ! حتى أنه يجهل إرضاء أهله ، كما ضحوا لأجله ، وأحاطوه بالرعاية والفضل من صغره .

أتظن أن ذلك الابن سيكون عضد أبيه وساعده ؟ إنك لفى ضلالك القديم . له أن يبلى ويفنى ، ويعيش مترفاً فخوراً . وهل يكتفى بأن على أبيه قضاء ديونه وسداد كسائه وحليه وطيبه وآنيته . وأن يبيت

فى ظلاله . ويقوم بخدمته راضيا ساكتاً ؟ وبهذا يتق التوبيخ القامع ، والغارة الفاضحة . لِمَ هذا الانمحاء والانعزال ؟ باطن الأمر أن الآباء وقد رغبوا قلباً وقالباً فى جعل درجة ابنهم فوق درجتهم ـ يترددون فى العمل كسيّد ، إذ أنهم وضعوا أنفسهم فى مرتبة دنيا ، قد أيقنوا أن ابنهم لا يرتبط ولا يعلق بهم إلا قليلا : وإذا لبث عندهم فلأنه واجد مائدة وغطاء ، ونزلا لمسراته ، وهم يعلمون أن الضرورة تحوجه إليهم ، لا قلبه ، ويقرون أنهم فقدوه ، وحرمهم القدر هذا الكنود المغتر ! ليس هذا بابن ، إنما هو نزيل يؤونه . وكذلك هم ، صاروا غرباء عنه ، وهو من صلبهم ومن دمهم !



ليل الاب . ليل الام

يقعد الآباء من بعد ذلك فى الليـل ، والحزن يساورهم ، والهم يقيمهم ويقعدهم . منفردين يبثون الشـكوى ، مقرين بالعزل ، فلا إمرة لهم ولا سلطان .

لقد جهلوا كيف يقومونه صبيـا وطفلا . فجهلهم رجـلا وكهلا ولم يغرسوا فيه حيـاء ولا خالص بر ، إذ شروه بتعاذير لا تغنى ولا تثمر . جاءت فى غير عصرها . قضى الأمر وانقطع الأمل .

وكأنى أستمع حديثهم فى الظلام المتقطع بتنفسات حرى وتنهدات مذيبة ، وباختناقات العبرات . يقول الأب لزوجه : فيم تفكرين؟ هى ألا تعلم؟ والزفرة تكاد تنتقص أضلاعها . والله لا أدرى ماذا نفعل بهذا الولد؟ أما أنا فقد عجزت إنى أراه يتنحى عنا ، يمرق منا ، وإنك بهذا عليم . فمع هذه العقيدة الصحيحة . وعجزهم ، فما بقى لهم كى يضيّع وقته معهم وتصير الدار محبوبة ، إلا ممازحتهم وبشاشتهم . انظر : يلينون فيقسو ، يدنون فيبعد . هيهات ؟ أيستبدل هذا ، بلذاته الناعمة المتدعرة ، ذلك المتدال المتجمد الفؤاد ؟ ما ينفع فيه لا الهشّ والبشّ ولا الأحسـان والأكرام ، ولا ما يقدم قربانا تذللا وخضوعا ، ولا الملاطفـة التى لا حد لها . ولا العناية والدعاية ، فلا يشعر ، وقد يضيق صـدره ، ويطيح صبره ، فيقول لهم : أفٍّ . دعونى هادئا ، لقد انقلب العالم ، وانعكست الآيات ، أيقضى على الآباء بالطاعات والأمهات ، وبالتذلل

والهوان لأبنائهم الصبيان والفتيان ؟ فكأنهم أرباب المنازل . وهؤلاء ضيف نازل .

***

أنت تعرف هذه الأم الرءوم (١) الغشوم ، الطيبة الكريمة . تبيت ولا يغمض لها جفن . ليالى طوالا . صبورا ساكتة ، وابنها يغشى المسارح والأندية وربما الأركان المعتمة موضع التهم بما جادوا عليه من نقد وورق ، ليتروض ويتسلى . وهى بلا شك غير جاهلة حياته ولكنها لا تدرى سبيلا تتخذه .

فالفكر المضنى فى ذلك الغافل ، واللحظ الضال فى الغيب ، والسمع الواعى ، والرعدة للصوت الهامس ! فتمسى أمه قلقة يخالط نفسها الخوف . تطن الظنون فتبيت غير موسدة . تنتظر المتشرد الغالى .

لقد كانت تتمنى هذه الأم المجحودة أن تسعد بعودته لتقبله . وتحكم حافة كلته ، وتطفىء مصباحه ، مثل ما كانت تفعل فى الماضى ، وتفرح أن أمضى ليلة أنس وتسلى بأقران ، ولكنها قلقة ، وستظهر عليها هيئة الراقب ، الواقف بالمرصاد ، فتثير ريبه وغضبه ، وربما عنفه وقسوته !!!

هل من أهل يجرءون أن يفكروا فيما كان أولادهم يعملون ؟ وترى الأم تكتفى بالذهاب هادئة تذكى النار الخامدة ، تزيد زيت المصباح المدخن ، ترتب مفاتيح الكهرباء ، تسدل ستائر الغرفة . ثم تدخل إلى مضجعها فتقفى (٢) على إبرتها . أو تطريزها التى تتخذهما قاتلين للوقت ، أو على تصفح جريدة أو كتاب ، ثم تستيقظ مذعورة على صوت القفل ،

---

(١) من عطفت على الصبى ولزمته .
(٢) تنعس خفيفاً

فتذهب ، فترى مابين الباب الموارب ولدها ينسل خفية إلى غرفته , كأنه سجين يعود إلى حجرته . إنه لم يرها ، وهى لم تقل له شيئا، سيان . لقد اطمأنت ! فهدأت ، ودخلت مخدعها .

* * *

وأما الأب فغارق فى نومه ، وغداً سيقوم مبكراً لعمله . لأن الولد أصبح مهلكة منذ قليل . وإن كان رغم كل حيطة قد أيقظته زوجه يكتفى أن يسأل : هل باب الدار مسكر ؟(١) فينام هادىء البال ، وهنا ينتهى حذره . ولا يرى واجبا وراء هذا . فليدعوه ولا يسلبوه غفوته .والباقى عنده سواء .

أراد يوماً هذا الفتى يدعو أصحابه على مائدة أبيه . أمر يضايق ، ولكنه أكثر اقتصاداً من دعوة شاى فى لخبياء(٢) يوم على النمط الحديث !

فأذا كان أهله مهذبين قبعوا بعيداً ، وأكلوا فى غرفتهم سراً ، حتى لا يزعجوا الداعى العظيم ، وفضلة أمس تكفيهم ! وهذه الحياة العجيبة المستحيلة تستمر حيناً طويلا ، بل سنين عدة ، ومن ناحية ، الولد فى معزل ، ومن الأخرى الآباء يتعامون ويتغابون ، بل إنهم لايعلمون إذا خشوا ، أو خافوا عاراً وجنفاً ، أو قسوة وجفاء .

ولِمَ هذه الكآبة ، وتلك البلابل؟ (٣) وستكون غداً هموما ، وهموما قاتلة . ذلك لأنهم ضعفوا واستكانوا أمام ولدهم ، ولم يعاقبوه صبياً

---

(١) مغاق .
(٢) الأكلة التى تؤخذ عند اختلاط الظلمة
(٣) جمع : المفرد : بلبال : وهو الوسواس واختلاط الهموم

على عصيانه وتمرده ، ولو كان وضع فى أنفه خزام ، وفى فمه لجام . ولم يتركوه يقطع صباه فى أدواره ، وحبله على غاربه - لما سهلوا له الجموح (١) واللهد (٢) فى الطريق الوعر . والتطوح فى السبيل غير المأمون .

لو أن الآباء عاقبوا أولادهم شديد العقاب . مرتين أو ثلاثا . مثبتين حق الأبوة ، وقيامهم على الأبناء - لكفاهم ، وظلوا مسلحين عمرهم بسلطانهم الذى بدونه تذهب عناية المؤدب ولا تفلح . لقد شاءوا أن يكونوا بررة محبوبين ، فصاروا ضعفاء مبغوضين . ولكى يتقوا مجاهدة وجدالا عنيفاً أساءوا عاقبة الطفل . واستوقدوا لأنفسهم النار : نار الهموم والأكدار .

هل انتهى أمر هذا الفتى ؟ لا . بله انفصام عروة ائتلاف الولد بأبويه : فاتفاق الزوجين وصفاء المعاشرة والهناء معرضة للخطر . فتراهما يتأنبان ويتدارآن (٣) ويتلاومان فيقول الأب : أتعجبين من سلوك ولدك ؟ حقاً إنه ماكان ينتظر غير ذلك ، لقد كنت تنفذين رغباته وتستعذبين كل ما يخرج من فمه وإن مرآ ، وتستظرفين تخرصاته وسفاهته ، فالعاقبة كانت محتومة . وما لنا لها من دافع . وأنت الملومة ! والأم تقول : إنك تدهشنى . أتحسب أن الأم قادرة وحدها على هدى الأولاد ؟ إنما على الأب أن يكون شديداً ، ويرشد الأولاد . وما شأن الأم فى هذا ؟

كن صريحاً ، هل اهتممت جد الاهتمام بأمر ابنك ؟ ألاحظت عليه أمراً إذا جاء شيئاً نكراً (٤) ؟ لقد كنت تفضل ترك عناء النصح والتحذير . حتى يرضى عنك ، وإذا هددت مرة ضاع التهديد بلا تنفيذ ، وبالعكس ،

(١) ركوب المرء هواه فلا يمكن رده .
(٢) جهد النفس وإهزالها .
(٣) كلاهما يخادع ويقاتل صاحبه .
(٤) أمراً شديداً .

إذا عنفتُه بعدتَ ، وانسحبت ، وخطأتنى وهو قائم ، وأنكرت عملى ، والآن وقد تفتى (١) ، وقد ربيتَه كما أردت . فعليك المسئولية . هذا أمر يعنيك ، وأما أنا فلا شأن لى .

والواقع أنهما على الحق فى تلاومهما ، ويحق عليهما القول ، لنسبهما ابنهما ، فالذنب ذنبهما ، والجريمة جريمتهما . إذ لم يهذبا ابنهما . وهو تولى تربية نفسه . . . .

***

ما العمل ؟ قضى الأمر ، وقعت الواقعة . مالها من دافع ، هل من تدبير ؟ فلنسترد سلطاننا على ولد ساءت تربيته ! نعم هنالك طرق حاسمة ، بحثها ليس من موضوعنا .

لقد قلنا : إن فى المقدور تملك قياده ، فى لينه وبدء عمره ، فأذا فات فاتت معه الفرصة ، وخاب الأمل . لا . لاينبغى ترك شجرة نريد تقويمها ، فما اعوج منها لن يقوّم بأى حال . ليست هذه الكلمة من هجر القول : بل قول حق ، فلن تستطيع له نكراً !

هنالك خاصة أشد تأثيراً من جهة العمل يجب ذكرها ، قد يزيد اعوجاج الولد فى الغالب ، ويطول بسبب جِدةِ الآباء المهملين الذين هم شركاؤه فى حمقه وخبله ، ومنه يكون . إن ربط وحل عقدة الكيس ماهى إلا وسيلة لا تعادل تأثير العقل ، ولا تقوم مقام النصح والأرشاد ، ولا خطاب الضمير . ومع ذلك فعند عدم الاقتناع أو الاعتقاد ، فهذه الجدة سواء كانت مانحة أو مانعة ، فلا شك فى قيمتها ، كوسيلة أخرى ثانوية ، وفعلها لاجدال فيه ، ومن أوعث ودار عبث بالفضة والنضار » .

---

(١) صار فتى

مثل ظاهر

رفيق ثرى . ذو مال مدخر مطلب . مملَّق من سرب الأوشاب والأوغاد والأوغال الذين له بالمرصاد ، أينما وجد يتلقفوه ، أو سار يتعقبوه ، يحيطونه كالخاتم للخنصر . يسدون عليه المسالك ، إن قام هموا ، أو قعد قروا . يتصرفون فى نفسه ويهيئون له بؤرات ، وباسمه حانات ، على كيسه ، لا يودعونه إلا لميعاد ، يدهمونه فى سكنه إذا غاب ، أو تعب من تضييقهم الخناق عليه . فيزاملونه فى الدار . فلا يجد سبيلا للفرار ، فيأخذونه أخذاً ، حيث شاء لهم الهوى .

يدفع ، وهم عليه يتزاحمون . وفيه يختلفون ، وهذا الفتى المتغطرس مع كرام الناس يدع قياده . ويسحب كالغبى الكبير . ولا يعترض ، أو يمتنع ، ويجهل القصد ، ويجر كالنعجة ، فيتدع (١) ، أو كالكلب الأمين ، فيتبع ، فيضر نفسه ويفرغ كيسه بما لا طائل فيه . والواقع ، هل تسلى وانشرح ؟ لا . ضحك بلا فرح . يرى فى أصحابه السخافة والغطرسة . لأنه يعلم من سيدفع ، ما أُفنِيَ وما صنع ، ولا يجرؤ أن يلاحظ أو يشير . يغلبه الحياء حتى يُهنِفُ (٢) . ويظهر أن الممازحة معللة ، والنكات بديعة ، فان أوذى بقول منهم يكاد يتميز من الغيظ ، ولكنه لا ينبث ، ومع هذا يسوقونه حيث يشاءون ، حتى لا يسخروا منه . ويكون هزؤاً

---

(١) يسكن ويستقر.

(٢) يضحك فى تبسم ، فعل النساء فى ضحكهن .

كتاريبه (١)، وينسى المثل . قل لى : من قرينك ؟أقل ما غثك وثمينك .

إن هؤلاء المشائيم ينتهون بوضع يدهم على صاحبهم ، وتصير جماعتهم ضرورة ؛ ولأن أكياسهم خالية ، بقدر امتلاء قلوبهم من الفساد يدفعون نصيبهم على قدر حالهم مجونا وصفاقة . ملهون . أجراء ضحكة بحشو البطون . بهذا يقابلون جميل صاحبهم ، من كان يبحث عنهم رغبة فى رؤيتهم ، وتمادى حتى اعتاد ، فسار منهم إليه الفساد .

إن هؤلاء الناس فى مجالسهم لا يتحادثون ، إنما يلغون ويلغبون (٢) ولا يضحكون ، ولكنهم يشهقون ، ولا يتنزهون ، ولكنهم فى هيط وميط يضطربون .

لقد رأيتم مثل هؤلاء ، فى نواحى البلد ، متعاشقين بالسواعد ، « طرابيشهم » على الجانب ، وهم يترنحون ، ويتهالكون ، الخاتم البهرج فى أصابعهم ، والعصا يدورونها فى يدهم بنزق وسرعة ، تارة يمشون كالجرار المربوط بعضها بجانب بعض يصخبون ، وتارة ساكتين واجمين ، وطوراً يصرخون صرخات البله المغرورين وينعقون ، وآونة كالضفادع ينقنقون ، وتراهم كأنهم سكارى ينشدون ، وبأغنية سمجة يترنمون ، ويخلطون جمال الفن على الجنون ، ولكل هذا يصطنعون ، وبالتنزه يتظاهرون . وفى قلوبهم الهواء والخلو . والسآمة والملل ، والضجر والعلل .

فبأى مجهود يستعين هذا الفتى ليفر من هذا الأسر ؟ وبأى عزم يكسر هذه الأغلال ، ويخلص من هذه الحال ، وبأى وحزم يهرب به من هذه الآفة ، وهم شدوا أكتافه ؟ إنما الرجل يستطيع أن يتحرر من

---

(١) الأصدقاء.

(٢) يحدثون حديثا كاذبا فاسدا .

هذا الاسترقاق . ولكن هو . العبد المطيع ، لاحترام مرذول ، منفر ـ لا يقوى ولا يقدر ، وكيف يمكنه من اليوم للغد يغير ما به . ويستهدف لازدراء وتهكم أصحابه إذا أعلن نيته المخزية ؟ إن غباءه لا يسمح له بهذه الجسارة والأقدام ، فيلبث سجين الأخوان الملاعين الشياطين ، كالمحكوم عليهم الذين يسخرون بالأعمال ، ومن حولهم الشرط ، فكأنهم أحرار ، وهم مراقبون فى حركاتهم وغدواتهم وروحاتهم ، بل لأنفاسهم عليهم يعدون . وكلماتهم وخطواتهم يتعقبون .

ومن ذا الذى يطعم من جوع عصابة هؤلاء الأشرار ، ويكسو من عرى هؤلا الفجار الذين لا هم لهم إلا إفساد هذا الفتى الغر الدوار ؟ هو الأب المسكين .

***

لكن . يقول بعضهم : فالأولى لكم أن تتداركوا حاجة الولد حتى العظيمة من أن يستدين . على هذا يرد أن ملاذ الفتى قد تزيد ، وسخاء الوالد محسوب ومحدود ؛ وإذا كان الابن من الذين يهون عليهم الدين . فقد يرهن شرف وأملاك الأسرة . فلا يعوقه أمر عن أن يضيف إلى ثروة أبيه المباحة له ثروة بالربا الفاحش .

ولماذا هذا الفتى ـ وهو فى سن العشرين ـ يريد أن يملك ملكا خاصا ؟ لأنه فى المراهقة اتخذ عادة الأسراف المضرة فيما لا نفع فيه . نعم .كان المدخر طفيفا . ولكنه يزيد على الضرورة كثيرا ، والآن وقد عظمت الحاجة ، فيتضاعف مرتبه ليمتع الولد بنسبة معادلة للذاذاته ولاستقلاله المالي.

والعشرون ديناراً فى يد الفتى الداثر تعادل ديناراً واحداً فى يد غلام يافع !

وكيف أن الآباء لم يحسبوا حسابا للتدرج المنطقى المتصاعد لهذه الأحمال الثقيلة المخربة ؟ !.

إن طرق الانتفاع غير الشرعية المذرية الغارسة للكذب والحيل لأكل أموال الناس بالباطل ـ كثيرة غير ما تقدم الكلام عليه ، وموصلة للغرض.

فالوراقون وأصحاب المكتبات شركاء أشراف فى كثير من اختلاساته الصغيرة . فكم من دراهم أعطيت لشراء كراريس وأقلام ، استعملت وصرفت فى الحلواء ، ووريقات غير قيمة . مجلات مكشوفة . كتب خطرة . صور فاحشة . زيارات غير شريفة . وكلها محسوبة على الأدوات المدرسية . وإذا أصبح فى زماننا كل شىء له ثمن غال ، فأن هنالك سلعة رخيصة ، يمكن الحصول عليها بأبخس الأثمان : هى السم الأدبى . فكم يشترى الغلام أفكاراً رديئة سقيمة سمجة بدرهم واحد.

إن الفساد فى متناول جميع الأكياس ، والرذيلة فى مقدور كل الناس .

وبعد حين ينقلب الوراق أو المكتبة فى الرواية نصّاحا (١) وحذّاء ، أو اشتراكا فى نادٍ . لقد زادت الأتاوة ، والطريقة لاتتغير.

***

تلميذ فى الخامسة عشرة من عمره أنذر والده بأنه فى حاجة سريعة

---

(١) خياطاً .

إلى رسوم الامتحان ، فأجابه : إن هذه شنشنة (١) عرفتها منك ، فلقد تكرر منك مثل هذا الطلب ، وكل ما يمكنى أن أرسله إليك أجرة عودتك إلى البلد ، وإنك لن تعود إلى مصر أبداً . الولد يتشبث ، وأبوه يتصلب ، وانتهى الأمر فقال الولد فى كتاب مفجع : إنك إن لم تسعفنى فياخيبة المسعى . سألقى بنفسى فى النيل غمًا ويأساً .

فأجابه أبوه . صديقى . افعل ماشئت ، ولا أجرؤ أن أرجوك فأن لم . . !

* * *

إن ابن الفقير ـ من التلاميذ ـ الذى تعود الادخار من صغره ـ يجد فى يده مالا ملكا له ، يعده للانتفاع به كما يريد إذ أن له حقا شرعياً على كسبه . وأما فى عالم ذوى اليسار — حتى بدون إهمال ، وسعة إنفاق الأسرة — فالولد لايلقى ما يدفع به ثمن جهالته . وإذاً فى أحايين كثيرة يفتح الأب كيسه تباهياً وزهوا ، فيغرى الولد على الفساد . ولكن أقل ما يكون أنه لم يظهر فى أعين أقران ابنه مقتراً أو معدما . انظر كيف أن حب الذات غلب الحب الأبوى ؟ !

---

(١) طبيعة أو عادة .



اللهجة

إذا كان اللسان دليلا على الفؤاد ، وترجمان الوجدان ، ومرآة النفس ، ونصف الانسان — فلهجة فتانا تدل على أنه فقد قلبه الذى يفقه ، وخسر وجدانه الذى يشعر . وهلكت نفسه التى خبثت ، فأصبح شيطاناً فى صورة إنسان .

وماذا تسمع من طرف هذا اللسان ؟ ألفاظ الفهّة (١) . عبارات الأزقة . وصف الحانة حديث المجون . الهزل . فأنت تعرفه بعد ذلك . وتعرفه فى أى درجة من الأدب والأرب . وفى أى مرتبة فى العلم يقتعدها من الرتب ؟

وإذا أراد أن يعدل لسانه قطع سنين طوالا . يقطع بها لسانه القديم ، ثم يستعمل لساناً جديداً ، إن ودّع مافى رأسه . وغير مافى نفسه . وعاشر العقول والأقلام ، والأدباء الأعلام .

وكفى ما حدثناكم عن هذا الفتى . ولكنى أردت أن تتذوقوا طعم حديثه قبل توديعه ، وإغلاق الباب عليه .

---

(١) ضعف الرأى .



سيء التربية فى الرجولة

عاجز . مسرف . سفيه . كسل . طامع . داعر . أُغلف قلب ذلك الولد غير الصالح الذى صار رجلا ، يظل وكأن أهله غرباء عنه ، تكاد تفصم الصلة بينهم ، فلا يعلمون ما يعمل .

ذلك الابن ظاهره السعى ، وإعداد نفسه لحرفة ، والدرس فى سكوت وسكون . والغموض المحيط به يوهم أن الآباء فى أمن من البغتات ، وهم آخر من يرتاب فيه فى مثل هذا المقام . تلك وسيلة ، ليمنح نفسه عطلة طويلة ، وبطالة سنين .

فالاستيثاق الظاهرى ، وبعبارة أخرى الكلمات المرقشة المدبرة . والتلميح المبحوث المرتب التى تفوت على آبائه نية اجتهاده، تكفى فى إقناعهم بأبقاء راتب مصروفه ، أو زيادته ، حتى يستطيع تحقيق خطته ومزاعمه المدهشة .

أيخشى أو يتوقع سؤالا من أبيه ؟ لا . على أنه يسبق سبق الحاذر فيطلب إلى أبيه بياناً . أو استدلالا بدهياً فيخدعه ، وبلا عناء يكسب وقتاً .

ويزيد تصديقه فتقول الأم لأبيه : هل رأيت وسمعت ؟ إنى قد أكدت لك عزمه ، وقد كنت لا يتطرقنى شك فى رأيه . وماذا كنت تنتظر ؟ هذا ولد له كرامة لايتعجل بالقول قبل وثوقه بالفلاح . إنى أفهمّ ذلك ، ولو كنت فى مقامه لفعلت فعله . وتلفظ كلمة رأى وكرامة بصوت الأعجاب والاستعطاف . ما أكثر ماتضمن تشكيل صوتها . ثقة ، صلفاً ! أملا ! طمعاً .

رأيه لقد عرفته ، وقد ثبت عليه ، من وقت أن ذاق طعم الأطلاق إنه اعتزم أنه سوف لا يعمل شيئاً . وهـذه هى بغْتَـته التى يحفظها ، وهو فى هذا ثابت راسخ مؤمن .

* * *

وأما الأب فمنتظر ، وقاطع بأن ابنـه سيجد بابا ، ويتخذ سبيلا ، ويؤمل أن ما أسرفه عليه لايضيع سدى ، أو يذهب هباء.

والولد لا يذهب ، ولا يقـابل كبيرا ، ولا يذكر عظيما ، دون أن آباءه العمىَ الصمَّ تحدثهم أنفسهم بأنه يدبِّر ، يمكِّن العلائق ، يدعم الحصون ؛ إنه واصل ، بالغ أمره . فهو حسن الوجه والهيئة ، يعجب تحركه وسيريش ويختار .

والمصيبة أنه لا يريد أبداً . وكيف أن من كان من أول حيـاته يمتع بكل الذى يرغب ويرضى وبالعيش الهنى ، وبالحرية المسموحـة ، وحتى غيرها ـ يستبدل بما هو أدنى ما هو عظيم . راتب بلا عمل ، بشغل شاق؟ مقيد سالب للحرية ؟ أيستعيض فى سن العشرين باستقلال ذوى الأيراد استعباد العمل المعتاد بكرة وأصيلا ؟ هذا ليس بمرغب . هو يريد راحـة وثمرا ، وهناء بلا عناء ، ورتبا بلا نصب ، ومثـل هذا عزيز !

ومع ذلك فأى عمل يستطيع أن يشـغله ؟ ولو كان مراهقا لقبل أن يدخل فى إدارة تحت الاختبار كمساعد بلا أجر ، وما هذا بكابح . ولـكن ، وقد بلغ سنه ، فهو يبغى ما يناسبها ، ويشفى بغلته غليلها .

والآباء من خوف أن تنقص قيمة الولد ، لا يعارضون شعوره ،

بل يقولون له : إما أجر ، وإلا هجر ، ويكون هـذا أول اتفاق حصل فى الأسرة !

***

إنه سيريش ويختار . هذا هو فخر الأخبل (١) . وتأكيد الـكاذب . فيصيب الآباء السكارى ما يصيب من العجب إذا أنجح ولدهم بشق الأنفس ، فى امتحان يمكنه من البحث عن عمل . أنحن فى حاجة أن نقول لك : إنه كان فى الامتحان أنفس خرزة ؟ ، وما أكثر ما قال لأهله وكم قالوا وكم عادوا فى حضرته وغيبته : إن المختبرين ينسون دائما عدد الطلبة البارعين ولا يذكرون الفائقين المبرزين . . .

نعم سيختار ، والابن يجد من البله أن يتضايق ، أو يتململ من لا شيء !

إنهم بحديثهم يضلون ويُضَلِّلون . والحق أنه مفتقر إلى صبر جميل وكد طويل ، حتى يؤمل فيما يطمع فيه . والحق أن الفلاح بلا مجهود مستمر ـ غير محقق الوقوع

إن المرشح الـكفء المقتدر له خصمان ألدان : المباراة الشرعية ، ومحاباة الأهل والخلان . وهكذا . كأن قد أمره آباؤه أن يعيش متعطلا ، ويأسن فى البطالة حتى تمطر عليـه السماء نضاراً ، ويأتى له البخت جاثيا خاشعاً باسما . ألا إنهم لمفتونون ، وفى كبريائهم يهيمون ، وعن خـير ولدهم لاهون . إن البطالة مفسدة ، واليد الفـارغة (٢) نجسة ، ولا أزيد . . .

* * *

إنه عمل غير صالح بدأ من نشأته إلى رجولته فى الطرق والملاعب

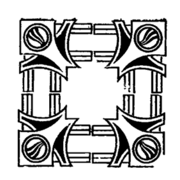
(١) المجنون

(٢) الخالية من العمل

فالمسارح والحانات، وربما غيرها . ثم تعب من تلك الملاهى، ويريد جديدا . ومتمناه أن يدخل فى دنيا جديدة . وقد رأى أقرانا قد دخلوها وهو واقف فى الطريق فماذا يعمل ؟ ...

يسعى لها برغم أنفه ، ويتزلف إلى كبير ، ويتقرب إلى عظيم بكل الوسائل ، لقضاء وطره . ليصحبه خطوتين ، ويكلمه كلمتين . ثم يغشى الدور ، ويجلس دقيقتين . إن حظى . وإلا فانتظار ساعتين على لظى . يسلم بأهلا ويودع بشكراً . فيخرج يذيع ، وبالكذب يشيع ويدعى أنه سميره ، وخليله ونديمه ، وقد وصفه بأنه بارع ، ولكن حظه ضائع ، وأنه قد وعده ، وإنا معه لمنتظرون ، فيغش نفسه والسامعين ، ويضع حياته بين التضليل والتخمين .

وأرجو من القارىء أن يعفينى من إتمام العبارة . واللبيب تكفيه الأشارة . . .



منظر مؤلم فى الدار

منظر مؤلم مروّع ، وبلا طائل . ذو ألوان كثيرة ، ولا مفر منه . يابنى . أتريد أن تميتنى أسى وحزناً ؟ وبهذه الحجة البالغة المحتفظ بها ، والتى يعتمد عليها لا تحس الأم أنها أصبحت عزلاء ، وكم أيام تترقب فيها الفرصة لتأخذ ابنها بالشعور والرفق : أما السلطان فدع ذكره . ومع ذلك ، فمتى عرف الولد الطاعة ؟ بقيت إذاً العواطف ، وجعلت تجرّبها مهما كلفتها . يجب أن يحس بوجودها ابنها .

لقد أتت الساعة التى تترقب ، وسنحت الفرصة ، فأخذته أمه بحزم هذه المرة . وكان حتما . فما فتئت تستعطف ابنها ، وتناجى قلبه ، ولا حياة فيه ، وتلين له الكلام بما يفتت الصخر ، تذكر له أيام صباه ، والحادثات التى تأثر بها ، وتزيد بتدلل : لقد كنت ظريفاً فى تلك الأيام ، وهمت أن تحضنه ، لتجلسه بجانبها ، كما كانت تعمل فى صغره ، فأحسّ بما تريد أن تفعل ، فتمنّع . ونأى . والتوى التواء الجازع ، ليتخلص من عناق أمه الذى يخزيه ، ويضايقه . فتغيرت لهجة الحديث . وهو يتوقعها وعلى يقين منها . فذكرى طيش الولد وتهويشه يجرى على لسان أمه ولا ريب : الأقوال الجارحة ، المرة الباردة الخارمة(١) كالحراب . وعندئذ هذا الخلى قاسى الفؤاد يصير كمن يتخبطه الجن ، خليط ندم على ضيق ، وهياج على اضطراب خفى المعنى . وهذا الانزعاج والهرج

---

(١) الثاقبة .

بعيدان عن أن يحسنا الحال . فلا عاقبة له إلا أن يظل البيت مملولا ، لا يحتمل ، والنظر إلى أهله عتاباً مبكياً . يسمعه حتى من سكوتهم ! .

وماذا ترغب تلك الأم ؟ ألوماً . أقصاصاً ؟ لا . إنها لا تريد إلا عهداً صريحاً ، فأضعف أمل فى تغيير عيشها يجعلها سعيدة ، فتعيد خطابه وتلح عليه . مجهود ضائع . لا جواب . وكذلك القلب مثل الفم أخرس . هزيمة تامة . لا قائمة بعدها . وقد رمت آخر سهم .

تحس الأم كأن النار تشويها ، تلك الأم التى حملته ، ووضعته ، وربته ، وبمراده أرضته . وكم هدّدته وما عاقبته . ولا بأمر فى صغره أغضبته ، والتى ملأت من الدراهم راحته ، ولو أنها كانت سبباً فى فساده . والتى كم أنّبت أباه على عبوسه فى وجهه ، والتى جهدت بما فى وسعها من أجله ، هذه الأم معذورة أن تثور كلما رأت هذا التولى والتجنى ، والجحود ، والكنود ، فالألم ، وخيبة الأمل ، والقنوط يؤءسها. فتنقلب محبتها كراهة ، ولدها الشغف والكيد ، وتسمع منها صيغة توجعها التى تختم بها إخفاقها : « يابنى أتريد أن تميتنى أسى وحزنا » ؟

ففى التمثيل عبارة تماثلها تهز القلوب ، كلما أراد الممثلون أن يتملكوا الشعور ، فيحركونها كما شاءوا ، فيبكون . ويستبكون ، ويذرفون الدمع ويستذرفون ، ولكن فى الحياة الحقيقية ، الأمور تجرى على غير هذا . فكثرة العتب تورث البغضاء ، وقول الحق يوجب النفور والجفاء ، فلا حول ولا . . . . وتحل الكراهة محل الجمود . والعطف البنوى يموت . تلك ثمار التربية اللينة ، الآخرة المرة .



دع الشباب يمر

إن الأب العالم بانعدام سلطانه كالأم . والأقل رقة ورفقا منها يرى تدخله بلا جدوى ، فلا يشغل باله أو يخشى . إلا أن ولده يخفى عليه ديونا يجب عليه قضاؤها كرامة وشرفاً ، وأنه قد بقى له بصيصٌ من الأمل فى أن تأتى النجاة من الزهد فى الملاهى !

إن الولد عاش كثيراً فيها ، ألا يدركه الملل ، ويمسه النصب ، فيمج ؟ وقد قيل : لاتجد لبيبا إلا بعد داعر(١) . فليكن . ألم يرشد ؟ أنت ترى شيما مُحزنة : شبابا ذابلا يزدرى الدار التى آوته ، والدم الذى كونه ، عاجزاً مسرفاً شائناً تام النقص . ياقوم اعملوا : إن الداعر بين يديكم والتجربة سهلة ، أخرجوا منه اللبيب : إنا منتظرون ! ! ! سننتظر طويلا ، وإنى أذكر لكم أن صاحب تلك القاعدة لم يتوصل إلا إلى تحقيق نصفها فأصبحت مبتورة ، وهذا هو المشوه لسلطان النصيحة .

وهل طريقة هذا اللبيب الداعر تنجب لنا حقاً ألبّاء(٢) ؟ إنى أتردد كثيراً ، وأما دُعّاراً فصحيح . ولما عاد الأب إلى صوابه ، ورفعت عن عينيه الغشاوة بكى واشتكى ، وسخط واستحيا ، لأنه لم ينجب ، ويعيش أبا ، لشقائه وعار المُسنَدِ ،(٣) وإنى أعجب من عجبه . لاريب أنه لم يطلع ابنه على تلك القاعدة ، ولكنه كان يتبع المذهب على الأقل فى

---

(١) فاسد .

(٢) جمع : المفرد : لبيب .

(٣) الدعى . أو الدهر .

تهذيبه . إنَّ خطأ هذا المذهب هو كشف بلا مبالاة ولا مداراة ، لما يعبر عنه الناس تلميحاً أو كناية ، وعلى كلٍّ ، فلا تهم صيغ العبارة إذا أدت إلى نفس الأخطار .

لنأخذ الأمر بأنصاف ، وبلا تضحية الأدب جُبْناً . لحياء بشرى حقير . ألم يوافق ذلك الأب على قاعدة الببيب الداعر . أو . دع الشباب يمر ؟ لقد اعتنق أصل هذا المذهب السمج ، فمن جهر به أو همس ، عليه حمله . وأنه موقن بذرّية ذَرِيّة سيئة الأدب . وأنه يحصد مازرع . ويجنى ماأثمر ، والحق إن لم يكن ولده حسن السلوك ، فهل هو ذو سير غير منتقدة ؟ إن البلاء فى سواء الأرشاد ، فاذا حق على الناس أن يهيئوا الآباء على إحسان التربية ، فلا حرج إذا هديناهم إلى الصراط المستقيم ، وقررنا أن القاعدة الفاسدة تؤدى إلى نتائج فاسدة .

أتعرف فى أى حجة يتوارى آباء كثيرون . ويظنون أنهم يحسنون . اتفاق الأرادات عند خور الأبوين ، والتنازل من الجانبين — أمر غريب ، وهل الاشتراك لم يكن اتفاقا ؟ والخطيئة الموزعة ألا تزال خطيئة ؟ وإذا كان مجرد الرضى يكفى فى إباحة الشر . أفلا يكون من الحق أن يسمح بخدش شرف الأبوين ، وبانتهاك حرمة الأسرات والبيوتات . ؟

نعم . إن من قواعد النحو أن نفى النفى إثبات . هذا صحٌّ ، ولكن فى الأدب زلتان لاتعادلان عملا مباحاً . أهذا يقال . . . ؟

فاذا اتبعت أمثال هذه القاعدة ، فقد يكون الأب حكيما أيضا . إذا أعطى ابنه . وغمره نقداً حتى لايطول الدور ، وتمسه البأساء عاجلة ، ويعجل بهذا الشباب القصير ، حتى إذا كان طويلا ، ليفرح إذاً . فقد

انقضى شباب ابنه البائس . انظر إليه تجده مضنى سقيما مضمحلا ذائباً مجعداً . شاخ فى الثلاثين ، وأحيل إلى المعاش قبل شغل الوظيفة . هكذا حال كل مُتهَمِّك متهالك دوّار . فكم أضاع أباء أبناء ، وكم أضاع أبناء آباء . فألهى هؤلاء التكاثر ، وهؤلاء التهامل . ثم يريد الآباء أبناء أماجد . وبلا خلق مجيد ! .

* * *

ما هذا ؟ أآباء مثلنا ينسون البر والواجب ؟ ليشجعوا أبناءهم على الشر . هذا بهتان ! أو ليس ممكنا ومسموحا أن لا ينسى نصيب الولد فى رياضة النفس وروَح البدن ، بلا إفراط مهلك وفساد . من يقول لا ؟ ولكن هذا لعب بالألفاظ ، لأخفاء الحقيقة ، والهروب من المناقشة ، إذا لم يُشر فى الحديث . لا إلى الصيد . ولا الرماحة . ولا الفروسة ولا السباحة . فان قلنا : الولد اللاهى وجب أن نقرأ الذى أرخى العنان وخلع العذار .

دعونا من هؤلاء القوم الذين يحاولون ستر الحقيقة . ويدعون الغباء أو يُبكمهم الحياء ، ويُطرقهم الخجل ، بما كسبت أيديهم ، فوقعوا فى شر أعمالهم.

وتعالوا نتناقش معا بلا استحياء الكلمة المستحبة ، الشائعة الساذجة . اللهو . الولد يلهو : فاللهو فى معناه الخاص المحدود فى حديثنا هو الفعل والاشتراك فى هذه الكبائر : الغواية ، الزنا ، الفحش .

فليصرخوا . لا بأس . ولكن هى الحقيقة عينها.

إنى لا أخاطب إلا أولى الألباب ، المخلصين الذين للحق يخضعون مهما كان مُرًّا ، ولا يكتمون . لا مراء فى أن تربية الأولاد ، وتركهم

يشبون على هـذه القاعدة الخطرة العامة وهى « دع الشـباب يمر » استحسان على الأقل لأحدى تلك الكبائر .

كفى بواحدة منها مفتاحا للفضائح ، والعار ، والانتقام . والانتحار ووأد الأولاد بيد أمهات يائسات انتهكت حرماتهن . . .

وإذا لاحظت سـلوك هذا الفتى تجـد أنه لا يدرك مدى تأويل هذا المثل السائر . وهناك أناس يقنعون بالشرف فى حدود القانون ويحزنون إذا رزقهم الله أولادا أتقياء طاهرين . ولـكن فليعلموا بأنهم سيبدلون شياطين . يصيرون المسكن الأبوى نار الجحيم .

إن الصّلاح ليس الاستقامة فحسب . فكم من مجرم كبير لم يحمل على الدُّهم (١) ولم تُصَفَّدْ رجلاه ، ولم يخفر بالشرط ، والرجل الشريف التقى مختلف اختلافا كليا عن الشريف القانونى . فكم من فضيحة وعار وجرائم لم ترفع للقضـاء ، ويكشف عنها الستار . وقصارى القول : أن إغواء السذاجة والطهارة ، واستلال الحصانة (٢) والاستقواء بالغنى على الفـاقة ، وبالنعم على المحروم ، كل هذا يحصيها المثـل السائر إذا مزّقنا غلافه الشفاف !.

عفوا . لهجة فظة . والأمر أشـد فظاظة . فلا تؤاخـذونى ولا تحملوا علىّ !

إن السماح بالعرر الفاضحة ، أخطر ألف مرة من جنحة معترف بارتكابها ، لأنه مَحْوٌ لضمير الفتى وإعدام للذمة .

---

(١) جمع : المفرد : أدهم : القيد من الحديد .

(٢) إشارة إلى المحصنات من النساء

فأن سمحتم للولد أن يكون فى حل من ارتكاب هـذه المعاصى ، وتركـتموه يدور فى حل شعره ، ليعرف الحياة كما يقولون ، فيهذب ـ فلا تشكوا ، ولا تبكوا حظكم إذا لحقـكم من هـذا الفتى ضحيّة ذلك المثل السائر ـ أذى .

ماذا ؟ أفى سن العشرين يجاهد جذب الملاهى التى تعمل فيـه ؟ ليس لغرضٍ إلا ليـكون من عداد البُـلهِ ! وإذا غار فى الحمأة حتى بلغ الرذيلة صار عذاب أبيه الأكـبر ، وكان يجب أن يعتز به ، ويفخر ومن يعلم ؟ فالحكمة غدا . . . .

وإنه برفع الحجاب عن دمامة هـذا المثل السائر : الشـائع بين الطبقات ، نقضى على هؤلاء الذين صدقوه ، وأنصتوا له ، وغفلوا عن الفطرة . وما فى النفس .

أعرف جيـداً إغواء الشهوة . إنه لشديد ، وإنها للأنسان عدو مبين والأنسان خلق ضعيفاً يُـقوى عليه . والعقل الكـبير قد يقع فى خطرها ، وهذا أدعى لقمع الأولاد ، وحفظ قلوبهم الصغيرة من التدهور فى الخطيئة !

أية مجاهدة تريد أن يغالب بها الولد حتى يقاوم تلك الهجمات ، التى تركـناه يراها قاهرة محتمة ؟ . « دع الشباب يمر » ولمَ الجهاد إذا كانت الهزيمة واقعة ؟ وكأن الآباء يترقبون عيشاً مريراً ، وحياة منغصة ، بفعل ابنهم الذى لا يتردد أبداً فى تسببها ، وكأنه منهج مقرر ، لأنه يسـمع من صغره أن سيأتى يوم قريب يخور فيه ، ويسأم . وفى أى وقت تنبت فيـه هـذه العقـيدة ؟ فى اليوم الذى يلحـظ أن آباءه لا يكلئونه ولا يراقبونه .

يذكرون أن الأدب أقسى من الاجتماع ، يتطلب فضيلة مستحيلة ، وأن الأولاد يتشابهون ، فكأنهم يقرون بجهلهم الأسرات والبيوتات التى تقنع بسرور شرف الذكرى ، عن لذة مغرية ومغرية يتعلمون فيها البحث عن السعادة فى عظمة الحياة . الأدب لا يمنع الضحك الرنان . واللعب ، والانشراح ، والفرح ، دون تبكيت ضمير . . .

نعم كل من تربوا على قاعدة هذا المثل السائر مساقون إلى هُوّات متوقعة ، بل محققة فيجب أن يتشابهوا . هذا لاجدال فيه !.

كلما زاد الشراب تنقص الألباب ، والشباب خمر ، وكلما أسكرنا الحواس أشعلنا الأغراض والأهواء . التى لم تكن خطراً فى ذاتها ، بل أصارها اللهو خطراً . ولذا كانت المسئولية الحقيقية فى أداة واعمال التحضير المجهزة يقيناً لجنون هذين السكرين : سكر الشراب ، وسكر الشباب !!

ما ذا تريد من شاب يشمل ، من صحف مسطرة ، فى كتب غير مطهرة ؟ يمضى نهاره وأصحابه الخَسَرة . وليله فى مواخير الفَجَرَة . يؤاكل ذوى الحياء الغائض ، والمحيّا الناضب ، الدارجين من الدرك الأسفل ، يقص عليهم حلو الأحاديث هذا الساذج ، وهم يدسون له العلقم ، ويديرون عليه كأساً غائلة ، تشرب عقله ، وأنت تعجب من ضياع صوابه تحت غائلة الكأس والدس . وهما هيّنان لا يُغلبان ، وسكران يقتلان ، وكأن البيئة الفاسدة لاتسمم كالهواء الموبوء . وكيف نعجب من حرق النار . ووسخ الأوحال ؟ .

وإذاً فالتربية بلا تهذيب تنقلب إلى ترويض وتدريب .

خاتمة الولد سيئ التربية

لقد بلغ الفتى سن الرجولة سائراً إلى رشد الكهولة . والآباء الذين لم يعرفوا أن يجعلوه لا ابنا خالصاً لهم ، ولا مستخدما وسطاً - يتنقلون من خيال إلى خيال . ويذهبون لاستكشافه ، هل يصلح زوجا ورب أسرة بصيرا ؟ وهم لا يجدون سبيلاً ، لانتشاله من ثلته إلا بتأسيس بيت يكون متناسبا مع مركز أبيه الذى انقلبت داره خانا من زمن مديد .

فأذا اختمرت الفكرة فى الأم تغيرت الحال عجباً ! فتنسى أنها حين وضعته زادت فى الدنيا كنودا . مهرقا دموعها ، فتقنع نفسها أنه مثال الكمال وقدوة الرجال ، وعلى كلٍّ فالآخرون شر منه ! فتحدث نفسها بذلك كثيراً ، حتى تنتهى وتعتقده اعتقاداً ! فتطرى ذوقه ، لأنه أصبح يأتى فى ميعاد الطعام ، وينام باكراً فى ليالى كثيرة . فلا ترى صاحبة إلا وتذكر محاسن الفتى ، ونبل صفاته ، ودقيق ذوقه . وقد تقول : ما أسعد التى يختارها زوجاً ! والغرض أنه لابدَّ أن سيكون كذلك ، فهو ابن بار ، ولا تمتنع الأم من التسبيح باسمه ، وحمد أفعاله ، وتذكر أن له قلبا فضة ، فيأخذ الولد العجب . لقد أصبح ممدوحا ، وبيت قصيد ! .

والزائرات العاطفات على أمه . الجاهلات ابنها ، لأنه كان آبقاً مارقاً يذعن صيته ، معتمدات على صدق صاحبتهن ، التى تكذب على نفسها . وكل واحدة منهن تتمنى ابنا مثله كاملا ، وتتزين به حلية .

نحن فى رواية محزنة مخزية ، إذ الممثلون فيها لا يدرون مايفعلون ، فيتوج بطلنا بأكليل ، لأنه سيحوز الفضائل كلها ، والرذائل كلها !! وأهله المهرة إذا

دعت الحـال لوصفـه ، يسترونه بأنه لغز : إنه لم يهجر بيت أبيه . لا !
كان ينفرد ليفرغ للعمل ! لم يك كسـلا ، ولـكنه يتوخى القصد ! وإن
عناده لرجولة وتعقل ! والملل هدوء . وحدة الطبع ذكاء ! والثقل رزانة !...
وإلى غير ذلك .

والحقيقة هى أنه يراد زواجه ، أو الخـلاص منه . والبيت الجديد
سيكون ملجأ مخابيل ، أو مستشفى معاليل ! .

الطريق تمهدت ، والمؤمل هين ، المراد آنسة طاهرة كملك . وديعة محبوبة
كالفضيلة . ذكية فريدة ، عليمة ، حتى تكون مسك الختام ! هو يريدها
كـذلك ، وأن تكون صالحة ! وهذا أعز ما يشترط فيها ، حتى يأمن !...

لاتنس آباءه أيام تعييبه وازدرائه لهم ، ولـكنهم لا يحتملون كلمة أو
إشارة أو نظرة متعجب من عروسه ، ثم امرأة ابنهم ، فهم وحوش ضوار
فى هذا ....

والجميلة الظريفـة التى سيعنى بها ولدهم ، يلزم أن تكـون له الألف
والياء . تصنع له كل شىء ولا تنظر إلا إياه ، ولا تعيش إلا له .

والزواج مختلف نتائجه ، فهو مبتدأ عند الزوجة ، ونهاية فى نظر
الزوج . العبارة لطيفة وخداعة !!!

ستترك البنت بيت أبيها ، وتُرمى بين يدى هذا الـكهل المتفضل
بهجر حياة هؤلاء الأفاقين ، ليقدم لروح مخطوبته الجديدة قلباً ذائباً ،
وشباباً ذابلا ! .

تعسة أنت أيتهـا البنت ، لو علمت الـكذب . الغش . التغرير !
وأنهم يسرقون هواك ، ويخدعون رضاك ، ويضيعون هناك ، وستعلمين
بعد حين . وقد سبق السيف العزل ، ولا جبر لمـا انكسر ! .

ألا يقال بأن الزوجين يتفانى أحدهما فى الآخر ، فيتوحدان ، والأرادتين تتفقان ، فتتحدان؟ ولكن أهكذا جرى ، وهكذا كان ؟!.

إن البنت عندنا لاتتزوج ، وإنما يزوجونها .

عجباً لأدب هذا العالم ! يتباهى ، ويامر الرجل أن يكون متعتّساً(١) رُوَقة(٢) غزلا !

ويسمح له أن يخالف أظهر قواعد الصدق والعدل ! !

إن هذا لأتمامُ التربية الرديئة الأولى ، وهذا ختامها !

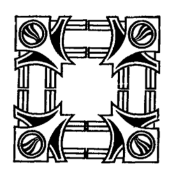
هم يدعون أنهم لا يستطيعون تربية أولادهم بأحسن من هذا ! نسلم جدلا ..

ولكن ألا نتساءل باسم الأمانة وحسن النية : أما كان يمكن أن نغش البنات بأحسن من هذا قليلا ؟!.

---

(١) مبالغ فى حسنه وتنظيف ثيابه .

(٢) حسن جميل .



الفتى زوجا وأباً

صار الولد سيء التربية رب بيت . فى هذا النبأ الجديد تظهر نتائج التربية الأولى أدهى وأمرّ . ! مزاعم غريبة ، وادعاءات عجيبة ، ورقاعة مدهشة !

هذا الغرّ الذى كان يتشدد فى خصال مخطوبته ، وتوافر الفضيلة كلها فيها ، لما تملك هذا الكنز بدأ يسعى بعمله ، باقتلاع سعادته حجراً حجراً ، وإتلاف المثل الطيب ، وتسميم روح زوجه الطاهرة ، ويكدر صفاء تلك النفس التى طالما كان ينشدها بالأمس : فكم كان يرمى بين يديها الكتب الدنسة المعكرة لنقائها ، وكم كان يقص عليها حياته القديمة وأوساخها ، وقد يغرق فيها ليجعلها مؤثرة رائعة ، وكثيراً يذكر لها صاحباته ، ويرثى لبعدهن . ويبكى أويقاتهن ؛ وبعد قليل يسحبها إلى المسارح والملاهى ! فترى وتسمع ما تشمئز منه . فمن كان يجب أن يكون حامياً ، يمسى لها مفسداً رامياً ، مشوها لجمال رشادها ! ولولا حياؤها ومتانة خلقها لذهبت . . .

وقد يغيظ الزوج عدم اكتراثها وتجنبها ، ورغبتها عما يسوقها إليه . فتلزم الاعتزال الذى يشبه الخلاص !

وإذا أتى ذرية . فهم بين أن يربيهم كما تربى ، أو يفكر فى تحسين تربيتهم .

ولكن حماقته تجره إلى إخطاء أو إفراط . الأمر المحتوم ! ومتى ذاق طعم التربية وعرف فن التهذيب ؟ فطوعا أو كرها سيجرب .

ويخبط خبط عشواء ، وهو يريد أن يكون المرشد الأمين الصادق . فيصبح ابنه قارورة التجاريب . ويمسى سوء التربية كأنه مرض من تلك الأمراض الوراثية . أو مثل التخلق الذاتي ، إذ أنها تترك آثارها ، ويمتد عرقها في ذراري متعاقبة ، قد يخف شرها ، ولكن أصلها ثابت . إن الولد سر أبيه !

تلك حياة الأسرة ، مدخر مشترك ، من خِسّةٍ أو شرف ، عزٍ أو غرر . يضع فيها كل نصيبه من خير أو شر !

إن من هؤلاء الأشقياء من يرغب عن البناء بشريكة ، أولئك تنطفىء حياتهم يوم يجب أن تضيء وتنير . ومنهم الفراشُ العنيد وهو صغير يهوى كل شيء ويريد ، يعجبه من أمه سكّرة ، أو وردة مزهرة . وفي الخامسة يصفف الجنود خشباً كانت أو حديدا . وفي العاشرة قد أحب ملء قلبه ، تمليقة أو وثبة من كلبه . وبعد حين . لا يحب شيئا . إلا قليلا . قد يرى رضيًا ، يدركه الكلال غماً كهلا ، فيكره الأنام حتى الأهل ! ولقد صار صخرة مرتاباً ، يرشق بسهام طعنه الجارحة الظالمة ، أحسن قسم من الجنس البشري . لو سمعت هذا العزب الكريم ، يحدث بازدراء عن مثالب النساء ، لوليّت . وربما لو بحثنا أسباب هجائه ، لوجدنا مايسميه عيبا ـ الأعراض الشريف للفضيلة الباسلة التي ما استطاع أن يخدعها ، وكان حقاً عليه أن يذيعها إعجابا . أو يكرّمها سكوتا !

كم من الأزواج الطاهرات بينكم ومن النفوس الشريفة فيكم أيها النقادون ، الذين ترسلون سبابكم وازدراءكم من عالى عتوكم . رحماكم ! انظروا عدلا منصفين تحكموا بصحة وصواب القول : إن الرجل أنبل من المرأة ! . .



طرق صغيرة فى التربية المنزلية

الموازنات

بعد أن ذكرت لك نتائج سوء التربية أذكر لك الآن الخطأ والهفوات، التى تؤدى بك إلى حمأتها .

ليس أدل على الخطل، وعدم المهارة من الاستدلال بالموازانات. خذ مثلا :

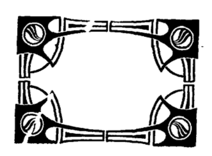
انظر كيف أن جميلا لطيف ، مطيع ، ومؤدب مع حاضنته، ماذا ؟ إنى سمعته أمس يناديها أمامى: ياوجه القرد . لا، ياولدى . لقد أخطأت السمع ! وتستمر أمه فى محاورته . ألا تصدقينى ؟ فاسألى أباه إن كنت كاذباً .

وغدا مشكل آخر . إن جارنا ليس غبيا حتى يبتاع لابنه سيفاً، هذا خطر كبير . عفواً ياأماه . والدليل أنه اشترى له بندقية أخيرا : لقد وضعت الأم نفسها موضع الضعف . وكذلك إذا لم يكن للآباء سلطان يستعينون بالتمثيل، كأنهم لا يجرءون على إبداء رأيهم . نعم. لايجسرون أن يملوا إرادتهم على أولادهم .



خلف الوعد

إذا كان الأنذار بلا جزاء يحد من سلطان الآباء . فالوعد بلا وفاء شر منه . لأنه مضيع الأكرام ، مقلل الاعتبار فى أعين الأولاد ؛ وإنى لا أستحى أن أضرب مثلا ! إن احتسيد ، شرابك أهديتك لعبة ، إن عدت مسرعاً فلك عندى عطاء . إن كتبت درسك نظيفاً أعطك قرشاً . والولد يبلغ الحلم ولم يلتق بهذه المكافآت الموعودة ، والصغير الساذج قد يؤخذ بهذه الوعود مرارا ، إذ أنه صديق من فطرته ، ولكن لكل شيء حد ، فيعلم أنه يسخر به ، ويستغل تصديقه . وسيأتى يوم وقد امتلأ صدره من هذه الوعود الكاذبة ، يسأل آباءه الوفاء . لقد مل وتشكك فى صدق قولهم . أو أنه يواجههم فى لحظة كيد : لقد مضى قرن . هذا مزاح . فما أزرى . وما أحكم . !!



المخادعات

لا تشاكل بين المخادعة وخلف الوعد ، الخداع غش النية السليمة ، مثلا : أعطني قلمك يا عزيزى لأخط لك رسما متقنا . فالولد يقدمه وابتسامة الشكر على شفتيه . الآن لا أرده لك ، بصوت غاضب ، فيحنق الولد ، ويأكل صدره الغيظ ، ويعتقد أن أمه لا تقدر الأخلاص والصدق ! إنك يا ولدى كنت لطيفا . سآخذك إلى الملعب فتذهب به لطبيب الأسنان . الحادث واقع ومشاهد .

قد يصل الأمر أن يسمى الشيء بنقيضه خوفا من صغير ضجر ، أو قليل سامة : خذ يا ولدى لقد جئنا لك بشراب حلو لذيذ ، ما أحلاه ! تقولها الأم باسمة . وهى جُرعة مرة زُعاق (١) سُتِرت فالولد يؤمن ويقترب ، ويأخذ الكوب الخداع ، فيذوقه فيتأكد أنه مشروب مقرف ، تريد أمه أن يستمرئه ، وهو كريه ، فيرده فى هياج ، وهو ساخط عليها لتسميتها بلذيذ هذا السائل القابض للقلب ، ويصير مستعداً للشر دائماً ، لأنه غُشَّ وتأذى . فهو لا ينسى !

---

(١) الماء المر الغليظ الذى لايطاق شربه



السخريات

يجد البعض من المهارة والأرب الاستهزاء بالولد بحجة تكوين طبعه، فأذا أذنب صغير وخجل من فعله، وذهب يبكى فى ركن غرفة. راح الأب وعاد به، وأمسك برأسه، وعرض وجهه للشاهدين، وقال: انظروا لطفه وحسنه. ما أجمله! أليس بظريف؟.

والولد فى موقف المذنب ساخط. فينقلب خبيثاً. فيسرها، ويحفظ ضغناً عميقاً لأبيه: حقاً، إذا أردت أن يكون لك ولد جهم (١) منتقم، فذلك هو السبيل. أما إذا شعر الولد ورأى أنك تأسف جد الأسف، وتحزن شديد الحزن، لأنك تجد نفسك مضطراً إلى تعنيفه أو عقابه إن استحقه، وتسهل له السبيل ليخفى هذا العقاب على الناس ـ فيحزن ويخشع ويخشى. ويجوز أن تتوجع لأشجانه، رحمة ورفقاً، دون أن تبين أى لين فى عقوبته المحتمة. هذا هو النهج القويم للتوفيق بين صفتين عظيمتين: قاض قاس، وأب محب.

---

(١) عبوس



أ ـ

الزلات . والإهانات

إن من الآباء من يكرر على ولده : إنك سخيف أبله . ما أحمقك. بليد. أرعن . أخرق ! ويفرض صحة التقدير ، وأنها الحق، فهى أدعى لجرحه وقهره؛ فهذه اللهجة لها أضرارها الكبيرة . فأذا أظهرت رعونته ، أو خرقه فقد تمهد السبيل للناس : أصحاب وخدم ، وتعلمهم أن يوجهوا إليه ذلك التأنيب ، ويظل لايسمع صباح مساء إلا هذه الوصمة ، فتصبح شائعة رائجة ، فتطفىء فيه الكرامة والاحترام الأنسانى . فيقول : علام أتعب وأشقى ؟ وقد عرف الناس . ويحس أنه أصبح سخرة فى أعينهم . فلم يبق ما يصونه ، وقد ذاع صيته .

وإذا تجمد إحساسه ، فلا يشعر بهدوئهم وسخرهم ،وكأنهم يضربون فى الحديد البارد . حتى أنه يتساخف ويتباله . أو يزيد فى بلهه الفطرى . فيصير لايطاق. وقد يتخذه سلاح تدللـه وثأره .

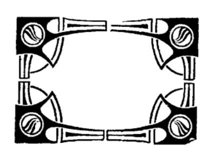
ومن ناحية أخرى إذا كان الولد فدماً ،(١) فالأولى أن لا نشهر به . ونجعله ضحكة من حوله ، ويستحسن أن تنفخ فيه بروح طيبة ، حتى يتخيل أنه عاقل ، وأنه عند بلوغه الرجولة يكون فى صف متوسطى الذكاء ، ولو أنه يبقى فى نظر كثيرين بليداً . فى مثل هذا الظرف ألا كان يجدر بدل الأعلان عنه أن يؤخذ الولد ويُسرَّ إليه بأنه ليس بليد ولا بهيم ؟!

---

(١) العي عن الكلام فى ثقل ورخاوة وقلة فهم

فلماذا تنزل إلى صف ضعاف العقول ؛ فأنما يوقظ كرامته . وإذا اعتقد عادت له الثقه بنفسه ، فاعتز وكبرت نفسه فى عينه !

ومع ذلك ، فالعقل ليس الذكاء ، ولو أنهم يخلطون فى هذا غالبا . لقد سئل مرة غلام عرف بالسخف وقد كان يقرأ تاريخ سليمان بن داود فى حكمته فقال : لو أن سليمان طلب إلى الله الحكمة لكل الناس لكان أحكم وأقل أنانية !!



الترويض والتدريب

الترويض : الأرهاق : التعبير الذى يجول فى الفكر وتجده بين مصراعى القلم ، إذا أردت أن تكتب فى الطرق العصرية فى موضوع التربية ، تجد فيها قاموس البيطار يتلى عليك ، ويحل قليلا قليلا موضع لغة الفيلسوف ، ولهجة علماء النفس . ولم يك مناص من اتباع هذا السيل ! ! فى هذا الزمن الراقى العليل

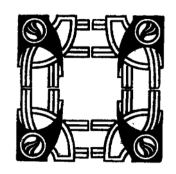
ألم يكن الزواج عند الماديين ، وقد بلغ السيل الزبى ، اجتماع ذكر وأنثى ، والولد غلته ؟ عفواً عن التعبير ! .

وعليه ، فالترويض بهذا المعنى يقوم على المظاهر ، وتفضيلها على تهذيب النفس . ويهتم بالشكل أكثر من الموضوع ، وتثقيف العقل أعظم من تطهير القلب ! وإذن يخضع الأنسان لأمر الزهو والافتخار أكثر من إطاعته لألهام الحب الأبوى . ويكون هم الناس أن يولد لهم ابن يباهى به ! فأصلاح الهيئة ، وحلاوة الحديث ، ورشاقة التحرك ، هى القسم المتمم للتربية ، ولا جدال . فيجب أن نعيرها كبير التفات ، إذ أن لها قيمة فضائل الاجتماع ، مقدرة أكبر تقدير ، ولأن الناس يعنون بها أكثر من الفضل الحق ، لأنه يكسو مهابة ووقاراً ، وإن قل فى ذاته ظرافة وأنساً . والناس لا يسهل عليهم تصور ثمرة لينة ، دقيقة ، تحت قشرة ثخينة جامدة ! ! ومع ذلك فرشاقة التحرك ـ مهما علا قدرها ـ ليس لها إلا قيمة ثانوية ، لأنها ظواهر لطيفة لا أكثر ....

والحب الأبوى لا يقوم على تطريز الأكمام ، بل على تربية الروح العزيزة عليهم بأقوى وأثبت الفضائل ، ولكنها تتطلب عناء !

وإليك ولداً حسن الترويض، ينحنى للزائرين تحية وإكراماً. يهش ويرحب بما يقتضى المقام، يضع تحت أقدام الزائرات سناداً. ويقدم لهن متكأ، يودع الأحباب إلى الباب. يذكر الغُيَّاب بأطيب الكلام.

ينفخون فى الأبواق باسم ذلك الظريف! فيقولون: كأنه سيد كبير، أو كأنه غانية مرغوب فيها، وهذا هو كل شيء لينال من الناس شهادة الولد الحسن التربية، مع أنك لو لاحظته بين أهله، لرأيت الأنانية، الطحوم، العسف، المين. به صفات السن الناضجة الصغيرة. وعيوبها الكبيرة، وإذا دققنا فيه ـ ولو أنه مصقول ـ نكشف داعراً!



الأبهام والتغرير

الأبهام أب المداهنة والتمليق المذرى . كل ما ينطق به الطفل روحانى وما يفعل بديع ، إن بعض الناس له أسلوب فى وصف وقاحة أولادهم يعادل مُوافقـة بيِّنة ، فيقول : أتظن أنه يجسر على قول هذا ؟ لو كنت فى محله لخجلت ! ومغزى ذلك أنه لم يغضب عليه كثيراً ، وإنك واجد آباء يقتلون أياماً وليالى ، فى ذكر تلميذ يافع . لأنه سب عيناً عجوزاً عند ما لاحظ عليه أمراً ـ بلطف ـ بقوله : أنت جاهل . وينشرون الحادثة ! كأن لم يكن ممقوتا لديهم ما صنع ! ويتباهون بأنهم لم يروا مثله فى سنه صادق الجرأة ! كيف وأنّى تلقن المثل الذى يخاطب به النـاس ؟ وإذا فكروا هان عليهم الأمر . ألا يوجد من هذا النوع قليل فى المطبخ ، وكثير فى الطرقات ؟ ومتى لم يكن الغلام غبياً قالوا : عبقرى ! نابغة ، ولما يستكمل نباهته التى تزداد مع سنه ، ويقعون فى الأعجاب بهذا النشاط العقلى ، الذى لا يخلو منه أحد . لقد رزق سلاسة ! لا واحد له . نسيج وحدة . وبالغ شأواً عظيما ! فأذا سكروا بخمر الطمع ، حَلَمَ الصانع لو يرى ابنه كاتباً . والزارع مستخدماً كبيراً فيصبح على الحصير ، ليكون أباً لكاتب غير منقود (١) وقد بذل فى رؤياه كل الموجود !!

---

(١) بلا أجر



الدالة

نقصد بها الكلام على رفع التكليف الذى يعامل به الولد كباره الأقربين . وأنت لا تجهل إلى أى مدى يذهب به : قد يسمى أمه ، أو يلقب جده بما يضحك ، ويرى من حوله فى ذلك عذوبة . إنه لم يقلها ، ويلفظها إلا لرفع التكليف . وليس الاستهزاء المقصود !.

يعمل الولد الألاعيب على ذوى السلطان عليه ، كما يفعل مع رفاقه . ويتمسك بعملها لا بقصد سيء ، ولكن متى وقع أحدٌ من أهله فى الفخ ، لعدم تبصره وحيطته ، وبقى أثر خطئه فى مخيلته ، يضحك كلما رآه ، وتذكر . وقصارى القول : يطير فرحاً إذا رأى فيه نقصا.

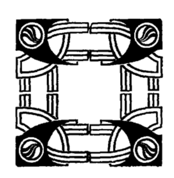
إن فى ذلك ـ غير الشيطنة ـ ميلا خبيثاً تجب مراقبته ! حتى لا ينقلب وقاحة وسفهاً ، ألم تر أن بعض الأولاد يستفز أمه ، أو يراهن أباه على صدق قوله وصحة رأيه ؟ إنها لمزرية ومخزية !!

قد يظن بعض القراء أن الدالة هى نتيجة المخاطبة بلا تبجيل ، كالشائع الآن فى كثير من البيوتات ، لا أدرى أهى سبب أم مسبب؟ أمقدمة أم نتيجة ؟ لا يمكن الحكم !

ألم تسمعوا مرة ولداً معوداً على رفع التكليف استعمل كلمة (حضرة) ، البعيدة عن فمه ، ليقوّى توبيخه ، أو الكلمة الكبيرة التى تخرج من فيه ؟ وعلى كل حال هذا يتبع عادات كل بيت وأسرة .

إن المؤمن الذى يعبد ربه ، ويدعوه بالكاف المفردة ، والضمير

الواحد ، ألا يجله سبحانه وتعالى ؟ وإن من عادات بعض الأمم أن يتخاطبوا بضمير الجمع ، ولكنهم يذكرون الله بضمير المفرد . وعلى كل حال ، فالعبرة بالمقاصد والمعانى ! قد يقول بعضهم : إن مال الأب درع لسلطانه . فالخوف من الحرمان يجعل الولد أطوع من البنان . لبئست الرابطة وبئست الأبوة والبنوة ، التى يكون عقد اتصالها المال ! ومتى يدرك الولد شأن الثروة فقد أصبح رشيداً مقدراً ، ويكون أوان التربية قد فات . إن من يكرم أباه وأمه للتراث لهو أفظع وقاحة ، وأشد نكراً وأعظم خطراً فى العالمين . . .



الرفاق

كل قرين بالمقارن يقتدى . قل لى من خالطت ، أقل لك من أنت ؟

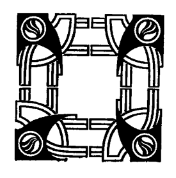
البيئة والقـدوة عاملان قويان فى الأولاد . أمر يؤسف له ، فأصحاب بنينا لا خيار لهم فيهم ، وهم أصحاب بالظروف ، والعلاقات توجد حسب طبقات الجماعة ، وهذا أكثر ظهورا فى الأقاليم ، فابن العين يزامل ابن عين مثله ، وابن المستخدم يرافق ابن زميـل أبيه ، وأبناء الحكام وكبار المستخدمين يصاحبون أولاد الأغنياء ، ونرى كل طبقة يميـل بعضها إلى بعض ، فالتجار زمرة ، والصناع جماعة ، ولا يختلطون بالمزارعين الحراثين ! وبعض النبـلاء قد يرفع المانع ويمهد الجسر بينه وبين الشعب ، بعد أن يكون من ولد منهم قد جاوز عتبة القصر .

واأسفاه ! لقد نسينا أن آلهنا واحد ! وشرعنا واحـد ! ووطننا واحد ! فابن الزميل مهما ساءت تربيته ، فهو بالرغم منا صاحب ولدك بلا خيار ، بل بالاضطرار . وأنت تعلم أن الثمرة العفنة تعـدى مائة صحيحة ملامسة لها ، ولا تزكو هى بهذه المجاورة ، بل تبلى الأخريات وهذا هو خطر مذهب الامتياز ، وخصوصية الأفكار ، وروح الطوائف والقبـائل التى تحتفظ بدمائها ولا تخلطها بدماء الآخرين ، وإذن يكون من المرغوب فيه أن لا نميز إلا الصالحين ؛ أولا حسن التربية والآخرون . . .

وينبغي أن نلفت الأنظار إلى الخدم واختيارهم . الذين يقوى

سلطانهم طالما يقومون بالواجب ، ومع ذلك فقد يضعف هذا السلطان خوفاً أو طمعاً ، فالأولاد يسعون إلى مجتمعاتهم ، وهم تابعون مرءوسون إذ لا يخافون فيها قسراً ولا قهراً : بل يجدون لعجبهم مجالا ، ولكبريائهم متسعاً .

وإذا كانت التربية تتأصل من كل ما يطرق الآذان ، وكل فكرة يوحى بها إلى العقل ، والقدوة بالأمثال ، التى تقع تحت أعيننا ، ومن كل عمل فى الحياة - فكم يهمنا معرفة مبادىء من يعاشرون أولادنا ، ويلقحونهم بما يقولون ، وما يفعلون ، فيتأصل فيهم ، ويستحيل استئصاله . فلا يستطب بدواء .



العصابة

وضع العصابة على عينى الولد حرمان من النور ، فليس من المهارة فى شىء أن يربى الولد فى جهل مصطنع . إن القارىء بعد الذى فصلناه فى هذا الكتاب يتوق أن يعلم أننا لم نُطْرِ تهذيباً رخواً ، ولا عهداً تحكمياً فى الواجبات . ورغماً من هذا سيصفوننا - ولا شك - بالمتنطعين المتشددين .

والتهذيب يقضى بمحاربة الشر والمنكر . لا اتباع الآمال الوهمية . إن الولد يشب مع سذاجته الجبلة ، على أن يعيش معنا فى هذا الجو القتال ، ويستنشق هواءه السام . ولتصور هذا الوهم يفرض أن الولد أعمى وأصم ، وأبله ! إنما الولد يسمع ، ويرى ، ويفهم ، ويفكر فى أشياء توجب الأسف ، مريبة ومعيبة ، ولا تتغير الحال طالما ألهى الناس حب الشهوات ، وأفسدتهم الرذيلة .

فالمسألة إذاً أمام العقل الراجح — تنحصر فى حسن التمهيد ، وإعداد الولد لمقابلة تلك المظاهر الفتانة . التى تهجم على عقله ، وتغير على قلبه ، وتشغل باله ، وتحرض رغبته التى فى كمينها . ومالم يكن الأب أو الأم من الصدّيقين ، فلا ينطلى عليهما أن الولد يجهل كل ما أخفيناه عليه . إنك تجد من الآباء ، من يعتقد فى ابنه طهارة الأبرار والقديسين ، لأنه أحكم تحفظه ، وأخلص فى الكتمان ! إن السكوت المرتب المجهز ، فيه

عيان: التحريض على البحث وراء جدار البيت. عن مسارّات(١) وتفسير وشرح أشد وبالا. والعيب الثانى جعل الولد فى عزلة شرّها كبير.

فأذا خلا بنفسه وسوس إليه مارأى، واستعرض الحادثات، والمعميات المريبة التى سعى إلى كشفها، ولم يفز بجواب مقنع. أصمت الآباء يجعل الولد فى حصن من الأسئلة، ويبعد عنه الخوف منها. ولا يحاول بأى وسيلة، أن يتبين ما يحيط به، ولا ما فى نفسه ؟ !

كل هذا باطل. الولد يريد أن يعرف، وسيعلم. فالأولى أن نكون مرشديه. فأن لم نساعده فى تحقيقه، فهو يستفتى الكتب، والرفاق؛ فأى الأمرين شرٌّ من أخيه؟ الجواب ظاهر...

إن الولد الصالح الذى يعاهدك بهجر القراءة المفسدة، أوثق حفظاً من الذى تطلب إليه ترك الكتب المعوجة، بفضل المراقبة الدائمة المستحيلة.

***

أما إذا أردت أن تكون محبوب ابنك، فارفع قناعه، رويداً، واجعل الشفقة هى الملقنة والموحية له، واختر الظرف المناسب لمسارّته، ولاحظ الزمان والمكان، وقدر فعلها فى استعداده، واحسب لطبعه ألف حساب !.

هذه المحادثة القلبية الخالصة، الدائرة بالبصيرة والرصانة وأصالة الرأى. تجذب الولد قلباً وقالباً، فيعلق بك، ويحب مجلسك المفيد، وحديثك النافع الحصيف الحق، ويجد فيه شفاء لغليله، من كابوس هواجسه. فيرتاح باله، ويحسن اعتقاده فيك، والفطرة تدفعه إليك، كأنك نور يهتدى به. إن ذلك لرأس نجاح المربىّ، إذ أنك لو ألقيت حبله، لتربى الولد على هواه. لا كما تحب وتريد......

---

(١) بضم الميم: المواضع التى يحصل فيها الكلام فى السر.

الأسئلة المصطنعة

من أحب إليك ؟ أأبوك أم أمك ؟ سؤال كالعتاب ، يفزع منه الطفل ، يلقيه الذى يظن أنه أحب إلى الولد من غيره ، فيتردد الطفل ، ويدرك اصطناع السؤال ، فيلح عليه ، فيتأذى ، فيثقل عليه ؛ حتى يقول شيئاً جارحاً لأبيه ، أو كالماً لأمه ، بهذه المسارّة الشاقة التى يجاهدونه فيها .

وأما إذا أعلن وفضّل فالكدر مضمون ، فيقول من أصيب : ما ذا ؟ ! وهل تجد بعدُ عناية وعطفاً أيها الكنود ؟ فتخترق هذه الكلمة قلبه ، ولا يبعد أن يحس بكراهة من استمال قلبه ، بغير ما سبب .

واعلم أن المحبوب هو من كان يدلله ، ويطيعه فى كثير من الأمر ، ويكف عن عقابه ، ويخضع له ، رغبة وطمعاً فى ملاطفة الولد ، والفوز بالقسط الأكبر منها .

ومرة ، صاحب يرمى الطفل فى العذاب ، ويكرهه على التصريح ، بأى الأبوين أقسى ؟ فالولد يصمت ، ويقول فى نفسه : إنى - إذا قلت - ملاق قسوة أشد ، لا شىء أصوب من الصمت ؛ وفى السكوت سلامة .



حياء الآباء

يوجد كثير من الآباء من يريدون أن يهذبوا أولادهم ؛ ولكن الحياء يمنعهم من إملاء إرادتهم . فلا يجسرون على أمر أولادهم .

بعضهم لضعفه ، وبعضهم لطيبة نفسه ، يزوغ خشية الاصطدام برفض ، لا يستطيع أن يجاهده عياناً ، فيلجأ إلى المحادثات والمحاضرات ، متردداً فى صراحة أمره . وخطاب ولده فى شخصه ، متحيراً كيف ينفذ رأيه ، فيأخذ يتكلم بصوت عال ، ليكسو أفكاره وعبارته لباس محاضرة ، أو شرح موضوع .

والحق أنه يخاطب نفسه ، حيث لا مستمعون ؛ فهو الخطيب والسميع . ولنضرب لذلك مثلا : الولد قد أذنب . فبدلا من استجوابه بلا مواربة ولا مداورة يسمع الخطاب الآتى : ما أضيع هذا الولد للأمل ! كم مرة أنذر ، وكأنه يسمع غناء ! وإذا طلبت إليه قضاء حاجة ، أتظن أ يتحرك من مكانه ؟ لا يهمه شىء . يمكث ساعة هناك ، أؤكد لك أنه يتعمد ، وإذا كلف بأمر عمل على عكسه ، فلن تجد اثنين من مثله . إن ذلك يفقد صبر الحليم . وفى تلك الأثناء الصغير العاصى الذى يعلم أنه لا يجرؤ أحد أن يخاطبه مواجهة ، يتحصن بسكوت وعدم اكتراث ، يزيدانه قوة : السكون المقابل هياج الأب .

ما أحلى الجمود فى مثل هذه الحالة ! فأنه نوع من الانتقام ، وطريقة للاستفذاذ . ويتُرَك الدور الجميل للولد ، إذ أن الأب فى لغط وغضب والابن فى سكوت وهدوء ، وهو على يقين من أن هذا الصخب ،

وذلك الاستدلال ، وتلك الخطب ستقطع عندما يدركه التعب ، وينهكه النصب ، ولا يخشى أذى ، إلا كلاماً وصراخاً فى الريح .

ونتيجة هذا الصُّمات (١) الفصيح ، هياج الآباء وإخراجهم إلى ما لا يليق بالسداد . وذهاب توبيخهم سدى ، فيزداد غضبهم ، والحال تنقلب : ابن ساكن ، وأب ثائر . مستطير الشر ، ابن لا يدفع ولا يستشفع ، لا جواب ولا خطاب . نعم لا يدافع ، ويهزأ بتُهم ، يخفى سماعه لها ، وكأنه بسكوته وهو مثلوج الفؤاد ، يقول لأبيه الغضبان : صح ما استطعت ، واغضب ما شئت ، وأنب ، واصخب ، واسخر بنفسك كما تريد . إن هذا لحطة بقدرك ، ودليل جديد على ضعفك ، إنك تسدد سهامك فى الهواء ، تضرب ما حولى من الفضاء ، وتشعل النار فى الماء .

والأب المقهور ، يقول للأم : أتظنينه حياً ؟ إنه حجر . لا يغيره أمر . مستخف بكل شيء لا يرعوى ، لعله مسرور من كمدى ، وجزل من صراخى ، من الشروق إلى الغروب . وربما قال : ما أسعد العُقام (٢) !!!

وترى لهؤلاء الضعاف صيغاً خاصة فى خطابهم ، ويرتجفون من : أنا . وأنت . وكل حديثهم بهُوَأو الضمير الغائب المتصل ، فيقولون هو إذا أرادوا أنفسهم ، وهم المتكلمون ، وينكرون ضمير المخاطب ، وهم المخاطبون ، خشية جدال أو خصام ، إن ضمير الغائب كائن مسكين ، عريض الأكتاف ، يحمل مسئولية كل من يخاف ، ويتظاهر بالقوة وهو من الضعاف . وبالإيجاز ، فأنا . هو رب الأسرة ، وضمير الغائب ، هم الجيران والأصحاب والخلان ، المستغاث بهم ، وهل من مغيث ؟ ؟

---

(١) السكوت العميق
(٢) من لا يولد له

أمام مثل هؤلاء الآباء يستقوى الأبناء، ويصل بهم الأمر أن يسألوا آباءهم ببرود وجمود : ما الذى كدركم، بنغمة المحزون المخلص ؟ وفى قلوبهم الاستهزاء بلا ريب .

إن الأب الذى لايتقلد الزمام . ويشد العنان ، ويكتفى بعبارات مبهمة مداورة ، عسى أن يلهم الولد . ويوحى اليه إرادته ، ويشربه شعوره ـ ليس بربان سفينة ، بل سَفِن مسافر بلا مزولة يجرى مع التيار ، أينما اتجه وسار .

إن هذا الغلام المتصامّ فى مثل هذا الظرف ، يتردد كثيراً أن يتمرد إذا قُصد بالخطاب جهرة ، حتى إذا عصى أمراً حتمه عليه أبوه ، ولماذا ؟ لأن الأب يريد أن يسترد سلطانه المنكر ، فيظهر بالشدة المفرطة ، ولكنه يهن لطبعه ، وتركيب فطرته .

والدليل على صحة هذه النظرية ، أنك لاتجد متناهياً كالحيّ : إما مُفْرِطاً أو مفرّطاً ، دائماً شاطاً . إذا اعتزم أمراً فرح ، لأنه استطاع أن يقول نعم ، أولا . فيتمسك برأيه حتى العناد ، ولا تصيبه هذه الحمى إلا نادراً ، فيريد أن يفخر بنصره على نفسه ، ويتمتع به طويلا .

ليس فى طريقة المحاضرات ، وخطاب النفس ، عصيان حقيقى ؛ إذ لا أمر ، ولا آمر ، ولا مأمور ، ويقتصر فيها على الأنذار ، أو الاتهام الموجه لمجهول معلوم ، وغائب حاضر . هذا كثير . ولكنه غير كاف ، والولد ليس بغافل ولا غاف .



التمييز

المحاباة غواية فتانة فأياك والوقوع فيها .

إن لتفاوت العطف أسباباً : مشابهة الابن لأحد أبويه خلقاً أو خلقاً نجد فى وجهه حسناً يرضينا ، أو عقلا راجحاً ، أو ذكاء يفوق الآخرين وآونة نزهو بصفات أحد الأولاد الظاهرة : إنه ظريف . رقيق . لبق خفيف الروح رُوَقه !

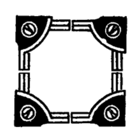
كل هذا شر له ، ولكن أنانية الأم السكرى . تبحث عن الفرص لتدفع مسكرها وساحرها ، حتى بلبسته تعلن محاباتها . على أن هذا العطف قد تكون فيه الأثرة ، إذ أننا نحب لأنفسنا ، وعلى خسارة الأسرة الصغيرة ومنها الصغير المفضل المحبوب ، فبينا هذا الصغير يرى الحنو والميل وإنجاز الطلب بلا استحقاق ، إذ الابناء الآخرون يغيرون منه ، ويحقدون على آبائهم الذين لم يعدلوا بينهم . واعلم أن ذلك العزيز المصطفى يصير فى الغالب أقل طيبة من إخوته وأخواته ، لأنه يدلل كثيراً ، ويشغل الآباء به بدل أن يعيروا التفاتهم لمن يستحق التقويم من أولادهم حتى يوازنوا فى فعلهم ، وينصفوا فى معاملتهم ، وإلا فأنك واجد فى الاسرة الواحدة ولدين ، وعطنين . وعدلين !

ولا أسخف من أن تجعل من الأولاد شيعاً وأضداداً . وتحسب أنك تقوم بعضهم ببعض ! انظر كيف أن أخاك محبوب . هو لا يسمح لنفسه أن يفعل ما فعلت ، ولذا فهو محبوب !

فأنى لا يبذر الخلاف . والشقاق ، والكراهة والضغن ؟ هل هو

المضروب به المثل يتحاشى أن يسىء استعمال الظرف ويقهر أخاه وينغص عليه، إن هذا قليل الاحتمال . وتأمل حولك تجد من تدلل فى الأسرة أكثر خسراناً ، وسيرد معزته الحلوة مرارة وذلا . فلقد كان معبوداً . ومن ذا الذى يقدر أن يقول لمعبوده : أنك ناقص والحب يعمى ويصم ! والطامة إن كان الولد بنتا ، فستمر الايام سراعا والليالى تباعا ، وهى واصلة إلى الحياة الدنيا وثابة بخطوات أوسع من الذكر، فتشب وقد ضحاها أبواها على غير عمد ، ولقد أرادا هناءها فرعرعاها لعنائها . وقد أفلح من ذكاها . وخاب من دساها (١) .

(١) أفسد وأغوى .



القول الجزاف

إذا كان الآباء مبدعي الولد ومكوني الروح والجسد . ومنهم يستق الخُلُق بعد طبع الخَـلق، فينبغي الحذر من إلقاء القول على عواهنه(١) أمامه ، وتأكيد الخطأ على أنه صواب . حتى فى حديث السمر ، لأنه يخرج من أفواهكم إلى قلبه . فينقش فى عقله ، لأنه يعتقد فيكم الكمال : وهذا هو أساس تكوين العقل ، وسِفْر التعليم ، وقواعد المبادىء . وهاك مثلا :

خرج ولد إلى البستان رغم منع أمه ، يرتع ويلعب ، فوقع فتسلخت ساقه ، وسال الدم من ركبتيه . فانزعج ، وبكى ! وعاد لأمه وشكا ! فما ذا يسمع عادة من التوبيخ ؟ خير ما جرى ! إن الله جازاك . إنا نفهم جيداً مغزى هذا ، والمقصود منه . ولكن المسألة هى :

أيذكر ذلك الولد أم ينسى؟

وفى الغد انسل وأعاد الكرة ، بدون علم أمه ، ولكنه حفظ نفسه فلم يصب بأذى ، فطبيعى أنه لا يذكر مخالفته ، فلا يؤنبه أحد ، وإنما قد علم من هذا أنه يمكن مخالفة الأم ، بدون أن ينزل عليه جزاء السماء ، عقاباً لعصيانه أوامر أمه ، ويتأكد أن عدم العقاب فى هذه الدنيا ممكن ، ويستنبط أن قول أمه ليس جدياً ولا حقاً ، وأن الذى فعل ، إما أن يكون غير معاقب عليه . وإما أن الله لا يعاقب على الخطيئة ! كلاهما له نتائج سيئة وشرور . ما أكمل هذا التهذيب !!

---

(١) أى أرسل الكلام : ولم يبال أصاب أم أخطأ ؟ .

مثل آخر: ولد يخفى الحقيقة فيقول له الأب : إن الكاذب شر من اللص ، ولا يصدق ، حتى ولو كان صادقا ، ثم يزداد كبرياء وعجبا : إنك مهما أخفيت فسيعلم أبواك ما فعلت . ويظن أنه واصل لغرضه . والولد يقول فى نفسه : راقبونى جيداً ! وكلٌ يعمل ما يلائمه . . . وفى المساء أخذ الابن قطعة من الحلواء بدون علم أبيه ، ولم يشعر به أحد . وإذاً لا ملاحظة . الولد سرق ، ولا عقاب قد توقع ، فتشجع على أخذ أخرى ، وأخرى . حتى أتى على آخر العلبة . فى نهاية الأسبوع . فوجدها الأب خاوية وتحقق أن أحداً يسرق الحلواء. ومن هو ؟ الولد أحكم السرقة ! والأب نسى القاعدة التى وضعها ؛ فيقول للأم : إنى أرتاب فى الخادم ، وأشك أنها تحب الحلواء ، فيسمع الولد ، فتنهار قاعدة أبيه ! وتمسى بصيرته عمى ، ويتحقق أن أباه لا يعلم الحقيقة دائما .

إن هذا لعاقبة القول الجزاف . والكلام بلا تبصرة .

ويزيد الأمر خطورة إذا هددت بعقاب لا تستطيع توقيعه . فلا تقل له : إنى سامل عينك ! صالم أذنك ! سالّ لسانك ! قاطع يدك ! كاسر رجلك ! ومحرق جسدك ! فأنك لست بفاعل ، فتصبح كاذباً . ويضحك منك ابنك . وأما إذا هددت بأمر ميسور فاقتصصت ، فقد يثمر العقاب ، وتكون قد أحسنت .



ادراك الطفل وشعوره

إذا صح أن الطفل من شهوره الأولى قابل للتأثر مما يدركه وينظره فيطبع — فلقد حق القول بأن التربية تبدأ من المهد . سل الأمهات يقلن إن توقيت الرضاعة والنوم ونظام حياة الطفل تساعد كثيراً اعتياده على الثدى . فالنظام الدقيق يكيف الطبيعة . الأنسان عبد الضرورة ، ولما اعتاده ، وحب الهناء ورغد العيش ينمى هذه السليقة . على أن اللين ، والترف ، والعطف الأعمى ، تدفع بعض الآباء إلى الأفراط بدون فائدة فى حاجة الطفل ، وينسون هنا أن الأفراط أصل كل شر .

هل ابن الزارع الذى لايعرف النعيم أقل بأساً وقوة من الحضرى ، والراهب والزاهد المقل من أكل اللحم أقصر عمراً من أهل الطبقات التى تكثر منها ؟ النعيم والترف أشد فتكاً بالناس من الزهد والفقر ، إننا غالينا حتى شربنا الدم ، وأكلنا اللحم نيئاً ، كالسباع ، ونظن أننا ننفع الطفل بتعاطيه المقويات المجهزة والطبيعية التى تلائم الهرم .

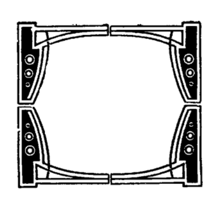
النعيم سيف مسلول وشبح مخيف ! يقطع الحياة . زوال غير دائم فاذا نأى عنك أصابك المدنفان : الحرمان والذل !

أول شعور يدركه الطفل يدلك على راحته أو عنائه ، أو إذا شئت فرحه وألمه ، ودلالته المبهمة ، تتوضح رويداً ، ثم تطابق شعوره بالمؤثرات التى تقع عليه فى كل ساعة ، فالمرئيات ، والمسموعات ، والملموسات ، لها نصيب فى تجاريب هذا المخلوق الجاهل ، وبعد أشهر قليلة يحس بما

حوله ، ويدرك أنه يرى أشياء منفصلة عن جسمه ، فيتفتح إدراكه ، وتأثيره يظهر بأشارات مفسرة .

وحسب الانفعال ، والانعطاف ، ونغمة الصوت ، وملامح الوجه. يجعد الولد جبهته ، يقلص شفته ، يدنو ، يبعد ، يلوى جسمه ، يحرد يهلل ، ويصخب ، وهو لايفهم كلمة . ولكنه يخمن ويصيب ، فيقرأ أفكارنا على ملامح وجهنا بتحديقه فينا . فهو إذن يفهم كثيراً ، ولا يعبر بأكثر من دمعة من عينيه ، أو ابتسامة على شفتيه . وهذا هو كل قاموسه

فأذا أصغى وتنبه فهو قابل للتهذيب الأولى . وكم من الأشياء يحكم عليها الولد حكما لالشيء غير هذه النعوت القصيرة الصادقة : حلو . مر . حسن . قبيح . التي يستعملها فيما وصفت له . هكذا يبدأ التمييز .



الغريزة

الغريزة ميل طبيعي أعمى ، يدفعنا إلى بعض أفعال بلا رأى وتدبير وهى ليست مجردة من كل فكر فقط ، بل هى غير قابلة للكمال أو التحسين ، ومظاهرها العظيمة الجلية تلوح فى الطفولة ، ونحن نجهل كل ما يلزم للمحافظة علينا .

ومع أن هذا الدافع أقل نمواً فى الأنسان منه فى الحيوان ، فأنه يعمل فى أفعال كثيرة ينفذها كالآلة فى ابتداء الحياة ، كما تفعلها كذلك فى سن العقل ، فأنا لا نفكر أبداً فى لفت رؤوسنا لاتقاء خطر أو صدمة . ولا فى مد الذراع للتوازن منعاً لسقطة .

هذه أفعال لا نقصدها ، وخاصتها السرعة والرعونة (١) . وهى أفعال محدودة إذا قيست بالأعمال الأرادية ، والمدبرة بالعقل .

والفوارق بين العقل والغريزة كثيرة : العقل حر . والغريزة عبد . العقل علم ، والغريزة حدس . العقل بصير ، وهى شعور . العقل نور يتدرج ، والغريزة برق يخطف . العقل ضوء النفس ، وهى سنا الحس . وإذا العقل وقف للتدبير . فهى تقفز للوثب والمسير .

والحركة غير المدبرة ، وليدة عناية طبيعية ، لولاها لهلك الطفل ، إذا لم تقم مقام جهله !

---

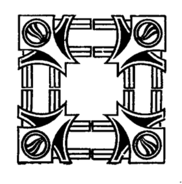
(١) الحمق والهوج



الفضول

متى أحس الطفل بوجوده، واتصاله بالعالم، استعمل فضوله وتدخله.

هذا الفضول هو ميل الطبيعة الذى يسبق التعليم، وإنى أعتبر الفضول فضيلة، لا نقيصة. وأحب أن أراه فى الطفل وأساعده، وأشجعه. إن جديد الصور والشخوص والأشياء يولد هذا الجذب القوى الذى لا يغلب. والولد الراغب فى المعرفة يلفت نظره، ويشحذ سمعه ويمد يده ليجس ويعلم. وإذا شئت فقل: يولد الطفل مفتوح العينين، يريد أن يعلم ما يجهل، ويستوثق مما نعلمه. فهو يجرى كالفأر الصغير النشيط الظريف تراه فى كل مكان يشم بأنفه لا يفوته شىء. فيعلق فى فكره كل ما مر على نظره، أو دق فى سمعه، وفى هذا الذهن اللين النظيف، فيطبع فيه عميقا، وعندئذ ملاحظة الأب أو الأم يجب أن تكون مستمرة ودقيقة.



التقليد

كل الأحياء المتشابهة الخلق تألف جنسها . بينها جاذبية فطرية ، وحاجة إلى اقتداء بعضها ببعض . ألا ترى عدوى الضحك والتثاؤب ؟ إنك طوعا أو كرهاً مغلوب على أمرك فيهما . والأنسان مطاوع لهذا المحرك النفسانى مهما جاهد فى دفعه ، وإذاً فالمؤثر طبيعى حتمى . فأذا رأيت زميلا مجالساً لك فى منظرة محدقاً متأملا فى زاوية السقف . فانك تجد أنظار الحاضرين اتجهت إلى تلك الزاوية ، وكلهم يحدق فى النقطة التى وقع بصره فيها . ومثل هذا قد يحصل من قبل المزاح المحتمل فى الطريق والمكاتب بين المارين والطلبة .

وإذا ضحك بعض الزائرين بخفة روح طبيعية ، أو مجانسة ، تسرى العدوى إلى الحاضرين ، وترى الانشراح بادياً على الوجوه ، حتى على الذين أجابوا الدعوة لقضاء الواجب الاجتماعى . ولهذا يبحث فى المجتمعات على مدعوين متجانسين حتى يتقاسموا السرور فيتضاعف . إن كل شركة مكروهة ومقللة لأسهم الشركاء إلا الشركة فى السرور فهى محبوبة ومنمية للنصيب . أضف إلى هذا رغبة الصغار فى مشاكلة الكبار تفهم قوة الميل الكبيرة إلى التقليد فيهم .

إن الولد فى الشهر التاسع من عمره إذا لاعبته ، واجهك ، ثم يلفت ، يظهر ويختفى . وإذا رأى قنديلا أو عود كبريت نفخ فيه ، ليطفئه . يقلد العطاس والسعال ليتسلى . يضع إصبعه على أوتار آلة موسيقية . ليحدث الأصوات . إن الطفل فى هذه السن لايستطيع

تقليد الأصوات . لعدم استكمال عضو السمع ، والتقليد يقصر على الأشياء الخارجية .

فأذا رأى يوماً تقطيب حاجبى أبيه ، أو هرولة أمه فى الغضب ، أتراه لايفعل ما صنعا ؟

والعدوى قدوة حسنة وأسوة سيئة ، وهى أقوى من الطبيعة . فخذ أخوين . وربهما فى بيئتين متناقضتين تجد إنسانين مختلفين لا شبه بينهما فى الخلق .

فيجب على الأب أن يكون المثل الطيب ، وأن تكون أفعاله مطابقة لأقواله ، وإلا قد يقول الولد يوماً ما : أبى ينهانى ، وهو يفعل فأن كان مضراً ماينهانى عنه فلِمَ يأتيه ؟



التصديق والغلو

الولد ميال ، ومدفوع لتصديق ما يتوهم ، وكيف يتحقق ؟ ومن باب أولى ليعتقد صحة ما تقول أمامه من الأفكار . وأنت تقدر ضرر الأفكار الخاطئة ، والرأى الفاسد فى الصغير الذى لا يعرف بعد أن الكلام البشرى خداع كاذب .

فأذا تركت ابنك يسمع الخرافات ، وأحاديث الجنّ ، ألقيت فى قلبه الرعب ، فتهجس فى صدره ، فتزعج ليله ، فينام قلقاً مضطرباً ، وتهيج نهاره ، فلا هو هادىء فى منام ، ولا مطمئن فى يقظة ، أحلام مفزعة وأوهام باطلة ؟

ألا يثوب إلى الرشد ، فينزع من رأسه الأباطيل . هو يعرف أنه يكذب عليه . فاذا حصل ، فالولد حينئذ يحس بشعورين قويين : الغش وقلة الثقة ، وهذا هو الخطر الأكبر . وما أصعب تنظيف ذهنه ، واقتلاع هذه الجذور الفاسدة ، وإبادة هذه الجراثيم ، وأزيد فأقول : الضلال ، والأوهام ، فالجهل خير منهما !

وهكذا الغلو متلف ، فالحديث إغراء ، ومبالغة لتمنحه قوة أو حلاوة جذابة ، لا شىء عندك فى الدنيا جميل ، حقيقى ، طيب ، قبيح . ردىء كذب ، بل : مدهش . بديع ، فاخر ، سالب للعقول ، معبود . أو بشيع ، شنيع ، مقرف ، وحشىّ .

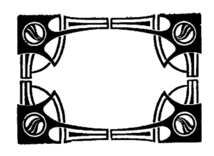
التباهى والشطط قوام الحديث ، أما الوسط خير الأمور ، فلا

تجده إلا قليـلا ، فكأننا نعيش بين العجيب ، والرهيب ، والهائل وما لا يكتب . وما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت : المستحيل ! !

فتقصر قوة التعبير عن بيان أتفه الأمور ، وأحقر الأشياء . المبالغة سوء استعمال ، وعجز فى المقال . فهى لا تصف الأشياء على حقيقتها ، ولا بلونها ، ولا بطعمها . أتجعـلون فى حديثكم الحبة قبـة ، والقشة هراوة ، والقطة أسداً ، والفأر فيلا . وتدعون أنكم صادقون ؟ إنكم تجهلون ، وفى القول تخلطون .

قد يصل القول الرصين الهـادىء إلى القلوب ، فأذا تعود الطفل على الغلوّ ضاعت الحقيقة ، ويصير متشككاً مرتاباً ، ولا يدرك معنى الكلمة إلا بطويل البحث والقراءة . فيعلم إذا أنه حُمِّل أفكاراً ضاع معيارها . !

فأياكم والغلو مع أولادكم ، فأنكم إن فعلتم وضعتم فى سبيل تعليمهم عقبات تقتضى مجهوداً كبيراً ، لأزالتها !!



التصور والتعقل

إن موضوعنا هذا يوجب الاستطراد فى الكلام على المخيلة ، وانى لا أخشى مخالفة رأى كثير من القراء . واعتقادى أن الكثير ذهب إلى تسمية شرود العقل وحيده فى الطفل تصوراً ، لأنه شرود مستحب . وليس هناك برهان قاطع جدى على التعقل . وإذا كان الصغير المبدع (كما يسمونه) يظهر أنه يفوق أقرانه فانها شعلة لا تلبث أن تنطفىء ، وما هو إلا لمع . وبعده ... إما السقوط لأقل من المتوسط ريث درس جدى وإما الهزال والفناء . فالنصل مزق الغمد . إن الذكاء المفرط المبكر لدى الأطفال ، أشبه بالخبل الخفيف منه إلى صفة حسنة !! إن جودة التعقل والذكاء فى اتزانه واتساقه ، وهدوئه ، وضنه بمادته.

فلا يزدهيكم التسرع والهوج . ورب ساكت رزين . وعقل راجح ، يرميه الجاهل بالجمود والبله ، فتعقل الأول مهوش ، مشوه بالأحاديث الباطلة ، والقصص الخرافية . إذا رجعنا إلى ينبوع استقائه ، الذى أشربه الأضاليل ، أكثر من المفهوم والمعقول ؟ فالأوهام ليست المعقولات والمفهومات ؟

فلا أخطر على جودة الأدراك من تأكيد الباطل والبهتان ، ولو مزاحا . وقص الخرافات والأكاذيب ، ولو سمراً .

وتعقل الثانى راسخ متين ، ولو بطيئاً . إنك قد تسمع من هذا — إذا حدثك — حيطة تعجبك فيقول : يتراءى . أو أظن . أفتكر . ممكن . كأنه يراد . ثم يتم حديثه . وهذا يربى عنده حب الاستيثاق والاستقراء . والأمانة فى العلم دون إلجام الفكر .

الأقاصيص

إذا استثنينا النادر ، فأقاصيص الهوى والغرام ، وهي بيت القصيد . حتى التي يعتبرونها أدبية منها — لا تخلو من شر على الشباب ، فاننا لو وضعنا في الحياة الحقيقية الصور التي يتخيلها الروائي ، ثم وضعنا أمامها أقل الناس شبهة — لتحققنا عدم تصديق براءة مطالعتها .

فالصالح من المصنفين قد يريد أن يقصي السيئات عن كتابه ، ويعقد نيته . فلبلوغ غايته ، يختار أشخاص روايته فيخلقهم كما يشاء ويهوى ، ولا يحسب ، ولا يجد محظوراً ، ما دام خياله ليس ببعيد الاحتمال . فيصور بطله . ويقدر عمره ويصف كما يريد أخلاقه ، وكم يذلل صعوبات ، ويهدم عقبات ، ويخترع موانع مستحيلة ، لأنه رأى من الحكمة ، أن يحرض هياج هذه من أجل ذاك ، أو عواطف ذاك الخفية !

وإذا أراد أن يجمع بين المحبين جعل كل شيء سهلا ، وكل طريق ممهدة . بقوة سحرية . وليتم هناء المحبين ! يرزق الخاطب مالا من حيث لا يحتسب ، فيجعله يتيما مجهول الأبوين ، فيباغته بوصية من ثرى ، يعترف ببنوته قد أوصى له بماله !

فالحادثة لا تنتقد أدبياً ، ولكنها خالية من الكمال . وكم قرأنا ان مغرمين قد فنيا حباً بعضهما في بعض فانقلبا أخوين شقيقين ، واستحال الغرام القاتل إلى شفقة ومودة . قد يقال : إن الرواية لا عيب فيها من جانب الأدب . ولكن أتتحقق في الحياة بتلك الطهارة والنبل ؟ هذه هي المسألة . لقد وصف الروائي ما يجب أن يكون ، وإنما علّمت بلا قصد

لادنا الخداع ، الطمع ، الخبث ، حب الشهوات التى يجب أن يحفظوا من شرها

إنك تعلم عاقبة قرب الجنسين ! والجوار الخطر بطبيعته يبقى خطراً . فاذا أردت أن تجعل من بطلة قصصك ملَكا ، ولا تلهم القلوب إلا حباً طاهراً ، وصبابة بريئة ـ وهذا أكمل ماتلقيه على القارئات الصغيرات ـ فما أنت فاعل ؟ إنك جاعل تلك البطلة مسلولة . قدمٌ فى التراب وأخرى فى العتَب ، طريحة تعدد الأنفاس ، وتعد لها الأرماس .

وأما إذا كانت ممتلئة صحة فما أنت فاعل ؟ وما تكون قيمة هذه الرواية ؟ أراك تختبىء . الأمر واضح . فانك ترسلها فى سياحة إلى الشرق الأقصى أو تصيبها بجنون ، أو تزفها أو تصور لنا خاتمه غير محتملة ، لايمكن تحققها فى الحياة

وإذا نظرنا إلى تلك القصة البريئة ، نجد أنها أضرت ، بل أتلفت رغم حسن نية الكاتب ، لأنها أقلقت نفوساً صغيرة ، وهاجت عقولا لينة ' وقد كان أحق بها أن تكون هادئة ساكنة آمنة !

وإذا حررت القصة فى الأخلاق النّسوية جذبت الفتاة اليها كثيراً !٠

ولِمَ تقرأ الأقاصيص إن لم تساورها الأحلام هى أيضاً ، وتذرف الدمع ، وتتوجع ، وتتعذب ، وتحاكى الزهرة الذابلة ، والنجم المتصوب إلى جُرْف النهر ، وغصن البانة المنعطف على القبر ، والعصفور الطائر كالحلم . وترى أن سعادتها لاتتم إلا بحرف تقرؤه وليل تسهره . خفاقة الفؤاد . متنهدة تنهداً يذيب الجماد ، عينها سابحة فى الفضاء ، ساحّة(١) للقضاء . تعرض خدها الملتهب للنسيم الذى يئن أنينها لتبرد نار وجنتها .

---

(١) سائلة

وكأنها على وعد . تظن الظنون ، ترجو يائسة أن تسمع قسما عظيما ، أو تحلف يمينا غليظة تحت أبصار النجوم الأصدقاء الأمناء ، وبين يدى القمر المنير ، حاكم الليل البهيم ، صاحب الشر المستطير !
تسائل نفسها : هل تحارب دهرها وتترك أهلها ، وترحم مصدودا ، وتنجى مهجورا ، وتدنى بعيدا ! أيا كان « من الناس » تتخيلة ملكا كريما ، أو شجاعا عظيما ، وهى لا تعرفه يقينا ، لأنها نظرته خيالا وتخمينا ! !

وإذا أرادت الأم الخالية الذهن أن تنزل بها من سمائها التى تحلق فيها إلى سطح الدنيا ، لتعلم حقيقتها وما فيها ، الدنيا المظلمة فى عيونها الدنيئة فى بصرها ـ اعتزلت ، وهجرت العالم وإلى ذكرى أقاصيصها التجأت فسبحت فى آمالها وأحلامها ، مسلوبة ، جسدا بلا روح ! والخلاصة : إن الأقاصيص غير مجدية للشباب ، مالم يتوخ الكاتب الطريقة الأدبية التى يقصد بها أن يلف التعليم الصحيح . بمحاسن الخيال البديع . إن هذا لأندر من النادر وعسير أن يوفق فى هذه المشقة الكبرى ، والعمل الدقيق .

وإنى أدل الأم على وسيلة سهلة ، لتتبين تهذيب هذه الأقاصيص ، عليها أن تقرأ ، ثم ترى بماذا تحدثها نفسها ، إذا فكرت ابنتها وفعلت فعل البطلة ؟ !



الأبهام - التجريد

إن المبهمات من جميع الأفكار هي التي يفهمها الولد بصعوبة ، وهذا منطقي وطبيعي . الأبهام ، وما وراء الطبيعة وما لا وجود له في الخارج ، ينفر الولد ، من في حاجة إلى رؤية الأشياء أو تصورها حتى يتفهمها . والتفكير في الشيء هو التحدث به ، كما أن الذكر يكون بالقلب . والولد يدرك ويفهم إذاً الأشياء الملموسة ، والتي لها وجود في الخارج ، حتى المتركبة منها ، قبل أن يلمح بادي الأفكار والأشياء المبهمة . !

ولديه الأم الحنون ، هي أمه . الحصان الجميل ، هي فرس أبيه . الرجل الردىء ، هو الذي أزعجه . وأما النعوت فلا يفهمها على وجه التعميم . فالجمال ، والطيبة ، والدمامة لايكون لها وجود عنده ، إلا إذا اتصف بها شخص معروف لديه .

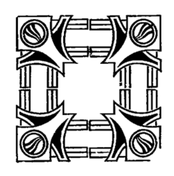
إن هذا لا يناقض الشعور الفطري بالخير والشر ، والنفع والضر الذي يدركه الكل ولا يستطاع له جحود ، من باكورة العمر إلى حدٍّ ما .

فالولد الذي يلطم عمداً ، يعلم أنه ولا شك ينتقم ، ويؤلم الملطوم . وهذا هو قصده بلا مراء . وإذا لاحظت هيئته أخبرتك نظراته فاقتنعت !! .

- إن الشعور بالعدل أو بالظلم لا يشترك مع الأبهام في شيء ، وعلى العكس الأحساس بالوجود : ذات . وكون . حي . وعامل . أما تعريف الزمن والعدد والمسافة فيعزب عن إدراك الطفل ، فغداً عنده ما يأتي

بعد نومه ، واليوم هو مابين مشرقه ومغربه . وهكذا يربط أفكاره وتصوره بشيء محدود ، أو محسوس

فالولد يميز أولا بين الشيء البسيط والمركب ، أو المفرد والجمع ، وفى السنين الأولى من عمره يمكنه تقدير عدد المئات ، ولكنه لايتصور كمية المعدود تصوراً صحيحاً .



الحكم والخطل الخلقى

التقدير أو الموازنة . التذكر أو التخيل . الابهام أو التعميم . حكم
وسواء أكان حاصلا وواقعاً من صبى أو رشيد ، فالقاعدة واحدة

فابن الأشهر الذى يرى أمه تتأهب للخروج : تأتزر . تضع النقاب ،
يحس بهذه الاشارات فرحه بالرياضة التى يؤملها ، يوجد هنا اجتماع أفكار
مختلفة . وارتباط نتائج بمقدمات تؤدى إلى غاية معينة .

فان كان الأمر كذلك ينبغى أن لا نفقد الزمن فى ملاحظة الطفل
وهو فى المهد . فاختيار مأكول . تمييز الأشخاص . الاختفاء عنها . والبحث
عليها . الابتسام . التكرش . التململ . الانعطاف . جميع هذه عنده
مقاصد بينة . فمن هذه اللحظة يستطاع مساعدته فى إنماء إدراكه . وتبيان
التعاريف الأولية رويداً رويداً .

إن أحكام الطفل عامة ومطلقة . فعناصر الشك أو القياس هو خلو
منها . ولا يلمح إلا يقيناً واحداً ممكناً . ولذلك نظن ان منطقه مفقود ،
لأننا لا نعمل حسابا دقيقا لمبدأ قوة تفهمه ، ونتيجة رأيه تظهر ضالة ،
لأننا نجهل مقدماتها . وهل من العقل أن نقدر إدراك الصبى بأفكار وآراء
العمر الناضج ؟ .

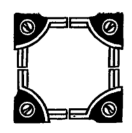
فمتى كان الطفل موزون العقل ؛ يجب أن ندقق ونبحث فيما إذا كان
يعروه أحيانا تغلب فى الأرادة أو خبل أو قلق شديد .

فهذا الطفل يعند بغير سبب ، ولكنه لا يهيج . وإنما هو واجم أمام

من أرهبه وذاك يكاد يخفى الحقيقة ، لأنها كانت صدى أكاذيب سمعها من غيره

أضف إلى ذلك أسباباً للخطأ لا تغالب . لا يفكر فيها على أنها أقل ندورة مما يظن ، منها آفة السمع أو البصر . فقد يرى الطفل الأحمر فيصفه بأخضر ، والورقة الحمراء بيضاء ، ويرميه أهله بالعناد والخبث ، لظنهم انه يصف ليكيد لأهله . واتضح بعد زمن أنه مئوف باختلاط الضوء فى عصب الأبصار ، فلا يميز الألوان على حقيقتها . وقد تصيب هذه العلة البصير السليم

فخذوا حذركم وتنبهوا ، ولا تظلموا ، لعل العيب ورائى !



الإرادة

الاستعداد الذاتي ـ الطباع الشاذة

الثابت أن بين الثانيـة والرابعة من العمر يتطبع الطفل ، فيجب تقدير هـذا العهد الفاصل الحاسم فيما يتعلق بالسلطان والتربية المنزلية هذه الفترة فترة إلقاء الحبل ، أو القيادة الابوية . فأرجاء العمـل لا طائل تحته ، فنزاع وشقاق وأضغان ! !

« انظر باب السلطة » ونقصر القول على بعض ملاحظات فلسفية متممة .

***

إن الخلقة البشرية تتهم أحيانا بأميال وشهوات وعواطف لا يحتكم فيها الانسان ، وهو فى كامل عقله وإرادته . والولد من باب أولى مقسور بعواملها القاهرة ، إن ذلك الشذوذ هو استعداد خلقى !

لقد عُـلِمَ عن بنت أنها كلما رأت عمامة سوداء مرشوق بها ريش أو ما شاكله أصابتها وانتابتها دورة عصبية ، وأهلها يظنونها كاذبة ! فأرادوا أن يقربوها من هذا الشكل وبأن تلمسه يدها ، فأكرهوها ، فاشتد تشنجها ، فعدلوا عن عزمهم . ولما بحثوا الأسباب عرفوا أن حاضنتها أخذتها إلى ملهى الأطفال . ومثل أمامها عفريت برأس كبير ذى شعور مستعارة سوداء معقوصة ومرسلة ، وكانت الحاضنة تخيفها به كلما رأت داعيا ، وهـكذا ألقت فى قلبها الرعب ، وكان يتملكها الفرق ، كلما رأت ما يشبه رأس ذلك العفريت فتنزعج فتتشنج .

وبعد زمن عرفت البنت بأن سبب حالتها العصبية التى كانت تعتبر عناداً

وعصياناً هو ذلك العفريت. وتخويف الحاضنة ، وكانت تستحى من أمرها. ولا تقول كلمة عند تصلبها فى رفض كل ثوب أسود. فيه ما يشبه الشعور السوداء التى فى رأس هذا الشيطان الرجيم .

وقد ذكر التاريخ غرائز ، لرجال عظام ، قد تعترى بعض الأطفال ولذا لاح لى ذكرها :

كان « هرقل » (١) ملكا عظيما باسلا ، وكانت ترتعد فرائصه من منظر البحر . وقال « نيسابور »(٢) : إنه نصب جسراً من السفن بين شاطىء البوسفور حتى تشجع الملك على اجتياز البوغاز .

إن « لويس الرابع عشر » (٣) كان ينفر من القلانس الرمادية . والشاعر الأيطالى « فافوريتى » (٤) كان يختنق من رائحة الورد .

ونعرف تأثر بعض الأمزجة من أزيز قطع الفلين بسكين ، وصرير المبرد على الحديد ، والمنشار فى الحجر .

« ودقلاديسلاس » (٥) ملك بولونيا كان يفزع من رونق التفاح .

لا تخلط هذه الغرائز بالميل أو النفور الشاذ . لقد عرفنا كثيراً - من كبار الكتاب والشعراء المفلقين - لا يكتبون ولا يشعرون إلا معاقرين بنت الحان ، وتشنيف الآذان بالموسيقى والألحان ، ومنهم من يقوّى خياله الظلام الحالك. وآخر يسطر مبطوحاً ، وغيره مسطوحاً . فهذه العادات المكتسبة ، لا جامع بينها وبين النظرية التى فصلناها ، المرتبطة ارتباطاً قوياً بطبيعة الأنسان فى خطله وخبله !!

« فبا كون وملتون » (٦) كانت الخمرتزكيهما « وهبس » (٧) « وكرينى » (٨) يضىء ذكاءهما الظلام ، « وجوت » (٩) كان يحرك شجونه المشى . « وديكارت » (١٠) يوقظ أفكاره الاضطجاع .

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠) انظر فهرس الأعلام

الصدق والإخلاص

هل الصدق استعداد طبيعي ؟ إن من الصعب معرفته . لأن الطفل فى بدء السنّ التى تظهر فيها علامات الأدراك يكون مجنياً عليه بالغش والكذب ، وعارفاً بالحيل والخداع بالتجربة ، وتعلمها على نفقته . وقد تدرس له أيضا !

فالوعود الكاذبة ، والتهديد العبث . لا تحصى ، حتى أن الطفل فى الثانية من عمره يعرف بلا ريب أن القول لا يطابق العمل .

قد نظن ـ وا أسفاه ـ أننا مجبورون أحياناً على ذلك . لصالحه ونفعه ! حذار حذار !! فالطفل الذى تجرّعه مهوعاً مع التأكيد بأنه سائغ جداً ، لا ينسى الحيلة . ولا يعفو عنها زمناً طويلا . لعبة فاتت ، ولن يقع فيها ، وبغض النظر عن التهذيب . فقد رأى أن الكذب وسيلة لنيل غاياته فبالطبع يصل به إلى المخادعة ، ليتق التعنيف والعقاب !

لا شىء أسخف من وعظه بالصدق إذا ضربنا المثل بالتدليس والخيانة . فهو لا يجهر بالقول . إنه يعمل مثل أبيه . ولكنه يفكر فيه كثيراً .

نلاحظ أن الأهل قد يستعملون الاستجواب الآتى غالباً . . . هل أنت أذنت لنفسك بعمل هذا ؟ من الذى فعل هذا ؟ ذلك تشجيع خطر على المخادعة . ألا كان يجدر أن نستعلم عن الحادثة ونحقق أولا ، حتى نقف على الأمر ، ولا يكتفى ـ إهمالا ـ بسؤال المذنب الموهوم وإعلامه باستجواب ذاته . إننا فى شك . أو إننا جاهلون . حتى إذا كذب الطفل أمل فى إفلاته من العقاب .

ما أشدها تجربة محرضة ! ما غرنا حتى ننتظر أن يبلغ عن نفسه ويخونها ، ويجلب على رأسه القصاص . باتباعه الأمانة والصدق ؟ إننا نتطلب أكثر مما يجب أن يكون . وما يستطيع أن يعمل ، وهو عمل بطولة ! فينبغى إذا أقر أن يخف العقاب الذى يستحقه ، لنكافىء حسن نية الطفل ، الذى يعترف بذنبه ، فأن لم نفعل علم الطفل أن سلامة سريرته كانت سبباً فى كدره وحزنه ، ويعزم على أن لا يكون صادقاً . ومن أقر بذنبه . . .

وقد لوحظ أن الميل إلى الكذب يبلغ أقصى مداه فى سن الرابعة والخامسة . فالطفل فيها قادر على ارتكاب الذنوب الصغيرة ، التى تقتضى التعنيف . وهو على كل حال صبى . ليراجعه ضميره ، ويخاطب بلسان فصيح نفسه . وكل همه التأكد من الأفلات من العقاب . والخلاصة : لا تخدع الطفل حتى لا يخادعك ، واكسب ثقته فيك حتى يكون صدقه الجزاء الطيب ، لثقته فيك ، وصراحته الثمن الأوفى .

كن حبيبا ، رقيقا فى سؤالك ، وعند اعترافه تكسب مصافاة ومحبة ، قد يكون حافظا أمينا ، تكليف الآباء المضاعف بأن يأمروا أن يسيطروا أحيانا ، وينصحوا كأصحاب دائما . إياك والاستهزاء بسذاجته ، أو مهارته ودقته ، ولا تفش شيئاً منها ، ولا تشهر ، فخيانة أمانة واحدة قد تصدّ عن المسارة واستيداع الأسرار ، إن أسرار تلك الأرواح الصغيرة التافهة ليست بمحترمة عند كل الناس !



الحافظة

الحافظة ملكة يقتدر بها الانسان على التذكر : أى تخزين وتنبيه الأفكار بالاعتياد عليها من الصغر ، أو قوة نفسية تحتفظ الأشياء فى الذهن ، وتحضرها للعقل عند الاقتضاء . هى معين العلم ، أساس البصيرة ، كنز الأفكار ، ومدخر الآراء ! والقول الحق : فعل تأملى منعكس .

الحافظة لا تبلغ صور الأشياء إلا بعبورها واختراقها واسطة : هى نحن بذاتنا .

وقد قال البعض : تذكر شيء ، هو تذكر الانفعالات . والتأثيرات الحاصلة . . . .

* * *

إن حافظة الأطفال قصيرة ، ومائعة . وفى العقد الثانى تنمو وتمتن : وهو أصلح عصر لترويضها ، وإلا عرضناها لأن تكون خائنة بطيئة . إن الحافظة كمثل لوح من نحاس خام منقوش ، قد يمحوه الزمن إذا لم يعد النقاش عليه بسنّه .

كثير من الناس ذاع صيته بين العامة أنه من أصحاب العقول : وهو لا يعيش إلا من ذكريات محفوظة ، ويحدث بها فى المناسبات والظروف ! .

قد يعجبك سماعه مرة . وتنحنى أمام مهارته وعلمه بما يأخذ لبك ، ثم تعرفه ، وينكشف لك ، لأنك سمعته يروى الحادثة ، والطريفة أو العظة فينخفض إعجابك به وتبدأ تظن أنك أعليت وأغليت عالمك . وبعد قليل تعرف أنه الحق . وإذن تكون مع القائلين بان الفهم والعقل لم يكونا

غالباً إلا الحافظة ، والكفاية والقريحة ، والاستعداد تتوقف على نقل الحادثة وجلب الخاطب إلى حقل ، قد أعد فيه من قبل - بعناية - يانع الزهر ، وبديع الزخرف ، ثم استعملت بسهولة تامة ولباقة متقنة .

إن حافظة مثل هذه هي حيلة صغيرة ، وخلب خادع أكثر منها سجية وطبعاً . وسواء أكانت مكتسبة أم هبة الخالق ، فالحافظة فى حاجة لمرانها حتى لا تضعف فتذهب ؟ إنها عون كبير ثمين فى التعليم ، وعيبها أنه فى أيامنا نروضها ونربيها ، ونعطل ونهمل غيرها من الملكات : نضحى فيها ملكة الحِجْر (١) والفكر ، المعقول العام والأمعان... التلاوة حرفا بحرف ، عن ظهر القلب ، المتون والحواشى - حتى بلا فهم - هى كل الشغل العقلى المفروض سنين كثيرة على الشباب !

رفيق فى طلب العلم درس تاريخ الرومان قبل تاريخ اليونان . كان يعترف وقد بلغ سن الرجولة أنه لا يستطيع ترتيب الوقائع ، مع قدرته على تفصيل حادثة من الحوادث . فهو لم يكن له نظرة عامة من علم التاريخ يعرف الوقائع منفردة ويخلط تعاقبها .

***

إن الحكماء تميز ثلاث فترات للحافظة وثلاثة فصول : الحفظ . والتعليق . والتذكر . وهاته الثلاث يقابلها سجايا ثلاث : دعامة الحافظة الجيدة ، السهولة والمتانه ، وسرعة الخاطر . والحال إذا فاقت الحافظة السهلة الحافظة الأمينة فذلك لأن الناحية الميخانيقية نمت نوعا ما .

فالطالب يحفظ سريعاً لأنه يروض هذه الملكة ، ولكنه يعلق قليلا .

---

(١) العقل

ولأنه يحفظ كثيراً وسريعاً جداً ، وليس لديه الوقت ، لهضم ما يستوعبه فالتكديس يحل محل التوليد.

إن صوت الحروف والمقاطع ترشده ، فتظهر الوزن والايقاع ، لا الفكرة فى النص والعبارة ، ولذا فهو فى حاجة أبداً ليقرأ بحنجرته لا بعينيه ، ليسمع ، فيعلق النغمة التى يتغنى بها .

وإنك ترى هديره إذا تلا . لا يفكر . وهمه الوحيد فى تذكر الصوت ، ولو كانت الفكرة هى الموحية للكلمة لما استعجل ، وفضل أخذ الوقت ، حتى يستجمع ، ويوجد الرباط المنطقى ، والمعنى الذى يجمع بين العبارات والجمل .

وإذا أمعنت النظر فى صورة ذلك التلميذ ذى الحافظة الجامدة القاسية ، ـ لأنه بعيد عن الفهم والفطانة ـ يظهر أبله بليداً . الشفاه تتحرك ، وآلة السمع تؤدى وظيفتها ، والفكر سارح هائم ، كم كاتب نسخ فاذا سألته عما نظر بعينه ونقل بيده ـ أجاب نعم نسخت . ولكنى لم أقرأ شيئاً . كذلك يمكن أن يقال عن كثير من الأولاد يقرءون ويتلون ولا يعرفون ولا يدرون . خمسة على عشرة من التلاميذ يترددون فيما إذا كانوا درسوا موضوعا من كتاب ، وليتثبتوا ، يفتحونه ، ويفتشون عن العلامة التى تعودوا أن يضعوها على الموضوعات التى استوعبوها . أليس ذلك صحيحا ؟

ومتى صاروا رجالا ، أقروا أنهم لم يحفظوا إلا ذكرى واحدة من زمن دراستهم : الضجر الكثير المضنى فى أيام طويلة ، وعيشة مرة مدرسية !.

* * *

وكأن الاستاذ يريد أن تزدرد معد عاجزة عن الهضم تلك الجرعة الثقيلة المزعومة أنها علمية . والتى جرب كتاب(١) تركيب الأدوية الرسمى أن يذوب فيها العلم بمقادير صغيرة ، ولكن غيرته تضاعف المقدار ، فهو يكوف (٢) بلا جدوى . لا للفهم ، ولا للحجْر . تلك العناصر رديئة التعادل ويخزنها فى حافظة لم تدبر لمثل هذه المجهزات ، والتى لا تحفظ منها فى الغالب إلا أثراً واحداً : الفزع من الدراسة . فبدل تفسير بتيسير مختار ، تفكيك مخل بتعسير مشوش .

إن التعاليم الملهمة بالتجربة كثيرة لدى الطفل ابن الأشهر ، فقبل سنتين عادة يتذكر جيداً ما يستعمل من الأشياء فى عرفه : السوط . الحلواء . الرقص . التدحرج . اللعبة . القبلة . . كل هذه تحدث فيه تأثيراً محدوداً . يدفعه إلى تعبير وتقليد مطابق للحالة .

ألا إن الحافظة محفظة الفهم ولوح العلم . . . وهى قبل كل شىء هبة طبيعية .

***

بعض الحفظة المشاهير :

• ميتريدات (٣) ، كان يخطب جميع القبائل التى فى حكم سلطانه بألسنتهم ولهجتهم ، ويحفظ أسماء جنوده .

• قيصر (٤) ، كان يملى أربعة كتاب وهو يكتب فى آن .

• سنيك (٥) ، كان يحفظ ألف كلمة من تلاوة واحدة .

---

(١) المراد بهذا الكتاب : المناهج المقررة للتعليم

(٢) يجمع

(٣ و ٥ و ٤) انظر فهرس الأعلام

« باسكال(١) » لم ينس حتى آخر أيام حياته ما حفظ من سن التمييز ، وهو الذى قال :

إن الأنسانية تظهر كأنها رجل واحد يتذكر ويتقدم !

« مجد الدين الفيروز أبادى » حفظ القرآن ، وهو ابن سبع سنين ، وكان سريع الحفظ ولا ينام حتى يحفظ مائتى سطر وقد زار مصر فى عهد الأشرف .

وفى ذيل ابن « فهد » على ذيل الشريف أبى المحاسن ـ أكابر من حفاظ الشرق .

وقد ذكر « ابن العديم » فى رسالة « التَّحرِّى على المعرى » قوة حفظ أبى العلاء الخارقة للعادة ، إن التذكر هو مقابلة الأنسان نفسه .

* * *

إن الحافظة تضعف ، بل تفسد من الأهمال والسنين ، وقد يدركها القصور من الأجهاد الدائم ، أو أذى يصيبها فى الطفولة والرجولة قصداً وتحجب فتكسف ، فينمحى مانقش فيها .

وتختلف أشكالها لدى الناس . فنجد من يذكر الصور . الألوان . أو الأسماء . وآخر الأصوات ، والأرقام والكلمات . وثالثا . الأفكار . وبهذا تتميز حافظة المصور والمثال . والرياضى والمؤرخ ، والفيلسوف ، ومن الناس من يتذكر الجزئيات أكثر من الحوادث العظيمة .

عرف رجل يتذكر أعداد أرقام المركبات التى يصادفها فى طريقه أثناء تروضه ، ولكنه يتردد فى ذكر أسماء أقرب الناس إليه !.

إذا قوى التأثير ، يعمق النقش والتصوير .

***

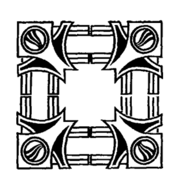
---

(١) انظر فهرس الأعلام

إن الاستظهار بلا فهم ، تخزين مواد متباينة : خام . تتعفن بتكديس بعضها على بعض ، وإنما يعظم حزنك إذا علمت أن الطلبة الذين يستظهرون هم الذين يؤملون فى جواز الامتحان . وأما التعقل حجر زاوية الأدراك والفهم فلا يهتمون به عادة ، ولأنهم يفضلون الشهادة على العلم فيُدَرَّبون ببغاوات صغيرة ، تعيد عليك أفكار الغير وما لها قدرة على تكوين فكرة لها . فهل يحسد مثل هذا الرجل الذى لم يكن إلا كلوح الطباعة ؟

وبمثل تلك القرائح ، لم نخرج إلا خفَّة بدن الرقاصين على الحبل ، أو خفة يد اللاعبين بالصاع ، أو الضاربين بالصنج .

وقد قال أحدهم ـ وكان قاسياً ـ إنك تجعل رأس الولد مخزن أثاث تحشوه بغير نظام ولا فكر ، بكل مايوهم علماً ظاهرياً ! .



أخص نقائص الاطفال
الأثرة ـ حب النفس

لقد بحثنا هذه النقيصة فى صورة الصبى سيء التربية : إن الأثرة هى الميل العظيم الذى تجب محاربته من بدء طلبات الصبى ، وتفاديا من التكرار قد لمحنا لها تذكرة ، وسنبحث النقائص الأخرى التى لم نتحدث عنها ، ونكتفى بالاشارة إلى ما يأتى :ــ

نكلف بستر ضعف الولد ، وننكر تبعيته لنا فى سنه الأولى ، ونصر على التنبؤ بما يريد . فنعرض عليه جميع ما يوجد فى الغرفة واحدا بعد واحد . إذا ظهر أنه مد إليه يده الصغيرة ، وربما بلا قصد ، ونعلمه أنه بصيحة صغيرة يحرك الأحياء ، والجمادات فتسعى إليه . إنها لخدعة دنيئة ، إنا نغرر به ؛ وهذا ليس كل شيء بل نداجيه بأننا نخشاه ، ونفهمه أنه قوى ، وكل شيء فى الوجود عبد له وملك إرادته .

أعرف حلاوة المسابقة إلى رغبات الولد ، وتزيين طريقه بالأزهار والورد ، وأوقاته بالانشراح والسرور . ولكن هل يبقى صغيرا وتبقى أنت حارساً كبيراً ؟ إنك ساع إلى الهرم ، ومنه إلى الفناء . ومن قبل هذا سيثب فى الحياة بأفكار خاطئة . وسيعترضه فيها رجال وأمور . فنى هذه يتهشم رأسه ، ومن هؤلاء يتفتت قلبه . إن هذا لا يشرح الصدر ، ولكنه الحق المبين ، لا يريب ولا يمين .

الأثرة تجفف الشيم الكريمة مصّاصة نهمة : تعيش من دماء الناس تستنزفهم وتبتلعهم .

إنك ترى أطفالا يلذون بأرهاق أمهاتهم بالسهر بجوار مهدهم ، اليد فى اليد ، وسواء عليهم أسقطت من النصب أم كلّت من التهجد ؟ وهن يَحْسِبْن أنهن يبرهنّ على حبهن .

بما ذا تسمون رعاية الصبية المُلينة للقلب القاسى ؟ إذا قالت يوما لمحدثها وهى طريحة الفراش : أنا لا أشكو حتى تنام أمى ناعمة ملء عيونها !!



الغضب

بمجرد أن يأتى الولد فى الدنيا يتولع بأظهار نوبات غضب : دموع ، التواء ، دبدبة ، مُبْدِياً بِها وجله . كأنه يحزن لضعفه وعجزه ، فيثور على آلام الدنيـا . وإذا شب ، فغضبه الهائج ، يستحيل غضباً آخر فاتراً كاظما شراً وأسوأ . فكم نرى فى الأسر قريباً أخرق ، أو صاحباً هاملا ، أو خادما مخبولا ، يتلهى بتهييج الولد ليتَعَبَّسَ وجهه ، بالادعاء عليـه مرة ، وإخجاله بماضيه تارة ، ومعاندته عمـداً ، وخبثاً ومكراً . مَنْ منَّا لم ير هذه الحاضنة السخيفة ، التى تدأب على أن تقول للصبى : اضرب هذا الكرسى اللعين ، وهذه المنضدة الخبيثة ، ودق دق صدر هذه المرأة .

إن هذا إنماء للشراسة ، وتعويد على الأنتقام والتعدى . وإن جمود الأثاث ، المذنب ، لا يسكن الطفل ، وسكونه يزيد ثأرته ، وفى الغـالب إذا أفرغ الطفل غضبـه على جسم صلب ، يحس باضطراب مؤلم ، يحرج صدره . فأذا شئتم أولاداً أشراساً منتقمين ، فالولد بين أذرعكم ، والعناد فى فمكم وفى يدكم . والطريق مرسومة ، ومحققة .

لاتعجبوا من الاستعداد للغضب ، إذا تأكدتم أن الضعف والعاهات الطبيعية هى أسبابه الأساسية . فكلما أحسسنا بعجزنا وقُصِرنا زادت شهوة الغضب فتلتهب بقدح الصدمات المتتالية فى الحياة .

فالأولاد ، والشيوخ ، والمرضى ،أقل استعداداً للتسامح من غيرهم

فاعتقادهم بعجزهم يجعلهم يتوهمون أنهم مضرورون ومهملون ، على أنهم لقسطهم يستوفون ، ولنتائج حياتهم المحتمة يحتملون .

فأذا عودتم الولد على النزق والشراسة ، فعامل الغضب الطبيعى مضاف إلى اضطراب النفس يجعله ينفجر لأقل مَسة ، وألطف هزة . وقد تزمن هذه الحالة فتصير مرضا . وقد يعضل فيسبب ارتجافا ، فالعضل ينقبض ، واللحظ يتقد ، والشفة ترتعد ، والجسم ينتفض ، والصوت يبح فى الحلاقيم ، أو يطن خارج البلاعيم ، وقد تعكه الحمى فتثابته ، وهيهات إن أقلعت .

فكم قتل الغضب ، ولا أنسى ذلك السيد يوم استشاط على جواريه حتى خار ، فاستلقى على سريره علّه يجد راحة ، فذهب إلى الراحة الأبدية . .

أسر أمير رومانى قائداً شجاعا ، فمثل بين يديه ، فرأى فى سيماه الازدراء ، وهيئة التحقير والاستهزاء . والشجاع كريم . والكريم حر ، والحر يعاف الضيم ، فانفجر الدم ونفر من خيشومه وفمه . فغُصّ ، فكتمت أنفاسه فقضى .

فالحمى الالتهابية ، والكُمْنَة (١) والتشنج . والسكتة ، قد يكون سببها تلك النقيصة . فالرياضة والماء البارد ، والعزلة والتأديب ـ حسب الحالة والمزاج ـ قد تمكن من التغلب على هذا الانحراف المشئوم .

إن رؤية الهذيان الغضبى ، قد تفيد أحيانا ، ولذا فأن أهل « إسبارتا » (٢) كانوا يوحون إلى أولادهم القناعة ، والزهد ، بالنظر إلى الذين هدَّنتهم الخمر ، وأَنهَكَتْهم (٣)

---

(١) ظلمة فى البصر تصيب المرء أحيانا

(٢) انظر فهرس الاعلام

(٣) أضعفت عقلهم

الغبطة - والغيرة

إذا كانت الغيرة غريزة غير محمودة ، فهى منبثقة من منبع يظهر أنه غير فاسد فى ذاته . أصلها على مايظن من شعور انعطاف ودى ، نما وزكا إلى الأفراط .

الغيرة أخت الحب ،كما أن الملك أخو الجان .

لا تخلطوا الغيرة بالحسد . فأذا رأى طفل أمه تدلل أحد رفقائه يغار ، وإذا اشتهى الحلواء فى يد الجار ، أو لعبة أخيه . ورغب فيها ، ليفرح بها أو ليحرمه . فقد حسد

وإذا قلت : إن الغيرة بنت العطف والهوى ، فأنى أردد صدى المذهب الشائع . وعندى أن هذا العيب ، يدفعه حب الذات .

وهذه حال من ينفر من ملاطفة أمه ، ومنها يفر لاستثقالها . ويصرخ إن توهم منافسا يحل مكانه فى قلب أمه ، والرضيع إذا رأى ظئره حانية على فم غيره ، تأخذه غيرة شديدة .

ألا إن العطف لا دخل له فى هذا .

فأذا استحكمت هذه الشهوة ، فلا فرح ، ولا جذل ، والغرض للطعام يقل ، والعزلة والسكوت يحتكمان ، والنضارة تنضب ، والبشرة تتكمش ، فالسقام ، فالهزال ، فيصير هذا المنكود الصغير حرضاً ، وربما خطفته المنية قبل أن تبين أسباب ضناه ، والمرض الذى يأكل قلبه .

الشعور بالغيرة نادر . إلا إذا ولده بعض الآباء بِلَغْوِه المؤذى ! كأن يقول للولد : إنى كنت أتمنى فلاناً ابناً ، لا أنت ، جاهلا مدى

القول وصدقه وتحقيقه . فيحار الولد فتقل ثقته ، فقد خشى منازعاً مقلقاً .
والخطر يعظم بالموازنة بين الأخوة ، فالغيرة تبذر الكره العميق ، والعداوة اللدود فى تلك الأرواح الصغيرة ، راوية بالألم ، جانية للندم ، فالولد المحبوب أخ مبغوض . .

إن الوشاية غيرة أكثر منها خبثا ، والوشاية نقل الهفوات والغلطات ، عن الأخ والرفيق والأخت والصديق .

إن من لايلجأ إليها قليل ! لعله يزكى ، أو يطعن ليبرأ ، فيجتبيه أبوه ويرضى . وكم نحمل الولد على تلك الجبانة كلما غالينا فى إطراء إخوته ،

إن هذا الميل مفسدة للقلب فاحذروه مااستطعتم ، حتى لايصبح طبعا . هذا محتمل . وليس بالنادر ! ميل مفسد ، ساتر لما يخفى الولد غير ما يعلن تمليقاً لا يرضاه آباء . قد يظهر الابن عناية كبيرة بأمر أبيه ، وقيامه بتنفيذه بانعطاف وتكريم ، فيقدر له عنايته ، وإذا أطل من قريب تبين أن الوشاية تعدل الشعور الخبيث . انتقام ، حسد أو تمليق .

إنا لا نتكلم عن الحالة التى يامر الأب ابنه بملاحظة الآخرين الصغار ، وإنما نقصد الوشاية لا الأخبار !

مسألة دقيقة ، إذا كان الولد حسن النية ، ورأى أخاه ارتكب أمراً إدّا ، واعتقد أن إخبار أبيه نافع للمذنب ، فيجب أن نشكر سعيه ، برهانا على صدقه وأمانته ، وإنما تَتَعَقَّدُ المسألة إذا كانت الواقعة صحيحة ، ولكن الأخبار فيه شىء من حب الانتقام من أخيه ، فلَومه جَنَفٌ ، وتركه بلا حد حيف ، إذ أنه يحث على القسوة بأخيه المذنب . والأمر فيه مروءة معيبة ، وخيانة أمينة . فما التدبير ؟ الحل

البصير : توفيق فى هذه الحالة ، بأن نصوب عمله (لأن صحته صادقة) ونلطف المدح بجزاء عملى .

أرى الأيضاح لازما : قال محسن ـ وقد رأى تحسيناً فى غيبة أبيه يلعب بمبراة ، ويهدد بها أخواته ـ يا أبت ، إنى قد حذرته خوفاً من أن يجرح إحداهن ، ورغم تحذيرى إياه استمر فى لعبه . وهأنا أبلغك. لتنظر فى الأمر . فيقول له الأب : يا بنى حسنا فعلت ، وإنى سأحرمه الفاكهة والحلواء ، وبما أنك أرشد منه ، أكلفك بملاحظته فى غيبتى ، وفى هذا المساء تخبرنى بحركاته وسكناته ، فالمراقب الصغير ، يجد التكليف ثقيلا وعملا ، بقدر ماهو شريف ، فالدرس يكون درسين ، والعظة عظتين. فهذه الطريقة لها تأثيرها المجدى على النمّامين !

الخوف

أُذُن الطفل مدخل الخوف عليه وسبيل إفزاعه ، وهى السبب الأول . زعقة ، أو صدمة ، ترعب الولد ، على أنه لا يهتز من حريق نار تلتهم الدار وتأكلها . الخوف يعظم بمكابدة الأخطار . فابن العاشرة ، يحس بانفعال الخوف أكثر من ابن الاثنتين .

إن الخوف درجات حسب تأثيره على الأعضاء والعقل .

(ا) الذعر : فزعة فى النفس من مفاجأة خطر ، وهو خاص بالأولاد يستولى ويجَمِّد ، ولا يلبث طويلا .

(ب) الرعب : انخلاع الفؤاد من الفزع ، أو استمرار الذعر ، ويتمكن عند الاعتقاد بوجود وتحقق الخطر .

(ج) الهَوْل : توجس من خطر منذر أو شر متوقع ، نعتقد أن لا نجاة منه ، ويقتنص الإدراك . مُخِزٍّ . معجزٌ .

(د) الفَرَقُ : أخذ النفس والمشاعر من منظر بَشِع ، أو شىء شنع ، يرد الأنسان ويقهقره ، كوميض البرق .

(ه) الفزَعُ : استيلاء الخوف على العقل المهوّل شأن الخطر ، الباحث على مفر . وإذا كان الهول والرعب والفرق تهمِّد وتهد القوى . فالفزع يضاعفها لا للهجوم والوثوب ، وإنما للفرار والهروب ، فيكسب خفة وقوة عجباً ! فأذا قلت : إن الفزع همة الخوف ، فقد صدقت وأصبت .

(و) الخشية : رهبة وإجلال بعد تفكير وحكم ، وليست انفعالا فجائياً كالخوف ! لقد تخشى النفس القوية . ولا يخشى إلا أولو البصيرة ،

وتمد بالتفكير والتدبير ، فهى عون سديد . وإن كان فيها وعيد شديد .
وهى مبدأ الرأى ورأس الحكمة ، رأس الحكمة مخافة الله ، .

***

الولد يستنكف الأقرار بخوفه . لا لنزق عجبه بنفسه فحسب . خذ ولداً مقراً بخوفه من الظلام ، ومع ذلك يبعثه أهله فى حالك الليل يرود الحقل أو البستان وحده ، يتفقد المخزن . أو طبقة الدار . تنزه ومراقبة لاتجدى . إلا فى تسوىء حاله .

إن الخوف وهم وخيال ، فوجب أن يتحمس ضده ، إنه لا يستهان به إذا استُدفع إليه . قل إن الولد أبله . إذا اضطرب هكذا ، ولم يك ثمة داع للذعر .

ولكن المسألة ليست الوقوف على وجود خطر ، وإنما على معرفة ما إذا كان هو يعتقد أن هنالك مخاطرة ، هذا هو أساس اضطرابه ، فلا تزيدوا خبله باختباره . ويحسن بكم مبدئياً أن تطيبوا فؤاده ، فاذا هدأ وآمن أثبتوا له أنه كان ضحية وهمه وخياله ، إنكم لا تشفونه ، ولكن تدلهونه إذا دفع إلى خوض مخاوفه ، وإذا استخففتم بفزعه رددتموه إلى ريبه ، فمن لم يخدع ويغش ويرهب . لا يداخله الخوف ، فلا يخشى .

الشعور بالخوف منشؤه الظرف لا الميل ، فلا تسمحوا بمصادفته ، كم حاضنة جاهلة تقص على الطفل القصص الفاجعة المرعبة لهواً وسلوة . أو تخويفاً . فخيلة الولد اللينه تلتهمها التهاما ، وتجسمها تجسيما .

قبل أن تنتزع اعتراف الولد يجمل بك البحث ما استطعت فى طبيعة خوف الولد . والأب الفطن البصير ولو قليلا ، لا يضل زمناً طويلا .

والبحث ليس بواسع فى الواقع . الخوف من النار ومن الأشرار ، ومن الشبح والطيف ، هذه هى كل مخاوف الأطفال .

إنى أضرب لك مثلا : ـ بعد تناول العشاء ، ابن صاحب الدار الغزّال ذهب مع ابن عمه فى الطبقة السفلى ، التى فيها المناسج . وكانت ثلّتان (١) كبيرتان من الكتان معلقتين فى مسمار ، بحجم واحد وطول واحد ، وعلى ضوء ضئيل قد دخلا إلى المكان الذى فيه الثلّتان . فقال الابن لابن عمه : أبى يقتل الناس ويشنقهم كما ترى ، وأشار على الثلتين فانزعج وصرخ وفرّ ، والرعب يخذل مفاصله . وأغمى عليه ، وأوشك أن يموت ، ولكنه لم يخبر أباه بما جرى كما هى العادة .

هل هو تأكد من حقيقة هذا المتحف المحزن ؟ لا . فسذاجة طفل لا تصل به إلى هذه الدرجة . ولكن الخوف لازمه زمناً طويلا .

إن الأمثلة كثيرة . والجهل شائع . ولكن أذكر هذه الواقعة . لأن أمثالها مستفاضة بين الأسر .

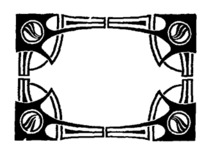
انظر خوف ولد من هؤلاء التُعس الذين يستجلب لهم النوم بقص الأحاديث المخيفة المرهبة ، عن وقائع قطاع الطريق العاثين فى الأرض العابثين بالأرواح ، واللصوص المتسلقين الجدران ، الناقبين الحيطان ، الطاعنين بالسكين . الرامين بالرصاص . لقد حان وقت النوم ، فوضع فى سريره ، وترك وحده ، وأطفىء النور ، وبعد هنيهة ، صوت خفيف ! صوت انفلاق خشب الكرسى الذى فى الغرفة نبهه من نعاسه ، فمخيلته المشحونة من القتلة والنعوش والأشباح ، صورت له تلك المناظر البشعة ، فغاص فى فراشه ، وغطى رأسه بلحافه ، وضم يديه إلى صدره ، وركبتيه إلى بطنه ،

---

(١) مجموعة خيطان من الصوف أو الكتان أو غير ذلك

فتكور . وبالفطرة فهو يَتَكمّش ، حتى يَضن على عين عدوه الذى يخشاه . وفى هذه الحال يكون قد انحسر الدم من الظاهر إلى الباطن ، وتضاعفت ضربات قلبه ، ونبضه زاد ، وتنفسه قصر وأسرع ، وكان يتكتم أنفاسه ، حتى لا يُهتدى اليه ، بدخول الهواء فى سَحْره (١) فيُعثر عليه . العين محملقة والجسد متجمد ، والفكر ذاهل منحصر فى سبب روعه ، حتى خارت قوة عضله ، فغرق فى عرقه ، المتصبب من الوهم ، ثم أخذته سنات مفزّزة بأضغاث أحلام مرعبة ، ثم ثابَته الأرق ، فضعف حتى عز شفاؤه؛

(٢) الرئة



الخجل

إنهم يبالغون فى شأن هـذا العيب ، الخجل يلائم جهـل وضعف الطفولة . أليس العجب بالنفس لاصالح الولد الحقيقى ، المحرك لـكثير من الآباء لهـذه الوجهة ؟ لايكمد النفس أكثر من رؤية ولد يعرف فيه الذكاء والعقل ، وهو كامن فى بكم تام ، أو ظاهر فى أدنى فضائله ، يبدو تحت مستواه ، وأقل من حقيقة ذاته ، فى الوقت الذى يتمنى فيه أن يتفتح كالزهرة . أو يظن أنه كذلك ، كأنه عامد . لم تعهد عليـه حاله هذه . وكلما حرك عقله بعوامل اصطناعية ، زاد فى سكونه باحتراس رزين ، لأن العقل يبغض الاستهواء ، والولد يحس بأنه يراد رفعه إلى مستوى فطانته ، دون أن يبدو منه مايدعو إليه ، فتتخبط إجاباته الماهرة ، وردوده المعقولة . فيُتصرف فى كرامته ، فيذهل فى هذا الخاطر ، فلا يُملك نفسه لتلك المفاجآت وتأثيرها . فيظل وقوراً ، مفكراً ، بهتا ، وكلما زادت فطنته زاد حرزه ، وإذا صعّدوه على كرسى ليلقى عليهم ، يشعر بالأكراه ، ويجد الكلمات تافهة ، وهى التى كانت تدور على لسانه فى الساعة ، بجمالها الطبيعى ، وبدون تكلف . التفكير عقد لسانه ، وأطبق فمه . وعلى العكس ، فى الولد قليل الرزانة والتفكير . ينتهزها فرصـة سنحت ، ليتمشدق ويهُذر . . ويشذ تمام الشـذوذ ، حاسبا أنه كيس وظريف ، يكثر حتى يخجل أهله من لغوه وكلمه !.

إن الطهى قد يفلح أكثر من العرفان . ومظهر الكفاية مبلّـغ أسهل من الكفاية . وثبات الجأش فى أحايين كثيرة له فوائد عظيمة

وإنما من الوجهة الخلقيـة ، الحياء فى الولد ينبىء عادة عن جودة العقل وصفاء الفكر . هو بنت فى حيائه . وحياؤه ابن شعوره بعجزه ، وبدنيا درجتـه إذا وزنت بغيرها . فمن عرف قدر نفسه ، فقـد برهن على عقله وفضله !

ألا يبرأ الولد من هذا العيب الطفيف تدرجا كلما اشـتد ؟ الحياء - لا تنس - يتفق والمروءة والشجاعة يوم كريهة أو شدة ، يفزع له الباسل ، ويبسط يده فيه الكريم ، والأمثال كثيرة .

إن أكثر ماتكون الخشية توقياً من النفس . لا حذراً من الناس . الخجل ليس فيـه إضرار للنـاس ، وقـد يكون مضيعة للحيّ ، لا باخساً فضلا ولا خادشاً شرفا ، ولا ثالماً عرضا . وإذا شئت فهو شقاء لاأذى .

ما الدعّى الشاب ! إلا المعجب بنفسه ، مصاب بداء عضال ، واهم . مغرور . غمرٌ . غشمشم . مدع . وهو ناقص . عليم . وهو جاهل . قدير ، وهو عاجز . متعاظم ، وهو حقـير . يخال أنه سواء كبرائه ، وكبير نظرائه ، فيصبح ممقوتا وملوما مرذولا . فاذا شب فظ ، وآض عجبُه جبروتا ، حتى إذا نَبُه انتُقِد . وقل شاكره . ولانفضاض الناس من حوله كثُرَ منكِرُه .

وأولو الفضل يعلمون أن كمال العلم محال ، قد أوتوا من العـلم القليل . فيتواضعون لأنهم يخشون ، وفوق كل ذى علم عليم ؛ وكلما زادوا علماً زادوا حلماً ، إن تواضعوا ارتفعوا . وإن سئلوا نفعوا ، أو سألوا انتفعوا . هكـذا شأن الألباء . والعجب قسمة الجهلاء ، من عموا عن أقدارهم فضلوا ، وفرحوا بجهلهم فخروا ، مفتونون بأنفسهم ، مكروهون من الناس . سبحان مقسم الحظوظ .

الولد الرهيب

حسن الأدب يقتضى نصح الرهيب من الأولاد . واجب . رأى حصيف مجمع عليه . الحكيم تعجبه وتلذه الكلمات الساذجه العميقة ، والآراء الناضجة السليمة ، وجميل النقد الصائب المباغت الصادر عفواً .

من أخص صفات الأولاد القول المفاجىء ، الوثبات ، الملَح السانحة ، فطعمها الشهى ، اللذيذ ، وجرأتها وحماستها تبارى بنات الأفكار الكبيرة ! ! وهاك بعض الملح والسوانح : —

١ ـ سلام عليك أيها الصبى . إن أباك قد مرّ على بيتى ، وكنت غادرته ، لعل له حاجة ؟ أبى ؟ أبدا . لقد قال : الحمد لله ! ! ياللبخت !

٢ ـ قدم مضيف لضيفه دجاجة حنيذا ، قد رباها . والمرء يسّر إذا قدم ما اعتنى به لصاحبه . فقال الولد بحمية وبغتة : أهذه الدجاجة التى فطست أمس فى الحوض ؟

٣ ـ دقت الباب زائرة ، ففتح الباب الولد ونادى على أمه ، تعالى أسرعى . سيدة البارحة ذات الأنف الطويل كالعمود .

٤ ـ سيدة قابلت أم الولد فى الطريق ، لها فوق شفتها زغب ، كفتى طرَّ شاربه ، فحدق فيها ابنها ، فجاهدت لتصرفه . سدى . ثم سألها . لِمَ يا أماه لم تحلق شاربها وهى امرأة ؟

٥ ـ أيتها الآنسة لاتنظرى طويلا فى المرآة ، ليس فيها شيء جميل ! فأجابته مفحمة ـ وكانت ذكية ـ ولماذا وضعتموها فى بيتكم ؟

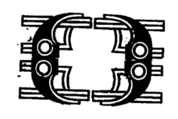
٦ ـ اليوم يوم المقابلة ، وسيرسل لى بعض صواحباتى باقة من

الزهر ، دلالة على متين المحبة فقال لها ابنها أمام زائرة : أنت يا أماه
كلفت الزهار بصنعها ! هل نسيت ؟

٧ ـ كيف ؟ هل كاتبتنى ؟ لم تردنى كلمة منك . فتدخل الولد .
أنسيت ياأبى ؟ ألا تذكر أنك ألقيت كتابه فى النار ؟ ! وقلت : الخطاب
لايستحق جواب ! .

٨ ـ هل أعجبك الكرز الذى أهديتك ؟ قل لى ماذا وجدت فيه؟
بم أحسست منه ؟ المغص الشديد ! .

كل هذا جميل فى النقد الخالص ، وإذا كان حسن الأدب يوجب
علينا تأنيب الولد ، لبغتاته ووثباته ومُلحه . فقد نسمح أن يكون من
قبيل المثل : ماكل حقيقة تقال ياولدى .



الحب الأبوى والحب البنوى

الموازنة بين الحب الأبوى والأمى

الأم أفضل مدرسة . قالها حكيم : وأنا أقول : مهد التربية .

لقد عاهدتك أن أكون حرا مستقلا فى رأيى . ولذا فلا أتردد أن أذكر الملاحظات الآتية :

الأم وضعت وهنا على وهن ، كما أنها حملت وهناً على وهن ، وأرضعت وهنا على وهن ، وحضنت وهنا على وهن .

فأذا جاء الولد الدنيا وجد فى أمه قلبا حنونا ، وعطفا كاملا . ذلك الولد لايراه الأب بالعين التى ترى بها الأم ، ولا يقدره تقديرها ، قد يفخر بأبوته الحديثة ، ويعلل نفسه بوارث اسمه « حتى وارثه » ، ولكن الرضيع لايبعث فيه التهلل والبشر العظيم اللذين تحس بهما المرأة بأمومتها المخصبة المظفرّة .

وفى الأيام الأولى تكون محبة الأب هادئة ساكنة . وأما الأم فحبتها من المبتدأ فى أوجها ، وملء فؤادها ؛ لاتفكر فى عيشها ، محبة لا لعلة ، تحبه لأنه ابنها . فقد تنسى وتسهو عن نفسها ، ولا شىء فى الدنيا يلهيها عن حشاشة قلبها . وفلذة كبدها ، حبها إخلاص ممتزج بأنكار الذات ، ومهمتها التى هى فى بدئها هم وعناء ، وتعب وشقاء بضع سنين .

فكم باتت ساهرة ليالى ، شفقة وخوفا قبل أن تلمح ابتسامته ، وترى انعطافا من ذلك العزيز الصغير ، الذى هو قطعة منها !

سواء عليها أحرمت أم تألمت من أجله ؛ ليفرح هو ويمتع ويمرح فكلما قاست أحسّت بأمومتها ، وقد يأتى اليوم فيعرف الولد وجوده ، ومن حوله . ويتمتم بحرف أو حرفين ، فأذا بَـأْبَـأ أحس الأب أنه يناديه ، فيشعر بهزة حديثة . وإذ ذاك فالتأثير يعظم ويتعمق فى قلبه ، ويفوق سرور ساعة الميلاد .

ولِمَ تأخر شغفه عن شغف الأم ؟ لانه يحب لا كما تحبّ حبا منزها . إن حبه مشوب بشىء من الأثرة : هو الغُرْم . الغرم . العطاء . العطاء ،

الأم تحب ولدها بنسبة التضحيات التى تتحملها وتعملها لأجله ، وعطفها يزيد كلما زاد ألمه ، أو زاد ضعفه وسقمه ، حتى إذا كان مئوفا ، فنصيبه من حنوها كبير . إنى أشك إن كان الأمر سواء من جهة الأب الذى يخال لى أنه يحب الولد بقدر السرور الذى يدخله عليه . ويسبب انشراحه . فرق يريب . شتان بين الحبين !

* * *

إن شوكة الأم فى البيت لها فوائد كثيرة ، إن من عشر أمهات ثمانى يعرفن فرض تربية أولادهن . وواحدة تستطيع حسب الظروف أن تستتم واجبها .

وفى العادة من عشرة آباء يجهل فن الأبوة ثمانية ، وواحد من الاثنين يقبل أن يحمل عبء التربية مع زوجه .

أيها القارىء لك أن تفعل ماتريد بهذه النسبة التى أذكرها كقاعدة تقيس عليها . فاذا لم يعتن أب بتربية أبنائه فليقم بالواجب المطلق العام : بالتصديق على أحكام الأم ، فان لم يفعل كان آثما وعن إجرامه مسئولا . ذلك التصادق يدعم وحدة البيت وحسن تدبير الدار . وهذا شىء عظيم .

فتفويض الأب الأمر خير من تدخل شاذ طائش موكول إلى التقادير والمصادفة . إن مركز الأم مع ذلك يجعلها قريبة من ملاحظة طبائع وأميال وعيوب أسرتها الصغيرة . وأما الأب الذى يأخذ باللجام ، ثم يرخى العنان ، بغير قياس ولا أساس فقد يضع نفسه عقبة بلا إرادة ، أمام تدبير الأم .

إنك إذا شددت جوادين فى اتجاهين منعكسين أفنيت القوتين ، وأعدمت الحركتين إلى السكون التام وأما بجوادين متوافقين فى المقصد ، فأضيق الخطى ، تقدم . وأوسعها مغنم . والصواب أن يستعير الأب شيئاً من دماثة الأم ، ويستوى على كرسى السلطة الطبيعى ، وأن الأم من الجهة الأخرى تحس بشدّ أزرها به فتدبر سياسة أولادها بعزم وحزم فى غيبته وليحذر أن يهيء للولد وسيلة تدلّله . أو تفسد ماأصلحت الأم فى الأويقات التى يشغل فيها بابنه . عجبا . ألا يرضى بان يكون الأب حلو الطعم بتركه المراقبة والعِقاب للأم ، حتى يعمل على استمالة الابن بتدلله .

إن بعض الآباء يشبه بعض الأصحاب الزوار . ويدع الأم ، وهو بعيد عن الدار ، فى عذاب الطلبات وغضب البنات ، ومشقة هذا الدوام على هذا الحمل هى الحامل للأم بأن لا تسمح بكل مايتسامح به الأب فى ساعة راحته ، وتسليته بولده .

وهل تظن إذا جهل الابن الباغى القانون وسنن الاجتماع التى تسلّح رب الأسرة بسلطان واسع . أو علم بشىء منها . ألا يدرك رجوح إرادة الأب على إرادة الأم ، فيلجأ إلى هذا القضاء الأهلى العالى . ليعدل أحكام الأم التى يراها قاسية فاذا سُمعت دعواه كانت الطامة . احذروا أن تفعلوا .

وحمادى الأمر أنه إن لم يكن الأب ، كما هو الأكثر وجوداً ، فى ظروف تمكنه من الاشتراك فى تربية ابنه مع أمه . فعليه أن يفوض أمره لها تفويضاً مطلقا ، حتى تفرغ جهدها ، ولا يحس الولد بمعقب لحكمها وتدبيرها . وإلا فقد خانها بعلها وأبطل عملها .

ربما فى السنين الأولى يكون الأب الشديد لا يُفرح به ، ولا يتهلل للقائه . ما كان أغناه وما أشغله ! ليترك الأمر للأم ؛ دعها تعمل ، واشدد أزرها ، وكن واثقا أنها تعلم الولد كيف أنه يحبك ويجلك .

لقد يكون الأمر أفضل من رفع التكليف بين الأب وأولاده ، أن يوقفهم بإشارة يد أو زجرة فم ، إن تعدوا . بسبب تهاونه ساعة ملاعبته ومداعبته ، وعليه أن يقول لزوجه : ياصاحبتى . السلام عليك . إنى تاركك وأولادك وذاهب إلى عملى ، ولكن على أى حال تركهم ؟ - علم الله - فى هياج وغضب . ولذا فقد رأى الهروب ، المناص من لجاجهم وصخبهم .

لقد كان يفعل ذلك الشاعر الفرنسى « راسين (١) » فبعد أن يقضى ساعتين مع أولاده يلاعبهم على بساط . يرتدى ملابس المفنين أو يدخل ينفرد ، بشيطان شعره الخالد ، وبأى ترحيب تقابل هذه الأم المسكينة وقد زجت بنفسها فى هذه العاصفة ؟ غضب وصخب . وانزعاج ، تعالج غضب ولد . وتلطف صخب ثان ، وتهدىء انزعاج الثالث الآخر . وتقول لأمين : احفظ درسك : ولعادل اكتب صحيفة ، ولفاطمة طرزى صورة هذه الزهرة ، فانظر كيف ذهب الأب المسلى اللين ، وأتت الأم القاسية اللوامة ؟ مقابلة - للأسف - موجبة . ومتناقضات - للحزن - مجلبة ، تؤيد - ياحسرتاه - نظريتنا الحقة فى تربية كثير من البيوتات .

---

(١) انظر فهرس الأعلام

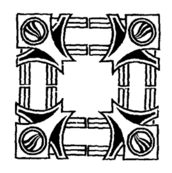
الأم تريد أن تدبر ، فلا تمكن ، والأب يقدر ، ولا يريد . وفى المعركة . الممثل للجنس القوى يتظاهر ، ويتكل على الجنس الضعيف . فى تنظيم المهمة ، وكشف الغمة ، مع الصبية الشياطين، وهذا مايسمونه دع الأم تعمل ، وبسلامة النية ، نعتقد أنا نقوم بالواجب الأهلى . هذا ينطبق على المثل السائر ، رجل يأكل التمر . وآخر يرمى بالنوى ومخلوق يلذ باللباب وآخر يسف النخالة بالتراب . قسمة ضيزى (١) !!

إن النقد العظيم الذى يوجه إلى الأم هو إفراطها فى التافه من الأمر ، وشغلها الكبير ، بأحقر الحوادث ، تهويل فى الاعتناء ، مبالغة فى الاحتياط ، تكبير للشكوى ، إغراق فى إظهار الشفقة لأهون ألم ، وأخف سقم ، والغلو فى صوت توجعها وتلهفها أكبر من هلعها فى تخوفها ؛ وشر هذا إنقاص الرجولة والأقدام والقوة ، وجعل الولد مخلوقاً ليناً ، ذا وسواس ، جبانا !

فاذا تسلخ جلده ، أو اصطدم يمكن أو يجب وضع رفادة وقاية ، أو عمل تدليك فوراً . ولكن هل الصياح ضرورى ، بصوت الاستغاثة والندبة : ولدى العزيز ، ملكى الكريم ، إنك آذيت نفسك . ما أشد ألمه ! هذه الدمية الجميلة ! علىّ باللفافة . هاتوا الرباط ، أسرعوا . تعال بين ذراعى يا كنزى الغالى ، أتتألم كثيراً ؟ يا سلوتى فى هذه الدنيا ؟ فأن كان بعد هذا التمثيل ، والصخب ، والتهويل . لا يظن أنه فى مرض شديد وإصابته خطرة ، يكون الأمر عجيبا غريبا !! يلاحظ أنه يكون هادئا ما دام الألم خفيفاً ، وإنما بعد اضطراب

(١) جائرة

أمه ، تأخذه الشفقة على نفسه . ويخشى أن سيتألم كثيراً ، حتى أن أمه غلب عليها الخوف بهذا القدر ! فيتأثر باضطرابها ، وينتهى بالبكاء على ألم وهمى ، بدمع ساخن يَهمى . إن التربية دعامها ليس تخفيف الألم ، بل تعليم الأقدام فى الملمة ، والثبات فى الشدة . وتحمل الأذى بجميل الصبر ، والرضى فى المصيبة بصاب الصبر !



الحب البنوى

إذا كان حب الأبوين فطريا ، فلا يجرؤ أحد على القول بهذا على الحب البنوى .

فرغم المظاهر ، هو ليس ابن الفطرة وإنما ثمرة التربية ، فجهل الولد ، وضعفه لا يسمحان أن يكون غير ذلك . فلأجل معرفة الحب ، يجب معرفة الحياة .

فاذا انفردت مرضع أو خادم بحضانة الولد ، ولم يظهر الأبوان بمجرد بدء تعلقه واتصاله بالناس ، ليغرسا فيه ، ويعلماه الحب البنوى. فهو لا يشعر بوجودهما ، ولا يحس بأى حرمان ، لأنه عاش يتيما حكما .

المولود تدفعه الفطرة إلى البحث عن أمه ، وإنما لا يظهر الولد شغفاً أزيد من شغفه بالثدى الصناعى ، أو السائل المغذى ، لأن هذا هو كل متمناه ومشتهاه . كالعصفور المنتفض جذلا بقرب زقة بعشه . قلب الدغل أو قفصه المذهب .

إن حب البقاء فى كل الأحياء ، يحرك الفطر ، ويخلدها . وعجيب أنك واجد الطبيعة بوجه عام ، لاتقصد إلا حفظ النوع ، ولكن فى الدنىء من الحيوان يخال أن التعلق الأمى أو البنوى ليس له داع ، إذ أن صغاره تحس أنها قادرة على السعى وراء رزقها ، من ساعة وجودها فى العالم ، فاذا ارتقينا إلى جنس الطير نرى العصفور يبحث عن القوت ، ويدفىء ويحمى فرخه ، فاذا راش هُجِر العش ، وأصبح خرابا . وعفا السعى والميل المتبادل ، وتناكر العصفور وفرخه .

وكذا يكون فى البشر . إذا لم يضف إلى الفطرة ، الاعتبار الأدبى للأحسان ، وما قدم من عمل الخير . والمودة المدعمة بالدليل والبرهان ، التى هى نتيجته المحمودة .

وأما العطف الأهلى والميل الطبيعى ، أو ما يسمونه بلحمة الرحم ، والعصبة ، والدم ، فغير قادرة على إحكام رابطة أكيدة دائمة .

إن صوت الدم يتكلم . يقولها الشعراء الذين آذانهم أدق سمعا دون خلق الله !

فليكن . الدم يتكلم . نسلم جدلا . أيوحى هذا الصوت قد تتنبأ أمّ ، وتكشف أن ابنها الذى أخفيت عليها ملامحه ، قد بدل بآخر ؟ وإنما هذه اللغة السرية ، واللهجة الغامضة . يجهلها - على كل حال - الأولاد ، طالما لم يبلغوا درجة فى الأدراك . تسمح لهم بتفهمها ، وإذن يجب أن يتعلموا كيف يحبون ؟!

الخطل : الظن أن الولد يحب بالفطرة والطبع . هذا وهم باطل ! وإنما الولد يلجأ لك مدفوعا بالحاجة ، ولا يبدأ فى إعزازك ، إلا إذا قدر إحسانك .

إنى أجرؤ أن أقول ، لأولى الألباب فى الصيغة الطريفة الآتية : إن حب الأبناء مستمد من الآباء .

معرفة تحبُّبك إلى الأولاد ليست بأهون صعوبة فى فن الأبوة . إن معيار الحنو الملَهم يقدر بالفضل والأحسان ، والجميل المصنوع ، إذ أن الولد يعرف أن أباه رب الدار التى تؤويه ، وصاحب اليد التى تطعمه وتغذيه ، وكاسيه السرابيل التى تقيه ، وأن أمه تجهد (١) غذاءه وتطهيه ، ولولاهما لحرم هذه النعمة . وإذا نبذ أصابته النقمة .

---

(١) تتقن

استمع لهذه الكلمات الحلوة الكريمة : يشب الولد ونفسه تنمو ، م تدرك ، فتذكر ذلك الفضل الذى شملها . ذلك الحدب والملاطفة ، والشفقة تولد فيها هزات الحنو والانعطاف ، وبشاشة وجه الأم ، وحنين صوتها فى مناجاتها تجعل الولد سميعا بصيرا واعيا ، ويعرف فضل اليد التى آتته ذلك الفضل . والاعتراف بالجميل ينبثق ، فيتحد العقل والفطرة لتقوية الحنو والانعطاف . فتأخذ الراحة الصغيرة ، وابتسامة الفم الأخرس ، ولمحة العين الفصيحة ، أن ترد على الفضل بجزيل الحمد والشكر ، ويجهد الطفل أن يتمتم أصواتا تدل على فرحه ورضاه ، وكأنه يقول : إنه يحب . تلك ثمرة ما تلقّن من الدروس المفيدة .

إنا بعيدون عن الفلسفة والأدب . وإنما نحن أمام غلام أثر طبيعة ، أنانى ضرورة . مشاعره لها عليه سلطان مبين .

فعلى الآباء أن يحسنوا ويهذبوا هذه الانفعالات إلى مستوى رقة القلب ، أو العطف ، وهى الثمرة الناضجة الحقة للتربية الحسنة .

التهذيب : كلمة عَجَبٌ ، هى وحدها منهج عظيم ، ومنار هدى . التهذيب رفع تلك الأرواح الصغيرة إلى صف الأطهار . إلى مقام الحقيقة ، إلى التقرب من الله .

وأما الأثرة المحقرة المصغرة فأتلاف . بل خنق للحنو والشفقة البنوية ، حتى الأيمان بحب الوطن . حقا إن الأبوة تدخل عميقا فى معنى الوطن ، الأب أصل ، كما أن الوطن أصل ، يرجع هذا الأصل إلى الجدود ، كما يرجع أصل تكويننا إلى الأرض التى غذتنا ، وإلى مياهها التى أروتنا . وإلى نسماتها التي أنشقتنا . وفى الوطن عظام آبائنا فوجب

علينا تبجيلها وإعظامها . إنما الأسرة وطن مصغر ، والوطن أسرة مكبرة ولذا ، فلن تجد الوطنى الحميم الصميم فى الولد الذميم اللئيم ، الأنانى الاثيم !!

كم سمعنا شكوى الآباء من قلة محبة الأبناء ، وأن حبهم لايعادل معزتهم عليهم . يعنون بذلك أن حبهم قوى شديد . سخى عتيد . والحب البنوى يحتاج إلى المزيد . نعم . هذا صحيح . ولكن إذا أحب الأولاد بقدر مايستطيعون فلا لوم ولا تثريب . وحتى لايكون حيف . يجب أن نذكر أن كل أحد منا يوفى دين محبته على أجلين : أجل الأصول ، وأجل الفروع .

إن الحب البنوى كصك مسحوب من الجد على الابن فى صالح الحفيد . فالأب يرد ما اقترضه إلى ابنه ، وقل إن شئت : حوالة بالعطف والميل مستحقة للفروع . إنما الحب البنوى كالسيل ينحدر ولا يصعد .

ولا مراء فى أن الآباء غير مجزيين من أبنائهم . ولذا يقال فى المعنى الضيق : إن الابن الباغى النسين . وكنود غير أمين .

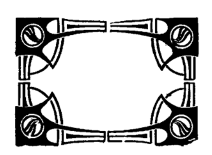
والحق أن الابن لايقدر محبة أبويه إلا ساعة أن يعنى بمحبة أولاده ، وهذا تخفيف على الأبناء فى صغرهم ، إذ لوشغل الولد بآبائه من طفولته وتأثر . واهتم واغتم ـ لما وجد القوة والنشاط ، حتى الأفكار الضرورية لتربية أولاده فى رجولته . سنة الوجود ، ولن تجد لها تحويلا .

إذاً لاحق للآباء فى الشكوى . وعدم المساواة بينهم وبين أبنائهم فى الحب ، ليست سببا حقا لامتعاضهم . ولرد هذا الاعتراض يجب حل المسأله الآتية :

أيهما أسعد . آلمحب أم المحبوب ؟ هو المحب بلا جدال !!

على أن هذه الأميال الأبوية المحفوظة للأحفاد ، لا تحرك فى الجد

غيرة ، ولا تفسد بالأحقاد ، وهى أنفس نقد لديه اتفق على الوفاء به من عنايته لحفيده . فانظر إلى أى حد وصل هـذا الحب المنزه . وهـذا هو التضامن اللامتناهى ، فى العواطف الأهليـة ، الممتزجة فى الـكنز الشائع ، والأقطاع المشترك : البيت وما أدراك ما البيت !



السعادة عند الطفل

عيار السعادة

العقبات والعوائق التى يصطدم بها جسم وعقل وقلب الطفل فى هذه الحياة ، تخال لغمارته تخبطاً منكراً لا يحتمل ، وهـذا دلالة على شعوره العميق ، واقتناعه بمتاع النعيم ، وبحبوبة العيش ، وبتمييزه هذا يتمشى الطفل مع منطق الفطرة .

فواجب الأب أن يعجل بتلطيف هذا الاقتناع باقناع مقابل ، وهو أن الأرادة والحرية قد تتقيدان . وقد يتحتم تقيدهما ضرورة ، والراحة فى هذه الدنيا ، استثناء ، ونادرة زائلة !

***

إنا صورنا لك الطفـل فى الثالثة من عمره ، وقلنا إن أول إلمام يجب أن يحيط به عند إدراكه بعد وجوده ـ سبحانه وتعالى ـ الشعور بالفرح العميق ، وشكر الجميل على ما فيه من نعماء لا يمتع بها كثيرون .

لتدخل فعلا فى فكر الطفل ، ولنَجهد حتى نكون مع إحساسه لنحس مثله ، أو نحدث نفسه لتشعر بالانفعال المحرك لروحه الصغيرة !

ولـكن ما مقـدار السعادة الذى تعطيه هـذه الدنيا . وما عيار مناقضاتها ، وعدد محنها وأحزانهـا . وصعوباتها التى تعترض إرادتنـا وآمالنا فى هذا العالم الفانى ؟

كل هذا يجهله الطفل ، ولا يستطيع التنبؤ به ، ولو على التقريب

هو لا يعلم شيئا ، أو أنه لا يعلم إلا شيئا واحدا : لا يجب أن يتألم ويقاسى ، وبعد هذا العلم ، لا يقدر الكائنات ، والأحياء ، والحادثات إلا بالتربية .

إن التجربة ـ وهى العامل المفيد فى تقدم البشر ـ لا تجديه إلا مؤخرا ، وعند تهيئة عقل الطفل بالمؤثرات الأولى . لا ترسخ فى ذهنه ولذا فقد قلنا كل الحقيقة : إن الطفل المغمور فى النعيم الغارق فى بحر العواطف الأهلية المحفوظة بعناية الخدم ـ قد يظن أنه أتعس ، بل أشد تعاسة من أى خاسر آخر . إذا لم يطع هواه فى أتفه الأمور التى يعلق عليها شأنا خطيرا . ولا سيما بروح المعارضة والعناد .

لا تتعب نفسك فى تعويضه هواه بأنفس منه ، لا يقدر عملك ، ويرفض هديتك ، غاضباً بلا اكتراث . لقد جسَّد السعادة كلها فى الذى اشتهى فلا يرضى به بديلا أبدا .

والحقيقة أن الولد يرغب فى الخضوع الأبوى أكثر من الفرح بالشىء المطلوب ، حتى إذا خضع الأب ، سكن ورضى ، ولها عن مطلوبه ، وخفَّ إلى شىء آخر ونسيه !

إن الولد يتصرف فى هذا تصرف الفيلسوف ، حقاً إن الحادث تافه فى الظاهر ، على أنه ذو شأن كبير ، إذ أنه قد عرّف أباه من له الكلمة الأخيرة النافذة . التى لا ترد ، والولد يشعر ـ ولا شك ـ أنه إذا ردت كلمته ، فقد ضاعت عليه أشياء كثيرة .

إذا الطفل ليس بسخيف . إذا تشبث بتافه الأشياء ! وإنما يبرهن بذلك على عقل وإدراك عملى عميق جداً فى غاية من الخطورة . المسألة .

مسألة مبدأ متنازع عليه ، يعلق عليه أمراً عظيما ، والطلب ، اللعبة علة وسبب !!

فيظهر لك من هذا أنه يجب التبكير بألقاء بعض الحقائق العامة فى روعه ، ليعرف نفسه ، وما يجب أن يكون عليه ، وما ينتظر منه . لقد يسهل الأمر ، إذا اتبع فى مناسبة ، وبقدر المستطاع يومياً . بتعليم الولد : أنّ الدنيا دار محنة لا دار متاع ، وأحظى الناس فيها أقلهم عذابا ، ولا سعادة بلا شوب ، والفضيلة ينطوى تحتها الفضل ، ولا فضل بلا شظف ! والتضحية ضرورة ، والجلاد محتم . والعمل بالنية والخاتمة ، والأنسان يأتى الدنيا قهراً ! ويخرج منها قسراً ، والفوز فيها نادر ، والكنود شائع ، والأنفاق بالفضل فرض ، والأحسان من البرّ ، والعمل سنة الوجود ، وكلٌ حارث وهمّام ، وفى كل مال حق معلوم للسائل والمحروم ، وأن لا يحسد فقيرٌ ذا نعمة ، وأن لا يبطل محسن حسنته بالمنّ ، وأن تفرح اليد العليا بالأعطاء ، كما تفرح اليد السفلى بالعطاء !

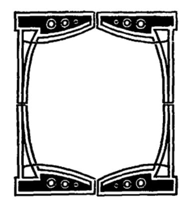
وينبغى أن يكون الأنسان رحيما بالمذنب ، غير متسامح فى الخطيئة وبعبارة أخرى : إن دائرة المبادىء الحديدية . ينبغى أن تلبّس بأنواع الحرير المسماة : بالرعاية والطيبة والأحسان ... ويتعلم الولد أن الهياج والاضطراب ليسا النشاط والهمة ، والقسوة ليست الوقار ، والفهم َحباب العقل ، وأنه ليس من الحكمة ولا الحق طلب التمتع بكل اللذات ، لأننا قادرون عليها . إن هذا مجلبة للأثرة المقسية للقلب ، والعجب المفسد للعقل والرخاوة المضعفة للجسد . وذكره ، فقد تنفعه الذكرى ، ولا تقتصر على القول الثقيل عليه ، فأنك لا تقنعه . بل أشفعه بتطبيقه قدوة وأسوة !!

فاذا دبدب ولدك ، ودب فيه اليأس ، من بلوغه مراده ، فادعه ليعينك

على زحزحة الحائط العائق لك. الذى عزمت على قلعه، وادفع معه، ثم أثبت له أن كثيراً من الرغبات يستحيل تحقيقها رغم الصياح ، والغضب والحدة ، فذلك البرهان ومثله من جنسه درس مفيد . يوجب التفكير والتدبير !!

وإذا دعت الحال أن تعجل بخلع ضرس الولد ، فالأولى أن تزكى فيه جرأته ، وتسأله أن يبرهن على رجولته وإقدامه ، وأن تعرفه أن تحمل الالم والصبر ، من شيم الرجولة الكريمة ، وأما إذا استعنت بالوعد بالنقود فماذا يحصل ؟ إن وعدت بخمس قطع مكافأة ، وكان الولد جبانا أكثر منه شرها . فقد تزيد عليها عشراً . . . ؟ ولا عائدة . وفى النهاية يؤخذ بحيلة أو يسلم قهراً إلى الطبيب .

لقد أقمنا سوقا للطفل وهو حر فى رفض الشراء . وكان الأجدر والأفيد أن يقنع بهاتين الضرورتين : الصبر والطاعة ! !



الاستحسان والرضاء

لقد أوضحنا أن تعريف الولد سعادة الاستحسان ، والميل لرؤية الأشياء من نواحيها الحسنة جميل ، وفضل عظيم . دعوا الكنود يردد أن الورد له شوك ، ونحن نفرح بوجود الورد فوق الشوك !.

هذا يذكرنا بحديث ذلك الرجل الذى سقطت على كتفه جرة ماء بارد . من علو دار من يد خادم ، كانت تسقى زهرها . واهاً لك . ما أسعدنى ! كيف أنت سعيد ؟ نعم سعيد . ألا كانت تسقط جفنة ساخنة على أم رأسى ، ومن أعلى السطح ؟ محال أن تستزيد على هذا الرضى والتسليم . إنه لدرس خليق بحفْظِه والتفكير فيه . وفيه كثير من الحكمة ما يغنى عن سِفرٍ كبير تعليمىّ !

إن العقيدة بأن السعادة تمكن ، حادثة متغيرة . عقيدة عظيمة إذا رسخت فى الولد ، وكان الآباء على هذا الرأى ، وتلك العقيدة . فالشعور الفطرى ، يحمل الجميع على تثمين النعم ، والدعة التى نمتع بها ، بالقليل ثم بالأقل ، حتى يأتى حين ، لانشغل بها ولا تزدهينا ! نضرب الأمثال للناس ، ليقدروا السعادة فى هذا الهباء !

مسكينة أم ، ولا أقول أم مسكينة . حدثتنا عن أحزانها ولهفها على طفلها المريض ، وسهرها الليل ، وأنها عقدت استشارات من نطس الأطباء ، وقد أشاروا عليها بتبديل الهواء فى قمم الجبال ، وأن تفارق دارها وعاداتها ، من أجل ابنها ، فما كان أكثر غمها ! هذه الأم المحترمة

لاترى إلا عذابها ، وإنه لأعظم عذاب ، وكانت تقول : إن المصائب العظمى . لاتدهم إلا إيانا !

على أن هنالك أمهات لايحببن أولادهن أقل منها ، ولا يملكن الضرورى من المال ، لمعالجة أبنائهن ، وشراء الدواء ، أو عمل السياحة التى ربما كان فيها حياة ولدهن ، أو استشارة أهل الذكر والفن ، ويكتفين بعرضه على شاب غُمْرٍ غشمشم طُبَيِّب . فانظر إلى تمزيق حشاشتهن عندما يقلن : لو أن لنا طبيبا نطاسيا ! آه لو كان لنا مال . لنفدى به ولدنا ، لشَفا ، وَأَبلَّ ، ونجا ، فالقدرة على العمل ، الضرورى ، هى سعادتهن بالقياس إلى ألمهن الموجع !

ألا يتأتى أن يتركن عزيزهن المريض ـ وتحكم الضرورة ـ بين يدى جارة شفيقة ؟ ليكسَبْنَ قوت يومهن ، وولدهن فى وعك الحمى ، وضيق النفس ! لا . ليس فى الدنيا شىء نسبىّ مثل السعادة ، ولا تقديرها فى أعين الناس !!

إن الأمثال كثيرة ، وتحت الابصار . فوجهوا إليها الأفكار .

يأيها الذين تريدون أن تكوِّنوا قلوب أولادكم ، فكّروا فى هذا وتفهموه ، تأخذكم الرحمة والشفقة على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، الذين يخال لنا أنهم مردة أشرارٌ .

حقاً إنهم فى خطأ كبير إذ يسخطون ، أما كان يجوز أن يكونوا أبطال الفضيلة وإلى الغير يحسنون ؟؟ وإذا كنتم فى حالهم . فبماذا تشعرون ؟ وما أنتم فاعلون ؟ وما تقولون ؟ إنه لسؤال صارم ، ضعُوه لأنفسكم ، بشجاعة وحرية وصدق !



الرغادة

إنكم تحسنون صنعاً إذا عودتم أولادكم عيشاً قواما : أدنى قليلا من مرتبتكم ، وأموالكم التى تسمح لكم أن تطمعوا فيها .

أشعلوا النار بأقل مما عندكم من الحطب ، إنها تضحية مع حب الذات ، ولكن خيركم وخير أولادكم يدعوكم إليها . هى السبيل لمغالبة التكاثر فى العجب والبذخ الذى يشكوه ويذمه كل من فى الوجود ، ولو أنه لا يغيِّر شيئاً من عاداته ، الناعمة الفاخرة .

الترف خطران : إنماء الكبرياء العدوة اللدود للأحسان ، وإثارة الفقير . إنى أريد الأفراط فى الترف . الفخفخة : أستاذه التبذير ، ومنّاعة الخير .

يصيب المرء الترف من قطرات خفية : لاممنوعة ولا مقطوعة . فى الصرف الباطل . فرويداً رويداً من الكفاف إلى الرغد ، وقليلا قليلا إلى الترف ، ثم الأسراف حتى يسقط فى الأثرة .

ولأن الطبع يدفع إلى تقدم الناس . والتفوق عليهم ، فأولادنا يطمعون فيما لم نسمح به لأنفسنا . وان لم نراقبهم ، يشتروا مالايفيد مخاطرة ، حتى يعدموا الضرورى . والحال أنه لايجب اطاعتهم فى كثير من الأمر ، إذ أن ثروة الأب ستقسم على الأولاد ، ومركزهم المالى يتناقص بسفه بعضهم .

ولا شبهة أن الأوفق مراعاة المناسب للمقام والبيئة ، حيث إنه ليس بالأنفاق من سعة ، بل بالبذل الكثير يفلس الناس! فمن كان لديه

ألف ويضيع ألفا وخمسمائة سنويا فهو مهلك ، ومن كان له خمسة آلاف ويهلك نيفاً وأربعة آلاف فهو مقتصد . والأمر نسبي . ومع ذلك إذا لم يبدأ أحد بضرب مثل التوسط فى الأمر والاعتدال والاقتصاد ، فلن ننقص من الزهو الذى نسببه أينما كنا دون أن نغالبه فى أى مكان !

علموا وأقنعوا الأولاد أن الفضل والمنقبة والفضيلة محتشمات ، متواضعات ، تعرف كيف تستغنى عن حلية الكبرياء . عرفوهم أنهم إذا اشتراهم أحد ، وساوم محبتهم . أوقاسها على الأبهة التى يصطنع منها جلالهم ، وجب قطع صلته المشئومة . وكفى بثلاثة من هؤلاء عشاق الترف ليسحبوا أسرا إلى مذبح التبذير ، ثم تعيش بعد محصورة . ومحسورة تَعُدُّ الخبز ، وتُعد البؤس ، تلك صحابة تمزَّق . لا تفتَق !

فروا من هؤلاء الخلان الذين هم رفقاء السوء والخسران . وإن لم تستطيعوا كفاحهم فالبعد خير دواء !

فى كل بقاع الأرض ـ إلا القليل منها ـ يعلق فى ذهن الأولاد ، أن العالم ينقسم قسمين : مستغن وفقير « ولا أقول : غنى . ليس فى الدنيا غنى إلا الله » .

ترتيب مثل هذا ، يفخم المكثر . ويمحق المعدم . وينظم صفين : حاسدا ومحسودا ، ابذلوا مااستطعتم من الجهد ، وضعوا أمام أولادكم نوعين من بنى الانسان ، بهذا التقسيم الحكيم : الصالحون : مستغنون أو فقراء . والآخرون . . .

إنى أقول ـ ما استعطتم ـ لأن هنالك فسحاً مرعية ومصونة ، والاحسان ـ مهما كان عظيما ـ لايكون جزاؤه إنكار اللياقة وحسن الأدب ولا درجات الاجتماع .

ولكن لا ينكر أنه يقضى على المرء أن يعامل من لا يريد ، ويجالس من لا يحب ، ويحتمله صبرا ، لأن مكانه معدود من مقامه ورتبته . أو لم تر رجالا فقراء . قد محى اسمهم من كتاب الأحسان ، لسوء سلوكهم ، وحياتهم الشاذة ؟

إننا بوجه عام فى الدنيا ، نعتبر الفقراء : الكسالى الأصحاء المستغلين لخير الناس بدل أن يعملوا ويكدوا ، أو كلاب الصيد المعربدة الحقود التى تنصب العوائق والحواجز فى الطريق ، ليس هؤلاء هم الفقراء ، بل الذين يصونون ما بقى من ماء وجههم وتحسبهم أغنياء من التعفف ، والمرضى ، والذين أخمد نشاطهم ، وثبطت همتهم ، المختفون عن الناس حياء ، المختلون بصبرهم وبتحنان المحسنين رجاء . إنكم تعلمون أنهم كثيرون . !

إن السائل ليس بيائس أبدا ، والفقير المستحق من لا يسألك ، وحاله تستجديك .

إنى فرقت بينهم لأن الأحسان يقتضى القياس والهدوء والتفكير لا العجلة ودهشة الشفقة الثائرة !

لا ينبغى للولد أن يصنع أمرا بلا مشاورة أبويه ، حتى الحسنة !

وإذا ارتقينا إلى الشعور الدقيق تبينا أن توزيع صدقات الأخيار إجراء للخير . وإنما الحرمان من لُعبة أو قرص من الحلواء . أو نذر ثمنه للفقراء هو فعل الأحسان أجمل وأنفع الفضائل . والأعطاء ليس الاستعطاء . ؟

قد يظن بعضنا أنْ تبرأ ذمته أمام ضميره ، وهؤلاء البائسين . إذا قال بانفعال كاذب : أنا لا أطيق رؤية هؤلاء . أشفقة هذه ؟، أبدا ! ولكنها الأثرة بعينها . هو يخاف حنو قلبه ! يخاف حل عقدة كيسه .

الصغير المرائى

يا أصحابى الأعزاء . أيصح أن نقول لأولادنا : أنتم الفضلاء ؟ لكرم المحتد ، وشرف المولد ، ولما حولكم من عظيم العناية وجميل الرعاية ، وإن الذنوب والجرائر الدنية لا تستميلكم . !

لا فضيلة إذا لم يكن إغواء ومجاهدة ، وتحريض ، واستمساك . إذا ليس من لا يريد سلب رغيف بطلا ، إذا عرف أنه سيأ كل حلواء شهية فى المساء ، هل عجيب أن تكون مجتهدا وقد لطف عملك ؟ نخف جدك . والمعالى تكتسب بالكدّ ! وبقدر المتاعب تنال المراتب ! والطّموح كدّاح ! وهل يثاب المرء إذا لم يأت فاحشة ، لأن قانون العقوبات ، أو قانون حسن الأدب ـ لا الفضيلة ـ يضطره إلى ردع نفسه ؟ ورده عن غيه ؟ وتلطيف لواذع لسانه ؟ هنا تظهر ثمار التربية.

إن إتمام المطالب . ليس فى مقدور الطالب . وعلى المرء السعى وليس عليه ضمان القضاء ، والمنى تكسَب لا تغصَب . فعليكم أيها الأولاد بالعمل . والعمل أكثر وأحسن ممن نبت من أرومة هادرة ولا يألو جهداً ، لبلوغ القليل من اللياقة والحشمة فيجاهد بعزم وثبات ، ليصلح ما فسد من تربية سيئة أولى !.

لنكن مشفقين جداً على الفقراء ؛ ولا نظلم منهم أحدا ، وليس بغريب أن يكون أولادنا ملاحظين أحسن من أولادهم . وعندنا من الخدم من يساعدنا على ذلك.

وليس لأنك عزيز فى قومك ، مجمَّل فى خلقك ، تكون مفضلا .

وإنما بقدر الكد وعلو الهمة تفضل وتصلح ، وكيف يكون حالنا لو نبتنا فى تلك البيئة التى نعيب بحق من نشأ فيها ؟ هل كنا نساوى أكثر من شروى نقير ؟ .

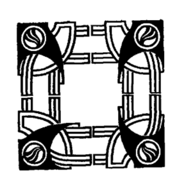
وإذا كانت البطانة الطيبة تكفى بطبيعتها ، وبلا مجهود ، لحماية الولد متوسط الحال ، من الاعوجاج ، وما فى تركيب النفس من الشهوات ، فذلك فضل ونعمة ، لا تدعو إلى الاعتزاز والفخار ، وبالعكس فبعض الزلات والهفوات . وإن كانت غير ذات شأن فى نظر الاجتماع ، هى خطيرة من أولادنا ، لأنها غوايات خاصة ببيئتهم وقومهم .

لنشرح هذه الفكرة مع ملاحظة أن عقولا ترى فيها تغاليا : إن الصغير الفقير الناشىء فى جوٍّ فاسد ، المدفوع جوعا ، قد يرتكب قانونا سرقة (لنقل هذه الكلمة) ولكنه أقل إجراما ضميرا وقلبا من ولد سرى يظهر ملآن تعجرفا وعتواً على البائسين ، أو معتادا قدح الناس وهجوهم وأكل لحمهم والازدراء بهم .

ألم يكن التكليف على قدر العقل وتقدير الواجبات ؟ ما أسهل تعذير الغير على ذنبه ! وإذا لم نزلّ فما أقوانا ! وما أهون القضاء لأنفسنا ، افتخاراً بأكليل النصر ، ولم ننزل ميدانا ، ونشرع سيوفا ، ونرم سهاما . !

حقا . لكم أن تروا غير ما أرى ، وما قلت هنا ، ولى أن أبين الرشد ، وأذكر به أولادنا وهذا أكبر دليل على قوة العقيدة فيما أوردت فى هذه الفكرة . وكلما زاد الدخل طال الحساب .

إذا تركنا أبناءنا يشبون ، دون أن نطلعهم على دور الفقر ، ومواطن البؤس ، فقد أخفينا عليهم السواد من البشر . وحرمناهم مؤثراً من المؤثرات الأعظم تهذيباً للأخلاق ، قد يمكن أن نلاقيه ، أو يلاقينا .



روح الشباب - الغيبة
النقد - الهجاء

المثل

١ — كم سمعنا ، وكم رددنا أن الدنيا عمياء! أوليس من الحق أن نقول : إنها عوراء ؟ لنتبين الكلمة : ما من أحد ، إلا هو مجمع خير وشر ، ووعاء نفع وضر ، متفاوتين فى النسبة . والفرق بين الكسبين يكوّن الشخصية ، فذو الخلق العظيم غير معصوم من الزلل . وله كبوة . والآثم الكبير ، يحس ساعة ما بشعور حميد شريف ، وإن لم يكن غير ندمة ، أو التوبة : فضيلة المذنبين ! ومتى كان هذا ، فالدنيا تبدو للطفل إما مرغبة خلابة ، وإما منفرة محقرة ، كما تُعرض عليه بصُفْحَه حسنة ، أو أخرى قبيحة .

ولأجل أن نبرز هذه الملاحظة فى معنى جلى نصور لك شخصاً بريشتين ، ونصفه بلسانين :

الصورة الاولى

(١) أتعرف؟ إنى أرى صاحبك بعيداً عن الأدب بما يسميه صراحة ، لايبالى أن يجهر برأيه مواجهة ، كان يمكنه الانتظار ، حتى يخرج فلان من الدار

الصورة الثانية

إن صراحة صاحبك ، وإن قاسية تعجبنى . ومع مثله يرتاح الضمير ، ويعرف الانسان حقيقة رفيقه ، وبدل أن يطعن الناس من الخلف يقول كل مافى قلبه ، بصدق وخلوص نية . إنى أقدر هذه الصراحة

(ب) هل رأيت أخاه ؟ إنه لدميم ماأبشعه ! ولكنه ليس أخبث الناس . ولا أنهشهم للأعراض .

حقاً إن أخاه ليس بأملح رجل ولا بأخفه روحا إلا إن طيب نجاره . وواسع خلقه ينسيان مافى وجهه . إنه رجل حلو اللسان ، لايتجمل للناس بتشويه الناس .

***

(ج) أسلم بأنه ينبغى أن يكون صاحبك مقتصداً ولكنه يكاد يعيش على الطوى . على أن ماله كثير ومقامه فى الناس كبير . إنه يجزىء القرش عليه وعلى أولاده

أعرف أن صاحبك فى يسر ، ولكنى أعرف أيضا أنه غير مغال فى ذوقه ويعيش عيشة متواضعة . لاينعدم الشىء فى منزله ، النظام فيه على أتمه . لاينهر السائل إذا قصده ، ولا يرده جوعان

***

(د) عجيب هذا الرجل لايتكلم كثيراً . وإذا زارنا يحادث زوجى ، وكأنى لست فى مجلسه وإذا كلمنى لايزيد على التحية ، إن الزيارات لاتعمل للأزواج فقط ، إنه ليس من عصرنا

الرجل رزين ، وعاقل ، وكرجل مؤدب لايقطع صاحبه القُدام ، فيزوره ليسأل عنه . ويطمئن على صحته ؛ وحديثه فى النافع ، ولو قل كلامه ، فهو فكه ، خفيف الروح

أرأيت هذه التأويل وتلك الفروق . والتباين فى الوصف والشكل . والشخص واحد ؟ !

يا ترى أأولاد هذا أو ذلك الوصاف ، سيكونون على هـذا النمط وهذا الرأى ، فى نعت الناس ويحكمون عليهم بعقيدة آبائهم ؟ وهل من سبيل إلى مطالبتهم بحلاوة الأخلاق ، ولطافة الروح وهم لا يتنفسون إلا جواً فاسداً ملآن ذما وتعييبا ؟!

ومن فرط ما يرى اللئيم الصفحة العوراء ينتهى بان لا يبصر إلا بعين عشواء . فضعوا أولادكم فى المكان المضاء بالعقل ، وكرم الأخلاق يكسبوا ، ويربحوا من حميدها خلالا تنير لهم طريق مستقبلهم .

إن الرجل الساخط يبدى العيوب والمثالب . لا يعجبه شىء فى الدنيا . لا يرضى إلا التقبيح والانتقاد . يرى من الشمس كلفها . لا ضوءها الوهاج ، وفى الوردة لا يتنسم عبيرها ، ولا يحس بنعومتها ، ولا يبصر لونها الزاهى ، وإنما يقاتلها علّه يجد حشرة بين أوراقها ! روح عدمت المعنى الشعرى ! فكر بلا خيال بديع ! قلب جاف ! إنك تستحق الشفقة . لقد جهلت الراحة من رؤية الجمال ، وتصور الخير !

٢ — وإذا حكمنا بالمظاهر - والمظاهر خداعة - وقعنا فى الضلال الكبير والبغى الفاحش . فكم نتكلم بغير علم . ونحكم على أساس الجهل ! وإذا تمسكنا بفكرة عرضية ، وكلمة لغو تشابهت علينا ذكرت على سبيل الفَرْض والمثل - انفجرت حناجرنا بفحش القول ، وسقط الكلام ، وظالم الأحكام . والحال إذا صبرنا وتعمقنا فى الأمر ، علمنا ، وعذرنا ، وما كنا جهلنا فلمنا . أضيفوا ملاحظة تثبت وجوب الاحتراز فى تقديرنا : هى الأفتاء أمام أولادنا بما يزرى ويخجل

٣ — قولوا لأولادكم ، وبلا ذكر أشخاص قياما بواجب المروءة :
إن من الناس من ينتقد فيمزق كالشوك . ويجرح كالحجر . ويهشم كالقطار ولا عفو ولا رحمة . يؤول كل إشارة ، وكلمة إلى مقصد عدوانى ، حتى إذا عرضت ما فى جيبك . أجابك بعتوٍّ وغضب ، أنا أعرف أنك ذو مال ، ولكنى لا أطلب صدقة . باطل ما تعمل ، ومهما ضحيت وبذلت ؛ فلا تطمع فى رضاه .

إن من الأصحاب من يشكر لك جزيلا تفضلك ، إذا زرته يوما فى السنة . ومنهم من يريد أن يحجزك أياما . حتى يجد فراغا ، ليسلقك ويسقيك من العتاب على زيارته غبا ، ووصله قلاً . فشغل خاطرك فى مثل هذا المشهد يكون ، لا لتُعجب ، فهذا غير محقق ، ولكن ليرتاح قلبك ولا يوبخك ضميرك ما دمت قائما بالواجب . افعل ما يجب ، لا ما يستوجب الناس . إنك لن تستطيع أن تكم الأفواه وتسد الحلاقيم ، وتكسر الخناجر . وتقطع الألسنة فأنت أبله إذا عالجت أن تعمل واجبك ، لتعجب وترضى العباد .

إنك لن تتقى شر الناس ، ولو عشت فى خباء ، فى كبد السماء ، ولا تبرأ من أمراضهم . وإذا اعتزلت فى رأس الجبال ، أينما تكن يلذعك لسانهم . وإذا خلوت مع الله ، جعلوها مع إبليس ، والغرض الخسيس .

هكذا الناس ، وهكذا الدنيا ، وهكذا الحياة ، وهكذا مذهبهم . والرأى السائد صوت الخلق أقلام الحق كما يقولون ! فهل أنت باخعٌ نفسك ؟

نعم . إن القاعدة أن الناقص طعان ، ليرهب سنان الحق ، وتشويه الناس شيمة الخسيس من يظن أنه يعلو إذا حط الناس . فيقلب الفضيلة

رذيلة . والمحاسن عيوبا ، هل أنت فى مرية ؟ ألا تصدق أن فى الخلق كثيرا قد تملكتهم روح الحقد ، وكره الناس ٠ وقد محوا من لسانهم كلمة حق أو ثناء

فنى قاموسهم :

الحلم	ضعف	الصراحة	وقاحة
الثبات	عناد	الأدب	تمليق
الحذق	خبث	البهاجة	رقاعة
المهارة	حيلة	الصمت	عىّ
الجسارة	غشم	السكوت	حرد
الشجاعة	تهور	الهدوء	كسل
النشاط	هياج	الادخار	بخل
الكرم	تباه	الفكاهة	مجون
العفو	برود	الأستقامة	غباء

إن مؤلف هذا القاموس : الحسود الحقود .

إن هذا يذكرنى سنة بعض رجال النيابة العمومية :

المتهم كان يسرع الخطى ، كان يفر ! المتهم ثبت فى مكانه ! كان يترصد ! المتهم كان يمشى مشيته ! كان يستر حاله ! المتهم أقر بذنبه لأنه لايستطيع الأنكار ، والأدلة حاسمة ، وإذا أنكر فأصراره يضاعف له العقاب ! . . .

إذكروا لولدكم إذا بدأ شبابه وهذا وقته ، حتى لايتلجلج ضميره ، ويضطرب فكره ـ أن من خلق الله المتبعّقين (١) فى الكلام الذين يؤكدون

---

(١) المفرد : متبعق : الكذاب المبالغ

البهتان والباطل ويلبسون حديثهم الوقار واليقين الثابت ، فترى المستمع راجح العقل ، واغر الصدر ، مخزيا خجلا . ولأجل أن تمالك شعورنا ، ونكظم غيظنا إذا آلمناهم ، أوجادلناهم ، فما على أولادنا إلا أن يتيقنوا أنهم ليسوا مضطرين أن يتنازلوا عن آرائهم الصحيحة ، ويغيروا عاداتهم التي عودهم آباؤهم إياها . لأنه راق لأحد الناس أن ينصح لهم ، أو يملي عليهم إرادته سفاهة وحمقاً ، ولا جدال في وجوب مراعاة هذه الملاحظة في التأثيرات التي يدعى بها قصد إصلاح التأثير المنزلي ، بدون حق يخول ذلك .

فكمْ من أناس يتباهون بتأديب وتوبيخ الآخرين ، وهم يجهلون كيف يقومون سلوكهم ، ويعلمون الناس الاستقامة ، وينسون اعوجاج أنفسهم ، فيجب ـ حتى لايغُرّ الولد ويجني عليه ـ أن يحذّر مُسارّتهم ويعرف أن العالم محشو بالسفهاء الكاذبين الأشرار . خير للإنسان أن يضحي ـ في فكره واعتقاده ـ أشخاص بعض الشواذ أو الفاسدين ، من أن يفسد رأيه ، ويزور حكمه .

إن ترك الاولاد ـ والشك والوسواس في صدورهم ـ محبة مقلوبة .

صالح أولادنا أبدى وأولى .

* * *

إن خفة الطبع وسرعة التقلب من أعيب العيوب في الإنسان ، ألم تر شخصاً له رأي في أمر ما قطع بصحته ، فاذا لاقاه مخالف له . وكان هذا ذربا قوي الحجة ، يصل في بضع دقائق إلى تحويله عن فكره ؟ ألم تسمع كثيرا أن حديثاً اختتم بعبارة تغاير البداية إذا لوحظ على السامعين عدم موافقته على صحته ، وكان . . . ؟ فاذاً هذا الانقلاب لا يتأتى من خضوع الفكر الحقيقي وإنما من الخوف من الفكرة في ذاتها .

وهكذا في ظروف كثيرة قد يتخذ كفكرة عامة ، أو معقول عام ، رأي

ذوى الأغراض المهرة . أو مقال مخرق ثرثار .فكم من الانقلابات الفجائية ، لم يكن لها غير ذلك أصل . قد يهون الأمر إذا تسامحنا فى المسائل التى ليس لها شأن خطير ، ولكن ـ بالأسف ـ الاستعداد لهذا التقلب السريع ، يزعزع حتى العقائد وعزائم الشبان الذين لايهابون امرأ بقدر ظهورهم غير عقلاء . فالشتم يجرحهم أقل بكثير منه ، على أننا لسنا فى اضطرار أن نعوى مع الذئاب أكثر من أن ننبح مع الكلاب !

أضف إلى ذلك أن كل واحد يزعم زعماً لايقبل فيه الجدل أن له رأيه وفكره الخاص . ولقد يضلّ الأنسان إذا أخذ بآراء ونصائح جميع الناس .

وإليك مثلا : ابنك مريض فتدعو أمهر مايمكن من الأطباء ، فجارك الجنب يرى أن من عدم الحكمة ، أن ترجع إلى رأى رجل واحد فى ظرف شديد .

وفى المرة التاليه . قد وجدت الأحوط أن تستعين بأطباء . فيأتى دور ساكن مجاور فيؤكد أن من الخفة التى لامثيل لها أن تفعل ذلك وأن هذه وسيلة تجعلك لاتجد علاجا شافيا .

ومن رأيى أنه من الصواب انتخاب طبيب مرة واحدة موثوق به ، من أن نأتى بأجانب قد يختلفون ، وعلى كل حال ـ لأمزجتنا ـ لا يعرفون ، وإذا تكلمت مع أى سيد تراه بعد ذلك يجاوبك بأنه فكر دائماً : أن رأيين أحسن من رأى . فان ضل واحد هداه الثانى ، وهل أمهر طبيب لايخطىء ويعالجك ضد مرضك ؟ أوليست زيادة عدد القضاة تقلل الزلل ؟ أهذا لاريب فيه ! ! ! ؟

فلو كانت الحكمة شخصياً تحكم فيصلا فى هذا النزاع ، فمن المحتمل

أن تقول لأحدهما : إنك على حق ، وللثانى : إنك لست على خطأ . . .

* * *

آه لو عرفت مع ذلك أن كل محام مجبر مراراً فى كل شهر على تحمل الملاحظة الآتية التى يحسبها المتكلم حاسمة قاطعة .

كان الأولى بك . وكنت فعلت حسناً ياسيدى العزيز ! يقولها بسمة الكفء : إنى لاأفهم أن رجلين فاضلين ماجدين يستطيعان فى دعوى المرافعة فى نظريتين متناقضتين ، الأمر إما نعم . أو لا . والأبيض لن يكون أسود .

الفكرة لاتأتى بهذا الانتقاد ، إلا للحصول على الأرمد .

فمثلا . ضع أمامك أبيض وأسود . تر أن فى المعنى الفلسفى الأرمد يمثل بالدقة الكافية ـ على التقريب ـ جميع أفعال البشر ، التى هى خليط من الخير والشر ، أو من البياض والسواد .

نعم إنَّ إظهار خطأ الغير فى ساحة العدل ، ليستنير المكلفون بالحكم — ضرورة اجتماعية ، وواجب ، ولكن انظر الفارق حتى فى هذه الحالة الاستثنائية . إن من يتجنى عليه قد حُذِّر فأنذر ، وله الخيار إذا رأى أن يحضر مع محاميه ، ليفنِّد أو يبرِّىء نفسه . أو يزكى ، وأما المغتاب فيأخذ الناس فى غيبتهم ، ويشوى أعراضهم ، ويأكل لحمهم .

* * *

إن كثيراً من العمل والأمر فى الحياة الدنيا مختلف فيه ، وقابل للتآويل المتناقضة ، وكل تأويل له حجته . ومقبول عقلا ، لأنّ فيه شيئاً من الحقيقة التى تجحد ! وفى هذا مظهر للحرية البشرية . فى استعمال حق من حقوقها ! وإذاً لاشىء أكثر شرعية ، من إبداء الرأى إذا لم نظهر بالعتّو ، والفظاظة .

وإليك متناقضات فى أمر واحد :

إذا ذهبت إلى أبيها أم أرملة . ذكّرها أن من أصالة الرأى تعويد ولدها العمل مبكراً ، حتى لا يهن ، وينهك فى المستقبل من مجهود كبير .

وإذا زارت حماها . محّضها النصح ، بأن لا تجهد عقله الصغير ، ويجب تركه ينمو ، ويقوى ، ومن بعد يهون الشغل عليه ، كأنه تسلية . ليس هذا منتهى الخلاف .

فأحدهما يوصى بالحمام البارد النافع . المسلّح للأولاد ضد البرد ، سبب أغلب الأمراض . والثانى يريد أن يقنعها فيناها عن الاستحمام بالماء البارد ، لأن الرطوبة فى الطقس الردىء ، قد تكون قاتلة .

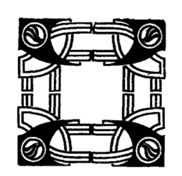
والأول يكْرِهُ الولد على أن يلتهم ـ بأى حال ـ الطعام الذى لا يشتهيه . إذ يجب ترشيحه لكل شىء ، والثانى يقول : إنه يعرف بالتجربة الصادقة ، أن إكراه النفس على ما لا غرض لها فيه قهرٌ للطبيعة بغير ضرورة ، وإضرار بالصحة بلا موجب .

إنى أخال أن هذه الأم تبحث عن مخرج من هذه الورطة . أو تعزل نفسها من هذه القيامة ، أسهل من الحصول على حكم حاسم !

فباستماع مثل هذه التعاليم المتناقضة . الصحيحة . حوالينا . ألا نتساءل : عما إذا لم تكن هذه ضالتنا : الحرية المنشودة المعلن عنها المحرمة علينا !؟

شىء مضحك . لا يوجد إنسان إلاّ ويرى سخفا كل فكرة لم تكن من رأيه ، ويعجب كيف أنها نبتت فى لب معقول ؟ رأى زميلى ضلال ! سخف ! جنون ! لا أقل من ذلك . ومع هذا تتصور فى

أنفسنا أننا متسامحون أحرار ، لا يماثلنا أحد ! وفى العرف السياسى أدهى وأمر . فالنعوت : سافل . وبش . عاص . ثائر . لص . قاطع طريق - تدل من غير إسراف على سيد لا يشترك معك فى النظر ولا يشاطرك رأيك .



الاغتياب وأسبابه

١ ـ كثير من الأماجد يُسَوّى بين الذى لم يصنع من الشر وما يقوله . كأنه يجد هنا نوعا من المعاوضة أو الاستبدال .

إنه تقويم قاس وشديد ، ولكن ماأعظم نصيبه من الحقيقة ! إننا نعرف الحجة التى يدلى بها المغتاب ، ليعتذر ، أو يبرر غيبته .

فاسمع دفاعه : إنى لم أقل إلا الحقيقة ، أنا لا أفترى ، ولا أخترع ولا غيبة فى فاسق ، كأن الاغتياب لم يكن ـ بحصر المعنى ـ إفشاء الحقائق بلا جدوى . وإذا كان يقلبها نكون انتقلنا إلى الافتراء . والفارق لا يعزب عن القارىء .

***

يقول البعض : إنى أنتقد تخبط الأشخاص ، لاسير الناس . سبب فاسد أيضا . أليس من تعريف الغيبة أنها لاتهجم إلا على زلات وعيوب الناس : عيوب الذوق ، التصرف فى الأمور . عيوب قوة التميز والبيان ؟ وقصارى القول كل مايستعمل قوتا وغذاء للسفاهة وبذاءة اللسان .

إن وصف الضحكة هو تضحيك الناس منه . والكلمة مبينة لقصد الاستهزاء والسخرية . ورب تخبط أو اعوجاج يوضّح بمهارة وحذق ، وبأصرار يقلل القدر فى أعين الناس ، أكثر من رذيلة حقيقية .

إن السخرية لاتجرح فحسب ، بل تقتل أحيانا . إن المغتاب يجرى في جسمه سم لو لدغته حية لتسممت .

على أن الشيء السخيف أو عديم اللياقة ، لا يعجب أحدا ، هـذا صحيح . فالحكم على سخف أو عدم لياقة مايستحق هذين النعتين - هو من حقنا .

فلنستفد إذاً من صواب ملاحظتنا هذه ، لاتقاء تخبط مماثل للذى نَفّرنا ، وهذا من واجبنا ! أليس كذلك ؟ ولكن من ذا الذى يسحى ويجبرنا لإذاعته أو ذكره انتصارا للفضيلة !

* * *

بيان آخر : أنا لا أعرف شيئاً ، ولكنى أعيد ما سمعت .

هذه الكلمة ، يصح أن تكون خاصة جميلة فى الببغاء . ولأى سبب وفيم . ومتى . المجرمون المرددون صدى مقال سوء - يصغّر خطؤهم الشخصى . . . ؟

أو تفسير آخر : يلزم أن يكون لنا موضوع حديث ، ولنا الحق فى فغر فمنا ! إن هذا لإقرار بالغباء الأسود !

ففى مثل هذه الحالة بعيدة التصديق التى يصل فيها جمود الفكر إلى هذه النقطة ، الأولى السكوت وقطع اللسان ، من تعييب الناس وثلم الأعراض !

* * *

هنالك طريقة متبعة معلومة للتزكية : تحويل البحث والموضوع ، بالإجابة بطريق التلويح بالكيفية الآتية : إذا سئلت عن رأيى فى هذا أو ذاك ، لا أستطيع الكذب ، وأقول : إنه كامل ! إلا إذا كان لى شعور آخر . . !

فمن جهة لا كامل فى الدنيا . . . حتى النقاد البرىء ! ومن جهة

أخرى عدم الأجابة بالصدق لمن فى حاجة للوقوف على قيمة قدر ، ورفعة ذكر إنسان ـ هى سوء أدب . وخيانة حقيقية !

أليست هنالك ظروف يجب فيها ـ وإلا نعتبر كآثمين ـ أن نرفع الحجاب عن سيئات أناس ، إذا دعينا أن نؤدى شهادة أمام القاضى ؟

شتان بين هذه وتلك : الغيبة . الشهادة . فى الأولى إذا نطقت أجرمت ، وفى الثانية إذا كتمت أثمت .

المغتاب يذكر العيوب ، لا لشيء إلا للتعييب . والشاهد إلى العدل يُجيب

* * *

٢ ـــ ملاحظة غريبة . إن المغتاب لا حديث له إلا فى الناس . ونادر إن حدثك فى شيء من الاشياء . إن دليل الهدى معصوم . لأنك ترى العلماء الراسخين ، أو المتعلمين النابهين ، فى صدورهم كثير مما يدعو إلى الحديث والخطاب . ولكن لا يخطر ببالهم التعييب والاغتياب . وعلى النقيض . الذين لا علم عندهم حتى يتقنوه ، يقضون العمر فى رمى من حولهم ، ورجمهم ، لأن ذلك ليس بالمسائل العويصة التى تحتاج لكبير التفكير ، والعمل الشاق الكثير ! أضف إلى هذا أنه لما كان سوء الطوية مقبولا ، لافتا ، مغريا ، فانه يروج بأبخس ثمن ، وأقل نفقة ، ويجد آذانا تسمع ، وألسناً تشايع ، وقد تلذع .

***

إن الاغتياب ربما كان أقل نسباً إلى الخبث منه إلى قصور بعض العقول ، وللجهالة . نحن نتكلم طبعاً عن الذين يتحادثون ويتدبرون ، لا العامة ، الذين يتوهمون أنهم بالتخاطب يتفاوضون ، وبالمناداة يتحدثون .

إن زجاجة الغبوق الزكية ، السخية ، التى شربناها ـ ولّدت من بقاياها رائحة حمضية . هكذا الاغتياب حامض لذاع . ثمرة العقل الفارغ ، والقلب الهواء .

***

ولو تأملت لوجدت أنهم يحيون الكلام حتى يفضوا إلى المحادثة المحزنة : محادثة المصدورين الموغورين ، على النمط الآتى : ـــ

بالله قل لى : ماذا صنعت مع السيد العزيز ؟ هل صادفت تلك السيدة ؟ « يوجد شيء ، لا أستطيع فهمه .... أو « إنى لا أدرى إن كنت مثلى ، وإنما يلوح لى أن الآنسة ....؟ » وأتبعها بما شئت أن تفرض ...

ذلكم هو السلق ، والجلد ، والطعن ،والألسن ، إذا أردت تخفيفاً على السميع فى التعبير وتلك هى الآلات التى ينبح بها . ويرفع حديثه الذى يزلق على الأرض ، ويزحف فى التراب !

ولا تجد حتى فى صلة المحادثة « بالله قل لى » التى تدل على وجود فكرة سابقة ، ما يدل على تبلبل وقلق ، من الحال التى هو فيها ، إلا أن يغذى المكالمة الناضبة . التى سيقطعها الخور حيث لا إحساس ، ولا فكر ، ولا رأى !

« إن الاغتياب هو الابن الحى للانتقام أو الفراغ »

أنا لا أحبه ! هذا هو كل التأكيد الذى يخفى نفوراً ، أو ضِغْناً لا نجرؤ على الاعتراف به ، لا لأنفسنا ، ولا لمن حولنا

إن النزاهة وخلو الغرض المزيف الذى يدعيه المغتاب وهم منقّح . إنه لم يعف عن شيء . ألا تلاحظ أنه يرفض الكلام فى الصالح والسلام ؟

فاذا سمع أبناؤنا مقال المغتاب . أنذروهم بانهم سيكونون فى دَورهم فريسة لهؤلاء النسور الذين يحترفون بالحرفة الخبيثة : الغيبة . ولا يرحمون أحداً . حتى شركاءهم فيها

***

ان المهرة من هؤلاء الأشرار يظهرون حسن الشعور دليلا على ميلهم باخلاص إلى ضحاياهم . ثم تأتى بعدُ المشئومة (ولو) . ثم قال . وقيل . وكان وكيت . ثم التبعق (١) فى القول .

لنفسر هذه الملاحظة : إن هذا لرجل لطيف فريد . وهذه امرأة كاملة . ولو . . . !

إن القيود التى يضيِّق بها على المدح ، تأخذ نسبة تمحو بها حتى أثر الكلمة الأولى الطيبة . ألا ترى كيف يُفعل بخراف العرس ؟ يزينونها بالألوان والأزهار . وربما زفوها بالطبل والمزمار ، ثم سلموها إلى يد الجزار !

هكذا يفعل المغتاب ، يمدح عند فتح الباب ، ثم يُردى ، ويضحِّى بلا حساب !

حيَّة تلد حُيَيَّة ، أقل تبصرا من أمها ، فابن المغتاب يجهر بالسوء فيَجرح ، ويدمى ولا يخفف الطعن بتلك الحلاوة ، التى يحيط بها الكبير مرارة آرائه . فمن الغيبة إلى الافتراء . المدى ليس ببعيد !

يبدأ بالحكاية ، فالمبالغة ، ثم الظنون ، وأخيراً . الاختلاق والتلفيق .

كم من صاحب يجب أن يقصى عن حائط الدار ، يخال انه يهتم بك يشاطرك شجنك . ضجرك . يقاسمك حزنك . يواسيك . يسليك . يتوجع

---

(١) الكذب والمبالغة

عليك . ولكنه يحاول أبداً — بدعوى التعطف — أن يضع فى جلاء
الناحية السيئة للأحوال والمقاصد ، حتى إذا تركته تشعر أنك أقل دعة
وراحة ورضى وصبرا . وسعادة من وقتك الماضى . فالذنوب التى كنت
تغفرها فى الماضى والزلات التى تتسامح فيها . والهموم والأكدار التى
ترضاها ، أصبحن فجأة لا تطاق ! برهة كفت فى حدوث هذا الانقلاب من
ألصق الأصحاب وأعز الأحباب .

فأسخف مؤاساة ، وأحمق تسلية ـ يظهرها ذلك الصاحب لولدنا قد
تكئبه فى وقت مّا . وتسخطه إن أقنعه أن آباءه يهملون . وعليه يجورون .
وسواء أكانت جهالة أم خبثا ، فالعاقبة هى هى ، والنتيجة واحدة .

***

٣ ـ فى كل نوع توجد استثناءات ، وفى ذلك النوع البشرى
استثناءات عدة ، تستحق الحمد والشكر ؛ وإنما ألاَ تعترف معى .
أنه فى الأوساط الصغيرة ، فى المدن ، ولا سيما فى القرى . يعجب
الواحد منهم ، بقصه الأخبار على سبيل السمر والتلهّى ؟ فيروى خوَر
عزيمة هذا ، ويذكّر بعار ذاك ، ولا يشعر ، ولا يتشكك بأن هذا
نقص فى الرعاية كبير ، قد أصبح فيهم عادة .

لا جدال أن معظم الناس ليسوا بمعصومين من تلك الغواية .
محكومون بالعادة ، وبصور تراكيب عقولهم . فلنتبين الأمر بدقة .

علىٌ : ابن أحد كبار القضاة ، ولأنه ليس فى ذلك إلا المدح ،
نسبوه من باب التميز لخاله البلاّن . وفريد : ابن الأستاذ الكبير فى فن
الطب ، فتنسى هذه القربى الكريمة ، ويذكرون أنه ابن أخت الفوالة .
وخالدٌ : أخ المحسن العظيم الذى أسس ملجأ للأيتام ولأبناء السبيل .

لا يتأخرون أن يقولوا : هو نسيب فلان الذى حكم عليه ، وأصابه دخَلٌ ، فأدخل دار المخبولين . هكذا . لا المناقب . ولا المكارم . ولا علو الذكر . ولا التضحية لها وجود أو قيمة عند تلك النفوس المريضة .

تغمض عيونها عن نواحى النبالة ، والأعمال الطيبة ، والحسنات ، وبدل أن تعددها تضيف إليها - بانشراح - السيئات ، تحصى الزلات بسرور وراحة بال ! ! إنه لطراز فريد فى ذكر الأنساب ، وتعريف الأحساب ، وفى كتاب حسابهم الغَموص (١) ، لايسجل إلا الخسائر ، ولا يدون إلا المعايب ، ولا تستوقفهم إلا الغلطات ، وانظر . كل ما فى نهر الحقوق والأرباح ورأس المال ، لاشىء . ثم لاشىء ! !

ولديها شرح البؤس ، وتفصيل الفاقة ، وكشف الحال ، وتعداد الهموم ، وسبر الجراح ، وأحيانا نبش الوحول ، وتقليب المعاطن ، رضوانٌ . وطعام شهى للعقل الذى لاشبه له ! !

ماأسعدنا . لو كلت من طعن الأحياء ، ولم تدنس القبور ، وتخرج الموتى من لحودهم بانشراح وحبور ! العيوب المدفونة النائمة فى التراب ، التى انطوى عليها الكتاب ! ! وما عذر تلك النفوس ؟ مفهوم : أنا واثقة بالذى قدمته يمينى . وتؤكد تأكيداً غليظاً ! أجل . إن أوسمة مجموعتك صحيحة خالصة ، ولكنك عرضتِ صُفحاً واحداً : ظهورها . ونسيت أنه يستطاع بعناصر محكمة تحرير حكم جائر !

إن حقائق متعددة ليست هى الحقيقة . الحق فرد !

---

(١) الكاذب المفترى

مسئولية الصغير والآباء الشرعية

الصغير المسئول والشرائع

فى بدء الوجود ، الحياة البشرية حيوانيّة جسدية ، أكثر منها عقلية روحية . والحس والنماء ، هما أخص أعمالها .

وبمرّ الزمن يأتى الفهم . وينمو العقل ، ثم الضمير فيجلب معه المسئولية ، لأن الأنسان يحاسب نفسه ، بقدر مايعرف واجباته ، وما يعلم من الطرق التى يقاوم بها سوء فطرته .

وفى هذا الارتقاء الأنسانى التدريجى إلى الخبرة العقلية يتحقق أن الشعور بالظلم والعدل(كما يقال فلسفياً) سابق على الشعور بالنافع ، ولذا كان فى الشرائع عصر الاتهام والقصاص ، متقدما على التكاليف المدنية .

والصغير الذى لا يعرف أصلا ، أن يفرق بين ما يعود عليه من النفع ، أو الضرر من معاملة أو التزام يَعقدهُ ، يعلم ويميز بلا ريب ، إن كان ذلك الذى يفعله ، يخرق حرمة العدالة أو لا ، وفعلا يؤاخذ عليه أولا .

إن مثل تهذيب الأخلاق والقانون كمثل دائرتين ، مركزهما واحد هذا شاغل الوسط وتلك منبسطة إلى ماوراء سلطان الشرائع الوضعية .

حقاً إن تهذيب الأخلاق يمد القانون ، وهو أعسر وأشد قسوة منه ، وعليه يكون تقسيم المسئولية المنطقى كما يأتى :

المسئولية الأدبية : أوّلة جميع المسئوليات . فالمسئولية الجنائية ، وأخيرا

المسئولية المدنية ، فرأى القضاء القديم فى فرنسا كان لا يسمح برفع الدعوى الجنائية على الأحداث المجرمين الذين لم يبلغوا سبع سنين ، ومع ذلك ، فهذه القاعدة لم تكن مطلقة . وبناء على مبدأ (الفساد يعوض السن) كان القاضى يأمر بضرب الصبى المجرم .

وفى أيامنا من أى وقت الصغير الفرنسى ترفع عليه الدعوى العمومية؟ الشارع لم يجعل لسنه حداً أدنى ، بمعنى أنه قانونا ، الولد فى الخامسة أو الرابعة . يمكن أن يقدم للمحاكمة .

إن هذا الرأى ليس ببعيد التصديق ، فقد قدم للمحاكمة صبى فى السادسة من عمره ، فى ٢٤ من إبريل سنة ١٨٥٠ بتهمة قتل رفيق له سنه أربع سنين . وثلاثة أطفال فى الخامسة والنصف من أسنانهم قدموا إلى محكمة الجنايات فى سنة ١٨٥٤ .

وقد نظم قانون العقوبات سنة ١٧٩١ حالة القِصَر فجعلت الجمعية النظامية الدستورية حداً ، وهى السادسة عشرة . فى هذه السن يكون الولد مسئولا جنائياً : المسئولية التامة ، حسب القانون العام ؛ فاذا قل عمره عن الست عشرة تقع عليه المسئولية الأدبية ويوقع عليه جزاء آخر خاص فى حال ثبوت التهمة ، وحتى إذا برِّىء ، لأنه فعل ما فعل بغير تميز ، فيجوز إرساله إلى إصلاحية حتى يبلغ رشده المدنى مادة (٦٦ - ٦٧ - ٦٩ ع ف) .

فاذا سرق صبى فى الثانية عشرة ، فان ثبتت مسئوليته حكم عليه بالحبس أياما ، وإن تبين القاضى أنه فعل بلا تميز . فيكون على خطر إرساله إلى إصلاحية سنين طويلة . مع أنه بُرِّىء من أصل التهمة ، وذلك بناء على فرية إلزامية : القول إن دار الأصلاح ليست حبسا ،

وقد ينجم عن ذلك ان يكون للولد صالح فى جعل القاضى يعتقد فساده !!...

ومن المستحسن أن نبحث فى مختلف الشرائع الحديثة ، كيف كانت تحت حكم القانون القديم والعلم - مسائل السن منظمة . لا شيء أكثر تبايناً منها .

فشريعه الرومان ، يظهر أنها حددت المدة السبعية التى أخذ بها كثير من القوانين ، وأما الست عشرة سنة فقد وردت فيها تقليداً للقانون الفرنسى .

ولكن (فى الغالب) التحديد عُمِل بقليل من القصد والقياس .

* * *

إن قانون الانكليز يمنع رفع الدعوى على من لم يبلغ سبع سنين . وما بين السابعة والرابعة عشرة توجد مظنة خلوص النية والطهارة ، ومع ذلك - وكما فى روما - فأثبات سوء النية والخبث قد يسمح به ، فالمذنب يجازى بعمله أصلا بعقاب ملطف .

لقد ذكر « بلاكستون (١) » مع ذلك حادثة قاتل فى العاشرة حكم فيها باعدامه . أنظر (فوستان هلى جزء أول رقم ٤٧٩)

وإذا بلغ الرابعة عشرة أصبح مكلفا ومسئولا المسئولية الكاملة

وفى بلاد النمسا ، لا تقام دعوى جنائية على من لم يبلغ العاشرة ، ومن كانت سنه بين العاشرة والرابعة عشرة فجرائمه تعتبر كجرائم الشرطة (البوليس) . وعند تمام الرابعة عشرة يطبق عليه القانون العام

وفى بلاد البرازيل ، وضع القانون قاعدة عدم إجرام من لم يبلغ الرابعة عشرة سنة حتى يثبت العكس ، فاذا فعل مميِّزا لا يتعدى وجوده

---

(١) انظر فهرس الأعلام

فى الأصلاحية السبع عشرة من عمره . وفى مصر رأى المشترع ان الدعوى العمومية لا تقام على مجرم لم يبلغ سبع سنين كاملة ، لأن أساس المسئولية الأدراك والارادة . ولا يستتم نموهما نمواً يتناسب مع تحملهما المسئولية فى غضون هذه السن . فيفرض القانون عدم تقدير الصغير عواقب عمله ، ولا فهم جنايته . فحداثة السن سبب لعدم المسئولية ويكون ذلك الصبى ليس مجرما (مادة ٥٩ ع) فاذا زادت سن المجرم على سبع سنين ، وقلت عن خمس عشرة سنة عوقب عقابا خاصا . فان جنى جناية لا يجزى عليها بعقابها الأصلى.

فان كان عقابها الأعدام أو الأشغال الشاقة المؤبدة تغير بالحبس مدة لا تزيد على عشر سنين . وإن أشغالا شاقة مؤقتة . أو سجنا جعل الحبس مكانها مدة لا تزيد على ثلث الحد الأقصى المقرر للجريمة التى ارتكبها (مادة ٦٠) .

ومع ذلك فقد لاحظ المشترع المجرم الصغير ، وقاية لنفسه . وحفظا من تأثير بيئة أهل السجون . المجرمين المفسدين ، فمنح القاضى سلطانا واسعاً ، أجاز له إن ارتكب الصبى جناية ، أن لا يأخذه بجريرته ، ويتنزل عليه عقابها الأصلى المخفف الملموح فيما أسلفنا وسمح له أن يعامله :

١ ـ بتسليمه للوالدين أو وصيه .

٢ ـ تأديبه جثمانياً إن كان غلاما

٣ ـ إرساله إلى مدرسة إصلاحية ، أو لمحل آخر تعينه الحكومة .

وخول له أن يجمع الأرسال والتأديب معاً .

وإن أتى جنحة يوقع عليه عقابها الأصلى ، لأنه لا يتعدى الحبس المسموح به قانونا ، أو إذا رأى أن الصبى يعالج باحدى الوسائل الثلاث المتقدمة ، جاز

له أن يختار ما يراها ناجعة فيه، مع تخويله الجمع بين الأرسال والتأديب؛
وأما إن خالف أمر القانون مخالفة أقل خطراً من الجناية أو الجنحة:

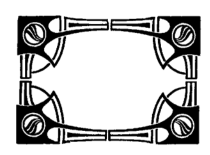
(١) فعقاب المخالفة الوارد فى النص (٢) التسليم لوالديه، أو وصيه (٣) التأديب الجسمانى.

وحرم على القاضى أن يرسله إلى الاصلاحية فى مخالفةٍ لصغير أهميتها، وطفيف ضررها. تلك درجات. وإن شئت فدركات، واجب لحظها وموازنتها بمدارك الصبى وأخلاقه وأمياله وبيئته التى نبت فيها، وسنه (مادة٦١) عقوبات.

ذلك أمر الصبى المجرم الذى لم يبلغ الخمس عشرة سنة.

وأما أخوه الذى زاد على الخمس عشرة سنة ولم يَعْدُ السبع عشرة، فتشفع له سنه، فلا يحكم عليه بالأعدام، ولا بالأشغال الشاقة إذا ارتكب جريمة كان قصاصها هاتين العقوبتين، فأنت ترى ان كل شارع له رأيه، وهذا يوضح لك. انك إذا ذكرت ذنباً لقاصر أمام اثنين، فالأول يصيح. كيف؟ فى هذه السن! أيكون هكذا فاسداً؟ يجب تشديد العقاب! والثانى يقول نعم. إن ذنبه عظيم! ولكنه على كل حال لم يكن إلا طفلا!.

إن كلا الرأيين يمكن تأييده.



مسئولية الآباء المدنية

المادة (١٣٨٤) من القانون المدنى الفرنسى تقرر مبدأ مسئولية الآباء بقدر الخسارة التى سببها ولدهم القاصر، الذى يعيش معهم، وتسأل الأم وتضمن إذا كان الولد تحت ملاحظتها . وقد تكفلت بحضانته فى حال التفريق، أو موت الأب، أو غيبته أو الحجر عليه . وسواء أكان المذنب فعل بلا تمييز أم قاصدا متعمداً ؟

فأذا جرح الولد أحد أقرانه ، ولو فى اللعب . فالمسئولية واقعة ، وصفة الفعل الجنائية تبقى معاقبا عليها .

فأذا فرض أن الولد وضع النار بلا احتراس أو تبصر، وسبب خسارة كبيرة فلا يستطيع الأب أن يهرب من المسئولية ، باعطاء المنكوبين بالحريق مال الولد ، إن كان له مال ، الذى لا يفى بتعويضهم ، بل يعوض عليهم من ماله الخاص . كل ما ضاع عليهم وخسروه . ذلك إذا ثبت إهماله فى مراقبة وملاحظة ابنه .

أما والحال كما ترى من مسئولية والتزامات شديدة قد تقع على عاتق الآباء بفعل أبنائهم فمن الحكمة أن يسمح لهم باختيار المدارس التى يظنونها كفيلة بتهذيبهم .

إن قانون التعليم الجبرى نص على عقاب الأب إذا تكرر غياب الولد عن المدرسة واستمر انقطاعه .

وعيب هذا القانون أنه يجعل الولد يفهم أن أمره لا يتعلق إلا بأسرته ، وكأن السلطة العمومية تريد أن تقول له : إن آباءك لا

يقومون بكل الواجب نحوك ، أو على الأقل إنى أرتاب ، ولكنى أنا حاضرة ، إنى أراقبهم .

إن الولد . الكسلان . الحقود . المنتقم ـ مسلح فعلا بحق غريب فأذا هرب من المدرسة باستمرار . عرض أباه للحبس وهو فى أمان والأب وحده فى الحجز . ألا كان يوجد سبيل أحسن بتعزيز وتقوية السلطة الأهلية ؟

كيف يعمل الزارع ، وهو فى حقله وغيطه نهارا ؟ والصانع وهو فى معمله من الشروق إلى الغروب ؟ والأم التى بجانب مهد أخ طفل ؟ لا يستطيعون المحافظة والمرافقة .

القانون المصرى : « المادة ١٥١ ـ م أهلى » :

« كل فعل نشأ عنه ضرر للغير يوجب ملزومية فاعله ، بتعويض الضرر ، وكذلك يلزم الأنسان بضرر الغير الناشىء عن إهمال من هم تحت رعايته ، أو عدم الدقة والانتباه منهم أو عن عدم ملاحظته إياه »

الأصل أن كل إنسان مجزى بعمله . وهذه المادة تجعل الأنسان مسئولا عن عمل غيره ، فالأب مسئول عن عمل ابنه القاصر ، وعن الأضرار التى تلحق الغير من فعله .

وأساس هذه المسئولية ، سلطان الأب على أولاده ، وتبقى هذه المسئولية طالما وجد هذا السلطان فهما متلازمان .

وبديهى أن السلطة الأبوية الطبيعية على الأولاد هى التى تفرض على الآباء واجب المراقبة على سلوكهم ، والعناية بأعمالهم ، ما داموا فى السن التى لا يحسنون فيها التصرف بما فيه صالحهم ، وهم تابعون لهم فى

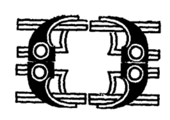
جميع المعاملات المدنية ، ولهم عليهم الأشراف دائما لتقويم معوج أخلاقهم ، وصرفهم بنهيهم عن الفاسد ، والمفسد لآدابهم .

ليس الأب هو المسئول دون غيره . إن الأم تسأل إذا كان الأب غائباً أو عديم الأهلية . إذ أنها كفلته وحضنته ، وسواء أفعل القاصر عمداً أم جهلا . وقد جاء فى الشرع الحنيف مايحمل الولى أو الوصى مسئولية عمل القاصر ، ولو كان مأذونا له بالتجارة . إذ أن المفروض أنهما اختبراه فآنسا منه الأدراك ، وعلم أن البيع سالب للأموال ، والشراء مجلب لها ، وعرف الغبن اليسير من الفاحش .

قد يفهم من ظاهر حكم الشريعة أن الولى أو الوصى مسئول إطلاقا عن أعمال القاصر المأذون إذا سببت ضرراً للغير ، والعلة اختبارهما القاصر قبل الأذن . أو فرض إيناسهما فيه التميز وصدق النظر .

إن إطلاق هذا القاصر مقيد ، فليس له أن يقر بحق ، ولا يهب ، ولا يكفل ، ولا يتزوج إلا بأذن وليه فى النكاح . وذلك القيد يدعم أصل تلك المسئولية .

وأما الديون التى تركبه من معاملاته ، فهو مسئول عنها . وإن دفعها الولى أو الوصى يرجع عليه بها .



الأسباب الوراثية

أمام الفطرة والأميال الخاصة التى يولد عليها الأنسان ، يضعون الوراثة ، أو مَيْل الخلقة إلى توليد بعض طباع تركيب الآباء .

الوراثة : جثمانية ، ونفسية . وإذا شئت فقل أدبية ، وهى تتجلى فى الصور العمومية ! بتقاطع الوجه . المشية . الصوت . دقائق الحركات . القامة . القوة . طول الأجل . وكذا الحالات الباطنية ، تنقل بوساطة الدم ، ويصبح الوارث مبتلى باستعداد للأمراض المصاب بها أصوله .

ويمكن إذا بحثنا الاهواء ، واحداً فواحداً . يثبت أن فى كل منها الوراثة تعمل عملا محسوساً ، فالغضب ، والخوف ، والحسد ، والغيرة ، والخلاعة ، والأدمان . قال حكيم : إنها أميال متنقلة بذاتها ، ولقد يقفز الشبه جيلا أو جيلين ، وإنما لم يستقر الرأى على أى التأثيرين يتغلب : الأبوى أم الأمى ؟ ولا بأى قدر ونسبة ؟

***

إن الصفات الحسنى تتولد كذلك فى الأسر . ويحكى فى التاريخ القديم أن سلالات كان منها حلقات شعراء وعلماء ومؤلفين أباً عن جد وابناً عن أب ، وبعضها عدَّ ثمانى طبقات من الشعراء ، وكم موسيقار ورث أباه كالموصلى وغيره من أهل الفنون الأخرى .

فمن بيوتات الشعر الجاهلية بيت أبى سلمى ،وقد كان شاعراً . وابنه زهير ، وله خئولة فى الشعر : بسامة بن الغُدير ، وكان كعب وبجير ابنا الغدير شاعرين أيضاً وجماعة من أبنائهما .

ومن بيـوتات المخضرمين حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام هو وأبوه وجده ، وأبو جده شعراء وابنـه عبد الرحمن شاعر أيضاً . وكذا سعيد بن عبد الرحمن . وبعد هذين بيت النعمان بن بشير وبنوه . ومن بنيه عبد الخالق بن عبد الواحد وعبد القدوس بن عبد الواحد ، وأم النعمان نفسها ، واسمها عمرة بنت رواحة شاعرة ، وخاله عبـد الله بن رواحة أحد شعراء النبى صلى الله علية وسلم .

ومن البيوتات فى الأسلام بيت جرير ، كان هو وأبوه عطية . وجده الخطفى شعراء . وكان بنوه وبنو أبيه شعراء . ومن أشهرهم نوح وبلال أشعر من باليمامة . وبيت أبى حفصة . وجماعة من بيته شعراء . يضربون بألسنتهم أنوفهم . كما حكاه الجاحظ . وكان من بينهم نساء شواعر .

ومن هذا الصنف كثيرون ، لو أخذنا فى ذكرهم لوسع علينا الباب والمقام ليس بذلك .

يقول البعض : إن الوراثة ظنية . وإلاّ فان لم تكن فقرية . فكيف تفسرون : أن كثيرا من الأغبياء الحمق تخلفوا من صلب رجال عظام . وكثيراً من رجال عظام ، وكثيراً من رجال كبار ولدوا من سخفاء بلداء .

قد خلف « بيركليس (١) » ولم ينجب . ولم يخرج أحد ولديه « أرستيد (٢)» و « لزماك (٣) » خروج أبيه . وكان الأول أحمق ، والثانى غمراً مفضوحا . وترك « صوفكل (٤) » من بعده وهو من غرر قومه « واريستارك (٥) » و « سقراط (٦) » وهما من الجماجم أولادا أذل من وتد وأدنى من نقير . ومع ذلك فهذه الاعتراضات أقل تدعيما مما تظهر لك ، وينسون دس

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦) أنظر فهرس الأعلام

الوراثة . والعرق دساس كما يقال ويتجاهلون سنة مشابهة الأجداد وحفظ النوع والحال ان الولد ليس بثمرة آبائه الأقربين بل من بذرة أجداده الأقدمين أجمعين.

يقول الحكيم « بدمون (١) » : إن الأنسان لنسخة طبعت كرة أخرى من صحيفة لوح محفوظ.

وفى رأى « سمسون (٢) » ان سنة حفظ النوع مظهر لقوة كلية مشخصة بالسلالة التى ينسب الفرد اليها .

فالجنس والأسرة يعملان فى المولود . وهذان العاملان يتكافحان حتى يصرع أحدهما الثانى ، فيثبّت طباعا عامة مستديمة .

من ذا الذى يجهل شمم الأنوف ، فى بعض أنواع الخلق والأُسر وفطسها فى البعض الآخر ، وشط القامة وضخامتها فى بعض الأمم ، وقِزَمها ونحافتها فى الآخرين ؟ إلى غير ذلك من الصفات الخاصة حتى أصبحت رمزا وراثياً عليها . الأنف . القامة . الشفة . الفم . . .

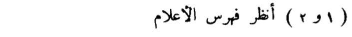
إن سنة الأنتقال هذه التى لاحظها النـاس ألهمتهم الأمثال السـائرة : الولد سرّ أبيه . إن هذا الشبل من ذاك الأسد . لا تلد الحية إلا حية . . .

وقصارى الكلام ان الأصول تمثل الأسـباب المباشرة . وبالوسـاطة فى تكوين فروعها ، وما كان فى الآباء يرثه الأبناء .

تلك سنة الوجود . ولذا قد قيل بحق : إن الأنسان على نفسه حسيب فيما يخص ذريته . وكل رب أسرة يعمل لأعقابه دائماً .

إنما المرء إحدى حلقات السلسلة التى تربطه بأسلافه .

(١ و ٢) أنظر فهرس الأعلام




القرابة

بعد أن بحث الطبيب «كوست» (١) بحثه الدقيق ودرس درسه العميق، قال: إن الزواج بالأقارب يأتى بالصم والبكم، ويخلف نسلا خبلا، من الاضطراب العصبيّ أكثر من كل زواج آخر! إن القرابة تساعد على الوراثة السليمة والمعتلّة. والغالب تلك الأخيرة فى البشر، ولكن من حظنا توجد هنالك استثناءات.

الأصل فى الفطرة، أن الآباء ينقلون فضائلهم وعيوبهم، فأذا وجدت خليقة متأصلة فى الأبوين، ورثها الولد بدرجة أعظم، وتكون أشد وأظهر. وعلى هذه القاعدة، وجد الجواد الكريم، والفرس الأصيل، والحيوان الداجن المعتنى بتربيته.

ولا يخفى أن ذلك التحسين أمر نسبى، لأن النتيجة الواحدة يصح أن تعتبر فى آن تجميلا وتشويها. فالحيوان المعد للأكل، يجب - على نقيض جواد السباق - أن يكون مملوءا لحما طريا، ذا عظام وعضلات صغيرة.

وفى نظر رجل الفن، أو الطبيعى، الحيوان السمين مسيخ. إن كل شيء يضحى للغرض الخاص المطلوب.!

إنما قواعد القرابة لها صفات استثنائية فيما يتعلق بالأنسان، الخاضع لتغيرات لا تحدث فى الأحياء الأخرى، إنه ليس بأكمل من الحيوان فحسب، بل إنه مجمل بالحياة العقلية، وقابل لتأثير اضطرابات نفسية

---

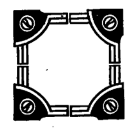
(١) انظر فهرس الأعلام

أدية ، تكيف وتنوع خلقته ، غير أنه محل لأمراض أكثر . وأعضل تخرجه عن حكم السنة العامة .

ولهذا ختم الطبيب « مانى » (١) ، مذكراته إلى مجمع الأطباء ، فقال إن القرابة تفعل بأسرع ، وتعمل بتأثير أظهر ، فى الانسان أكثر مما فى الحيوان .

وقد استشهد كثيرون بأحصاءات فى انجلترا ، وأمريكا ، وفرنسا ، على صحة هذه النظرية ، ومن هنا يتضح حكمة التحريم الواردة فى الكتب المقدسة ، بزواج الأقربين بعضهم لبعض ، فعند الرومان ، كانت نصوص تحرم الاجتماع بين الحواشى وفروعها . والبنت وخالها أو عمها ، وفى عصر « تيودوس الكبير (٢) » بين أولاد الأعمام والأخوال ، والعمات والخالات ، وفى عهد « شارلمان (٣) » القرابة فى الدرجة الرابعة كانت سببا للتحريم .

(١ و ٢ و ٣) أنظر فهرس الأعلام



الصغار الخوارق

إنه على الأخص فى الِمَفنين ، كالموسيقاريين ، والشعراء والمصنفين ، تجد الأرباء الغريب ، والبراعة العجيبة . إن العبقرية سليقة ، والعلم ثمرة الدرس والخبرة .

وكأى من صغير فى السابعة أو الثامنة لا شبه له ، نسيج وحده . فكان « مُزار » (١) فى الرابعة ضرابا بارعا على آلته الموسيقية . يتفنن بدقة ووثوق ، مدهشاً رجال البلاط فى أنحاء أوروبة . ومن بين الصغار الحفارين والنقاشين : « كانوفا » (٢) و « بطرس الكورتونى » (٣) .

وكانت الصدفة هى المظهرة لنور مواهب « كانوفا » فى فن الحفر ، إذ كان صانعا صغيرا للحلواء ، فجهز لمائدة أحد الموالى الايطاليين . صورة أسد رابض محكمة الصنع لا ينقصها إلا الحياة ، فبهت المدعوون ، فنشل من المطبخ إلى المصنع ، وصار أستاذا كبيرا .

ومن النوادر فى الأدب ، يذكرون من المتقدمين « أغسطس » (٤) وهو فى الثانية عشرة « وتَيْبر » (٥) فى التاسعة ، أنهما خطبا الناس خطابا بليغاً وألقيا مقامة بديعة استذرفت دموع السامعين . ومن بعدهما « يتحدثون بفصاحة « بيك الميروندولى » (٦) أعجوبة زمانه ولا سيما فى قوة ذاكرته .

وبعد قرن اشتهر « كرشتون » (٧) بقاموس اللغات العام وهو فى سن

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ أنظر فهرس الأعلام

الخامسة عشرة ، ثم « فان سانزو فيفياني »(١) الذى كان الرياضى الفريد فى الثانية عشرة من عمره .

إن لوح الاستثناءات عجيب . أكثر منه عديدا . وأما عدد الأطفال الذين اشتعلت شهرتهم ، ثم خمدت ، ودخلوا فى المتوسطين فى سن الرجولة فلا يحصى !

اجتناء فى ربيع العمر وافر ، بلا ثمرة ، أو أقل ما يقال باكورة أثمار فجة ، لزم الكف عن حفظها .

وكثيراً ما نرى غصناً رطيباً نامياً على حساب فروع قفيلة . إن الشجرة مشوهة . كذلك أمر الصغير الرياضى القادر على حل المسائل المعقدة فى خاطره ، بسرعة برقية ، فأن سلائقه الأخرى مختبلة ممطلة .

وإذاً التناسب وحده . دعامة التوزان والاتساق العمومى ، فالجبهة التى لا تكون إلا عريضة تدل عادة على قوة الفهم ، وأما الضخمة ، فهى النقيض البيّن .

كذلك « من يعدون للمبارات » الذين يروض فيهم ملكة واحدة ، يصير أغلبهم « أثماراً جافة » ، أعنى أشخاصاً متوسطين نسبياً ، فى عصر نضوجهم ولا سيما إذا قسنا آمالهم الجنونية التى كانوا يحلمون بها فى شبابهم !

إن شوط التقدم فى المبدأ خيل أنه سيدوم بالنسبة عينها ؛ ولكن المسافات اقتربت على عجل ! ! وفى منتهى دراسته ، الصغير الخارق ، لا يتجاوز الأفهام المتوسطة . وبعد قليل يجمد ذهنه ، ويزيد جفافه ، مثل النبات الذى أدرك قبل أوانه فأفنى نُسْغه ، وبدّد بغير حساب جزيئاته النافعة فى جو اشتد قيظه .

---

(١) أنظر فهرس الأعلام

كيف العمل ؟ أى طريق للتعليم أصلح ؟ أخير . تشويق وتحريض رغبة الطالب الذى لم يزل صغيراً جداً ، حتى يسمح له أن يصل طبعاً ليلة الامتحان باستعداد منهك فورى . أم خير أن لانستعجله ، وأن نتبعه أولى من سوقه ، حتى يتكون رويداً رويداً بقدر قابليته ، لاتبعاً للمناهج ؟

يمكن الأجابة على هذا كما أرى بالتفصيل الآتى : —

أتريد أن ولدك يجوز الامتحان لنيل لقب ؟ هل هنالك سن محددة لمباراة منتظرة ؟ عليك ببيان المواد المطلوبة ، وكدسها تكديساً سريعاً ، وارصفها رصفاً متيناً ، وأنت تصنع طالباً جيداً ، لا أديباً ولا عالماً ولا مفكراً .

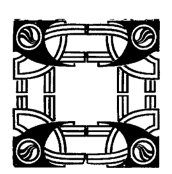
غير أن قليلا ما يسلم الطفل ، وقد ينهكه الأعياء والتعب ، ويضنيه النصب واللغب عقب مثل هذا المجهود ، ويشعر بالميل للراحة حتى قبل أن ينتج شيئاً للاجتماع والأنسانية ، إنه محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤقتة . يفرح بالفرج ويمتع بالتسريح . . . .

هل ترغب فى أن ولدك يجنى محصولا من العلم طيباً ، عرفانا باقياً ، مستوعباً . هضم فغاض ، وإذا طلب فاض ، فتمنَّ أن يكون فى العشرين والخمس والعشرين أكثر شوقا وحباً للكدح ، منكباً عليه بولع وفرح .

إذاً فاتركه ، يسير بخطوه ، ودع له فراغا ليتنفس فيه ، ويحل من عقاله ، ويستجمع حواسه وأفكاره ، ويمتص ويدمج الغذاء العقلى ، الذى يتقوت به . حتى يعلم لا أكثر . . . وإنما أجود من الآخرين .

وبدل أن يرهق فى قاعة الدرس ، يتعلم التدرب على الاجتهاد وحب الدرس ، اللذين يلازمانه ويبهجانه ، فيفتنانه طول حياته .

ولا شيء أقل شبهاً إلى هذه التسلية المستحبة ، كحرفة المقاول على عمل مقضى فيه على الطفولة ، سنين طويلة فى الحياة المدرسية .



الاجهاد

تحميل الدابة فوق طاقتها ، واستعمال القسوة بأكراهها على السير ركضاً شديداً ، وأمداً مديداً ، لا أجد كلمة تنطبق على حال الأولاد فى المدارس . أحسن منها فى العهد الحاضر . الطفل يشتغل مبكراً مكثراً ، فيشتغل رديئاً .

فاذا جادلنا عنه ، واستردرنا له الحق فى الحياة كطفل ، صيح فى وجهنا ، إننا خصوم متعصبون ، أو أعداء لتعليم الشعب ! المناهج تتضخم من سنة لأخرى ، والامتحانات تتضاعف ، وصارت الشرط : « إما كذا وإلا فلا » للحياة ! والتنازع مزعج ، والصراع مرعب .

لابد من الوصول . فلنبادر ، ونرسل الطفل ليبتدىء مبكراً ، فيؤخذ التلميذ وهو صغير جدا ، فى زحام المباراة المعقدة المدرسية ، ويُمرَّر بين ضروس دواليبها . فنى سن الشباب الذى يجب أن تزهو نضارته فيها ويتلألأ نوره ، لم يكن إلا صغيراً شيخا مرهقاً ، لم يلهُ ولا يعرف كيف يضحك ؟ عقل كليل ، وقلب عليل ، ذلك متعب ، وهذا ناضب ، ونفس منقبضة ، إنما حامل لقب .

إن الولد فى حاجة إلى ضرورات : الهواء . الحركة . التنقل . التنويع . وهو محروم من هذا .

حتى إذا عاد التلميذ مساء من معمل الألقاب ، رجع إلى أهله حاملا كراريسه . لأعادة القراءة والكتابة حتى حين نعاسه .

وفى الصباح مبكراً مسرعا ، يراجع ماسطر ، الذى سيصححه معلمه

وأخيراً وفى نصف ساعة ، يجب أن يحفظ دروسه اليومية الضرورية : هذا هو المنهج ، ويلزم السير مع القافلة .

* * *

نعم يجب السير إلى شطر واحد ، وبخطوة واحدة . إن منتهى أمل تسعة أعشار المصريين أن يروا ابنهم موظفاً فى الحكومة .

إنا لفى زمن كل من تطعّم فيه يظن أن له الحق فى كرسى ، وعما قريب يرجون الحكومة أن توزع تذاكر معدودات ومرتبات لأسيادنا المواليد الأحداث .

أنت أيها الصغير ستكون فى السياسة الدولية ، لأن نظرتك ماكرة وهذا خلق للبحرية ، وذاك للمالية ، وكل له مكتب ومنضدة صغيرة ، ودواته . وقلمه مرشوق خلف رانِفَةِ (١) أذنه . ما أظرف أمة الصبيان ! الجميع يقرقرون !! ويخرفشون !! ويسخمون !! من يريد كراسى ؟ خذوا تذاكركم !

ولمثل هؤلاء المدبرين المنظمين ماذا ينقص ؟ شىء واحد ، محكومون ...... إنما سيؤتى بهم من خارج البلاد ، وتدفع عليهم ضريبة الواردات ! .....

إن الشر متفاقم ، والناس فى حيرة . والعلل تتزايد : الضنى . النحول . الذبول . خلل الجهاز الهضمى . اضطراب البصر . فقر الدم . داء الخنازير . السلّ . أدواء الدماغ . التهاب السحايا . الخبل . الجنون .

---

(١) طرف غضروف الأذن .

ولو أنهم يستروته بأسماء أخرى غير منفرة !! إن التثقيف الصحيح يتضاءل ، والعجب والكبرياء يتضخم !!

إن استماع الشبان كثيراً من الأشياء ، وعدم درسهم جيداً ، يجعلانهم يظنون أنهم يعلمون . ولا يغيب عنهم شيء !! وما هم إلا مفتونون جاهلون !

إن عيب الأجهاد المضاعف هو تسخين الرأس بتبريد القلب !

إن من الأمور النافعة التى لا يوجد أسهل منها على الأطفال هى معرفة اللغات الحية ، غير أنه من الخطل أن يتعلمها الطفل ، من يوم أن يقدر على نطق لغة آبائه . إنك ترى كثيرا من الناس يأتون لأولادهم فى الثانية والثالثة من عمرهم بحاضنة أو خادم أجنبية ، فأنى بها قبل هذا فماذا تصنع بهم؟ تزور سمعهم ، وتفسد أذنهم ، وتخلط لسانهم ، وتعجم نطقهم زمنا طويلا . أليس كذلك ؟.

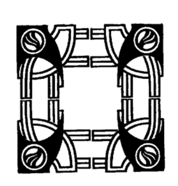
***

إن الأجهاد أو الكلل يصيب التلميذ لأنه فى الأمور العقلية لا يحترم قانون العرض والطلب . أريد أن فى مناهج الدراسة الطلب يُبْنى على العرض الذى هو كفاية الطالب العقلية ، ولما كانت الخلقة تعلمنا أن أكثر العقول وأوفرها هو الاستعداد المتوسط ، فبنسيان هذا المستوى يهدد مجموعنا بأن لا يكون لدينا إلا أحراض ألباب . وبالأيجاز يدرس للأولاد مواد كثيرة جدا ، وسهل عليك أن تعد ما لم يلق عليهم من أن تحصى كل فروع المعلومات المحتمة عليهم ، إنها لدائرة معارف !!

يجب الخلاص مرة واحدة ، من تعليم الفهارس التى تحف كل كبيرة

وصغيرة . ولا تتعمق فى شىء ، فهذا التعليم العام ، هو المرهق للذاكرة ، دون تنمية العقل ، والذى لا يترك بعده إلا علة عضالا . واشمئزازاً لا يخفف من العمل العقلى .

وقد قطع بصحة هذا الرأى ، وأن الشر مصيب لا محالة صحة ونمو الأولاد ، الخاضعين لفداحة هذا التعليم . ومن رأيى أن الكلمة الحقة فى هذا الموضوع أن تقول : لا تجب تضحية البشرية للمنطق والعلوم الأدبية . .



بعض المذاهب

الطريقة الاسبارتية

هذه الطريقة دعامتها كما هو معلوم حرمان الطفل من كل نعيم.

عيش التقشف ، تحمل الآلام بجلد ، النوم على اليابس ، ومجاهدة الرياضة العنيفة.

والحقيقة أن الخلق الضعيف والبنيات السقيمة ، كانت تضحى فى صالح الجنس . إنما التربية الأسبارتية تمتاز على الأخص ، بالتطبيق العملى للرأى الآتى :

إن الطفل ملك الجمهورية ، قبل أن يكون لأبوية ، والغرض أن يجدوا فيه الموطن العتيد ، لا الابن .

تربية جوهرها المصلحة والمنفعة ، بعيدة عن كل معنى أدبى ، ألم يسمحوا بالسرقة إذا عرف كيف يخفى السلب ؟ من ذا الذى لم يقرأ تاريخ ذلك الفتى الذى استولى على ثعلب فخبأه تحت جبته ، وفضل أن يمزق صدره ، على أن يؤخذ بذنبه ؟

إن مثل ذلك التهذيب فى عصرنا ، يمكننا أن نلخصه بالاختزال الظريف بثلاثة أحرف « ا ـ ش ـ ب » احذر شرطى بلدك .

ولكى يعتاد شباب إسبارتا ، سفك الدماء ومنظرها ، كان يسمح لهم مرة فى كل عام أن يذبحوا العبيد ، وعلى تحمل الألم بالصبر والتجلد يجلدون بالسياط علانية ، غذاؤهم الخبيصة السوداء : دقيق وعشب ، يلتُّ بقليل من الدم .

ويحكى أن السيدة « داسيه » (١) الشهيرة . دفعها الحب اليونانى إلى أنها أرادت أن تقدم لضيوفها العصيدة الأصلية بتركيبها القديم . . . وقد دعت بعض علماء اليونان وقدمت لهم بعض أطعمتهم العتيقة ، فاحتراما وحياء كانوا يزدردونه صبرا وغصا ، فأصاب أكثرهم الأذى

إن الحياة الأسبارتية لم تعد تصلح لزماننا ، فمن ناحية جميع الأسر تعترض إجماعا ، إذا أرادت الحكومة أن تكرهها على اتباع هذا الرأى . ومن الأخرى رغد العيش ، والنعيم ، اللذان عمّا كل الطبقات . وعلى كل حال يستلزم الأمر الابتداء بأيجاد آباء يستكفون لأنفسهم بالزهد والتقشف المستبعدين من عاداتنا . فالمشروع ليس بالقريب ولا بالمحتمل ومع ذلك نخير لكم ولأولادكم أن يخضعوا لنظام قاس ، إذا سمحت صحتهم ، لا شيء أشد تثبيتا للجأش والجنان ، وأعظم تقوية للعزم والأقدام من هذا . ولطاعة أساتذة مجربين نفوض لهم العناية بالترويض على الجرأة والجسارة فى التربية ، وهى تقوم على : إلهام العزم عند الألم ، الاحتماء ، وقهر النفس ، والعفو الكريم عن السيئة ، والقبول الحسن للجزاء الحق ، والأخلاص فى الأقرار بالذنب ، ومن هذا تتربى الأخلاق البيّنة . الراضية المرضية : أفضل الخلق .

---

(١) انظر فهرس الأعلام



مذهب روسو

روسو ، ترك من بعده كثيرا من التابعين ، وكثيرا من المقلدين ، ولا يليق أن نمر على مذهبه فى التربية صامتين .

فأذا قرأت كتابه علمت منه . أن الرجل وهو فى حمى من تأثير الاجتماع يصير مخلوقا عظيما ، وأن الطفل المتروك وشأنه يتفتح فى الفضيلة ، ذلك أصل حججه التى يشرحها ويفصلها . كيف ! لا يجد الأنسان من نفسه عند نشأته إلا المقاصد النبيلة ، والأميال الكريمة . والرغبات الصالحات ؟ إن أسرع التفاتة تؤدى إلى تكذيب مثل هذا الرأى تكذيبا صريحا !

وفعلا ، هل فطرة الطفل لاتدفعه أن يمتلك مايعجبه ولو بأخذ مال الغير عند الحاجة ؟ . . . . وأن يخفى ذنوبه وانحرافه وَحَيْدِهِ . بالموالسة والحيلة ؟ وأن يعمل على الأخذ بالثأر إذا تحرشت به أو غاضبته ؟

وعليه ، فالشىء الطبيعى حينئذ هى السرقة ، والكذب ، والانتقام ، لا الخصال المناقضة لها فلنتتبع بحثنا : إن الطفل يُفطر على الخير ، ولكن تنفس بنى جنسه قاتل له ، يقول ذلك روسو ! ، مع أننا مثل النمل والنحل معتبرون - ليس بلا حجة - كائنات متأنسة ، فعزل الأنسان يكون بلا ريب - توحيشه !

فليكن ! يجيب روسو ، ونحن لا نتأخر عن تفنيد هذه الكلمة . والمعقول فى رأيه ، أن يَقلى روسو أولاده ، ويسمح لنفسه أن يكتب بحثاً فى التربية الكاملة المتجسدة فى « إميله ! »

إميـل ـ سيربى فى الخلاء والحقول . وهـذا يولد ملاحظة : ماذا يفعل سكان المدينة ؟ أيرسلون أولادهم لشم هواء الحقول . فى مدارس ريفية داخلية ؟

إنما هذه الحياة المشتركة ، أليس فيها ـ تقريباً ـ كل شرور الاجتماع المدنى ؟ إن ذلك يذكرنا الكلمة الحلوة : كان يجب أن تبنى المدن الكبيرة فى الخلاء لتكون أصح . وأين هى الآن ؟!

إميل ـ لايذهب إلى المدرسـة ، سيتكفل به مؤدب .... ألا ترى كيف أن الفكرة سهلة التنفيذ وشعبية !؟

* * *

وفى التهذيب روسو ليس بأقل نهياً وتحذيراً ! فقد وضع فى كتابه هذه العبارة : تربية الطفل لاتقوم أبدا على تعليم الفضائل ، ولا الحقيقة ولكن لصيانة القلب عن العيب والرذيلة ، والعقل عن الخطل !

...... كيف يصان عن العيوب بدون تعليم الفضيلة ؟ وكيف يعرّف الخطل بلا ذكر الحقيقة ؟ إنه لقد نسى أن يثبت ذلك ، والواقع أن المهمة صعبة !

وبرد وبرفض كل سنة وتقليـد ، يريد روسو أن الطفل يجـدد كل يوم عمل الأنسـانية كلها ، ويخترع بأى صورة مّا علوما ، وفنونا ، ودينا . إن هذا تكليف بأعادته وحده عمل قرون !

* * *

إن إميل سيتبع روسو وسيتخذ مؤدبا ، مع أن أساتذته سيكونون « التجربة أو الاختبار والشعور » . فاذا قصّر التلميـذ فى واجبه يترك « يتحمل النتائج » ويكون هذا درساً مفيدا ! عظيم ، آمنا . ولكن إذا

ارتكب الطفل ذنباً ليس له أثر سيء أو مكروه ، فبالعكس يجد من نفسه مشجعاً على أن يعود إليه ؛ فمثلا إذا خلس قالباً أو حقاً من الحلواء من غير أن يشعر به أحد ، فما عواقب السرقة فى نظره ؟ ليس إلا أن يضع تحت تصرفه الحلويات لمدة أسبوع ، هل ترى جزاء فى هذا أو رادعا ؟ أفبمثل هذا ، الشر لايتحقق ؟ وهكذا الشيء لايصبح سيئة إلا للأضرار التى يمكن أن تنشأ عنه ! إنه لتهذيب لين كاذب !

* * *

إميل . له الحرية المطلقة فى تأثراته ..... ومؤلفه يكتفى بأن يجعله يقابل فى سياحاته عددا من الأشخاص مُرْصَدِينَ قصدا ليجهز أعذاره وعلله . كل شيء مصطنع فى هذه التربية ، المسماة « بالطبيعية » التى كما قال « دولا مارتين (١) » يظهر أنها خصصت لاغير لابن « فيليب » الذى كان معلمه « إرسطو(٢) » و « مقدونيا » ميراثا ، والدنيا مسرحا

فأذا شب إميل ، يختار وحده الآراء والأفكار والمعتقدات ، إذ أنه يجتنب تلقينه أى مذهب . جميع التقاليد الوراثية المنزلية ، تنبذ ، وتستبعد .

ولا يعرف الله إلا فى السادسة عشرة على التقريب ، وإنه فى هذه السن كذلك يستبدىء روسو بتربية الحسّ ! ! وبالايجاز فالمذهب يمكن أن يختصر فى هذه العبارة : يفكر فى تهذيب الطفل عند ما يبلغ الفتوة

* * *

إن صحف روسو الساحرة الفتانة ، التى « شيد منها مدرسته » تملكت أفئدة عدة حتى أن آباء كثيرين يرفضون الاعتقاد بأن بين الثانية والرابعة

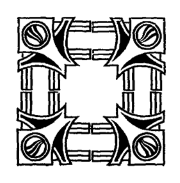
(١ و ٢) انظر فهرس الأعلام

من العمر يأخذ مكانه الشكلُ الباتُّ والصورة الحاسمة للتربية ، فيؤجلون إلى غير أجل ساعة البدء فى العمل .

وبفضل إميل ووحيه راجت الفكرة المنتشرة : يجب أن الأولاد يرون بأعينهم كل شىء ، ويجربون بأنفسهم ، ليتكونوا قلباً وعقلا . ثم يعتمدون على أنفسهم !

إن روسو ينزه كثيرا فى كل مكان تلميذه ، ولكن لانرى حقاً ، كيف يولد الخلال الكريمة التى فرضها له ؟ ويخال له ، أنه أسهل عليه أن ينتقد ويطعن آراء الغير ، من أن يثبت صحة مذهبه !

أيها الطالب الأمين : قل معى عند ختام إعجابنا بأميل : إن مؤلفه لم ير ولم يعرف له أمًّا !!



التربية الشعبية

لباسهم الخام فى الشتاء والصيف ، وسادتهم الحصير فى القر أو القيظ ، نعاسهم ثلثا الليل ، أكلهم على سماط واحد ، غذاؤهم الخضر والأثمار ، والخبز والماء ، لا يذوقون اللحم إلا فى السادسة عشرة ، هكذا كان يراد بحياة الأطفال فى الأعصر القريبة . فى أوربة . كلام يأخذ بالألباب ، ولكن . المذهب أغلق عليه الباب ، لكثير من الأسباب . . . . . .

وقال آخر فى ذلك العصر : الوطن له الحق فى تهذيب أبنائه ، لا يأتمن على هذه الوديعة . غطرسة الآباء . ولا باطل اعتقاد الأفراد «روبسبير (١) »

التربية فريضة . فتقتضى أن نستولى على الجيل المولود فنأخذ الطفل من حجر أمه ، ومن بين ذراعى أبيه ! كلمة « جريجوار (٢) »

من ذا الذى يجيبنى على : هل الأولاد المصنوعون بأثرة الآباء لا يصيرون خطرا على البلاد ؟ « كلمة دانتون (٣) »

استبدلوا بالآباء والأمهات تربية مشتركة إلزامية « كلمة لوبون (٤) »

أجل . إنهم أبناء الوطن . من ينكر ذلك ؟ وإنما الآباء فى البلاد على ما أظن لهم وجود ، ولهم قدرهم ، فمعاملاتهم كمشبوهين ، والاستئثار بحق تأديب فروعهم بعيدا ورغم إرادة الأسرة عمل ينافى العدالة والحرية !

إن الأمر لا مبالغة فيه : قد يكون هذا مصادرة الطفل التى نطالبها باسم الشعب !

(١ و ٢ و ٣ و ٤) أنظر فهرس الأعلام

هل الحكومة تستطيع أن تهمل التعليم العام . أبدا ، بل يجب أن تفكر فيه ، وتشغل وتعمل دائبة ، لا معارضة للسلطة والرغبات الأبوية ، بل لتقويتها ومساعدتها ، ومعاضدتها وتنفيذها ، وعلى هذا فالحكومة تعرف أنها السلطة التنفيذية لارادات الأسر . تلك هى كلفتها الحقة

فأذا اتبعت رغبة الأقلية قيل إنها كريمة متساهلة ، وإن نفذت رأيها اقتداراً أو مشايعة لرغبة الأكثرية قيل إنها شديدة لا تطاق ، فهى فى الحالين . . . !



الداخلية المدرسية والدار

إذا وجدت داخلية مقبولة ، فهى غير صالحة تماما . وا أسفاه إنه يلجأ إليها أحيانا قهرا ، ولو أنها شقاء للطفل .

الطالب الداخلى بفضل النظام المفروض عليه ، ربما يمضى زمنا أكثر فى الدرس من التلميذ الخارجى ، ومع ذلك ، فتفوقه العقلى لم يتأيد فى المباراة

وأما من الوجهة النفسية ، فالفارق عظيم وتام . وأحسن ما يؤمل أن لا يكون الداخلى مسيئا مشئوما

تدبير مثل هذا يقلل كل يوم تأثير الآباء . وفى السن التى تتكون فيها العواطف والأحساس طوعا أو كرها ، يعتاد الطفل الاستغناء عن اسرته . وعند خروجه من معسكر الداخلية لايشتاق ـ وهو معذور ـ إلا لأمر واحد : الأطلاق بلا قيد والحرية بغير حدّ !

والأب الذى لم يتسن له استعمال سلطانه ، لا يستطيع أن يحكمه والابن لا يطيع عن طيب خاطر ، ذلك الغريب الذى لم يعاشره ، ولا يهواه تقريبا أبدا .

لقد تخلص الأب من ولده ! والآن ، ذلك الولد يتخلص كالبرق ، أو يفلت كالزئبق ، من الذين يريدون تهذيبه ، وأى سرور يجد فى دار عاد إليها عرضا ؟ وأصحاب أبويه مجهولون لديه ولا ميل عنده لهم . قد عاش لنفسه ، لاوُدّ ولا عطف لأهله ، لقد كان ذلك محتوما ! لديه

علاقاته ، وله تقديراته ، وغالباً حسابه ، لقد تطبع . فتملكته خلاله ، لن يعتريها تغيير ، ولن يستطاع لها تحويل .

انظر إلى تلميذ « داخلى » فى يوم الخروج . . . .

له أربعة أسابيع أو أكثر ، لم يحادث أمه ولا أباه حديثاً متتابعاً مألوفا . كان الحال يقتضى أن يكاشفهما بألف أمر ! لا : يلبث صامتاً قالياً ، كئيباً .

لا تعجب من أمره . فانك ترى الأحباب « مثلا » إذا اجتمعوا كثيراً لحديثهم لاينقضى ، يغرقون فى الحديث : فى القديم والحديث . يطنبون مايجب أن يوجز ، تلذذا واستمتاعا حتى فى أتفه الأمور : فى الهواء ، وفى الماء . وما أطيب وأحلى حالهم إذا التقوا بعد غياب طويل ! فما بالك إذا خمد شوقه ، وعرفنا أن المحادثة ليس لها بقية إلى الغد ، وأن سلسلة الكلام ستقطع ، لزمن طويل !!

وأما تربية الدار : فعيبها عدم النظام وفقدان غيرة السبق والتفوق ، المدرس حاضر ، والأستاذ موجود بلا ريب .

ولكن : فى يوم السبت ، الخياط . الأحد ، سهرة عرس . الاثنين ، زائرات وزائرون بالولد يلهون . الثلاثاء ، طبيب الأسنان . الأربعاء ، الأستاذ موعوك ، والخميس الولد منحرف المزاج . والجمعة راحة كالمعتاد .

تلك العيوب يمكن اجتنابها وتلافيها بأن يرسل الولد إلى المدرسة صباحا ، ويعود مساء ، فتراقب النفس ، ويثقف العقل . ويوفق الدرس والنفس .



تربية الآباء بالأبناء

فلنقرأ لنرَ ؟ يقول المطلع : ماذا « أيربى الآباء بالأبناء ؟ » إنها لخاطرة ، هذه كبوة من الكاتب . أو سقطة من الطابع !

كلا ! الكلمة بلا شك بدعة ، غير مألوفة ، إلا أن تحت ظاهرها الحق الصراح .

الرهبة

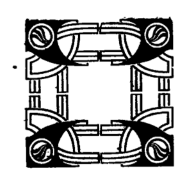
يابنيتي : تقول الأم : اعدلى نفسك ، لاتلَفُّ الساق بالساق هكذا إنه وضع لاينبغى لمثلك . والأم، لم تلاحظ الأب المدفون فى كرسيه الوثير ، يقرأ كتابه ، وفى القعدة التى أنبت عليها ابنتها . ثم تنبه من سهوته ، وخرج من فتوره . متظاهراً كأنه لم يسمع شيئاً ، فزحلق ساقه من فوق أختها ، وجلس ساكتا باحتشام . كما اقتضى الحال والمقام . وبعد برهة وهو مأخوذ بسحر عبارة . نسى . فعاد إلى جلسته الأولى ، فاستدرك وقال لنفسه : فلنحذر عساها لم ترنى . وسرعان مااتخذ الوضع اللائق ، وجعل من بعد هذا يراقب نفسه ، وإلا فكيف تلوم الأم بنتها ، وبأى حق تعنفها إذا هى عادت ؟

***

زار أصحاب الأب ، نخش الطفل بينهم . وجلس فى الجمع ، فتثب بغتة ثثبة رنانة بمواءة ملحنة . فقال له أبوه وهو غاضب : أطبق ، يافتى ، ألا تدرى أن مافعلت مغاير للأدب ؟

وبعد العشاء . ولم يمض غير ليلة ، ولم يتذكر الأب ملاحظة البارحة متعباً ضجرا ، أهمل أن يضع كفه على فمه ، ويكتم ثثبة لجائية ، طنت فى أذن الطفل فالتفت وفتح عينيه . وفكر متعجبا فى الاستجواب الماضى .

فبفرض أنه مؤدَّب ، موقِّر أباه ، لايحرك شفتيه ، وإنما يفكر ويفكر كثيرا ! غير أن الأب لمح فى عين ابنه ابتسامته الحائرة ، فحذر من بعدها . وعلم خطر التناقض بين القول والفعل . لقد ذكرت شيئا وتركت لك أشياء كثيرة ، أنت تعرفها . .



اللَّمزة

إن آباء عظاما يرمون القول جزافا ، المسموح مع رفع الكلفة ، الجائز فى أمكنة أخرى ، ولكنه مملول على أى حال !

فأذا أرادوا التعبير عن عدم اكتراثهم لأحد ما ، قالوا : إلى حيث ألقت ! إذا ذهب الحمار . . . ! ذهاب بلا إياب ! فالطفل يعلق هذا التعبير القوى الشديد المجسم للفكرة ، والذى تظهر بجانبه : الكلمة الحقة بلا طعم ولا لون .

فيستعمل الطفل بجرأة الألفاظ الأبوية ، حتى يسمع لوم أبيه لنفسه ! وحينئذ يجب على الآباء أن يراقبوا لسانهم . كما يراقبون حركاتهم . !



المطالعة

قراءة القصص والروايات، عيوبها كثيرة كما قدمنا. وقد حظرنا على الأولاد الأغراق فى مطالعتها . وإنما ظهر كتاب جديد بقلم كاتب شهير أسلوبه جميل ، وعباراته بليغة ، فاقتناه الأب لفصاحته، ومتانة إنشائه ولكنه لايخلو . . ؟

والأب ما فتىء يحذر ابنه قراءة تلك الأوراق المسمومة . الطفل شب ، فعثر على الكتاب ، ففتحه ليقرأه ، ففاجأه أبوه ، فانتزعه ونهره . وأحرقه .

ولكنه كتابك ياوالدى ! نعم . وصمت . وعزم على أن لايعود إلى شراء قصة أو مجلة مكشوفة . أرأيت كيف يربى الأبن أباه فى هيئته ولهجته ومطالعته !؟



الدار المكرمة

تدخل الدار ، فتجد على اليمين فى البهو ، وعلى السلم ، وفى الدهليز تماثيل حاسرة ، مفككة الأزرار محلولة الشعر ، مكشوفة الصدور إلى السحور ، والأعناق إلى منتصف الظهور . والشق إلى غور الخصور . فلا يرتد الطرف عنها ، على ما فيها من مواربة وتلميح ، أو تورية وتصريح وعلى الرفوف دمى ، وفى الحوائط ألواح . تدخر باسم الفن والأثر ! الصورة عارية من الأدب . ولكنها من العاج الناصع ، أو الخزف القديم اللامع ، سحر سعرها ، وخلب مهرها ، نخفى فُجْرها ! وألهى مبناها عن معناها ، الشنار تحت نفاسة الآثار ، يحرص عليها ، وتعرض فى أظهر مكان ، وأشرف الأركان !!

هى غالية ، وغلاؤها مبرر لاقتنائها ، ولو كانت من الجص أو الفخار أو الورق لألقيت فى السلة زهدا وأدبا ، تلك الأصنام المخزية !

الصورة خالعة العذار ، واللوح خال من الوقار ، والدمية رافعة الستار ، لاتليق بأصحاب الدار . ولا بحسن الخلال والكمال ، وكرم الأخلاق . مثال لشعار العار ، ورمز للشنار . إنما لاتتجه إليها البصائر ، وتشخص لها الأبصار !

قد رآها أولاد الجيران ، والأهل والخلان ، وعرفوا الظاهر ، وغاب عنهم دقة الصنع والفن ، وقدر العادية والثمن .

ثم قال لهم ولدهم ، والجمع محشود ، فى يوم مشهود : ما بال هذه

الصورة ؟ . . . . . وما ذلك الذى فى اللوح ؟ . . . . ولِمَ تفعل كذا تلك الدمية ؟ . . . . وذهب فى استفتائه إلى . . . . بوح الأسرار ! وإحراج أمه . فتصببت خجلا ، واعتزمت انتزاعها ، وبين عشية وضحاها ، خلت الدار ، من تماثيلها ودماها ، وطهر البيت تطهيرا . ولمن الفضل ؟



الخدم

إن سيدة دار ربما كان لديها أسباب قوية للاشتباه والارتياب فى سلوك خادمها . وانما هذه خياطة بارعة ! ومشاطة ماهرة ! والسائق سفيه ، حلاف ، غلاظ فى القول ، وهو على بذاءته مدمن عربيد ، ففى حال سكره . قاء ألفاظا فظاظا ، وأقوالا غلاظا ؟ تقشعر منها الأبدان ؟ . .

نعم لقد زهدته ربة الدار من قبل ، وأرادت أن تتخلص منه ، ومثل هؤلاء الخدم مثل الدمامل والقروح ، لكنه زوج الطاهية الجاهدة المتقنة الصناع ولا يمكن الاستغناء عنها على أى حال . ولأى سبب كان .

***

بنت البيت قد يفعت . بلغت الحلم · لاحظت وفهمت . فاشتكت وبلغت وروت تسلل ودبيب الخادم ! . . .

والابن نسى نفسه . « أو أنه تذكر » حتى أنه أعاد سباب وشتائم السائق اللعين بصوت جهير .

فتنبه الأبوان ، ولم يفكرا فى راحتهما ، ولا فى المذاق اللذيذ . وبدلا الدار بدويرة فى وقت قصير ، وأخرجا الخدم الوقاح . وأحلا مكانهم الناس الملاح ، الذين كادوا يعدمون القوت .

الدار اكتسبت وقارا واحتراما ، وهدوءا وسلاما ، وكسبت ثواب

إيواء هؤلاء المساكين، المعوزين. بدلا من الظهور، القاصم للظهور ، المدنس لكل طهور ! وتخريج ابن سباب ، وبنت لعوب ... !

أليس يرجع الفضل فى هذا العمل الطيب إلى الولد ؟ ولولاه لما تغير الحال وساء المآل .



الأصحاب

١ - أم الأسرة التى أتحدث عنها ، الوقور الطيبة لاتقبل إلا زيارة البيوت الكريمة حسنة السمعة ، بنات الشرف والمجد ! وإنما سيدتان أو ثلاث وصمن هذه الصحبة المختارة ، ولو أنهن عقائل ماجدات ، غير أنّ بهنّ عيب الميل أن يقال عنهن غانيات وظريفات جميلات ،من اللبيقات المتبرجات المتزينات . طمع عجيب . وزهو غريب ! كأنهن يتقن إلى الانحطاط من درجة الناس ، إلى أنصاف الناس ، ومن البيوتات إلى مادونها من المنازل .

انظر معى هؤلاء الزائرات . إنهن لا يكشفن سرا ، ولا يتحدثن جهرا ولكنهن نعّارات ضحاكات . والطراز مزْرٍ وفضّاح . صبغة الدهان ، لاصبغة الرحمن . فى الصفحتين . تزجيج الحاجبين ، وتكحيل العينين ، تكحيلا ذا ذنبين . وطلاء الخدين . لتكونا جمرتين ، وتلوين الشفتين لتحكيا مرجانتين . غش بارز ، وجرأة قبيحة . أحرائر ؟ أم خرائع ؟ أم خرائع حرائر ؟

لماذا تقبل هؤلاء الزائرات ؟ أمر مجهول ! وصعب أن تعين الأسباب وتعرف كيف كان الاصطحاب ؟ !

سيدة زارت زورة أو زورتين ، فوجب رد الزيارة ، وهكذا العلاقة ارتبطت قسرا ورغما ! واستمرت الزيارة كما بدأت بلا أسباب !

فرأت الأم بنتها يوما ترش الدقيق على وجهها الناضر ، وتسدل خيوط الطرة العسجدية على غرتها الفضية ، فسمجت . والاصطناع تشويه ، والأفراط فى التجمل تقبيح .

ولقد كفى هذه الأم ماجرى . فعزمت أن لا تزور هؤلاء السيدات . وقالت لنفسها : لن أذهب إليهن ، لافائدة لى ، ولا شىء ضائع عليهن !

***

٢ ـ وأما الأب فقد لبث عشرا أو خمس عشرة سنة لم ير بعض الرفاق القدماء الذين صدهم قصدا ، وقلاهم عمدا . رفاق انحدروا . وقرناء صاروا آخر الناس ، هملا ، لاخير فيهم خُـلَيْطَى(١) ، قد انتقى جيدهم ، وبقى رديئهم . عليهم هيئة الطوافة الأفاقين ، من يكادون ينكرونك إذا رأوك فى منظرتك ، ومع هذا يخاطبونك بلا تكلف كأنهم أحِمَّاء(٢) ليتملقوك لاشىء آخر ؟

طرق البـاب أحدهم ثم اقتحمه ، وقد اجتمع مع الأب وهما من طريقتين ، وفرقتين . فالزائر الجديد غير منسوب إلى طبقة فى الاجتماع ؛ دوار لا يستقر له قرار ، ذو لسان لهاج هجام ، يدخل فيما لا يعنيه يأخذ فى كل عنٍّ وفنٍّ وسنٍّ !

ماأسرع هذا الطارق فى تزود الأخبار ، ولفت الأنظـار ، وقص الأحاديث الصادقة والكاذبة المتصل بعضها ببعض ، والتى أقل مافيها الملل والمقت والبذاء . منها مايدعى أنها حوادث صادفته ، أو وقعت لرفيق قديم ، وهو يرويها للمرة العشرين ، كأنها بنت أمس ، فأذا بحثنا ، عثرنا عليها فى أساطير جرائد الشهر الفائت .

ففى القصة الأولى تململ صاحب الدار ، وقام بهدوء وأغلق الباب . . .

---

(١) أوشاب ، حمق .

(٢) جمع : المفرد : حميم .

ما تظن امرأته وخدامه . إذا استمعوا هذه اللهجة الغريبة المعيبة ؟!

صاحبنا أخذ يتردد . ويثقل ، يتبسط فى القول . ويتوسع فى الحرية! الأب خشى أن يكون أبناؤه فى الغرفة المجاورة فيدفعهم حب استطلاعهم ، ووعى آذانهم . وشغفهم لسماع الغريب . فكره وجوده لفكرة أن حاجزا رقيقا أو حائطا دقيقا ، يخترقه الصوت تماما ، يفصل أولئك الملائكة الأطهار ، عن هذا النعار الثقيل الخباطة (١) الثرثار .... فأمر بعد قليل خادمه أمراً مشدداً وحازما : إذا عاد فلان فقل ... إنى فى سفر طويل ، وإذا سألك فقل : إنك لاتعلم متى تكون أوبتى من غيبتى ... كان هذا ولا دخل للولد فيه ، ومع ذلك هو ، وهو وحده الذى ألهم الأب ذلك الرأى الحصيف .

نعم . هذا المخلوق الساذج . قد يكون أحيانا أستاذاً كبيراً بدون علم ، بتاثير وبانقلاب مدهش ، فجهله يعلمنا ، وضعفه يقوينا ، حباً فيه ، وخشية عليه !

إن بعض الطيور (٢) فى إبان تربية فراخها - لاتترك أى حيوان يربيها أمره أن يقترب منها ، وتذود عنها حتى اليأس ، فلا يخل نظام تربيتها وعملها .

---

(١) الذى يتخبط فى حديثه

(٢) كالبلاشون Peli can



النظام

طالما كان المهد خالياً ، فالنهوض والهجوع فى البيت الصغير غير منظومين بترتيب . ! يطول السهر فى قراءة كتاب باصرار وعناد ، أو فى ليلة ساهرة .....! وعند الصباح تترك المضاجع ... أو بالحرى لا تهجر ... والنهار ينقضى بلا حساب ، ولا شىء يعمل فى ميعاد .... الاختلال تام .

أزأف (١) على البيت مولود ، فواجب الأم الشاق يأخذ مكانه ، يستغرق أفكارها ويستنفد قواها ، والأب يقلقه صياح المولود ، فيتقطع رقاده ، فيأرق ، فينهكه السهاد ، فيعرف لذة النوم . ومع هذا ، أيجرؤ على الشكوى ، إذا وازن نصيبه بنصيب قرينته ؟ وما هو إلا الوهن وهم الأمهات ، والمجاهدة والضجر ، أيقاس هذا بالسهر ؟ ولئن شكا فانه إذاً لظالم كنود !

وما الذى أصاب البيت ..... فى عهد قريب ؟ ساد النظام ، وصلح الفساد ، وتجددت الحياة الهادئة الراضية ، فلا زمن الراحة يضيع ، بلا سبب شديد ، وترتبت الوزمات وأوقات الرياضات . صالح الوليد ، وصحة الشريك العتيد ، يدعوان إلى عهد جديد ! رضيع ، يعلم آباءه ، كيف أن الوقت لا يضيع ! ؟ !

---

(١) أجهز وغير نظام المنزل



درس فى المنطق

كم قواعد توضع . ومبادىء تؤكد . ونصوصاً يخاطر بها . وكلمات طائشة نتركها تفلت فى عام !

وعلى كل حال ، لِمَ التشدد فى مراقبة أنفسنا وعقل أفكارنا . والتزام منهج بليغ ، أو منطق حكيم ؟

هل الآباء والأهل والأصحاب والخلان . لا يعرفون أن الكلام لا يفيد الأخبار ! والقول لا يضمن الذكر ! إنهم من أنفسهم يغالون ، وبألسنتهم يبالغون ، بالفطرة المطبوعة ، واللهجة الموروثة المسموحة ، بينهم من أجيال .

ما أضجر المنطق ! وما أسهل وأخف القول ، والتعبير عما يمر بالرءوس بلا بحث كلمات وتنسيق عبارات ، ووزن أفكار !

إنما الأولاد حاضرون . مستعدون أن يعمموا حكم الحوادث الخصوصية التى لا حظرها ، ويتخذوا كقاعدة لا تقبل النقض الهبَّات التى أدهشتهم ، ويروا الحقيقة العلمية فى أول بادرة مزاح .

***

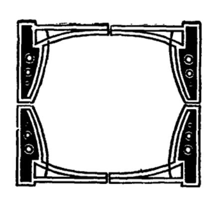
إن الأنسان يتحمل من المشقات كثيراً ، على ما أظن ، لينفع آخر ، يسعى له ، يتعب بأمل أن يكون محبوباً ، ولكن - يا أسفى - الحادثات تخون نياتنا الحسنات . ويكون جزاء فعل الخير لوما مرًّا ، ونقدا أليما ممن أحسنت إليه ، وكان أولى به أن يشكرك عليه ، إن الكفران بالجميل ، منّاع للخير ، يجعل الخيِّر يقول ، حقاً : إن السعى بالمعروف مجلبة للنكد فلن أعود إليه . . .

يقول بلسانه ولا يعتقد قلبه . ويكون أول عائب على من يمنع الخير ، ويصد عن الاحسان ، وإنما لألمه وجرحه . يخضع لكدر مزاجه الوقتى ، لا أكثر .

فأذا وقعت عين الطفل فى هذا الحين على نظرته ، وقرأ فيها الفكرة الباطنة العميقة يخشى ذلك الخير ـ لغير سبب إلا لحظات الطفل ـ أن يشكك تلك الروح الصغيرة ، ويعجل أن يصلح قوله ، أو على الأقل أن يفسره .

وكم من مرة وبلا اكتراث نقبل فكراً متنافرة ، ومسائل متداعية وإنما سيأتى يوم يظهر هذا الخطل للطفل ، ولا مناص من أن الآباء يلاحظون انفكاك وتباين ملاحظاتهم وتقديرهم ، ويفكرون فى مراقبة آرائهم ، وسدادها . ومنطق لهجتهم فى المستقبل .

والطفل لا يهمه أن لا يعرف حتى اسم (القياس المنطق) متى كان فى الواقع أستاذا صغيرا كاملا فى المنطق .



الملاهى

الأزواج الشبان الذين سنعرض صورهم فى المزرح ، مغرمون بالتمثيل ، يكرهون سير أولئك الأبطال ، وعظام الرجال الذين يولدون ويظهرون ويموتون على شرفات ، وشرعات ، وتحت أنوار قناديل المزارح ، ولكن الدسيسة والمكيدة المحبوكة مشوقة ، حتى إنهم لا يجرءون أن يرفضوا استماع الرواية العاسفة أو الماجنة .

لقد نفرت رقتهم قليلا . ولكن ألم يروا كيف شربت « كيلوبترا » السم ، أو لدغتها أفعى ؟

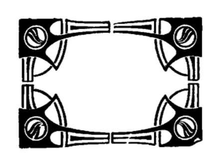
يبدءون أن يستَخفُوا من الطفل إذ لا يريدونَ أن يعرف إلى أين يذهبون ؟ فيختلقون زيارة ، أو عملا ضرورياً ..... والصغير لاحظ هيئتهم ، ولبستهم ، أنها غير الاعتيادية : المِروَحَةُ ، المِنظار المقرب ، أنشوطة العنق البيضاء ، الحذاء الأسود اللماع . كل هذا ينم على نياتهم المستورة ، فيحس الولد أنهم يخفون الحقيقة .

لماذا يَستخفون ؟ وأى أمر يخفون ؟ يقول الطفل فى نفسه ، ويفكر بحدسه إن خيراً فلِمَ توارون ؟ وإن شراً فعلام تفعلون ؟

لم ينته الفصل ، وبعد أيام زارهم صديق ، وفى القاعة أو على المائدة حدثهم عن الرواية . ونجاحها ونقدها وأبدى رأيه فيها ، بصوت عال ، واستطلع رأى الأبوين ، لقد بدا للولد سبب تستر الأبوين ، وأنصت إلى نقد الضيف للرواية . ولم يَنسَهُ عن شىء قاله هذا الضيف ، الذى ظن أنه يؤلف كتاباً فى الأدب . فجعل يشرح حتى الأشياء الوعرة ... !

ما أجمل وما أصوب ... ! وعلى كل حال . فالآباء استقر رأيهم على اصطحابه . وفى اليوم القريب ، كانوا أحرص فى التشجيع - سواء أكان بحضورهم أم بدراستهم - على رؤية معروضات أكثر من كاشفات للأسرار ، أو امتداح ، أو استحسان جرىء خطر ، وتزكية بلا احتشام ، وتمجيد بلا وقار ، لكل عورة وعيب !

كم من رواية هذه لحمتها . وتلك سداها !



القدوة الحسنة

المثل الصالح أحسن قدوة ، له أعظم تأثير فى الطفل من كل إرشاد يلقى أو نصح يمحض . قد تجدون فيه نصباً ، إلا الصابرين منكم فانهم يرونه مشقة يحملونها لخير أبنائهم .

إنكم إذا جاهدتم أنفسكم فى لذة . وأرجعتموها عن غرض ، ورددتموها عن شهوة فقد حاربتم أمّارة . . . . حرباً يرفرف بعدها السلام ، ويكون أبناؤكم على هدى . جاهدوها . يُخفق كل وسواس وشيطان مريد ؛ قضاء حتمته الضرورة ! طوعاً أو كرهاً . ستجدون أصرا : حرمان النفس مما أعجبها . وتكليفها بغير المستحب . وتشعرون أنه واجب حتما .

فاذا دعا الأمر إلى استيعاب الطفل دواء غاصًّا ، فذوقوه قبله . ولتعليمه الاعتدال والهدوء والصبر . اكظموا . . . . واحكموا أنفسكم . وإذا بحثتم أن تحملوه على الجد ؟ فأقوم الوسائل أن تظهروا شغفكم به ، وتبرهنوا على اجتهادكم .

الوعظ بالفعل والأرشاد بالعمل أثبت وأوقع ، إن إكمال الأحفاد يبدأ باكمال الأجداد .

نعم . إن الأستاذ المجهول الذى يتم هكذا تربية الأب ـ ليس إلا الولد ، أظن أن الأمر صار بيناً . والدعوى أصبحت ثابتة ؟

***

يحكى أن جداً كبارا لا يكاد ينهض ، ويمشى مخذول المفاصل ضعيف البصر ، أدرده الزمن ، فأذا جلس على المائدة سال الحساء من بين

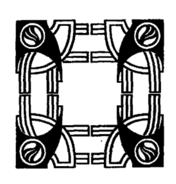
شفتيه ، فجرى على ذقنه ، وساح على ثوبه ، فبقع السماط ، فأظهر ابنه وزوجه شمزهما .

فأعدا له مكاناً فى ركن الغرفة ، وجعلا يقدمان له الطعام فى جفنة صغيرة من الفخار ، وحرماه بعض الألوان .... فكان كبير البيت يتطلع إلى المائدة ، التى يجتمع عليها أولاده ، والحسرة تمزق فؤاده فتسيل دموعه على خده المجعد .

ثم جاء يوم لم تقدر فيه يداه المرتعشتان أن تمسك تلك الجفنة فسقطت . وانكسرت فعنفته امرأة ابنه الشابة ، وهو لم ينبث ، ولكنه أنَّ وتنهد . واشترت له قصيعة من خشب وألزمته أن يأكل فيها .

وفى أثناء ذلك قعد حفيده « ابن أربع السنين » يتسلى بأتقان تعشيق قطع من الخشب فنظر إليه أبوه ، وقال : ماذا تصنع ؟ قال : إنى أصنع مزوداً لكما ، لتأكلا فيه فى الكبر .

وعندئذ تبادلت عيناهما النظرات ، وفيها الحسرات ، وانهملت العبرات ، وأرجعا الشيخ الكبير إلى المائدة : وصارا يحيطانه باحترام وإجلال ، وأعماهما درس الصغير عن نقط الحساء ، واتساخ الغطاء .



الآباء المعيدون

يقضى الغلام بضع سنين من حياته فى المطالعة المدرسية ، والعلوم الأدبية ، وإذا بلغ الرجولة كرس مثلها لدراسة بعض علوم التخصص : القانون . الفلسفة . الطب . الهندسة . وأثناء تلقى علوم القسم العالى ، ينسى قواعد الأشياء . حتى أن من يحوز درجة العالمية فى الفقه ، قد لا يذكر جيداً جدول « فيثاغورث » (١) . والمهندس الماهر ، يخلط بين الصفة المشبهة واسم المفعول . والطبيب الذى يتمرن فى مستشفى ـ وقد كان يفوق أقرانه فى التاريخ ـ يغيب عنه القرن الذى عاش فيه صلاح الدين ، أو الاسكندر . فعلُ الترك : الآفة : وآفة الترك النسيان .

تمر السنون .... والطالب يصير زوجاً وأباً . . . . وقد بلغ ابنه الدروس الأولى ، وفى الصباح والمساء . ذلك التلميذ الصغير ، يسأل ويستجوب . يظهر الأب استخفافه بالأسئلة التى توجه إليه فى بادىء الأمر .

وكيف هذا ؟ واجب عليك معرفة ذلك يجيبه الأب عسى أن يخلص من ذاك الاختبار الصغير : ابحث جيداً ، وسترى أنك تجد الجواب . هذا أمر سهل . . ! وإنى فى سنك ما كنت أتوقف هكذا ! ويمضى فى قوله صلفاً وكبراً .

فأذا كان السؤال مبهماً ، هرب منه بحجة عدم البيان . وإنما الحيرة والبهت ، عند ما يصير الولد أرقى تعليما ، ويقول : يا أبت . كيف يبحث عن جذر عدد . . . ؟

---

(١) انظر فهرس الأعلام

وما الحل الهندسى للضوء على كرة أو أسطوانة ؟ وما الفعل الجامد ؟ هل يأتى أفعل التفضيل من الفعل الدال على عيب ؟ وما عاصمة بلاد « دهوما » ؟

قد تحتم الجواب بصراحة وبيان ، وكى لا يؤخذ مباغتة . يذكر ضرورة الأعراب ، والصرف والاشتقاق ، والتاريخ . والقواعد الأصلية الأساسية لبعض الفنون . جميع هذا قد محى أغلبه من الذاكرة ، فيستعيد تعليمه حتى يستطيع أن يكون معيداً لولده .

وما يقال عن الأب . قد يقال عن الأم . . . إن كانت متعلمة . . . فتأخذ فى فتح كتبها القديمة التى ردمت تحت الغبار ، منذ عشر سنين ، فترجع إلى مذاكرة الموسيقى والتصوير المهجورين كثيراً فى سنى الزواج الأولى . . . . .

نعم . ستعاد القطع المنتخبة التى حفظت يوماً ما وستتلى ، ويدهش من إدراك معنى ، أو كشف فكرة لم يشك فى تضمينها العبارة القديمة الحديثة ولن يمضى غير قليل حتى نقرأ كل المواد التى مررنا عليها سراعاً فى الطفولة . وقد فهمناها حق الفهم لأول مرة فى الكهولة . فلا تنسى بعد ذلك .

ومن الذى علمنا . . . أن نتعلم . . . ؟ لا أحد غير الولد ! والولد وحده !

اذا شئت أن تربى فابدأ بتربيتك



فهرس الأعلام

الأعلام

الشيثى Scythe

الشيثى نسبة إلى شيث . اسم يطلق على أمم تناسلت من يافث بن نوح ، وسكنت الشمال الشرقى من أوربة ، والشمال الغربى من آسيا . وليس لهم بلاد محدودة ، وكانوا يعيشون عيشة الرحالة وعلى الفطرة ، وأساس طعامهم العسل واللبن .

وقد تكلم عن نخذ من أنخاذهم « هيردوت » وسماهم الشيثيين الملكيين بالنسبة إلى شكل حكومتهم . وقد كانوا أشداء ، وحكموا قسما من أوربة وآسيا ، ولكم نازعهم أعاظم ملوك العصور مثل : كسرى ، ودارا ، والأسكندر ولم يستطيعوا أن يخضعوهم إلى حكمهم .

هيرودوت Hérodote

مؤرخ يونانى ولد سنة ٤٨٤ قبل الميلاد . وتوفى سنة ٤٢٥ ، دعى بأبى التاريخ قد ضرب فى الأرض من شبابه ، فطاف بلاد اليونان . وجاء إلى مصر ، ورحل إلى آسيا ليعلم سير الأمم ، ويقف على عاداتهم وشرائعهم ، ولما ختم مطافه عاد إلى وطنه فوجده مضطهداً من حاكمه ، فوقف له وقفة الحر . فكان جزاؤه النفى ، بجزيرة « ساموس » ثم دار الزمن ودخل وطنه ، وتمكن من عرش الظالم ، وثله وخلص البلاد من شره . فدب الحسد فى قلوب بعض أبناء وطنه ، فأنكروه ، وحاربوا مكانته ،

فهاجر من بلده ، وانعكف على تسطير التاريخ ، وبعد أن أتم رسالته رحل إلى بلاد الطليان ، ثم توفى فى « ثوريوم » .

لوك Loke فيلسوف إنجليزى : ولد سنة ١٦٣٢ م وتوفى سنة ١٧٠٤ درس فى أكسفورد ، ثم تعلم الطب ، وأتم تعليمه على كيس غيره ، لفقره . وقد عهد إليه تربية ابن الكونت « شافتو سيرى »

ولما نفى هذا ، وذهب إلى هولاندة ، تبعه لوك ولبث بها حتى ثورة ١٦٨٨ فعاد إلى بلده ، وعمل فى الحكومة ، فشغل منصب محتسب المستعمرات ، فأصابه ضعف . فاضطر لترك منصبه ، رغم تمسك مليكه به ، ورفض أن يكون بمنصب لا يستطيع القيام به ، ولا أن يستولى على مرتبه ، وهو غير قادر على أداء واجبه ، فاعتزل فى قرية « واطس » حيث قضى بقية أيامه .

وقد سمى - لحصافته وأصالة رأيه - بالحكيم . ومن مؤلفاته كتاب « تربية الأولاد » الذى استقى منه روسو كتاب « إميل » .

ليكورغ Lycurgue هو الابن الثانى « لأنوم » ملك « إسبارطه » توفى أبوه ، وورث الملك من بعده أخوه « بولدكت » ولم يلبث أن مات سنة ٨٩٨ ق.م ولم يترك ولدا ، وكانت امرأته حاملا ، فساومت « ليكورغ » على زواجها منه ، بقتل جنينها فأبى ، ورضي أن يكون وصي العرش إذا

وضعت غلاما ، حتى يبلغ أشده

ولما أتت « بشاريلوس » حكم باسم ابن أخيه ،

ولما رأى فوضى قومه ، وجد لزاما أن يشرع لهم ، فرحل إلى جزيرة « كريت » وجاء مصر ، ثم ذهب إلى آسيا ، ليطلع على شرائعها . وعاد إلى وطنه . وسن لهم شريعة رفعت ذكره ، وخلدت اسمه . وأخذ ميثاقا غليظا على أهل وطنه ألا يبدلوا بشريعته ، ثم هجر وطنه ، ولم يعد إليه . .

وكان يقصد بشرعه المساواة بين أهل وطنه . وأن يجعل منهم أمة حربية ، بغير فكرة الاعتداء على الغير . وللوصول إلى الغرض الأول قسم الأرزاق بالتساوى على بنى وطنه ، وفرض اشتراك غذائهم ، ووحد التربية بينهم ، وللوصول للغرض الثانى جعل التربية حربية ، بالمداومة على الرياضة البدنية ، لتقوية الشبان وتهذيبهم .

شيشرون
Cicéron

أكبر وأشهر خطباء الرومان ولد سنة ١٠٦ ق م من أسرة ليست ذات مجد معروف . مال إلى علوم البيان من صباه والفلسفة . وتخرج على أعظم أساتذة عصره ، وابتدأ الاشتغال فى المحاماة فى سن السبع والعشرين ورحل إلى أثينا ليحذق فنه فبعد أن أمضى بضع سنين عاد إلى بلاده وتعين أمينا على خزائن صقليه وكان محبوباً من أهلها وهو الذى دافع عنهم لما اتهموا فريس بأكل أموالهم وربح الدعوى رغم قوة وسلطان هذا الملتزم الثرى .

ولما صار عينا من الأعيان وتمكن من قتل مؤامرات
(كتلينا) لقبه مجلس الشيوخ بأبى الوطن وذلك سنة Catiline
٦٣ ق م .

ثم دار الزمان فتقلب حزب (كتلينا) بعد بضع
سنين فاتهمه بقتل بعض أعضاء الحزب بلا محاكمة فنفى من
روما ولكنه لم يلبث إلا عشرة أشهر واستدعته روما
وكانت عودته ظفرا ونصرا وشغل منصباً فى حكومة صقليه
ووفق فيه إلى تحسين الجندية حتى لقبه جنده بلقب امبراطور
ولما اشتعلت الحروب الأهلية كان يضالع (پومپي) ثم Pompée
عكف على تأليف كتبه فى الفلسفة . ولما قام النزاع بين أنطونيو Antoine
وأكتاف أخذ يناصر الأخير ، وكان يظن فيه خيراً وحباً Octave
للحرية ولكن بعد عقد الحلف بينهما تركه المستنصر به
إلى عدوه أنطونيو الذى تعقبه وأرسل وراءه من قتله فى
سنة ٤٣ ق م . وكان عمره ٦٤

وقد نسبوا لهذا البطل العظيم ضعفا فى بعض الخصال
ولا سيما عجبه الشديد بنفسه ولكن لم ينكر عليه أحد كل
فضائل الرومانى الوطنى الصميم ؛ وقد كان أبا باراً بأهله
وحميا لصديقه .

وقصارى القول : شيشرون أخطب الرومان وفيلسوف
فذ ومدخل الفلسفة اليونانية فى روما وأب بار ومخلص
لصديقه وأمين فى عمله .

وكان أمة فى المدافعة القضائية لقوة تصوره وشدة

عارضته ، ولطف عبارته ، وسداد حجته . ولكنه لم يبلغ ذلك الشأو فى الخطابة السياسية ، كديموستين . الخطيب اليونانى .

ديكارت فيلسوف فرنسى شهير . ولد بقرية « لاهى » بفرنسا
Descartes سنة ١٥٩٦ وتوفى سنة ١٦٥٠ بهولاندة . ونقلت رفاته إلى تراب وطنه .

تلقى علومه عن الآباء اليسوعيين وبرّز فى العلوم الحكمية ، فأحس بعدم ثبات المذاهب ، التى كانت محترمة عند ذاك ، على أنه بدأ حياته بالفنون العسكرية ، ومالبث أن تركها ، وضرب فى بلاد أوربة شأن الحائر الذى يريد أن يتخذ له وجهة فى الحياة ، وكان يعود فى غضون ذلك إلى فرنسا ، ويغشى مدارس عصره . ثم تركته حيرته ، واعتزم الفراغ للعلم ، والرسوخ فيه ، فهجر بلده لكثرة ملاهيه ، وأقام فى هولاندة منعزلا عاكفاً على العلم ، حتى صار عالما وفيلسوفاً كلى العرفان ، فتراه فلكياً ورياضياً ، وطبيعياً ، وهو صاحب المذهب « الكرتيزى »

وقد اعتبر المجدد للعلوم ، وذلك أنه لما أحس بجمود أغلب المعارف التى تركها السابقون ـ اعتزم التشكك الوقتى فى كل شىء ، وتجديد بناء العلم ، على قواعد حديثة .

وجعل أساس نظريته فى قضيته :

آلة الشك : الفكر ، والفكر موجود ، وإذاً المفكر ، موجود . وأنا أفكر فاذاً أنا موجود .

جوث Gœthe

أحد شعراء ألمانيا. ولد فى «فرانكفور» على شاطىء نهر «المين» سنة ١٧٤٩ درس الفقه فى «ليبزج» وتوج رأسه بكمة العالميه فى «استراسبورج» وبدأ ذكره يذيع سنة ١٧٧٤ بقصصه «ويرثر» الذى نسجه نسيجا جديداً لم يعهد فى اللغة الألمانية، فكان سبباً فى تعرفه إلى «كارلوس أغسطس» أمير «فاى مار» فقربه وأستوزره، ولم ينس هذا المركز «جوث» مرتبته فى الأدب، فملأ الأرض شعراً ونثراً. فكان فى منظومه أحكم شاعر وفى منثوره أخلب ساحر، وأصبح المجلّى فى حلبة الشعراء والكتاب، فمن قصصه غير «ويرثر» القبطى، وقصيد «هرمان» ومن كتبه العلمية رسالة فى النبات، ونظرية الألوان. أما رواية «فوست» ولا سيما القسم الأول منها فهى التى رفعته، وأعلت كعبه، وجعلته إمام شعراء ألمانيا.

ولم تشغله أيام حروب نابليون العصيبة عن الكتابة وقد أراد هذا العاهل الكبير أن يرى «جوث» فلما قابله أكبره، وقلده أعلى أوسمة الشرف.

ثم توفى فى «فاى مار» بين رفات صاحبه وقرينه «شيلر» ورفات أميره وحاميه الأمير «كارلوس أغسطس»

سنك : Sénèque

أبو الفيلسوف الشهير «سنك» ؟!.

ولد فى «قرطبة» حوالى سنة ٨٥ ق م. ورحل إلى «رومة» فى سن الخامسة عشرة، فأسس مدرسة

البيان ، ومات سنة ٣٢ م وكان من الحفظة الأفذاذ ، يعلق ألفي اسم إذا ذكرت على سمعه مرة واحدة . وله مجموعتان : إحداهما مكونة فى كتاب واحد ، والثانية من عشرة أجزاء ، لا يوجد منها إلا جزء واحد . وهو عبارة عن قطع مختارة من امتحانات تلاميذه وخطبهم التى ألقيت فى حضرته . ولولا قوة عارضته وشدة حافظته لما بقى لها أثر الآن .

بسكال : نادرة الدهر ، عبقرى قوى الأدراك ؛ مشتعل الذكاء ، Pascal متين الحافظة أمينها ، ولكنه ضعيف البنية سقيمها .

ولما رأى ذلك أبوه منه انتقل به إلى باريس ، وكان يحضر مجالس العلماء معه . فاشتعلت فيه نيران حب العلوم ، وأخصها الهندسية ، ولكن أبوه كان ينصحه بالابتعاد عنها . لضعفه . ومنعه ـ فعلا ـ دراستها . ويقال إنه استنبط قضايا « دقليدس » الهندسية ، دون أن يقرأ عنها شيئا . ولم يبلغ إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . وابتدع آلة حسابية ، لعمل حساب أبيه ، فى الثامنة عشرة من عمره .

وقد حقق مسائل رياضية . واستنبط قواعد طبيعية ، وقد كان فوق هذا بليغ العبارة .

ومن أعظم ما ألف كتاب « الأفكار » فى محاسن المسيحية ، ولكنه لم يستتمه . و « الأقليات » التى حمل فيها على الآباء اليسوعيين ، وضالع « الجانسنيت » الذين

كانوا لا يقولون كثيرا بالاختيار فى القضاء والقدر .

ولقد ختمت حياته باعتزاله أثر فزعة فجائية ، أثرت فى مجموعه العصبى ، عندما جفلت جياد مركبه ، فكان يهيأ له أن هوة تتفتح أمامه ، لتبتلعه .

وتوفى سنة ١٦٦٢ ميلادية . وعمره تسع وثلاثون سنة .

سوفوكل : Sophocle
من أشهر شعراء اليونان ، انفرد بنظم الفجعيات ، وتجويدها ، ووضعها الروائى ، بتطبيقها على الحالات الطبيعية .

ولد سنة ٤٩٥ وتوفى سنة ٤٠٥ قبل الميلاد .

أرستارك : Aristarque
عالم وفقيه فى اللغة اليونانية ،

كان مؤدب أولاد بطليموس « الثالث » .

ولد فى جزيرة « ساموتراس » حوالى سنة ١٦٠ ق م .

ومات فى جزيرة قبرص سنة ٨٨ ق م .

وقد اشتهر بنقده شعر « هومير » ، وسمى النقاد ، لدقة بحثه ، وقوة انتقاده .

سقراط Socrate
من أكبر فلاسفة اليونان . معلم أفلاطون .

ولد سنة ٤٦٨ ق م . ومات سنة ٤٠٠

كان يحب العزلة ، ولم يقرىء تلاميذه كتابا . ولم يكتب فى حياته كتابا .

وهو أستاذ العامة . كان يعلم الشعب ، يجتمع معهم فى محافلهم ومواسمهم .

ولم يتخذ فى تعاليمه وضع القواعد لاتباعها والسير عليها . ولقد كان مذهبه تربية العاطفة في الأنسان . وهو

خصم ألد « للسوفسطائيين » وكان يرميهم بسهام الازدراء والسخرية ، حتى ضاقت صدورهم ، وطفح غلهم ، فرموه بضعف العقيدة . ورقة الدين ، وحاكموه فقضى عليه المجلس بالموت . بشرب السم . فتجرع كأسه بثبات عجيب وجأش غريب ، وسكينة أعجب وأغرب

متردات
Mithridate

هو سابع الأمراء الذين حملوا هذا الاسم فى آسيا الصغرى . هو ابن متردات الثالث ولد حوالى سنة ١٣٥ قبل الميلاد وتيتم فى الثانية عشرة من عمره ، وكان عدوا لدودا للرومان . وقد قضى صباه بين مهب الوشايات والدسائس التى كان يحوطه بها المدعون الحق فى العرش . فخوفا على حياته اعتزل الناس ووجَّه عنايته للصيد والقنص وبحث أنواع السموم . فعرفها كما وقف على ترياق كل سم منها . وقد كان هماما مقداماً كما كان من خوارق الحفظة ولكنه قاسى القلب ، غادر ، قليل الثقة بالناس وهم أن يغزو إيطاليا فلم يطعه جنده وشقوا عصا الطاعة ونادوا بابنه ملكا عليهم ففضل الموت على الحياة وشرع فعلا فى الانتحار بالسم ولما رأى عدم فعله وتأثيره فيه ، أمر أحد عبيده بقتله فقتله فمات سنة ٦٩ قبل الميلاد .

قيصر
Cesar
Sylla

قيصر : قائد رومانى عظيم ولد بروما سنة ١٠٠ قبل الميلاد . هدر دمه سِلاًّ ولم يبلغ الحلم . فهاجر من روما ولم يعد إليها إلا بعد موت من هدر دمه . وانكب على الأدب فاستقى منه كوثرا حتى صار خطيباً مفوهاً وكاتباً

Marius بليغا . وقد اكتسب محبة الشعب بنصب تمثال مريوس .
واشتهر بوقائعه الحربية فسمّوه منقذ روما ثم حالف بومبي
وكراسوز وأطلق فى إبان الحلف يد كل منهما فى الحكم
بالاشتراك معه ولكنه بعد قليل قويت يده وسمى بالمسيطر
الأبدى . ونقح القوانين وعدّل التوقيت وقدّر تقويماً
جديداً ورتب مصالح نافعة ولكن تآمر به حزب الجمهورية
فقتله فى صحن مجلس الشيوخ سنة ٤٤ قبل الميلاد .

فأنت ترى أنه لم يك قائدا باقعة وحسب : بل كان
خطيباً وكاتبا قديرا .

مشليه Michelet

مؤرخ فرنسى عظيم ولد بباريس سنة ١٧٩٨ ميلادية .
أفكاره الحرة وحبه الحرية سببت إبعاده عن دور التعليم
وحرمت أبناء فرنسا من إرشاده ، وأهم ما كتب فى حياته
تاريخ فرنسا والثورة الفرنسية ، وجعل لكل منهما كتابا
مسطوراً . كتابان بعثا فى فرنسا حياة جديدة وروحاً
قوية . ثم قضى سنة ١٨٧٤ .

رسين Racine

غرة من غرر شعراء فرنسا الذين برّزوا فى الفجعيات ،
ولد سنة ١٦٣٩ ومات سنة ١٦٩٩ ميلادية . قد بزغت
شمسه فى العشرين من عمره وكسب رضا البلاط بقصيدته
« حورية السين » التى مدح فيها لويز الرابع عشر ووصف
عرسه وزفافه .

Molière
Boileau

وساعده الجد باتصاله من صباه بموليير وبوالو . وكان
موفّقا فى أكثر ما صنف من الروايات إلا انه لم يدركه

Phedre Athalie كل الحظ فى « فيدر » و « اتالى » وغيرهما ومع ذلك لم يحرم نعمة لويز ممدوحه وقربه من بلاطه ، ولما كتب فى بؤس أمته ووقع مقاله فى يد مايكه غضب عليه وانتهره وكلمه بسهام التعنيف فأثرت فى صحته واصيب بعلة الكباد فقضت على حياته .

وقد اختلف أهل الأدب بفرنسا فى الموازنة بينه وبين Corneil كورنيل وفى تفضيله عليه . وهو ناثر مبدع وشاعر مجيد . ومن كتبه القيمة تاريخه الجليل فى لويز الذى فقد معظمه فى حريق ولم يبق منه إلا النذر اليسير

بلاكستون Blackstone فقيه بريطانى ولد بلندره سنة ١٧٣٢ وتوفى سنة ١٧٨٠ نزل حومة المحاماة فلم يوفق تمام التوفيق . فكر أن ينشىء فرعا فى كلية اكسفورد خاصا بدراسة الحقوق ولأنها لم تكن تعلم فى الكلية حينئذ ، صادفت الفكرة قبولا ونجحت نجاحا كبيرا وأثمرت ثم عين قاضيا فنائبا فى مجلس العموم . وقد نشر دروسه التى كان يلقيها كشرح للقانون ونسج على منهج Montesquieux مونتسكيو واتبع أثره وطريقته فى مؤلفه وهذا الذى رفعه قريبا من مرتبته

روبسبير Robespierre محام ابن محام ولد بمدينة أراس سنة ١٧٥٩ ومات سنة ١٧٩٤ . رجل ذو اطوار . عجيب . بلغ إمّعة . متقلب الاميال . كان يخشى مرابو ويتملقه اذ كان يمقته مقتا شديدا . وتمكن بعد أن تشكل باشكال سياسية كثيرة وتلون بالوان شتى ان يقود الثوار المتطرفين ويترأس نادى اليعاقبة .

وقد تعين المُتَّهِم العام بمحكمة جنايات السين لخاين وتحيُّز وظلم . وكم كافح لانقاذ الملك لويز السادس عشر ولكنه لم يفلح مع أنه استطاع ان يشل قوى « الجراندة » فاصبح المسيطر وبالغ فى سلطانه فنشر حكم الارهاب فى فرنسا .

Danton

وكان « دانتون » من الد خصومه . ولما صار عضوا بلجنة السلام العام ظل صاحب الكلمة والامر الذى لايرد فتمكن من أن يتخلص من خصومه الأقوياء ومنهم دانتون وحكم عليهم بالاعدام . ولما قويت شوكته اخذه الزهو والغرور ، فاراد أن ينشىء نحلة ويبتدع مذهبا دينيا وطغى وبغى حتى على زملائه وقرنائه ، وكثرت فيه القالة وقل شاكره ، فبغضه الشعب وخشى مناصروه تقلبه وغدره فاجمعوا على محاكمته . فعالج ان يتبرأ او يأبق فلم يجد سبيلا ، ولما يئس من النجاة أطلق على نفسه الرصاص فكسر فكه وقبض عليه وقطعت رأسه ومعه أثنان وعشرون من طغمته فى ٢٨ من يوليو سنة ١٧٩٤ وانتهى معه حكم الارهاب .

جرجوار
Grégoire

كاهن فرنسى ولد سنة ١٧٥٠ وأشرق نجمه بنشر مقالاته الحاضة على التسامح والحرية ، وترأس مجلس النواب فى ١٤ من يوليه سنة ١٧٨٩ وهو اليوم الذى أعلن فيه أعضاؤه عدم مبارحتهم دار الندوة بينما كان الشعب الغاضب يستولى على حصن (الباستيل) ويهدمه ويطلق مَنْ فيه من رجال عظام مضطهدين وأباة مظلومين .

Bastille

وقد كان هذا الكاهن من الذين أعطوا أصواتهم بثل العرش وإقامة الجمهورية . وهو أول فرنسى اقترح إلغاء الامتياز بين أبناء فرنسا ومنع الرق . ومن صفاته الجرأة فى القول ، والثبات فى الرأى ، والأقدام فى الملم . ما رهب أحدا ولا خاف سلطانا حتى أنه لم يخش بنوبارت فى صولته ومجده وطوله وقوته .

مات سنة ١٨٣١ وترك وراءه مؤلفات خطيرة .

دانتون Danton

رجل من رجال الثورة الفرنسية ولد سنة ١٧٥٩ ، وخطيب من أقدر خطبائها . تقلد وزارة العدل ، وهو المرتب لمحكمة الثورة . عين عضواً فى لجنة السلام العام وقد كان لايعتبر الارهاب إلا وسيلة مؤقتة للحكم . فاتهمه روبسبير بالاعتدال واللين ، فقدم لمحكمة الثورة وحكم باعدامه سنة ١٧٩٤ جنفاً ، بتآمر روبسبير المسيطر فى ذلك الزمان .

لبون Lebon

كاهن فرنسى ولد سنة ١٧٦٩ ولما شبت نار الثورة سنة ١٧٨٩ ظهر ميله الشديد لأذكائها ، وحمل الحطب إلى موقدها ، ورشها بالزيوت . ولك أن تقول بأنه كان متعصباً ثوريا . ولم يك له ذكر من قبل إلا بتعصبه الدينى .

تعين فى سنة ١٧٩٢ نائبا واشتهر بالقسوة ثم تعين مأموراً فى سنة ١٧٩٣ فحكم دائرته بالأرهاب ، وكان لا يبالى على من ينزل نقمته وظلمه . وشكل محكمة دقت كثيراً من الأعناق وأسقطت آلافا من الرؤوس فى بضعة أشهر .

عاش حياة الظالمين ، ملآن خوفا ، فكان يمشى فى الطريق وبيده اليسرى قوانين هذا العصر ، وبيده اليمنى مدية . وفى حزامه مسدسان ، وعلى رأسه قبعة حمراء . وختمت حياته بأن اتهمه وفد من الأهالى . فلقى حتفه وقطع رأسه سنة ١٧٩٥ .

فريس
Verres

رومانى ذائع الصيت ولد سنة ١١٩ ق م . ذو مال وافر وثروة طائلة قد ورث نواتها . كان شغله فى الدنيا جمع الحطام ، وسلب الأرزاق ، ونهب الأموال ، والاغراق فى الخلاعة والترف .

استقطع جزيرة صقلية فأرهقها وطغى وبغى ثم اتهم بالرشوة وقدم للمحاكمة . ولولا شيشرون الذى دافع عن حقوق الأهالى دفاعا مجيدا لما ظهرت صحة التهمة التى كان هذا العاتى يسعى لأخفائها ، وطمس معالمها ، وإضاعة عناصرها بكل الوسائل التى تسول له نفسه . وحكم القضاة بالزامه برد ماأخذه من الصقليين ثم هدر دمه أنطونيو .

كلمان الرابع
Clément IV

بابا روما . وهو الرابع من الذين يحملون ذلك الأسم . أدرك حكم لويز التاسع .

فرنسيس الأول
François I

ملك فرنسا ولد سنة ١٤٩٤ وجلس على العرش سنة ١٥١٥ . وفى عصره نسخت الأحكام وحررت الوثائق باللغة الفرنسية . ورتب المواليد والوفيات بقيدها فى دفاتر . ونظم سياسة فرنسا الحربية بأنشاء جيش أهلى دائم وإليه يرجع الفضل فى التعليم العالى بمدرسة فرنسا وتأسيس

دار الطباعة الأهلية . وقد استحق لقب أب فرنسا والمجدد
للأدب . وساعد عصر التجديد بالاهتمام بالتصوير . وكان
خصما وندا لشارلكان وكم نشبت بينهما معارك عدة . Charles-quint

جمع هذا الملك صفات حسنى وعيوبا . فهو بطل
جسور إلى التهور ، وخليع إلى الاستهتار . وكان حكمه حكم
الترف . وإدارته الاقتصادية خاسرة . وهو أول من بدأ
باضطهاد البروتستنت .

لويز الثالث عشر Louis XIII

أحد ملوك فرنسا ولد سنة ١٦٠١ وولى الأمر سنة
١٦١٠ تحت وصاية أمه ، مريم دى مدسيس ، وأثبت
رشده فى الرابعة عشرة من عمره . وترك أمر الملك لوزيره
كونشينى عزيز أمه . فأوغر ذلك صدور أهل البيت Concini
فتألبوا عليه وذهب ضحية فى سنة ١٦١٧ . فخلفه فى الوزارة
« دوق دى ليـين » فلم يرض أهل البيت والموالى على
هذا العزيز الثانى ، فأشهروا الحرب لأبعاده عن المملكة ،
وانتهى الأمر بأن لقى حتفه فى إحدى الوقائع . ثم من
بعده استوزر « رشليو » وكان عصره كله نصرا للملك Richelieu
لويز . فهذا يريك أن لويز كان ضعيفاً غير أهل لعرش
فرنسا . وقد بلغت به الحال أن كان يرتعد أمام وزيره
وظل آلة فى يده ، حتى فى سيره وتوجيه شعوره ، وكرهه
الناس . وكل ما ظهر فى حكم لويز من الجلال والرونق
عائد إلى وزيره . وقضى ذلك الملك سنة ١٦٤٣ .

فوكس Fox
خطيب عظيم بريطانى ولد سنة ١٧٤٩ . انتخب عضواً فى مجلس العموم قبل العشرين من عمره . ثم ترأس حزب المعارضة سنة ١٧٧٤ الذى كان إذ ذاك حزب الهويج .

Pitt
ولقد كان فوكس خصم بت العنيد ، وعاش طول حياته على رأى الاتفاق مع فرنسا وأمركا . ولما اشتد فى معارضة الحكومة القائمة حينئذ ، عين وزيراً للخارجية ، فعقد الصلح مع فرنسا وأمركا . وكان نصيرا لمبدأ التسامح والحرية ومعتبرا فى نظر أهل بلده خطيبا معادلا (لديموستين) خطيب Demosthène اليونان . وبعد وفاة بت سنة ١٨٥٦ تولى وزارة الخارجية ولكنه توفى بعد ذلك بأشهر . وبجانب هذه الخلات الطيبة كان فوكس سفيها مبذرا مصابا بآفة الميسر .

أوكنيل O'Connell
رجل من رجال أرلندا الأفذاذ الذين وقفوا حياتهم على حب أرلندا . رجل ذو حمية وشهامة ، ناضل ودافع كثيرا عن وطنه فى مجلس النواب البريطانى . ولد سنة ١٧٧٥ ومات سنة ١٨٤٧

جلادستون Gladestone
رجل من رجالات بريطانيا . سياسى عظيم . رأس حزب الأحرار . ولد فى ليفربول . اشتهر بمجهوده الكبير لتحسين مركز إرلنده وهو الذى أجترأ وقال : طالما أن القرآن موجود فى الشرق فلا أمل فى انتشار المدنية (كبرت كلمة خرجت من فمه)

بت Pitt
عظيم بريطانى ووزير قدير ولد سنة ١٧٥٩ . كان إداريا حازما وخطيباً فصيحاً ، محباً لوطنه ، رضي الأخلاق قنوعاً

بدأ عمله فى الوزارة بأحداث ثورة . تسبب عنها انقلاب الحالة السياسية فى بريطانيا ، فحل مجلس النواب الذى لم يكن أعضاؤه على رأيه ، ثم تمكن بدهائه وحيله من الحصول على أكثرية تناصره . وكان خصما لدودا لفرنسا وعمل على النكاية بها وتأليب بعض ممالك أوربا عليها . وقد كان له مزاحم ومنافس فى السياسة وكرسى الحكم وهو الوزير فوكس . وكانا يتناوبان الحكم وكلاهما يعمل على عكس مبدأ الآخر .

هرقل
Hiraclius

هرقل أمبراطور المملكة الشرقية . حكم من سنة ٦١٠ إلى سنة ٦٤١ م . وهو الذى ناجز كسرى ملك الفرس وانتصر عليه واسترد ما كان فقد من المملكة فى أسيا الصغرى . ولعله الذى أشار الكتاب الكريم إلى عصره بانتصار الروم على الفرس مصداقاً لقوله تعالى « غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد » . صدق الله العظيم

وفى عصر هرقل هذا أمتد الأسلام وفتح دمشق وبيت المقدس والعراق .

نسفور
Nicéphore

راهب مؤرخ يونانى توفى سنة ١٣٥٠ وترك كتابا من ثلاث وعشرين جزءاً صعد فيه الى سنة ٦١٠ م .

باكون
Bacon

من أشهر الفلاسفة البريطانيين ولد سنة ١٥٦١ م . أظهر غراماً بالعلوم فى حداثته . أُضطهد فى حكم اليزابت . ولما تولى الحكم الملك « جاك الأول » قربه لفضله

وسعة علمه ، فاتهمه حاسدوه بالرشوة . فقضى عليه بالسجن وبغرامة أربعين ألفاً من الجنيهات ، فلبث فى برج لندن قليلا ، وعفا عنه الملك . فعكف على التنقيب عن العلم وتحرير مؤلفاته . وقد كان كل جهده الفلسفى محصوراً فى إصلاح العلوم ووضع قواعد لها ثابتة حقيقية ولا سيما العلوم الطبيعية التى كانت تدرس إذ ذاك على قواعد خيالية قلبها إلى قوانين صحيحة مبنية على التجاريب ومات سنة ١٦٢٦

ملتون
Milton

شاعر كبير بريطانى ولد سنة ١٦٠٨ . قضى حياته فى المطالعة والضرب فى الأرض . ولما اشتعلت ثورة سنة ١٦٤٠ اشترك فيها بقلمه . وقد كان من الحزب المناجز للبلاط .

قد اتخذه « كرامويل » كاتب سره . وبعد وفاة هذا الرجل العظيم اعتزل ملتون السياسة ، وانقطع للكتابة وألف وأجاد بقدر ما أجاد الدهر فى عناده ، فعاش فقيراً منسياً . وأجود ما أخرج للناس « الفردوس المفقودة » وختم حياته بفقد بصره فكان يملى زوجه وبنتيه ، وقضى سنة ١٦٧٤ فسبحان قاسم الحظوظ .

كورنيل
Corneille

شاعر من الفحول وكاتب من المجيدين ولد فى فرنسا ١٦٠٦ . كان أبوه مدعيا عاما . لقد بدأ حياته فى المحاماة . ولكنه فضل المزارح وتصنيف الروايات ، وافتتح باكورة عمله بقطع المسرات « الكوميدى » ثم انتقل إلى الفجعيات فذاع صيته باحداها « السيد » التى أعجب بها قومه وكانت سبباً فى إشتعال نار

الحسد فى قلب « رشليو » الوزير . فأراد أن يطفىء نور كورنيل فأوحى إلى المجمع العلمى بنقد هذا الشاعر العظيم . فطاوله بتصنيف فرائد قطعه : پومپي وسينّا والهوراس التى أبكمت المجمع والحاسد الكبير .

ولما رأى الوزير الحسود علو كعبه وبعد مناله تظاهر بمحاسنته فقدر له معاشا وأوحى إلى المجمع أن يضم اسمه إليه . ودعاه الفرنسيون بانى المحزنات « الدرام » ثم سئمت نفسه العمل للمزراح . وقبل أن يترك التأليف لها أخرج للناس رواية « الكذاب » ثم هجر الفن . Menteur

هذا الفحل قد جنى عليه الأدب فقضى بقية حياته فى البؤس والفاقة حتى دهم بقطع معاشه ثم رد اليه بفضل مسعى بوالو Boileau

هـذا الرجل العظيم كان مثالا للزهد والتواضع فى أخلاقه وعاداته . وكان كثير الحياء ولذلك ما كان يظهر لفضله نور فى أحاديثه ومجالسه ومات سنة ١٦٨٤

هوبس Hobbes

ذلك الحكيم البريطانى ولد سنة ١٥٨٨ م . ضاء سنا ذكائه وظهر ميله للعلم من حداثته ، ولما بلغ الرجولة قربه البيت المالك وكلف بتربية بعض الأمراء وبتدريس الفلسفة لولى عهد بريطانيا .

ولما نشبت الحروب الأهلية كان هوبس نصير حزب الملك ودافع عن التاج بقلمه ، ثم هاجر إلى فرنسا ، وتعرف إلى العالمين الكبيرين . جليليه ، وديكارت ، وهما Galilée Descartes

إذ ذاك من جماجم فرنسا ، وهذا لم يمنعه من نقد ديكارت وتفكيره الفلسفى ، فوجه إليه اعتراضات كادت تهز ديكارت ثم عاد إلى بلده سنة ١٦٥٣ ، فأدناه الملك شارل الثانى وقدر له معاشا . ولكن غلو أفكاره وإغراقه فى عدم تسامحه فض الناس من حوله ، وكرهه كثيرون ، فهجر لندن ، وعاش بمعزل ، ومات بعد أن عمر اثنتين وتسعين سنة

وقد اشتهر ذلك الرجل العظيم بالمذاهب المخالفة للجمهور وشدة استنباطه وتعمقه فى المبادىء التى يضعها ، واحتقاره رأى من تقدمه ، ولذا كان يفكر بنفسه من نفسه ، ويدعى أنه يُجَدّد العلم ، ومما وضعه تعريف للفلسفة : بأنها علم المسبَّبَات بأسبابها ، والاسباب بمسبَّبَاتها . وكان يمدها بالحوادث الملحوظة بالحواس ، ويرفض الاعتقاد بالروح وبالله . وطريقته السياسية مبنية على قاعدة : لا حق إلا القوة . والناس فى الحالة الطبيعية لهم حقوق فى كل شىء ، فهم فى حرب مستمرة ضرورة ، ولكى ينشر السلام يلزم قيام سلطان مستبد عليهم . ولا شىء بعدل ولا بظلم من ذاته ؛ والسلطان هو الذى يظلم أو يعدل بأوامره ونواهيه . وهو متطرف فى كل شىء ، حتى أنه بغى على يقين الحقائق الهندسية ، ولكنه عاد بالخيبة فى هجمته .

وقد كتب تاريخ حياته نظما . وترك مؤلفات كثيرة فى علوم شتى . وهذا هو هوبس

روسو
Rousseau

كاتب فيلسوف فرنسى ولد سنة ١٧١٢ بمدينة جنيف بسويسرة . أبوه ساعاتى أهمل تربيته . لم يقرأ إلا بعض

Plutarque القصص وكُتاب السيَر لبلوتارك . واشتغل نساخا عند موثق وما لبث أن طرده ، فذهب إلى حَفّار يعلمه الفن فما استطاع أن يوالى العمل ، فتركه ، ولما ضاق الفضاء به التجأ إلى سيدة فمكث قليلا لديها واضطر أن يعمل كخادم ، ثم نبا . ففكر أن يعلّم الموسيقى فى لوزان فأخفق ، فرحل إلى باريس ، فلم يوفق ، وعاش فارغا من عمل خاليا فى عطل : فقفل إلى السيدة (ورانس) فوجد عندها رزقا خفف قليلا من شقائه ؛ ثم عاد إلى باريس سنة ١٧٤١ ونشر طريقة تعليم الأنغام بالأرقام ، وعاق عليها آمالا ولكنه أخفق أيضا ، فذهب إلى البندقية ، فاتخذه سفير Venise فرنسا ناموسا له ، فلم يفلح فى هذا .

وقد طرق روسو بعد ذلك أبوابا عدة ، فلم يفتح الله عليه فى واحد منها ؛ فلبث خاملا ، حتى وضع المجمع العلمى لمدينة « ديجون » سؤالا ، وطلب إلى الكتاب أن Dijon يتسابقوا فيه . وهو : هل تقدم العلوم والفنون مفسد أو مطهر للعادات ؟ فظهرت عبقرية روسو ، وجال فى حلبة المسابقة ، وكان المجلىّ ، ولكنه لم يكافأ على هذا الفوز ؛ وبالرغم من ذلك ابتدأ صيته يذيع . واستمر يعيش أجيرا ينسخ أرقام الموسيقى ، وفى أثناء عمله كان يختلس من وقته لوضع كتبه . وبعد قليل وضع المجمع العلمى سؤالا جديدا عن أصل عدم المساواة بين الناس ؛ فألف روسو كتابا ونشره ، ورجع إلى سويسرة فقابلته جنيف باحترام عظيم وأكبرته .

ثم حدثته نفسه أن يكون فرنسيا ووطنيا جمهوريا ، فعاد إلى مذهبه الدينى الذى تركه ، وذهب إلى باريس . وأخرج كتاب « إميل » فطار صيته ولكنه أغضب رجال الدين ، فاضطهدوه ، وحكم عليه بالسجن وبأحراق الكتاب فنجا بهجرته إلى « موتيرترافر » وعاش عيشة غير راضية ، حتى أنه اشتغل سكافاً يرقع النعال وقضى زمنا طويلا طريدا شريدا ، حتى سمح له بالعودة إلى باريس .

Moitiers-Travers

قد صنف روسو كتبا كثيرة ، وكان هو وفلتير فرسى طراد ، فى الفلسفه والأدب ، وبعد الصيت ، وتهيئة الأفكار للثورة ؛ وكان يقول بمذهب الرجوع إلى الطبيعة فى التربية ، وهو رجل سوداى المزاج تستخفه الأهواء ، سبّاحاً فى الخيال ، أما حياته الشخصية فكانت مما لا يحمد عليها .

بركلس
Periclès

من أشهر رجال أتينا . ولد سنة ٤٩٤ ق - م وقد اكتسب شهرة . لفصاحته ،وبسط يده ، وكان زعيم الشعب خصما لكل مستعبد للأمة ، ومحتقر لحقوقها . وبسبب تلك النزعة نفى زمنا . ثم عاد إلى بلاده يدبّر شئونها بعد ذلك ، فرقّاها ، وشاد عمارات عظيمة ، وكانت سياسته اجتناب الغزوات البعيدة ، التى فيها مخاطرة على موطنيه ، ومصلحة بلده ، وهمه أن يثبت قوة أثينا وسلطانها على إسبارطة .

ولقد كان بركليس يحب الأدب والفنون والترف والبذخ . وفى عصره ظهر رجال كثيرون فى الأدب والفنون ، حتى صار عنوانا للرقى الأغريقى ، ومع هذا فقد شغفته حبًا سيدةٌ تُدْعَى « أسبزى » فطلق امرأته من أجلها . ولقد كان بيتها ناديا للأدب والفلسفة ، ثم مات هذا الرجل عام ٤٢٩ ق م .

Aspisée

مُزار Mozart

موسيقار مبدع وملحن مؤلف ولد سنة ١٧٥٦ وتوفى عام ١٧٩١ . وهو ابن مزار ليوبولد ، وأخو مريم ، وهما من أرباب الموسيقيات . فأنت ترى أنه ابن الموسيقى وأخوها ورث عن أبيه الاستعداد وطفق يقلد أختـه ، فظهرت مواهبه فى الثالثة من عمره ، ولما بلغ الخامسة استطـاع أن يركب قطعا ، ويلعبها على معازف عـدة . على أنه لم ينقطع عن دراسة علوم أخرى . ولا سيما علم الحساب الذى برَّز فيه . وفى عام ١٧٦٢ ذهب أبوه ومعه ابنـه الصغير ، الموسيقار الكبير إلى فينا ، وقدمه إلى البلاط . فأعجب به كل من سمعه من البيت الأمبراطورى ، ثم رحل إلى عواصم أوربا ، فأدهش ملوكها وأمراءها ، وكان آخر مطافهما باريس . وزارا « فرساى » ، ولقى العازف العظيم الصغير . مالقى من الأعجاب والأكرام ؛ ومنها سافرا إلى لندن ، وعزف مزار الصغير الكبير أمام البيت المالك أصواتا له ، وأصواتا لغيره ، فتملك القلوب ، ولعب بالأرواح ، ولبث فى حمى ملك الأنكليز سنة كاملة ، ثم

Versailles

اقتعدا غارب الاغتراب ، وقصدا هولاندة . وكان الحظ فيها لايقل عن جده فى البلاد الأخرى.

وبعد مطاف ثلاث سنين عاد مزار وأبوه إلى بلدهما . وأخذ هو فى تدعيم مواهبه على قواعد علمية فنية ثابتة ، فجعل أبوه يرسم له الطريق ويضع الأسس .

وفى عام ١٧٦٩ قاما برحلة فى البلاد التى لم يزوراها من أوربا ، وكان أكثر إقامتهما فى إيطاليا ، فدعاهما « كليمان » الرابع عشر « بابا » روما ليرى ويسمع مزار فلتة الزمان ، فأعجب به كثيرا ، ولما رأى العازف الساحر عطف البابا ، طلب إليه أن يستنسخ له صورة من لحن دينى خاص ، فلم يجب البابا طلبته ، واعتذر بأن ليس فى مقدوره ذلك ، لأنه ممنوع بتاتاً نسخ صورة من هذا اللحن.

وقد تصادف أن هذا اللحن عزف فى الكنيسة بعد قليل فتمكن مزار من تعليقه وحفظه ، ووضعه بعد ذلك وتدوينه مع طوله وكثرة شعوبه وأجزائه وتراكيبه ؛ وهذا معجز معجزات مزار .

هذا الرجل العظيم فى فنه لم يُسعِدْهُ افتنانه ولم تكفه شر الحاجة كفايته ، وعاش ضيق العيش ، فى الكفاف . على أنه كان كريما سمحا . إذا وجد فى حلبة انتعش الناس من فنه ، وانتفع الجمع من ماله ، لم تسبق يَدَهُ يد صديق من أصدقائه ما عاش. ومات فى الست والثلاثين بسبب الافراط . ونصب له تمثال فى بلده ، تخليداً وذكرى .

كانوفا Canova

حفّار إيطالى ، ولد سنة ١٧٤٧ ، ومات سنة ١٨٢٢ ببلاد البندقية ، وذهب إلى روما فذاع صيته ، وكان المبرز فى صف الحفارين ، لمهارته فى مزج الطبيعة بجمال العاديّات المضروب بها المثل ، كتمثال « تزى » Thésée وضريح كليمان الثالث عشر ، فى كنيسة بطرس المقدس ، ونعش كليمان الرابع عشر بكنيسة الرسل بروما .

ولقد دعاه بونابرت إلى باريس . وقد اعتبره النادى العلمى الفرنسى عضوا فيه ، ومن المشتركين الأجانب ، ثم قفل إلى بلاده ، وبعد أن لبث زمنا فيها عاد إلى باريس عام ١٨١٥ سفيرا للأب الأعظم يرئس اللجنة التى كانت تبحث عن الآثار الأيطالية ، ويطلبها البابا . وكانت فرنسا تزين بها متحف اللوفر Louvre .

بيك الميروندول Pic - dela mirondole

اسمه يوحنا . عالم امتاز بيكور عقله ، ولد عام ١٤٦٣ م وهو الابن الثالث لسيّد ومولى الميروندول . ففى العاشرة من عمره كان صدر الخطباء ورأس الشعراء . ترك الحكم لأخوته وتفرغ للدراسة ، فأتم علوم كلية إيطاليا وفرنسا ، فى ذلك العصر ، حتى عِلم العزائم فقد ألمّ به . وعاد إلى روما ، وعمره ثلاث وعشرون سنة . وأخذ ينشر مبادئه الفلسفية والعلمية الحديثة ، فأوغرت صدور الكهنة وأرسلوا عليه صواعق غضبهم ، فلم يبال ، وتمسك بعقيدة : «لا علم إلا ما يمكن أن يعلمه الناس » ثم أعلن قضاياه التى بلغت تسعمائة قضية ، ولبث فى حوار وهو يحتمل الطعن زمنا ، وبدل أن يناقشه علماء

عصره مبادئه ، اتهموه بالإلحاد ، فحكم عليه البابا بالرجس ، فسئم العلم ، وزهد فى أهله . واعتزل ، وعكف على قراءة الدين وفلسفة أفلاطون ، واتخذ آخر مقام له فى فلورنسا ، وقضى بها ولم يبلغ إحدى وثلاثين سنة من العمر .

إسبارطه
Sparte

مدينة يونانية قديمة ، تنسب تسميتها إلى « إسبارطون » حيث اختار مقامه سنة ١٨٨٠ ق . م وهى على نجد أجرد موحش فقير ، آثاره قليلة ، أشهرها معبد « ليكورغ » ، والمَزْرح ، وباب الفُرْس ، فى ضاحيته متنزه ، والحافرة : مقبرة المتوفين الضعفاء . ولا أثر لأسبارطة الآن إلا رسوم متردّمة .

Lacédémone

وكان « لاشدمون » أحد ملوكها — قد وسع فى عمارتها ، وخطط بلدا متصلا بها ، وسماه باسمه .

وفى القرن التاسع قبل الميلاد سَنَّ ليكورغ شريعته الشهيرة التى كان عمادها جعل الأسبارطيين رجالا أشداء زهادا مجاهدين ، ونظم حكومتهم ، فاستقام أمرهم مع أنه كان تحت تاجين وعرشى ملكين ، ولكن ليكورغ حدَّ من سلطانيهما : بخمسة رقباء ، ومجلس شيوخ ، أعضاؤه ثمانية وعشرون ، فكانت حكومة إسبارطة جمهورية فعلا . وملكية اسما ، وما لبثت أن أخضعت

Péloponèse

بلاد جزيرة المورة « بيلوبنيز » فعز سلطانها ، وسادت جميع البلاد .

ثم نازعت إسبارطة أثينا ، وطاولتها فى علو الاسم والعظمة فبدأت أثينا تناضلها بأسطولها وثروتها وكثرة حلفائها ، ولما أُشْعِرَت الحرب بين الفرس والروم كان النصر معقودا بلواء

الروم ، وكان أكبر الفضل فى ذلك النصر لجند أثينا ، فى الغلبة على الفرس ، فذاع صيت أثينا فأشعل لهيب التنافس بينها وبين أختها .

وفى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد زكت نار حروب المورة ، زهاء سبع وعشرين سنة ، وغلبت إسبارطة أثينا ، فهدمت قلاعها وحصونها ، وامتد سلطانها إلى آسيا الصغرى ، فاشتبكت مع كسرى الشاب الذى سعى حتى توصل إلى اتحاد أثينا معه على إسبارطة ، فلما أحس الأسبرطيون ، عقدوا حلفا مع كسرى تركوا له فيه آسيا نظير بقائهم على روم أوربة . ولكن « طيبة » مالبثت أن خلعت الطاعة ، وثارت ، وقاد رجالها « أبا مينونداس » Epaminondas وأغار على مورة . وأعاد الحرية إلى بعض بلادها ، فاستقلت ، فأصاب إسبارطة الضعف ، ولكنها بعد موت ذلك القائد تمكنت من المحافظة على استقلالها ثم بعد حين تجددت المغالبة بينها وبين أثينا ، وكانت سجالا وانتهى الأمر بسيادة الرومان عليها سنة ١٤٦ ق م .

ابراهيم الموصلى

أصله من فارس . من بيت كريم . ورحل أبوه ميمون ورباً بنفسه من ضيم بعض عمال بنى أمية . فنزل بالكوفة . وبنى ببنت أحد الدهاقين الهاربين من فارس مع ميمون أبى ابراهيم ، وكانوا نزلوا جميعا بالكوفة . فولدت ابراهيم ثم مات ، وخلف ابراهيم طفلا . وكان مولد ابراهيم عام ١٢٥ هـ وتوفى ببغداد عام ١٨٨ فحضنته أمه وكفله آل خزيمة بن خازم وربوه مع أولادهم وأحسنوا مثواه . وهذا هو سبب ولائه لبنى تميم

ولما اشتد وأدرك ، مال عن العلم الى مصاحبة الفتيان السائعين ، وإلى الغناء . فاشتد أهله عليه ، فهرب إلى الموصل ، وأقام بها قليلا . ولما رجع إلى الكوفة قابله إخوانه الفتيان : بأهلا بالفتى الموصلى . فصار له لقبا .

وقد كان صاحب بها بعض صعاليكها وعاش معهم عيشتهم فى الشرب والقصف والغناء . وتعلم منهم شيئاً من الغناء ، فكان أطيبهم . فلما أحس بذلك من نفسه اشتهاه وطلبه فى البلاد المشهورة به ، فهر وأتقن الغناء الفارسى والعربى . وتزوج بامرأتين من أهل الرّى فأتت إحداهما وهى « شاهك » باسحاق وسائر ولده .

وحدث أن حضر أحد خدم أبى جعفر المنصور برسالة إلى بعض عماله ، فسمع إبراهيم عند رجل من أهل الرى ، فشغف به وخلع عليه خلعة لها قيمة ، ومضى الخادم بالرسالة ورجع وقد وصله العامل بصلة كبيرة ، فذهب إلى ابراهيم فى منزله وأقام عنده ثلاثة أيام ووهبه نصف الصلة ، فأقسم الاّ ينفق منها شيئاً إلا على الصناعة التى كانت سببا فى هذه العطية . فوصف له رجل « بالأبلّة » فخرج إليه . وبعد أن مكث عنده قليلا بلغ أمير البلد خبرُه فأحضره إليه وأمره بملازمته ، وسأله عن بلده فقال الموصل فعرف بها ولبث عنده مكرّما منعما حتى قدم عليه خادم من خدم المهدى ، فلما رآه وسمعه وعاد إلى مولاه وصف الخادم إبراهيم الموصلى إلى الخليفة . فأمر المهدى خادمه بالرجوع إلى أمير (الأبلّة) وإشخاص الموصلى إليه ففعل ، فحظى عنده

وقدمه وكان أول خليفة سمعه وصحبه .

وكان إبراهيم سكيرا . وكم نهاه المهدى عن الخمر ومنادمة ابنيه : موسى وهارون فأبى فضربه وحبسه فحذق الكتابة والقراءة فى الحبس

وبعد أن قضى المهدى ، قربه موسى الهادى واغدق عليه بما لو استمر عليه زمنا لبنى حيطان بيته بالذهب ، وكان له وقائع مع من حضره من الخلفاء فقد حبسه الرشيد لسبب ما . ثم رضى عنه وكثر أصدقاؤه من الأشراف

إبراهيم الموصلى ـ رجل مدمن على الخمر ، محب للملاهى بحكم صناعته ، مبذر يكاد لا يبيت درهم فى راحته ، وهو مع الغناء كاتب وشاعر وخطيب . واول من علّم الجوارى الحسان الغناء . وكان له منافس ابنَ جامع . وهذا كاد يعلوه فى المرتبة ، ولكن وافاه القدر فقضى قبله ، فأخلى له الطريق .

وتوفى بداء فى المعدة يسبب مغصا وألماً شديدين ويورث الأمساك ، بضد ما أصيب وتوفى به ولده اسحاق إذ توفى بالذرَب

إسحاق الموصلى

هو ابن إبراهيم الموصلى وجده ميمون . فارسى الأصل ، نزح من فارس لضيم لحقه فى عهد عمال بنى أمية ؛ ونزل الكوفة وبنى بأحدى بنات الفارسيين الهاربين معه ، فولدت له إبراهيم الذى سبقت ترجمته فى هذا الكتاب . وإبراهيم هذا بعد أن تربى فى حضن أمه وبكفالة آل خزيمة واشتد ، تزوج بامرأة تدعى « شاهك » من أهل الرى فأنجبت له إسحاق .

فأخذ لقب أبيه وكنى باسحاق بن ابراهيم بن مصعب مزحا . وقد أخذ علم الحديث ورواه عن أهله كمالك بن أنس وسفيان

ابن عيينة وهشيم بن بشير وابن سعد وروح وغيرهم. وكان الغناء أصغر علومه وإن كان الغالب عليه. وهو مع كرهه له أضن خلق الله بخلا به، والمصحح لأجناسه بطبعه السليم من غير أن يطلع على كتب القدماء.

بدأ تعلمه على هشيم والكسائى والفرائى، فيقرأ القرآن ثم ينتقل دفعة إلى زلزل يعلمه ضرب العود، وإلى عاتكة بنت شهدة فيأخذ منها الغناء. ثم يأتى الأصمعى فيروى له ماحفظه من الشعر ويناشده حتى حذق الأدب من كل نواحيه. ومما يحكى أنه أنفق على تعلمه العود أكثر من مائة ألف درهم.

عرف قدره المأمون والمحدثون والأدباء. ويحكى أنه رأى فى منامه جريرا يلقى كبة شعر فى فيه، فأول ذلك بنفحه الشاعرية. فذاع صيته. وامتحنه مراراً الأمراء ليتأكدوا من حذقه ودقة صنعته، فكان يخرج منها عالى الرأس عافرا التراب فى وجوه مطاوليه وحاسديه. وعلا فى الغناء جميع معاصريه وبزهم حتى أباه، فرفع إلى مقام العلماء. وكان يدخل على المأمون مع العلماء أو مع الفقهاء. وكم علم جوارى. وكان غناؤه صعب التقليد فلم يستطع المغنون أن يأخذوا الحنا له ويفوا به. وكثر حساده، وكم اجتهدوا فى الغلبة عليه وهم طامعون فيها لأن صوته لم يكن حسنا؛ وهذا هو عيبه الوحيد، ولكنه مايلبث حتى يغلبهم ويبزهم جميعا. وكان من مهارته أن يلعب فى الغناء بصوته ليشاكله حتى تضيع نبوة كانت فى حلقه.

وبعد أن توفى أبوه كان إذا غنى صوتا من الأصوات قال

حاسدوه : إنه صوت قديم من أصوات أبيه جدده ليدعيه وقصارى القول فى صنعته ، أنها محكمة الأصول ، ونغمته عجيبة الترتيب . وقسمته معدلة الاوزان وكان يتصرف فى الايقاعات ويميل إلى أقوى الأصوات ، ويذهب فى أغانيه مذهب الأوائل ويسلك سبيلهم ويزيد عليها لعبه بين كثرة النغم وترتيبها فى الصياح ، فاذا صاح حسن طبعه ، وإذا أسجح حسن تلطفه وذلك مذهبه فى جل غنائه : يخرج من شدة إلى لين ومن لين إلى شدة . وهذا أشد مايأتى فى الغناء وأعز مايعرف من الصنعة .

وكان إسحاق أعلم أهل زمانه بالغناء ، وأضربهم بالعود وآلات أخرى . وأجودهم صنعة ، ومع هذا كان أديبا شاعرا ، وظريفا . فكم حضر مجالس الخلفاء والأمراء . وغمرته الدنيا بنعمة ولكن الدهر لم يتركه ، فقد كف بصره فى آخر حياته ومع ذلك لم يجد الأمراء والخلفاء صبرا على استماعه . فكانوا يدعونه فيجلس قدام السرير ، ويدفعون اليه مخدة يتكىء عليها ، فيغنيهم ويلبث فى كرامتهم ويخرج بعطاياهم . وقد نقل عنه أنه لحن نحوا من أربعمائة صوت . وهذا بالطبع قليل إذا قيس بحياته إلا أنه ككل مقل متقن ، لأنه ينقر فى صخر أو يفحر فى صلب . وقد توفى بهيض المعدة فأصابه ذرب رحمه الله وأحسن مثواه .

اسبنسر
Spencer

فيلسوف بريطانى ولد بدربى عام ١٨٢٠ وتوفى عام ١٩٠٣ ببرايتن . بدأ ينشر آراءه من سنة ١٨٥٥ فى النشوء والارتقاء ، وعلم النفس وفى الاجتماع ، وسلطة الحكومة ، والفرد أمام

الدولة ، والتربية العقلية ، والتهذيب النفسى ، والتربية البدنية ، وتقسيم العلوم .

ورأس رأيه فى ابحاثه هو الارتقاء الطبيعى المبنى على سنة حتمية ، هى الانتقال من التجانس إلى المختلف ، ومن غير المحدود إلى المحدود ، ومن البسيط إلى المتركب .

هذه الآراء قد لاقت مقاومة شديدة من أهل النظر وما وراء الطبيعة ، كما أن رأيه فى الاجتماع وسياسة الدولة اعتبر مسهلا ومحبذا للفوضى لميله الظاهر إلى تقوية الفرد وإضعاف الدولة التدريجى .

سوفرى
Souvré

ويدعى (جيل سوفرى) سيد ناظور من سادة فرنسا ولد حوالى عام ١٥٤٠ وتوفى عام ١٦٢٦ . وهو من سلالة أسرة معروفه من سنة ١٣٤٩ . كان من أنصار (هنرى انجو) فاصطحبه لما نزح إلى بولونيا . ولما صار ملكا على فرنسا عينه كبير أمناء خزانة الثياب الملكية . وحكم قصر (فانسين) عام ١٥٧٤ . فتمكن من إحباط تدبير أعتزمته أم الملك لتهلك (مونمرانسى) الذى كان سجين هذا الحصن . ثم عين أسوار الاساورة عام ١٥٨٥ وحكم (تورين) وقاتل فى بلد قريب منها جماعة المتآمرين على الملك . واستقبل فيها الملك استقبالا رائعا عام ١٥٨٩ فكافأه بان جعل له الحق فى الحضور والاشتراك فى جلسات دار الندوة .

وكان من أوائل المبايعين والمعترفين بهنرى الرابع . فلم يغرّه ما قدم له من ذهب ومال ولم يمل مع الأهواء وثبت على

إخلاصه وسد أذنيه عن الساعين بينه وبين هنرى الرابع . فزاد فى تقريبه منه ورفع شأنه . فكلمله تربية ولى عهده لويز الثالث عشر ، وهذا غمره بألقاب الشرف وأعطاه عصا القيادة . ثم قضى ودفن فى قصر من قصور فرنسا .

أعراف باريس
Odeurs de Paris

كتاب مكون من ثمانية أجزاء ألفه (لويز فوليو) عام ١٨٦٧ وصف فيه باريس المعتبرة عاصمة الدنيا فى ذلك العصر . وأثبت أنها معطن الرذائل ، وحمأة النقائص ومنبت الموبقات ومجمع شعوذة العلم والصيت المزوّر فى الفنون والآدب

يصح القول : بان الكتاب رسائل قدح وتعييب . وقدقال بعض النقاد أن لويز كان شديدا فى انتقاده باريس متعديا حد النقد الصحيح البرىء لتغاليه فى وصف حالها وأخلاق أهلها . ولكن الكتاب آية من آيات الأدب فى الوصف البديع ودليل على عزم الكاتب وقوة حزمه

أرستارك
Aristarque

فلكى أغريقى عظيم ، ورياضى كبير . ولد بجزيرة ساموس وذاع صيته حوالى عام ٢٨٠ ق م

وهو من أوائل المفكرين فى دوران الأرض على محورها وسبحها حول الشمس . وقد كانت فكرته هذه سبباً فى اتهامه باقلاق راحة الآلهة والحيرة فى اليقين . ومن أبحاثه أنه وجد طريقة لحساب المسافة بين الأرض والشمس ولمقاس حجميهما .

أرسطو
Aristote

إن كان حقاً أن فى بعض خلق الله قد تجتمع عبقرية أمة بأسرها ، فأرسطو هو أبرز رجل جمع عبقرية فلسفة الأغريق فى كثير من نواحيها .

رجل لا ككل الرجال، كثر فيه الواصفون وكتاب السير من بنى وطنه الأعلام . ولد فى قرية من طراقية على شاطىء البحر عام ٣٨٤ ق م ،وجاور الخلد عام ٣٢٢. أنجبه أبوه، نكوماك، Niçomaque وهو طبيب من سلالة أطباء. كان طبيب أمانتاس ملك مقدونيا وأبى فلبس. وكانت هذه فرصة فى إستدعاء أرسطو للبلاط لتأديب الأسكندر. وبحكم البيئة بكر إلى تعلم التشريح، وقبل أن يستتم السابعةعشرةسنة من عمره صار يتيما، ولكن صاحب مال كثيرمما ترك آباؤهفرحل إلى أتينا مدفوعاً برقيها وازدهارها. وانتظم فى مدرسة أفلاطون الذى كان حينذاك بعيداً عن أتينا.

مكث أرسطو يطلب العلم فى مدرسة أفلاطون عشرين سنةحتى قضى معلمه.ويتبينمن ذلك أن ماقيل من وجودخلاف بينالطالبومعلمه،لاسند له، بلمن اختلاق الناس ليرمى أرسطو بنكران الجميلوعدم الاحترام لمعلمه، معأن أفلاطون قد وصف أرسطو : بالمجتهد وألمعى المدرسة.

لم يشبع أرسطو من مادة أفلاطون أثناء الطلب، فدرس المذاهب الأخرى قوية الأنتشار وساطعة الظهور. وأظهر استقلالهالفكرىقبلوفاة معلمه بزمن طويل، وليس ببعيد ـ وهو عضو فى المدرسة ـ أن كانت له حلقة يدرس فيها ويقرىء الطلبة. وبدأ يكتب، ولئن كانت كتاباته الأولى أفلاطونية الشكل والموضوع إلا إنها لم تخل من اعتراض على نظريات وآراء أستاذه وعقيدة أبدية العالم. ولم يقصد من اعتراضه الحط من كرامة معلمه ولكن هى الغيرة على العلم وحب الحقيقة

وأيد هذا التكريم بقوله : إن الخبيث لا يحق له أن يمدح أفلاطون وأنه الرجل الذى أثبت بحياته ومذهبه : أن الأنسان الطيّب هو السعيد فى هذه الدنيا .

إن موت أفلاطون فتح لأرسطو باب عصر جديد . وبعد أن دار دورة فى البلاد عاد إلى أتينا وفتح مدرسة البيان ، ثم بعد قليل استدعاه فلبس وعهد إليه تأديب ولده الأسكندر ولم يبلغ الأربعة عشرة سنة . فلبث فى البلاط المقدونى إلى أن قام الأسكندر لعمل فتوحاته فى آسيا عام ٣٣٤ ق م . فعاد إلى أتينا وفتح مدرسة المشّائين وقد سميت بهذا الاسم لأن أرسطو كان يتريض ويخرج إلى المتنزهات مع تلاميذه وهو يحادثهم فى العلم والحكمة .

ولقد كان أرسطو كشكولا يدرس ويحاضر ، وفى كل مساء يدرس دروسا عامة لكل من يحضر ، فى البيان ، والقضايا والقياس ، والسياسة . وكانت مدرسته على صورة مدرسة أفلاطون ، عبارة عن مجمع من إخوان أحباء شركاء يجتمعون فيه فى أيام معلومات على مائدة مشتركة .

أرسطو حباه الله بسطة فى العلم وبسطة فى المال . رجل كثير ماله وغزير علمه ، فاستطاع أن يستقصى ويبحث المسائل التى كانت تشغل الجمهور ، ويجمع المتفرق من الكتب ، وجعل منها مكتبة غنية بامهات الكتب .

وبعد موت الأسكندر أصبحت حياته فى خطر ، واتهموه بالألحاد واضطهد ، فأبق من أتينا حتى لا يجرم الأتينيون مرتين

Chalcis على الحكمة والعلم. فلجأ إلى كلثيس وتوفى بمرض فى صيف عام ٣٢٢ وعمره اثنتان وستون سنة .

لقد كان أرسطو عظيم الخلق ، طيب القلب حتى مع أعدائه عبقريا عالميا ، مجدداً ومجتهداً ، لا يتعب ومجداً مكداً لا يلغب ، ذا رأى حصيف رصين لا تعيبه وثبة كوثبة أفلاطون . فاذا وجد الحقيقة إعتبر كل مالا علاقة بها وهميا ، ولكنه ليس من ديدنه الاختبار . ففى المحسوس يبحث عن البين والظاهر ، وفى كل الأشياء يتوسط الأعتدال .

كان أرسطو عظيما فى ضآلة جسم ، مطاولا للحكماء فى قصر طول . ذا عينين صغيرتين نقادتين ، وشفة ذات ابتسامة تهكم قاتل .

لقد تزوج هذا العقل الكبير مرتين ، فخلف من إمرأته الأولى بنتاً ومن الثانية غلاماً ، وكان يحب أهله وأسرته ويبرهم أجمعين . ذلك أرسطو قولا وجيزاً . وأما ماترك من أثر فى العلم ، فرسائل بحث فيها علوماً شتى : تقسيم العلوم والتاريخ والمنطق والبيان والشعر وما بعد الطبيعة والطبيعة والرياضيات والفلك والحوادث الجوية وحياة الحيوان والنبات وعلم النفس والأقتصاد والسياسة . ولعلى تارك بعض ماعلم وكتب .

بطرس الكورتونى (Pierre de Cortone) نقاش ومصور ومهندس مبانى ـ إيطالى ولد بكرتون عام ١٥٩٦ وتوفى عام ١٦٦٩ ، كان له ذوق خاص وجرأة فى تصويره . وهو من بقية المتفننين العظام الأيطاليين . مفن خصبٌ ولو أنه غير عميق الخيال : غير أنه فنان بنصاعة تلوينه ودقة

توفيق الأضواء . لفت إليه الأنظار بطلاء كنيسة « المخلص المقدس » . فوكل إليه « أوربان السابع » نقش قبة الردهة الكبرى فى سراى بربرينى ، فاعتبرت أعجب ماصنع فى فن النقش فى القرن السابع عشر . ولما انتهى العمل فيها عام ١٦٣٠ ، وكل إليه أيضاً زخرفة المقاصير المنشأة فى سراى « بتى » وكذلك كافه « طاهر العاشر » بصنع سقف ردهة سراى « بانفيلى » فصور فيها تاريخاً مشهوراً .

Urbain

Pitti

innocent Panfili

إن هذا لم يك كل ماصنع بطرس ، بل صور ألواحاً كثيرة ويوجد من ألواحه فى متحف اللوفر عشرة . وأما فى المبانى فقد شاد أروقة ووجهات وأبواب لأماكن ذات شأن عظيم وقد أدار مدرسة فى الفن .

أوزريس آسار Osiris معبود مصرى فرعونى قديم . كانت عبادته منتشرة فى أقاليم عدة من مصر . وهو إله النيل أى الخصب ويقابله ست أو (تيفون) إله الصحراء أى الجدب .

تولد أوزيريس من ذاته ، وتزوج (بازيس) معبودة أخرى كما أن تيفون تزوج بنفتيس ، وكانوا جميعا إخوة ولدوا من اجتماع المعبود « سيبو » : الأرض بالأله (نو) السماء . فأزوريس ابن السماء والأرض ، كان أول معبود ظهر بعد الخلق . وكان المصريون يعتقدون أنه الممدن والفاتح ، وأول من شرع لهم ، وعلمهم القراءة والكتابة ، وأنه المؤسس لطيبة ، كما علمهم الفنون ، وهذبهم بالموسيقى التى كان يرى فيها مهذبا للنفس ، ودعوه بأله الموسيقى ، وكون له فرقة من أهل الموسيقيات ،

كلها من بنات ماهرات فى فروع هذا الفن الجميل ، وقد كُن سبعا يعزفن وعلى رأسهن رئيسهن ومنظم لعبهن ولده (هورس) إله النظام والتوافق والانسجام . ومن هؤلاء البنات التى جعلوها لأوزريس أخذ الأغريق ، موسياتهم ، السبع ربات الفنون العقلية .

ولا نترك ترجمة أوزيريس حتى نوفها حقها ونرفع بعض الشك عمن يقول بأن ألوهية أوزيريس كانت دينية ولها ارتباط حقيقى بالعبادة . فأنصت واسمع .

قدسبق أن قدمنا أن أوزيريس ابن السماء والأرض ، فبعد أن أتم عمله تآمر به تيفون وألقاه فى النيل بعد أن قطع جسمه إربا . فبحثت زوجه على أشلائه فجمعتها ؛ وبمعاونة ـ (أتوبيس) وتوت وأختها نفتيس وابنها هورس ـ سوت بدنه فتمكن أوزيريس من التمتع بوجود جديد ، وصار أول مائت فارقته الحياة فوجدها فى عالم آخر وتنعم بالخلود .

وكان المصريون يمجدونه . ولا يلغون بذكر اسمه . ولا يجعلونه عرضة فى أحاديثهم ، ويدعونه بأله الخير .

وكما أنه إله الحياة فقد كان أيضا إله الموتى . صفة اتخذها من الخلود . يعاقب المسىء . ويثيب المحسن . ويجازى كلا بعمله بقضاء يسطر حكمه « توت » إله آخر .

ولهذه المناسبة يحسن أن نذكر مايستبين منه أن هذه النصوص والأساطير لم تكن دينية إنما هى رموز للعلم . وعن طريق تفهمها على الوجه الصحيح . يصل الأنسان إلى معرفة

الحقيقة . وتعرف أوجه الحكمة فى كل شىء ماديا كان أو روحيا ومعرفة حقيقة الوجود وخالقه جل وعلا .

وإليك نظرة فى حقيقة أوزيريس وبعض الآلهة الأخرى التى تمت إليه أو هو يمت إليها بصلة مباشرة قريبة . ومن هذه النظرة تعرف أن أسماء هؤلاء المعبودات ليس إلا اصطلاحات لغوية ، إذا ردت إلى أصلها اللغوى . دلت على معان ومقاصد علمية وبعيدة كل البعد عن الدين ،ومنها تقف على حقيقة ماظنوه ديانة وهو ليس منها فى شىء .

وليلاحظ أن مانورده فى هذا هو ملخص نصوص بعض الأساطير المنقورة فى الصلد والمحفورة فى الصخر . فاسمع المسطور فى الجلمد المحفور .

١ ـ أوزيريس ابن الأله (تم) أو (تيمو) والكلمتان معناهما الكمال . ألا ترى أنها متحدة فى اللفظ والمعنى لتم وتمام العربيتين ومنها سلخ اليونان لفظة أتوم ونقلتها جميع اللغات الأوروبية بمعنى الذرة أو الجوهر . ومعناها فى المصرية شمس الذرة أو الفلك . والذرة مثال الكمال خلقاً ، كأنها شمس حولها جو تسبح فيه ، وسيارات يسرى فيها الفيض وكل مايلزم الوحدة الفلكية الصغرى ، لتكون على مثال الكبرى فهى حقيقة إذن بأن تسمى تم أو تمام وقد أطلقها المصريون على هذا المعنى وعلى شمس الذرة .

وإذا ماقال علماء المصريين بأن أوزيريس تولد من ذاته أدركت أنه من الذرة وجد ، وأن أباه يمنحه مايقيم به كيانه

فيعيش ولا يفنى ولا يتلف ، ألا ترى معى أن هذا النص يشعر بأن المقصود هى مادة الوجود .

٢ ـ إن أوزيريس اجتمع بايزيس فولدت هورس فاذا علم بأن إيزيس يقصد بها البعث الحى أو الحياة ويقصد بهورس التجديد « إعادة الشىء إلى ما كان عليه » أمكن القول إن المعنى العلمى المقصودمن هذا الثالوث : المادة ـ البعث الحىّ أو الحياة ـ إعادة الشىء إلى ما كان عليه ـ هو المادة والقوة والتجديد

٣ ـ إن رع هو المعبود الأكبر . وسنتركه يتكلم كما ورد فى الأسطورة : أنا رع الذى نشأ منه الآلهة ، وإله النور ثم خلقت العام والزمن ، ولكنروحى أقدم منهما ـ إنها روح شو « الجو » وروح خنيمو « الخلق » وروح نو «مادة الجو والأثير أو كهرباءالجو » وروح أوزيريس المادة والخصب ، وروح الضوء والأبصار ، وروح كل ثعبان مقدس ، وروح أبيب وهى روح رع التى تغمر الدنيا بأسرها . فاذا تأملت فى هذا وجدت أن المقصود منه كله الفيض الشمسى ، روح كل مظاهر الوجود وأصلها الذى نشأ منه « نو » « ورع» فيريد أن يقرر أن روحه هى مادة الجو ومادة الشمس .

ويتحقق أن هذه الروح السارية والقائمة فى كل شىء ، بل وروح الشمس أيضا هو الفيض الشمسى : قل هو الأثير أو كهرباء الملأ العالمى الشامل ، مصدر كل شىء وحقيقة كل شىء .

فيستخلص مما تقدم أن المعنى الحقيقى لأوزيريس المادة إطلاقا . وإيزيس الحياة أو البعث ، وهورس التجديد ، ورع

الشمس ويكتفى بهذا البيان . وقس على ماتقدم كل أسماء المعبودات والألوهيات .

أغسطس
Auguste

كلمة أغسطس لقب شرف منحه مجلس الشيوخ لأول مرة إلى (أوكتاف)عام ٢٨ ق . م . ثم صار يلقب به كل أمبراطور . أتى من بعده عصر كان يفرق فيه بين لقب أغسطس وقيصر . فأغسطس كان لقب من يتولى الحكم فعلا ، وقيصر لأولياء العهد .

فأغسطس كان يدعى باوكتاف ، حتى تولى أمر الحكم واستوى على العرش ، وهو أول أمبراطور رومانى . وهو ابن (أوكتافيوس) عضو مجلس الشيوخ . وابن أخت قيصر . ولد بروما عام ٦٣ ق . م . وتوفى أبوه وهو طفل فتبناه خاله ، ولكن لم تطل كفالته ، إذ قتل قيصر ، ولم يستتم أوكتاف التاسعة عشرة سنة من عمره ، وكان يومئذ يتعلم فى بلاد الأغريق ، فعاد مسرعا ليتسلم تراث قيصر . وجاهد « أنطونيو » لرد جزء مما اختلسه من مال متبنيه ، وتعقبه ليناجزه . ولما أحسا بأنه يراد بهما سوءا ليقتتلا فيذهب الاثنان ـ اصطلحا . وزوج أوكتاف أنطونيو من أخته أوكتافيا ، ثم عقدا مع « لبدوس » حلفا عام ٤٣ ق . م .

ولما استقر لهما الأمر بدآ باهدار دم خصومهما ، فأجهزا عليهم . ثم مالا ميلة كبيرة على فلول حزب الجمهورية . فتغلبا عليهم وخلا لهما الجو ، إلا من ثالثهم ، فتآمرا عليه وأبعداه عن السلطان لضعفه وقلة أنصاره ، واقتسما الملك ، فكانت الدولة الغربية نصيب أوكتاف ، والدولة الشرقية نصيب أنطونيو ، فرآها أنطونيو

قسمة غير عادلة ، فنازع حليفه . ورغم المجهود فى اتقاء الخلاف المؤدى إلى التقاتل ـ قامت الحرب بينهما ، فغلب أوكتاف أنطونيو فى البحر ، فى واقعة أكسيوم الحاسمة ، ففر المغلوب ومعه كليوبترا إلى مصر . فتعقبهما الغالب بفلكه ، ففتح الأسكندرية وأكره منازعه على الانتحار ؛ ونزع السلطان من مصر ، وجعلها تابعة لملك روما . وفى عام ٢٨ ق . م ، عاد إلى عاصمة ملكه ، فلقبه موطنوه بالأمبراطور ، ومنحه مجلس الشيوخ لقب أغسطس ، فجلس يدبر الأمر ، وأصلح ، وسن سننا طيبة . وقد قيل إنه زهد فى الملك آخر أيامه . وهم أن يتنازل عنه ، ولكنه عدل عن عزمه ، مستمعاً لنصيحة ناصح أمين . ثم توفى عام ١٤ م بالغاً من العمر سبعاً وسبعين سنة .

إن أغسطس عاهل يضع السيف فى موضعه ، إلى القسوة ، إذا دعته الضرورة ، ويضع الندى فى محله ، إلى الرحمة الواسعة ، والحلم العظيم . كان مثالا للمليك الصالح ومحباً للآداب .

تيبر
Tibère

أمبراطور رومانى . ولد عام ٤١ ق . م وتوفى عام ٣٧ م . وهو ابن (كلوديوس) وأمه « ليفى » بانت عن أبيه ، فتزوجها « أوكتاف » فلبث تيبر وأخوه فى بيت أبيه . وبعد وفاته انضم إلى أمه فى دار مؤسس الأمبراطورية ، فعلا سريعا فى مراقى الشرف ، ثم أرسله أغسطس « أوكتاف » فى مهمة حربية بأرمنيا ، فقام بالواجب فيها . أمره أغسطس أن يطلق امرأته الأولى بنت « أجريبا » وزوّجه ابنته « جولى » أرملة « أجريبا » وقد وكل حموه إليه إخضاع الثائرين عليه فى مملكته

فأرغمهم بعد أن انتصر عليهم فى معارك أعلت ذكره. كما انتصر على الجرمان ، فأشركه أغسطس فى السلطان. ولكن بقى حز فى قلبه ، من زوج ليفى وابنها ، فاعتزل فى جزيرة رودس ، ومكث بها سبع سنين ، ثم عاد إلى روما بعد وفاة حفيدى أغسطس ، فتبناه. وأعطاه سلطانا واسعا. ولما توفى أغسطس صعد إلى العرش وأصبح ولى الأمر .

لقد كان والد تيبر حائزاً شرف النصر مرتين . وهو أعظم وأجل بفضله . وتيبر كان ذا خلق عظيم ، ولسان فصيح ذرب ساحر . ظهرت نجابته وهو صبى . فكان جديرا بمدرسة « مآل الآمال » لفضله ، لا لأصله . ولما اشتعلت الحرب فى إفريقة فاق أقرانه وأمثاله فى الطاعة والمثابرة ، فذاع صيته حتى صار الفيصل فى الخصومات ، والحكم فى إصلاح ذات البين بين المقاتلين والعاصين والثائرين .

ومما يجدر ذكره عن فصاحته وعدالته أنه استصدر قانونا يمنح طبقة الجند والشعب أرضا ، لزرعها وتقتات منها ، فتألب عليه الموسرون ، وعلى رأسهم « أوكتاف » ليمنعوا هذه الرحمة والعمل الطيب . فخطب القوم ، وقال : إن الضوارى فى الجبال والأدغال لها أجحارها وأوكارها تسكن إليها ، وأولئك الرومان الشجعان الذين يقاتلون فى سبيل روما ، ويعرضون أنفسهم للتهلكة فى الذود عنها ، لا يملكون إلا النور والهواء اللذين لا يستطيع أحد أن يحرمهم إياهما ، وليس لهم شىء آخر فى الدنيا ، بلا مأوى ولا ملجأ ، يضربون فى الأرض على غير هدى

حاملين نساءهم وذراريهم . وقادتهم يخادعونهم ويغشونهم إذا
حمى وطيس الحرب ، ويستحثونهم بالذود عن الحوض ، وقبور
الأجداد ومعبوداتهم ، ليدفعوا العدو ، مع أن هؤلاء الرجال
الأبطال لا يوجد واحد من بينهم يعرف تراث أبيه ولا داره ،
ولا قبور أجداده ، فهم يقاتلون ليزيدوا فى أموال الغير ، ويقتلون
لينعم ذو اليسار . وخَلْقُ الله - فى بقاع الأرض - يدعونهم أسياد
العالم ، وهم لا يملكون قيد أنملة فى بلادهم ، وهم ملاكها . وهى ملكهم .
ولقد كان جزاء هذا الرجل العظيم أن قتل هو وأنصاره شر
قتلة ، إذ قُتلوا جميعا برمية حجر ، أو ضربة هراوة ، ولم ينج بدنه
من أعتداء المعتدين . إذ منعوا أهله من أخذه ودفنه، وألقوه فى نهر
التيبر هو وجثث الأنصار ، وهكذا يكون جزاء الأبرار من الأشرار .

كوست
Coste

ويدعى « حنا فرنسيس » طبيب فرنسى . ولد عام ١٧٤١ م
وتوفى عام ١٨١٩ . تعين كبير أطباء الجيش الفرنسى الذى أرسل
إلى أمريكا ، لتحريرها واستقلالها . وعين حاكم فرسايل من
سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٧٩٢ ، وقام بواجبه العظيم الخطر فى ذلك
العهد ، ثم شغل وظيفة رئيس أطباء « الأنفليد » سنة ١٧٩٦ . ثم
رئيس أطباء جند الحدود والجيش الكبير . وقد كتب مؤلفات
كثيرة ، منها بحث فى النبات ، وكتاب فى ضباط القمة فى الجيش ،
وآخر فى نظام التعليم فى المصحات والمستشفيات العسكرية .

تيودوز الكبير
Le Grand Théodose

أمبراطور رومانى ولد بأسبانيا عام ٣٤٦ م ، وهو ابن
كونت ؛ قتله حاكم زمانه ، لريبة وشكوك ، مع أنه له أياد
عليه . وقبل أن يعتلى كرسى الملك اشتهر بصد الغارات على

ملك روما الغربى ، وبنصره على « الوزيجوت » ثم نازل بعد ذلك أمراء من الرومان ، فظفر بهم وانتهى أن خلا له الطريق ، وصار أمبراطورا بعد موقعة « أكيلى » وتوفى بعدها بقليل ، وترك ابنين تولى أحدهما المملكة الغربية ، والآخر المملكة الشرقية .

وكان تيودوز عظيما فى السلام ، كما كان عظيما فى الحرب وملكا حسن الأدارة ؛ أفرغ مجهوده ، ليؤخر اضمحلال المملكة الذى بدأ مع حكم ولديه .

شرلمان
Charlemagne
Bepin-Le Bref

ويدعى كذلك بشارل الكبير ملك فرنسا وأمبراطور الغرب . هو الابن الثانى « لبيان لبريف » ولد سنة ٧٤٢ م فى بفاريا العليا ، وبعد وفاة أبيه سنة ٧٦٨ ولى أمر الملك ، فاقتسم المملكة بينه وبين أخيه الصغير « كارلومان » . ثم استقل بالملك بعد وفاته سنة ٧٧١ . أخضع كل من شق عصا الطاعة من الشعوب التى تحت سلطانه ، وبدأ يوسع فتوحاته فى ساكس ولومبارديا وإسبانيا ، وانتصر عليهم جميعا ، كل فى دوره ، وأباد ملك « الأفار » ففى سنة ٨٠٠ توّجه « ليون الثالث » أمبراطورا على الغرب . وفى سنة ٨١٣ أشرك ولده لويز فى السلطان ، وتوفى سنة ٨١٤ . وترك له ملكا ضخما ، يمتد إلى بحر الشمال وإلى المحيط الأطلسى وإلى « نهر » الأبر باسبانيا « وفولتورن » بإيطاليا وساكس ونهر « الأودر » . إن هذا العاهل العظيم قد استحق اللقب الكبير « أمبراطور » لا لفتوحاته واتساع مملكته فحسب ، بل كان جديرا به بما وضع من الأسس للعلم والترتيب والنظام للحكم . وقدسموه مجدد الآداب ، واجتذب إليه بفضل

Les Avars
Leon III
Vulturne
Oder

سماحته أعظم فحول القلم فى أوربا . وضم إلى قصره أول مجمع علمى فى مملكة الجول ، وكان عضوا فيه ، وأسس مدارس لتعليم اللغة والنحو والحساب واللاهوت والآداب . وإليه يرجع تقدم بحرية فرنسا . وأنشأ المرافئ والثغور . وقد خطت الزراعة فى عهده خطوات كبيرة ، وكان رئيس جامعة باريس ، وقد أصبح خالدا بما سن من سنن وشرائع حكيمة ، ودونها بمواد . وقد ترك من بعده مباحث فى الآداب وغيرها .

كرشتون
Crichton

حسيب ذو أصل رفيع من بلاد أكوسيا، ولد سنة ١٥٦٠ . ذهب إلى باريس وهو فى سن الثانية والعشرين ، واتخذ له بمدرسة « النفار » (Navares) مجلسا علنيا يحاور كل من يريد أن يناقشه فى النثر والشعر باثنتى عشرة لغة : العبرية والعربية والأغريقية واللاتينية والأسبانيولية والفرنسية وغيرها ، وفى أى علم من العلوم . وقد نزل فى ميدان المسابقة فى اللوفر . وتختم بخاتم السبق والفوز خمس عشرة مرة متتالية ، ثم رحل إلى إيطاليا وأقام فى « مانتو » (Mantoue) فوكل إليه تربية « فانسان » أمير من أمراء « جونزاج » (Gonzague) وقضى عليه من طعنة سيف أصابته خطأ من يد تلميذه فى يوم عيد المرافع .

فانسانزو
Vincenzo Viviani

رياضى فريد ، ولد بفلورنسا عام ١٦٢٢ . وهو تلميذ (جاليليه) و (طوريشلى) ذاع صيته فى أنحاء أوربا من صباه . ولقد خصه لويز الرابع عشر بتحف وهدايا ، وقرره مجمع العلوم بباريس عضواً فيه من المشتركين . وقد عينه (فرديناں دو مدسيس) مهندسه الأول ورياضيه الخاص ،

وتوفى عام ١٧٠٣ بفلورنسا، وترك من بعده مؤلفات عدة .

فيثاغوراس Pythagore فيلسوف إغريقى . ولد بجزيرة ساموس عام ٥٨٤ ق . م وعلى قول آخرين عام ٦٠٨ . طلب العلم فى وطنه، وتخرج على « فرسيد » . وقد ضرب فى الأرض وراء العلم . ولبث فى مصر زمنا، ووقف على أسرار (باكوس) و« أورفى » . ثم رحل إلى إيطاليا، وأقام « بكروتون »، وأسس بها مدرسة جمعت كثيرا من الطلبة وجعلها كمجمع، أو مؤتمر ،لعلماء الآداب والسياسة، وما كان يُقبل فيها أحد إلا بعد حضوره العلم مدة طويلة ، واختباره وتجربته فى أمور كثيرة، منها الصمت فى بضع سنين .

وكان مذهبه مذهب التقشف، ينهى عن أكل لحم الحيوان؛ قد تملك فيثاغوراس قياد تلاميذه ؛ فلا يخرج واحد منهم عن إشارته ، لهم فيه اعتقاد أعمى ؛ فاذا سألهم سائل علة معتقد ، أو قاعدة أجابوا : هكذا قال الأستاذ .

لا تعرف تفاصيل موته، فهم يظنون أنه هلك فى فتنة طاحت بكثير من الفيثاغوريين خوفا من سلطتهم وقوتهم ، أشعلها طغاة إيطاليا، وكانت وفاته ـ كمولده ـ مختلفا فى تاريخها ، إذ البعض يقول فى عام ٥٠٤ ق . م ، والبعض يقول فى عام ٥٠٠ وآخرون يقولون عام ٤٨٩ .

فيثاغوراس ، اتخذ لقب محب الحكمة بدل لقب العاقل، الذى تلقب به من سبقه من أمثاله . أحاط بعلوم زمانه ، وتمكن من العلوم الرياضية والفلك والموسيقى، واستنبط برهان مربع وتر الزاوية

القائمة . وكان يقول بأن الأعداد أصل الأشياء ، والأعداد أصلها الوحدة ، وأن الأعداد العشرة الأولى لها فضائل عظيمة ، ولا سيما عدد عشرة ، وأن الله الوحدة المطلقة الأولية ، وحدة الوحدات . وأن الروح عدد يتحرك من ذاته ، وأن العالم كلٌ منسجم منظم . الشمس مركزه ، والأجرام السماوية الأخرى تتحرك حولها بنظام موسيقى إلهى . والخير هو الوحدة ، والشر هو التنوع ، والعدل هو المساواة .

فيثاغوراس كان يدرس نظرية تقمص الأرواح ، وهذا كان السبب فى تحريمه أكل الحيوان . وكان يدعى بأن روح أحد الجبابرة قد تقمصت فيه . وقد اختلف الناس فى آراء فيثاغوراس ، وصحة نسبتها إليه ، لأنه لم يترك كتابا مسطورا .

ويوجد بعض حكم أدبية مكتوبة معروفة باسم الشعر المذهب ، ولكن يظهر أنها فعلت بعد عصره .

لويز التاسع
Louis IX

هو ابن لويز الثامن ، ولد عام ١٢١٥ وملك صبيا عام ١٢٢٦ ، فعنيت بتربيته أمه بلانش عناية عظيمة ، وهى كانت تحكم نيابة عنه مدة قصره . ولما بلغ رشده وتملك عمل على نشر العدل فى المملكة ، وتوخى الاقتصاد فى الأدارة . ولم يمض قليل من الزمن حتى قاتل أمراء الأقطاعات الذين ثاروا عليه ، ثم ملك إنكلترا ، فأخضع أكثر الأمراء ، وعفى عما سلف ، وعقد هدنة مع ملك إنكلترا لمدة خمس سنين . وحصل أنه مرض مرضاً شديداً ، فنذر إن شفى حارب المسلمين فى فلسطين ، فكتبت له السلامة من مرضه ، فأوفى بنذره ، وأبحر إلى الشرق ، وأمضى الشتاء فى جزيرة قبرص ،

ثم اعتدى على مصر، ودخل ثغر دمياط سنة ١٢٤٩ ، ولكنه لقى مقاومة شديدة ، من المصريين فردوه ، وانتصروا عليه فى واقعة المنصورة ، وأخذ أسيراً هو وأخواه . وفك أسره كرماً وحلماً، على ألا يعود إلى مصر ، ولا يشرع عليها سيفاً ، فذهب إلى فلسطين ، ولبث هنالك أربع سنوات ، رغم التماس أمه التى كانت قائمة مقامه فى الحكم ، ولم يكسب من اعتدائه على فلسطين شيئاً كبيراً . ولما عاد إلى وطنه بعد وفاة أمه ، اجتهد وانكب على إصلاح بلاده . وكان يعدل بنفسه وأصدر قوانين عادلة ، وأبطل الكفاح القضائى ، وأطفأ الحروب الأهلية ، وشرع فى تأسيس السربون . والتاريخ لم يلاحظ عليه فى هذه الفترة الأخيرة من حياته إلا قسوته التى استعملها مع بعض قومه .

أبحر لويز مرة ثانية لمقاتلة المسلمين . فنزل فى تونس ، ونال بعض النصر ولم يكتب الله له السلامة فى هذا الاعتداء ، فهلك جيشه بالطاعون ، ومات هو به أيضاً .

إن الصفة التى عرف بها أكثر من غيرها هى إقامة القسط وتوزيع العدل . ولقد كان يحكمه ذوو التيجان فى خصوماتهم . ففصل بين البابا التاسع وفردريك الثانى ، كما أنه سوى علاقة هانرى الثالث ملك الانكليز وأشراف مملكته . وكانت أظهر خلاته الصلاح والتقوى ، ولذا سموه بالبار ، أو المقدس ، وتمكن فى فرنسا بسلطانه الأدبى الذى حاط به عرشه .

لويز الرابع عشر
Louis XIV

هو لويز الكبير، أبوه لويز الثالث عشر، وأمه حنة الأوسترية، ولد عام ١٦٣٨ . نودى باسمه ملكا بعد وفاة أبيه، وكان عمره خمس سنوات، فكفلته أمه . التى استوزرت « مازران » وتملك ٧٢ سنة . ولما بلغ لويز الثامنة عشرة، وتولى الملك بنفسه، بقى القابض على الأمر فعلا . وصاحب الكلمة التى لا ترد مدة أربع وخمسين سنة، ولم يماثله فى طول عهده أحدٌ وإنما يقاربه فرنسوا جوزيف أمبراطور النمسا والمجر الذى توفى أثناء الحرب العظمى، وتولى ٦٨ سنة، والمستنصر الفاطمى فقد حكم مصر ستين سنة.

لويز الرابع عشر هو صاحب الكلمة الكبيرة « الدولة هى أنا » التى قالها عندما دانت له الرقاب، واعتقد فى نفسه أنه ظل الله فى أرضه ونفحه من روحه، وأفاض عليه من علمه، وجعله خليفة فى أرضه . ولقد قدر له التوفيق فى قوّاده ووزرائه، فزها عصره وازدان باعظم القواد وأدهى الوزراء وأكتب الكتاب وأشعر الشعراء وأمهر المفنين فى الفنون الجميلة:

وَمن مثله و « كولبير » أمين خزائنه ومدبر أموال الدولة . ومن يقارعه ؟ والأمير « كوندى » و « تورين » و « فوبان » قوّاد جنده ومحكّمو ثغوره ومشيدو حصونه . ومن يدانيه؟ و « راسين » و « بوالو » و « كورنيل » و « موليير » و « لافونتين » من شعرائه و « بوسويه » و « فنيلون » و « فليشيه » من أئمة اللغة الذين يقتدى بهم . ومن يطاوله ؟ و « بسكال » من فلاسفة زمانه ومن مثل هؤلاء آخرون كثيرون يفخر بهم الحاكم ويطول بهم المحكوم

ولقد يحسب له جمعه صفات الملك : علو النفس، الكرم والثبات والبسالة وصباحة وجلال فى الوجه ، ويحسب عليه أنه كثير المغامرة فى الحروب . نخور مترف متناهى اللهو ؛ وكان له محبوبات أشهرهن ثلاث ؛ وأشهر الثلاث غانية « مانتنون » كما يعدون عليه اضطهاده لرجال المذهب البروتستنتى ، وتدخله فى المشاحنات الدينية ، حتى أنه أنزل غضبه على من لا يتبع مذهبه . وكان يقول : الناس على دين ملوكهم ، فسبحان من حاز الكمال .

Mantenon

بدمون Baudemont فيلسوف بحث كثيرا فى الأنسان وطبائعه ، وله أراء مسطورة فى ذلك ؛ وقد وقف حياته لبحث الخليقة .

وهو فرنسى الأصل .

سمسون Samson رجل عظيم من فلاسفة عصره ، ومن المسائل التى كان لها أثر فى عقول الناس بحثه فى نظرية حفظ النوع، وتأثيرها فى الأخلاق .

قلاديسلاس Cladislus ملك من أشهر ملوك بولونيا ، وهو على ما به من صفات الملك وعظمته والجراءة ـ كان يفزع من رونق التفاح .

داسيه Dacier سيدة فرنسية مشهورة بحبها البحث فى التاريخ القديم ، وكانت مغرمة بآثار الأغريق القدماء ، ومما يحكى عنها أنها دعت بعض مشاهير علماء اليونان ، وأرادت أن تظهر لهم محبتها لبلادهم وعاداتهم فقدمت لهم أطعمة على طراز طعام الشباب الأغريقى ولا سيما طعام الاسبارتيين منهم ، فكان ضيفانها يأكلون ذلك الطعام القديم الذى تمجه النفس مجًّا أنساهم إكرامها لهم ، وحفاوتها بهم ، ولم تلاحظ تغيير الزمان والظرف ، وانتقال حال التربية .

فافوريتى Favoriti

شاعر إيطالى كانت شهرته بين شعراء إيطاليا أنه كان دقيق الوصف رقيق الشعور يكاد وصفه الخيالى يجسم لك ما يتخيله ، كأنك تراه . أو تمسه بيدك . ويظهر أن به لُوثَةً جعلت أعصابه تتأثر من الروائح الذكية . وعلى الأخص رائحة الورد .

منيه Magne

طبيب شهير فرنسى ، قد كان حجة فى بحثه الفلسفى الطبى الذى قال فيه : إن القرابة تعمل فى الأنسان أكثر مما فى الحيوان ، لأسباب شتى . أهمها قوة الأدراك وتأثير الأفعال والأمور على المجموع العصبى ، وقد قدم إلى مجمع الأطباء مرة مذكرات يؤيد رأيه فى ذلك ، فكانت أساسا للتوسع فى هذه النظرية ، وتحقيقها .



